التلال

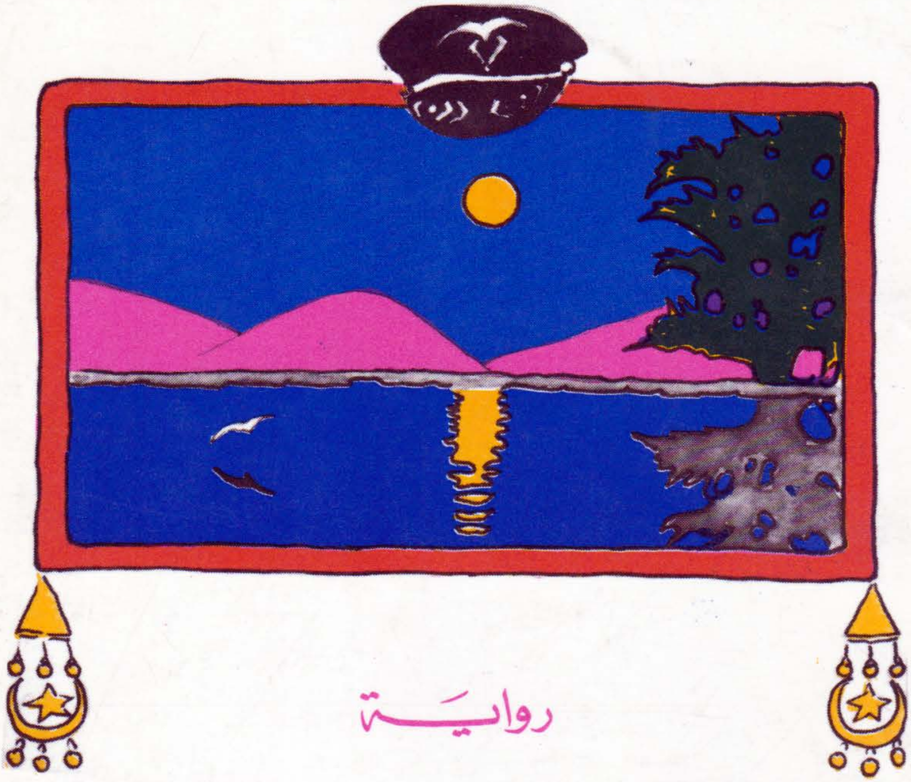

رواية

هاني الراهب

دار الآداب

هاني الراهب

التلال

رواية اولى

١ ـ فيضة ٢ ـ البلاغ رقم ١

دار الآداب ـ بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى
١٩٨٨

١ - فيضة

- ١ -

الآن تبدو تلك الأيام ذوائب ليل طويل، وتبدو المدينة وطناً أنشأه الكرى في الخيال. لقد تغيّرت الصورة. تشعّثت، تمزّقت، أو تلاشت إلى الأبد. وانجدل ذلك التاريخ بالهول.

أين هي المدينة؟ قبل الحرب العالمية الأخيرة، كانت مجموعة حارات صغيرة تلتفّ بينها قنوات النهر الكبير وحولها، ثم تغادرها إلى مدينة أخرى، وأخرى. كانت استواء مطلقاً، مضجراً، لولا هذه التلال الناتئة المروّسة بالشجر، عشرة كيلومترات باتجاه مغرب الشمس.

التلال. بعضها يعلو مئتي متر، وخمسمئة. وبعضها مجرّد نهدة عن سطح الأرض. إنها الآن في قلب المدينة، حلية جغرافية وتنويع جماليّ فريد. حتى التلّة العليا تواشجت مع خاصرة بيوت المترفين. ويتساءل المرء: كيف لنهر لا يحمل غير الطمي، أن يصنع هذه الانبثاقات العالية؟! كيف استطاعت الطبيعة أن تنهض هنا وهي بلا عظام؟!

نعم ثمة عظام. لكنها بشرية. والتلال أيضاً بشرية: ليس فيها من صنع الطبيعة غير الأكفان الترابية التي غطّى النهر بها حقبة بعد حقبة من حياة البشر.

إن تاريخنا القديم هناك - تحت جديد البيوت والأبنية الحكومية والإسفلت والقصور والسجون. وبعيد جداً عن الواقع أن تنكشف في المستقبل المنظور أسرار ذلك التاريخ الدفين. بل لعلّه صار مستحيلاً، مذ اقتُلعت غابات الشجر وزُرعت مكانها غابات الإسمنت. وسيكون أكثر استحالة يوم تهبط الغابات الحديثة كما هبط غيرها، ويكون لدى النهر ما يكفي من التراب ليهيله على ضريحها الأبدي. لقد فعل ذلك من قبل مع المدافن والقصور القديمة.

معظم هذا التاريخ مرشوش الآن على ذاكرة العالم وفي متاحفه. لم يبق منه إلا القليل الذي رأيناه أطفالاً - القليل الغائب عن البصر والبصيرة، الذي يعيشه فقط ورثته، الغائبون هم أيضاً عن البصر والبصيرة. لكن ما بقي هو الأهمّ. إنه التاريخ السرّيّ الذي تشاء الكتب والمخافر أن تنساه، الذي كلّما تقادم اقترب من اللغز والهلوسة والمستحيل.

لكن الحلم والخيال يخترقان طبقاته المتدهرنة عبر ممرات سرّيّة. يصلان إلى حيث رقدت بصمت بقايا أول إنسان ارتفعت قائمتاه الأماميتان وصارتا يدين وذراعين، يريدان أن يعرفا الخطوات التي قطعها في طريقه من الهمجيّة إلى المدنيّة، فيتابعان تلك العظام صعداً نحو القصور المشيدة في رؤوس التلال.

لقد مدَّ عينيه إلى الأعلى والأمام. أحسَّ بما يشبه دوخة الظفر، وارتعد وعيه الصغير أمام وفرة الحياة والطبيعة. استطلع المكان وتساءل. ركض هنا وركض هناك. حملته قوة غامضة. وتوقّف: لن ينكبّ مرّة أخرى سعياً وراء شيء.

يومها تلقّت حواسه أوّل منشور سرّيّ عن الحرية، وكان مذيّلاً بتوقيع الطبيعة المباشر. عَبَرَ البراري والجرود وعتبات الحلم. ولم يكن له اسم. مات. وعاش غيره.

ذات مساء، والمنتصب على قائمتين متمدّد للنوم في كهفه العشبيّ، انشبح فجأة بين أغصان الكهف ضوء قادم من الشرق. لا أحد يدري كم ألف مرة من قبل حدث ذلك. لأمر ما، التفت إلى الجبال البعيدة وشاهد البدر ينبثق من وهدة بينها كالرّحم. أحسّ به من وراء الجبال الغبشاء كما لو أنه سيقف على قائمتين. وهرع نحوه بلهفة روّاعة. ركض إليه على السهل الفسيح. هذا القرص، لونه القوي الحارّ، ضوؤه النديّ المنثور - ينظر إليه ويجرحه. ولحظة رآه ينفصل أخيراً عن وهدة الجبال، مكتمل المهابة والحسن، مؤطّراً بهالة لزجة كثيفة من الألق، أوقف الخشوع قدميه وأرخى شفتيه.

بعد دقائق تقلّص في عينيه حجم القمر. ضاع لونه القويّ وجفّ ضوؤه. لكنّ عاشقه لم يشأ العودة إلى كهفه. مدفوعاً باضطراب شفيف وغبطة حائرة، التقط جذعاً ومشى على غير هدى. غير بعيد، لفحت أذنيه أصوات وحشية كاسرة، وترسّبت فيه خوفاً ما زال حتى اليوم ينهض بطلقة مسدس. وبعد قليل رآها:

جالسة على قرص حجريّ أمام باب كوخها المفتوح للقمر. الكوخ دائرة من قصب النهر المغروز في الأرض، الململم في الأعلى داخل ربطة محكمة. وهي جالسة على القرص الحجريّ، مستغرقة في القمر؛ والقمر يسحّ على قرصيْ صدرها بلونه القوي الحارّ، ينثر ضوءه النديّ في ألق عينيها الكثيف اللّزج؛ وهي تنظر فتجرح، وتكتمل كل لحظة بالمهابة والحسن.

انتفضت واقفة إذ رأته. تناولت من جانبها عصا سكّينية الصنع. لبثا واقفين. تغلغل القمر فيهما والأصوات الوحشيّة بأنس متبادل وخشية واشجة. لم يعرفا كيف يتحرّكان. هذا النوع من الخطى الملغي للمسافة بينهما لم يكونا قد مشياه بعد. لكن كلاً منهما أحسّ

بسيل يندفع في صدره فيدفعه نحو آخره المخيف الطليق. بصرخة وحشية متطاولة انطلق إليها، وبخرخرة تربُّصية مضطرمة تلقَّته.

لقد رأينا في تلالنا ما يصف تلك الليلة الغابرة من اللقيا والحبّ والاكتشاف. حروف هنا، وصور بيكاسوية هناك، محفورة على الصخور الباطنيّة، لكن ذلك اللقاء الهمجيّ تناثر على أفق الخرافة والضباب والحرام، ولم يعد قابلاً للحرّية خارج التلال.

بعدها افترقا. وكان القمر عندئذ خيمة شاسعة فوق جسديهما. في زمن ليس غير ومضة من ذلك التاريخ الطويل، ازدانت الطبيعة بتلال قصبيّة صغيرة يسكنها نوع جديد من البشر. وعلى ضفتي النهر، وعبر السهول الشجراء، تكاثر ذلك النوع. بالتدريج صارت صحبة الآخر أنضر في النفس من صحبة الخلاء. وفي سنوات، أو قرون، أو لعلّه ألف عام، ابتعد الهمجيّ خطوة عن سديه وازدوج عيشه. وعندها اتخذ الصوت الصارخ في الجبال والوديان والبراري أشكالاً ونبرات ومقاطع، وصار كلاماً ولغة. فجأة وإذا العبارة تخرج من الضجيج والحشرجة، وإذا الوجود حوار ومشاعر بين العقل والعقل الآخر. فجأة وإذا هو وهي ينشئان خطاباً، يسمّيان الأشياء، ويضعان تعاريف للقمر والنهر والعاصفة والتوق والحلم.

ثم مشت يده خطوة ثانية: صنعت للخطاب والأسماء أشكالاً، ومحت عن مناشيره السريّة الخطوط العجماء والالتواءات، لترسم بدلاً منها حروفاً وكلمات ومقاطع. لقد أخرج ذاكرته من أغوار نفسه، كتبها وأودعها ذاكرة الأرض.

في الخطوة الثالثة صنع آلهته وخبزه وحرّيته، وملأ ضفاف نهرنا الكبير بالبشر. ومرّ على هؤلاء البشر حين من الدهر جعلتهم فيه الآلهة التي ابتكروها أحرار القلب واليد والمعدة والخيال. لقد أحبّوا كما شاؤوا. وتركوا ما جمعته أيديهم ليأخذه غيرهم. أكلوا بلا تعب ولا قتال. أحسّوا أنهم يمتلكون الوجود. إن بقاياهم، النيلوتيين السارحين الآن بين سهلنا والجبل، ما زالوا يجلسون حائرين أمام مائدة الطعام، عاجزين عن مباشرتها إذا لم يجدوا غريباً يجلس لها بينهم.

نسمّيهم الغجر. وتسمّيهم الكتب النيلوتيين. إنهم يسرحون حول مدننا وخارج تاريخنا وأوهامنا ـ نحن المتحدّرين وإياهم من أعظم الإلاهة وأول إله، الذين تطبّعنا بالملكية الفرديّة، وحققنا تقدّمنا العظيم حين رضي قوّينا أن يأكل ضعيفنا بإشراف القانون. إنهم ما زالوا يعيشون على طرف ذلك التاريخ الذي أطلق من عقال الجوع والجنس والحرب عدداً من البشر يكفي لصنع المعاني والقيم والجمال. هؤلاء الصيّادون المزارعون الرعاة، وفق

أنظمتهم الخاصة، يذكّروننا بالهمج الذين كنّاهم. تنتشر أكواخهم ومضاربهم بين مدننا أوائل الربيع وأواخر الصيف، فتعيد إلى ذاكرتنا وخيالنا حياة كانت تهدر قبل الآف السنين في أصحاب العظام والنقوش المرميّة داخل سراديب تلالنا. إنهم يحملون آلهتهم وخبزهم وحريّتهم، ويحتفلون بها ومعها ولها على مدار الفصول: بحبّ وفرح فطريّين، فهم لم يألفوا بعد الخوف من الآلهة ولا القلق على الخبز، ولا البحث عن الحرية. إن عبادتهم لتثير الحيرة والاندهاش، بقدر ما يثير خبزهم وحريتهم الغيظ والحسد.

أما أعيادهم فانفجارات شعور شبيهة بانقصاف المطر، فيضان النهر، أو انشطار تراب عن الجذور الطعيمة. في الربيع، عندما يصطبغ النهر بدماء إلههم أوزيري يخرج النيلوتيون من جميع فجاج الأرض - من الجبال والغابات والسهول والوديان والصحراء والنهر - ويرتدّون إلى همجيّتهم العريقة، كما لو أن التاريخ قد مضى منهم وليس بهم. إلى العراء تخرج النساء عاريات. ثم يأتي الرجال بأردية خفيفة تغطّي الكتف اليُسرى، وسرعان ما يطوّحون بها لتغدو مفارش شبق رجيم. هناك يتداخلون تداخل الأغصان والورق، وينتثرون كآلاف الأزهار البرية. ومثلما تزدان الأرض بشقائق النعمان، والنهر بزهر اللوتس والنيلوفر، تتطرّز أيضاً بأجسادهم المتجامعة في عيد قيامة إلههم القتيل: فكأنها صارت منهم وإليهم. وعلى المدى كان بوسعنا - نحن الذين لم نفوّت فرصة لاختلاس النظر - أن نسمع موسيقى الدفّ والطبل والمزمار والقيثارة، وقد خرج بها عازفو الهياكل لاستقبال الإله العائد من مياه جوف الأرض العميق.

كان هذا العيد أحبّ أعيادهم إلى نفوسنا - وبالطبع أكثرها رعباً. إن أحداً لا يعرف حتى الآن كيف استطعنا، ونحن بعد صغار، أن نقاوم بحاراً هائجة من الاشمئزاز المتكلّب بعضلاتنا، ونتسمّر في أماكننا الخفيّة بين القصب لنلمحهم، ثم نستكمل الصورة عبر توقنا وحلمنا. أعيادهم الأخرى كانت أقل تطرّفاً ووحشيّة. ففي الخريف كانوا ينوحون على ذلك الإله نواحاً أليماً، يحملون تماثيله ويلقون به في النهر الكبير لتشق دربها تحت بتلات النيلوفر الطافية المتلاصقة وعبق رائحتها اللزجة. وتخرج النساء ملفّعات بثياب حداد تكشف عن نهودهن الطليقة، وعند النهر يقصصن غدائرهن الطويلة ويرمينها على أديم النيلوفري الوقور ثم يرسلن وراءها نظراتهن الباكية.

لقد ازدرينا الكثير من دكاكير أبناء عمومتنا هؤلاء. سخرنا من تماثيلهم، مثلاً، رغم جمالها وقوّة تعبيرها. لأن عبادة الأصنام شيمة العقل المتخلّف والنفس المريضة. رفضنا لغتهم المثقلة بالإعرابات والتصريفات، رغم أشعارها المدهشة وأمثالها الحكيمة المحكمة. إذ

لا شيء يعادل التقدّم والتطوّر في تقريب الإنسان من مثال إنسانيّته وإبعاده عن همجيّتها. نفرنا من عصبيّتهم وعنفهم عندما تسخن دماؤهم، ومن لامبالاتهـم الرخوة المطلقة إزاء كل ما نحرص نحن على امتلاكه.

أجل. لكننا نظرنا دائماً بعين خفيّة من الحسد والضيق إلى حياتهم المترعة بالخبز والحبّ. حقاً إنهم يتعبون باستمرار، وحركتهم دائبة لائبة، لكنه تعب بلا شقاء، وحركة بلا ضياع، وأعيادهم المثيرة تكشف عن سعادة وراحة من نوع غريب. إن كل ما يمتّ بصلة إلى هاتين الحاجتين الكبريين موفور لديهم، ودون دولة يضطرون إليها لتنظيم مشاكل الخبز أو أسرة ترعى مشاغل الحب. إن المرء ليقف حائراً أمام سعادة همجيّتهم وحزن مدنيّتنا ـ نحن أبناء عمومتهم الذين أنعم التاريخ علينا بالأسرة والدولة والقانون، وأخيراً بالاستعمار الإنكليزي، فقطع بنا خطوات حاسمة في مضمار الحضارة، وتركهم حيث هم.

هذه الحيرة ولدت مع ولادة وعي من نوع ما بالأخطاء البنيويّة في مجتمعنا، التي كشفت عنها الحرب العالمية الثانية. إن أبناء عمومتنا يعيشون بلا صراعات ولا تنازع بقاء، وبالتالي فهم غرباء عن الاختراع والنموّ والاقتصاد والتقدّم، راكدون في مساواة غير عادلة بين الخامل والنشيط، مما يقضي على كل أمل بتطوّرهم.

ولكن.. تنازع بقاء من نوع الحرب العالمية الثانية؟

تضاعفت الحيرة يوم اكتشفنا، ونحن بعد صغار، أن بوسعهم شراء المذياع والبندقية واستعمالها: حتى المال والبارود وأصوات الآلة الجديدة لم تستطع إخراجهم من مشاعيّتهم. وإذن فهؤلاء ليسوا مستعصين على الحضارة، بل متأبّون فقط. وخلال أربعينات هذا القرن انفجرت أحداث كثيرة، هي التي سنقصّها، أوشكت أن تجعل منهم كائنات خرافيّة في جمالها ونموذجيّتها. وإذ انطلقنا إلى العالم بعد الحرب، كان توقنا وحلمنا أن نكونهم مرة أخرى ـ مع إضافة واحدة صغيرة إلى عالمهم الفطْري، هي الحضارة.

أجل. ذلك كان توقنا وحلمنا.

لقد تشوّفنا حياتهم، نحن أبناء الجيل الذي تناسخ ميراثهم بعد نيّف وعشرين ألف عام. صور كثيرة في ذلك الحين حملتنا على الإيمان بأننا في الحقيقة نشبه الجيل الذي انتصب على قدميه، وإذ رأى العالم أحسّ أنه سيّده. بعد ثلاثمئة عام من الاحتلال السلطانيّ، ومئة أخرى من الاستعمار، تحرّكت روح جديدة ماردة في صدور الناس، داخل جميع المدن المنثورة حول جسد النهر الكبير. أحسسنا أننا منطلقون خارج ترسّباتنا، أنه إذا كان سلف هذه الجماهير العريضة قد انتصب على ساقين، فنحن قد نبتت لنا

أجنحة. كانت الأحزاب الجديدة والقديمة، والطبقات العليا والتحتى، تحسّ بذلك الشيء الجديد الذي سيولد، الذي سيكون جميلاً ومتقدّماً وإنسانياً.

بالنسبة إلينا كانت التلال موئلاً لاواعيـاً لتلك الروح الجديدة. لقد اختلفت عن هذه اللانهاية من السهول والبساتين المنفسحة حول ضفتي النهر. رفعت رأساً، وأرسلت ألف عين بصيرة نحو الآفاق، كانت عالماً باطنياً من الأسرار، من القصص القديمة، والقبور، والممرات الملولبة، والقصور، والرسوم الناطقة، والأشكـال اللغـويـة، والرفـات. وفي السنوات العشرين الأخيرة صارت مهارب للمجاهدين الذين طاردتهم سلطات الاستعمار. ولأنها بعيدة عما رأيناه مستنقعاً في مدينتنا، اتخذناها هدفاً للاختلاف والخروج والولوج. منحتنا مداخلها السّرية لذة الانتهاك. وفي العتمات والرطوبة والمنعطفات، أفعمتنا متعة من يكتشف نفسه. هناك التقينا المجاهدين، وتحادثنا وإيّاهم. بعضنا حمل رسائل منهم، وحاجات ضرورية إليهم... وكلّنا تقمّصهم.

ذات مرة رجعنا من هناك قبيل الغروب، ومعنا عظمة فخذ ضخمة (فالمجاهدون إنما كانوا يقبعون على بيادر من تلك العظام، يزيحونها جانباً ويجلسون مكانها، بعد أن نهب متحضّرو أوربا كل ما سوى العظام)، بالأحرى، عدنا ومع مفيد العبد الله تلك العظمة. في البداية سررنا بها. وبعد برهة صرنا نناجزه بشأنها ونسخر منه. لكنه لم يتزحزح. أصرّ على أن العظمة تحفة أثرية، وأن سائحاً ـ على الأغلب أمريكياً ـ لا بدّ أن يأتي يوماً ويشتريها بمبلغ خيالي.

تعطّف درب العودة الذي اخترناه بين شعـاب كثيفـة أوشكـت أن تغيّبـه. كـانـت العصافير ترسل زقزقة المساء المؤذنة بالهجوع، فتبدو الأشجار القليلة التي انتثرت على موج السهل المديد إذاعات موسيقية. من هنا وهناك نفرّ ثعلب أو أرنب وأثار بيننا نقاشاً جديداً عن هويّته.

وعند بداية الطريق الحجريّ الداخل في المدينة، أدركتنا ووقفت أمامنا. كانت هيكلاً ملتحفاً ببشرة رقيقة. كأنها على العكس من ذلك الإنسان الأول توشك أن تعود إلى المشي على أربع ـ لولا عصاها التي حملت في رأسها راية خضراء. كانت عيناها تتلألآن تلألؤ صفحة النهر بضوء القمر. ورغم لمعان المساء الشحيح، لمعت بشرتها الملوّحة ونهر شعرها الليلي، على السواء.

رأينا عينيها مستقرّتين على العظمة. ورأيناها تجندل مفيداً بنظرة عاصفة، ثم تسأله: «جئت بالعظمة لتطرد الجنّ؟» ووجد بدر الهلالي نفسه يهتف: «لا! سيبيعها لسائح

أمريكي.» زنخر أنفها بقوة وسرعة، مخرجاً صوت «تفوه!» ثم سمعنا، أو خيّل إلينا أننا سمعنا، سؤالاً، يخرج من فمها المدوّر الضامر ويلفحنا كتشاهد إثبات: «أنت همج؟».
كان سؤالاً سخيفاً.

قالت إن الناس على طول النهر الكبير يحترمون موتاهم فلا ينبشون القبور. «ألا تراها تتحرّك في يدك غضبانة مكسورة الخاطر؟» فجفل مفيد ونظر إلى العظمة في يده مرتاعاً. ثم سرعان ما شدَّ قبضته عليها من جديد، وقد أوشكت أن تفلت.

التفتت قليلاً إلى اليسار وزاغت نظرتها. غمغمت: «نصفه جبل ونصفه بشر. وبيده غصن تأكله العنزة. سيّد نسيم الريح، ذبحوه في الجبل وأكلوا لحمه. صار النهر أحمر. صار الهواء أحمر. ورموا عظامه للكلاب. صحيح يا طاهر؟»

ارتعش طاهر العطا إذ سمعها تناديه. غير أنه لم يتهيب ذلك الإعلان غير المباشر عن أصله الغجري. خرج من صفنا بلا تلكؤ وتقدّم نحوها: «صحيح يا فيضة.» كان طاهر ولداً نيلوتياً يعيش في القسم الداخلي للمدرسة. وقد ابتسم لها، مضطرباً بسبب صباه وجمالها.

«صفّ من الغنم» قالت، «فوق صفّ من السنابل وبين كل غنمتين نخلة. مع الرعيان العريانيين. الراعي. مرعي. فواكه الحقل وقطعان حيوانات تقدمة للأمّ الكبيرة».

التفتت إلى مفيد، وقد فارق الزهو عينيها فاتّقدتا: «يا ويلك من الله! صاحبها كان سعيداً. أسند رأس امرأته إلى صدره. وأولاده وحيواناته وأهله. أحبّهم.»

وفجأة استلّت العصا الأفعوانية وهرعت بها نحو رأس مفيد. لكننا، كلنا وليس مفيد وحده، هربنا خطوات إلى الوراء، ثم أطلقنا سيقاننا للريح. وفي ثوان تبعثر جمعنا، ورمى مفيد العظمة. لم يبق سوى رايتها التي خفقت ثم عادت إلى قبضتها، وطاهر، ثم سعدون الذي بقي هناك ليتحدّى الفزع الشديد بعقل أشد، رافض للخرافات والغيوب.

عندها انحنت فيضة والتقطت العظمة. لحظتها رأى الفتيان الواقفان كم هي جميلة. وبحيوية مفاجئة، ولجت أحد البساتين المتجهة إلى التلال.

بقينا نهباً للدهشة والسخرية. ببطء، فصمت، عدنا إلى حيث وقف طاهر وسعدون فالتففنا حولها. وفقط عندما انفكّ طلسم تلك المجنونة غمغم نذير النميري لطاهر العطا بحيرة: «إذا كان الناس سعداء يومها» كما قالت فيضة، فكيف تمكّن أحد في تلك البيئة

من أن يصير زعيماً عظيماً ويصنع دولة؟ » لكن طاهراً كان غافلاً تماماً عن السؤال، منشغلاً بما انفعل له وجهه: « كانت تلك أياماً عظيمة! »

فيما بعد، تشكّك سعدون (نقلاً عن خاله الأستاذ فاضل) بجدوى التعلّق الأخرق بالماضي والأسلاف. أكّد أنّ هذا يعني فقط كون عقولنا ذات بنية خرافية غيبيّة. الدراويش والساحرات، قال، هم أعداء عقلنا الحقيقيّون.

لم يكترث مصعب السبئي بهذا المنطق. ذات مساء، وبعد أن اجتحنا المدينة آجاماً وشوارع وفلوات وحارات، هجمنا على أحد الأفران فاشترينا نصف ما فيه من خبز ساخن، وعلى أحد الدكاكين فاشترينا ملحاً وكل ما فيه من طماطم وخيار وبصل. وعبر حارة قريبة من شاطىء النهر، ثم على كورنيش النهر، فالميناء ـ أكلنا حتى انتهت جعبتنا، ووضعنا ما تبقّى على إطارات النوافذ المفتوحة ومداخل البنايات. وبعد قليل تفقّدنا مصعباً فلم نجده.

كان الليل قد اقترب، وضوء البدر القويّ يطغى على الكهرباء المزيلة، التي نادراً ما تُنار في حارة كهذه. وكان النهر قد تمطّى فوق الرصيف الأول وأشرفت مويجاته على الثاني كما كانت تفعل قديماً أيام الفيضان العظيم. قبيل الميناء شاهدناهم: مثلّثاً راكداً، زواياه ثلاثة كراسي صغيرة، منها تنطلق ثلاث قصبات، وتتقوّس فوق النهر، لترسل فيه ثلاث صنارات.

لقد سطع عليهم ضوء كهرباء الكورنيش، لكنه غرق في الأمتار الأولى من مياه النهر، وعلى الصفحة الجسيمة الشاسعة تخثّر ضوء القمر مثل كفن أزرق. عند الأفق، وراء الضفّة الثانية، تطاولت أشجار النخيل تحت نثار القمر مثل أشباح رماديّة. وهبّ نسيم واهن فخشخش في فزاعات الحقول القريبة من الميناء.

والثلاثة جالسون في مطرحهم الرطب، مسترخون على رصيف النهر الاسمنتي. أحدهم فاضت إلية شرواله الأسود على كرسيه من الخلف، والآخران صنعت جلابيتاهما مفرشين عريضين على الأرض. اقتربنا وئيداً من الجانبين، ولمحنا لحى متدلية شواربها حليقة، ووجوهاً معافاة، وعيوناً زائغة تحت طرابيش قصيرة داكنة. الحركة الوحيدة في كل ما يمتّ لهم بصلة صعدت من جوف النهر نحو الصنّارة، فإلى رأس القصبة المنحني، ثم تلاشت هناك: حركة السمكات التي علقت بالشصوص وظلّت تبرعط في الماء.

قال بدر الهلالي: « يريدون أن يقنعونا أنهم قادرون على كسب عيشهم بأيديهم، ليس بطريق الصدقة ».

قال سعدون: « ويقول الرأسماليون إن المشاعية ساوت بين الكسول والنشيط، لذلك كان لا بدّ من الملكيّة الفردية لتحقيق العدل. أليس هؤلاء الدراويش هم الكسل بعينه؟ ».

كان السؤال موجّهاً إلى طاهر العطا، الذي استغرب كيف تسنّى لسعدون حياكة هذا الكلام. قال: « مثل هؤلاء لا يوجد أبداً في عمريت. »

سخر عبد العليم الغزال: « ما هذا الغباء؟ السمك عالق بالشصوص وهم لا يسحبونه من النهر! » ونهنه إبراهيم مقداد: « جاءتهم الحال. »

مرّت سيارة المندوب السامي البريطاني بسرعة، فتابعناها حتى اختفت. التفتنا إليهم وسمعنا حديثهم الممسوح المغمغم. أحدهم تمتم: « لا تقول كأنهم مؤمنون بالله. » والثاني جمجم: « بعدما تركوا الكتّاب، يمكن المدارس علّمتهم ديناً جديداً. »

نبر بدر الهلالي: « دعكم! نحن لا نسعى إلى عبادة جديدة، ولا إلى دين جديد. نحن ضدّ كل هذا التفسّخ. ولن نسمح بالمعابد ولا الأصنام. لأن كل عبادة ذلّ، وكل تديّن عمى! »

صمتنا. صمت المكان. عندئذ غمغم الثالث، كأنّ حديثهم لم ينقطع: « يقولون إن الناس هناك ما زالوا يعبدون الشمس والقمر. ما سمعوا بعد بسيدنا إبراهيم. » همهم الثاني: « قد تكون هذه من علامات الدينونة. » خمخم الأول: « يكفي يا أخوان. نحن تكلمنا كثيراً. »

انفعل طاهر. وكعادته حمله انفعاله فنبر بمثالية فتى مقدام: « نعم، عندنا آلهة كثيرة. لكننا لا نعبدها. العمل، البذار، النهر، الزهر، الحب.. نرقص لها. نصنع لها تماثيل ونكتب قصائد. وعندما يختلط النهر بالتراب، والمطر بالهواء، والنحل بالأزهار، عندها نختلط نحن. نحن لا يهمنا الخير والشر، يهمنا العدل والظلم. هكذا كان أبي يقول! »

صرخنا مهللين للخطبة الصغيرة. نذير بشكل خاص، كان منتشياً، فطاهر بالنسبة إليه اسم على مسمى. وكانت السمكات العالقة ما تزال تتحرك في النهر.

التفتنا حولنا بحثاً عن مصعب، لنسأله رأيه الشعري في الدراويش صائدي السمك. لم نجده.

في هذه الأيام، والمواطن الذي صار أقل من عاديّ محتقن الروح ضيقاً وذلاً أمام الأكشاك، لن تجد عند الكثيرين اهتماماً يذكر بقصة خيالية يرويها شاعر. لقد وجدناها، نحن رفاق يفاعته وخياله، نوعاً طريفاً من الحلم والرؤيا، وكنا مشبعين بالاثنين إلى حد

عدم الاكتراث بالحمّى التي أصابته. أما آن للجنس البشريّ يا ترى أن يشيح عن أساطير الأوّلين؟

كانت الحارة التي عبرناها في طريقنا إلى رصيف النهر الأدنى واحدة من أقدم الحارات في المدينة، إن لم يكن في العالم. توقّف مصعب وسط شويرع يمتدّ من زنقة غربية حتى الأفق الشرقي. من وراء الجبال القصيّة في باب إيل أشرق الضوء ووفد إلى عينيه المستغرقتين. كان بدراً في السابعة عشرة يصعد وئيداً من بين وهدة في الجبال الشماء. ازدادت عينا مصعب توغلاً في الظهور السحريّ، وتعبّأتا اللون القوي الحار والضوء المزبد بالأطياف الوردية حول حجم مثير للروع. لقد شاهد هذه الاطلالة من قبل. ودائماً تعجّب من الولادة الغريبة لطفل قمريّ يكون أكبر من الرجل الذي يصيره بعد حين.

وكما روى لنا القصة فيما بعد، فإنها حدثت على النحو التالي:

التفت مصعب إلى الجدار الطويل المعاكس من أبنية الحارة، المتصالب مع الشارع القمري. بيوت عادية، معظمها يؤجر غرفاً ذات شبابيك طولانيّة على الطراز القديم، تكون في النهار للمعيشة وفي الليل للنوم. والشبابيك مفتوحة دائماً للنسيم النهري الرطب وبسببه.

هناك رآها. جالسة على كرسي صغير أمام مرآة متصدّرة للقمر. وجد نفسه يقترب، ويلصق وجهه فجذعه بقضبان الشباك. كانت تنضو ثيابها. وشاهد ما جعله يراجع ثقته بنظام عقله. كلما نضت قطعة ثياب، بدا للعين الرحميّة جزء من هيكل انعكس في المرآة وهو في السابعة عشرة.

تحرّك مصعب إلى الشباك الثاني. التلعتان الصغيرتان. النهران المتوازيان. أمسكت قبضتاه بحديد الشباك. انغرز وجهه بين القضبان. تسمّر وهو يعاين الجسد الفتيّ الجميل النضير، وضوء البدر الوليد يرشق المرآة كأنه الكيمياء الضرورية لصنع الصورة في حوض المصوّرين.

لقد أوشك أن يرى للسرّة حبلاً. لم يدر كم طال وقوفه. أراد للمنظر المتألّق حياة أن يتأبّد أو يصير وشماً في عينيه. كان خائفاً خوفاً موجعاً أنه لحظة تغيب الصورة من عمقها الكيميائي ستصير حقيقتها فريسة للكذب.

« سيحدث شيء في بعليتا. القمر يشرق ومعه ألف روح. »

تكلمت وهي تتأمّل جسدها بنرجسية فائقة. رأت نفسها في المرآة وحسب. وعبر

الصورة أرسلت فيض سعادتها إلى عيني مصعب الأسيرتين الناهلتين. واكتمل استلابها له بصوتها الصادح النابر الحارّ.

قال مصعب كمن يحرّك لسانه بعد تخثّر: « لكن القمر يشرق على جميع مدن النهر ».

« نعم يشرق. » وراحت تتلمّس وجهها وتبتسم. « هذه أنا كما أنا داخل المعبد ».

صمت مصعب لأنه لم يفهم. وغمغمت هي: « اليوم عيد القمر. اليوم يتزوّج الملك والإلاهة. ويأتيها أولاد. الإلاهة بدأت تحيض. »

« ألا تخاف أوزيري؟ » سألته بعد برهة.

« أخافه. »

« فيكف تتجرأ وتقف في الشباك، تتفرّج على صبيّة عارية؟ »

« لا يخيفني من هذه الناحية. »

« ما هو ربّ لا يخيفك ـ من هذه الناحية أو غيرها؟ »

لم يستطع أن يجيب. كانت رؤياه أكبر من كلماته. استعاد جميع ما سمعه من أمه عن تأثر العقل البشري بظهور القمر ـ ولكن لا شيء عن تأثر الجسد. لقد أرسل جسده نداءات تعب وجوع.

كان القمر ينحسر وئيداً. ومدّت فيضة يدها إلى ملابسها.

اندفع مصعب عبر الزقاق الصغير، واقتحم الغرفة. « إلى أين أنت ذاهبة؟ » سألها بلهفة ونصف بكاء. حملقت إليه بعينيها الوحشيتين: « أنا ذاهبة. ذاهبة أبحث عنه. أخذوه مني وقتلوه. » قال لاهثاً: « ذاهبة إلى أين؟ إلى أين؟ » قالت: « الربّة تقف أمام الرايتين. تستقبل الأمير. الأمير لابس تنّورة وبيده رأس سبع. »

كان عقل مصعب ساحة كهرطيسية تحاول أن تلتقط المعاني، لا الجمال والقبح. لم يستطع سوى أن يندفع ملتاعاً بينها وبين المرآة. وكان ضوء القمر يهبط، وهدوء المرأة يزداد عمقاً وعقماً. وعندها انجدل المشهد كلّه بالهول.

اكتمل انسحاب القمر عن المرأة والمرآة. واستترت هي ببعض ثيابها. كانت شاردة وحزينة. جلست على طرف السرير. ودون أن يدري ماذا يفعل، هوى بين ساقيها فاراً من ذعره والتياثه، وانداح رأسه وذراعاه على فخذيها. دندنت هي أصواتاً كمن تخاطب نفسها، وغيّبتْ أصابعَها في شعره الكستنائيّ الطويل دون أن تنظر إليه. رفع رأسه وسألها بعينين مبهورتين أعاقلة هي أم مجنونة؟. ابتسمت هي: « القمر والأرض والمرأة ثالوث الحياة. كل ثمانية

وعشرين يوماً يمضي شهر، ويظهر هلال، وتحيض امرأة.»

«أنت من أنت؟ من؟ ماذا أنت؟» سأل بعدوانية مفاجئة.

«أنا أمك. أنا أختك. أنا التي قتلوا أبي وأخي.»

احتضنت راحتاها وجهه. لكن عينيها لم ترياه. «أنا التي نهري لا يفيض. محتقن ولا يفيض. أريد قطرة دم». وكانت راحتاها تسحبان وجهه إلى وجهها، فنهض على سرعتها وقد توتّر جسده واستسلم. مرّت عيناه أمام نهديها الصغيرين الطليقين، ثم كفّتا عن الرؤية.

كان فتى على عتبات الحلم. ويومها أدخلته فيضة عالم الرجال. في المرة الأولى لجمته الدهشة وشجّه الذعر المتخبط الهادر. في الثانية انتفض بصرخة وحشيّة قصيرة، وشقّ طريقه عبر النهر فأقام طوفاناً. في الثالثة تلاشى بين أضلاعها وهمد.

وظلّت هي مستيقظة، شاخصة العينين إلى ثلمة العبور التي لم تتخضّب بالدم.

- ٢ -

في أوائل هذا القرن كانت مدينتنا شريطاً دودياً متقطعاً يتلوّى بحذاء شاطىء النهر الغربيّ. مدينة قديمة. لعلّ أوزيري مرّ بها ذات يوم، إن لم يكن قد بناها بنفسه. لكنها يومذاك كانت مجموعة أحياء سكنيّة ضيّقة يصنع اتصال أحدها بالآخر شكل إنسان مفتوح اليدين والساقين. في حواريها المتراصّة ذات الأزقة الضيّقة كنت تلتقي بأي شيء - بالطين والحجارة والجرود والمستنقعات الصغيرة والأرانب والهدهد والحجل والأفاعي والفطر والخبز والغبار والمطر والشمس وشجر الأرصفة والمتسوّلين والأطفال والباعة المتجوّلين والسيّارات وعربات الخيل وأكواخ العمال في الشمال والجنوب. أما أن تلامس عيناك أثراً واحداً يدلّ على القِدَم - قِدَم يعود إلى عصر المسيح، أو أوزيري - فذلك كان هو المستحيل.

غير أن المدينة بدت مع ذلك قديمة جداً من منظورين مختلفين، الأول: هو الرثاثة. الرثاثة بمعنى ضيق الأفق، الانحسار والانكسار، هذا النوع من الهمجيّة الذي ينبته الانقطاع والاستنقاع، الذي يفرخه تغلّب الجوهر الحيوانيّ على الحالة الإنسانية. تلك الحواري والأزقة - الملاعب الحقيرة الغالية لصبانا ويفاعتنا وشبابنا - سطح شامل من القبح والتفسّخ والاهتراء. تلك الألوان الباهتة. تلك الأشكال الركيكة، والبيوت المنكفئة إلى الداخل، الأزقة العنكبوتية الحصوية التي شوّشت باستمرار لعبنا بكرة القدم. إنّ المرء ليقف مدهوشاً ومحنقاً أمام نمط من العمران لم يتغيّر بالتأكيد منذ ألف عام. نمط ينضح خوفاً من الآخر، وتوقّعاً للأذى من الطبيعة، واستتاراً على فظاعة عالم داخلي يخشى العلانـية. بيوت ما زالت كما بنيت منذ ألف عام. وكذلك الطرق المرصوف معظمها بالحجارة البركانيّة: عجيبة أخرى من عجائب مدينتنا، إذ أين هو ذلك البركان الذي قذفها؟ حتى الشوارع الحديثة التي شقّتها سلطات الاستعمار - لأغراض دنيئة بلا ريب - ازدانت بالكآبة والضيق والروائح المقيتة بفضل ما للنفايات فيها من حرّية ودعة.

ليس فقط هذه الخطوط العامة. خذوا مثلاً القنديل. أداة غبشاء شعثاء وسخة، إن رأيتها نفرت، وإن لمستها اتسخت، وإن شممتها انزكمت. إنها تنزّ نفطاً وصريراً وهباباً.

لكننا مع هذه الرائحة والوسخ والقبح مشينا خطوات أكيدة باتجاه وَسَع الإنسانية. كان ضوؤه الشحيح معادلاً لشحّ الحياة التي حولنا. إن أحداً منّا لم يصل إلى عهد الكهرباء إلا بعد أن لفحت نار القنديل غرّته مئة مرة، وهو منكبّ على كتابه أو دفتره.

والثاني: بشريّ صرف. فرغم ندرة العربات والسيّارات في شوارع مدينتنا، كانت حركة المرور أكثر تعرقلاً وتعطلاً مما هي عليه الآن بعد خمسين عاماً. والسبب هو الرثاثة البشريّة. كيف يمكن للمرور أن ينتظم في شارع مكتظّ بحشود البشر الغادين والرائحين؟ لكأن هؤلاء كانوا مدفوعين إلى الخروج حبّاً بالخروج، حبّاً بالإحساس المتبطّل الهنيء. إنهم تركوا بيوتهم المغلقة المتكفئة وخرجوا إلى الفضاء، ليتلاقوا دونما حاجة إلى التعارف. حتى المواطن تحت العاديّ كان يحسّ بفرح غريب، بحركة داخليّة نابذة تدفعه إلى الخروج، وبالخروج كان واثقاً أنه سيلتقي بعالم جميل وسعيد. ضائعاً كان بينهم صياح سائق العربة: «أوعى ظهرك.. أوعى بالك.. يا الله يا حبيبي يا الله!» وفوق هذا كان الشارع بازاراً، ومتنزّهاً، وسوق خضرة، ومدينة ملاهٍ وملاعب أطفال. كل شيء كان يباع فيه، إلا الزمن فقد أُعطِيَ مجاناً. وكل شيء كان يساوَم عليه، إلا الحركة فقد تركت على غاربها.

وكان مدهشاً ذلك الانقلاب الذي حفر مجراه بين الحربين العالميتين فجعل الزمن والحركة عينين نرى بهما خطواتنا المتسارعة إلى التخلّص من الاستعمار الإنكليزي

إن ما يسمّى في أوروبا القرون الوسطى قد بدأت على نهرنا بانتهائها هناك: يومها تلاشت عندنا آخر القوى الحيّة في حضارة الإسلام. ومنذ ذلك الحين تشرنقنا. وانعزل الذين فوق عن الذين تحت انعزالاً شبه مطلق ـ شبه مطلق، لأن نوعاً من الاتصال ظلّ ضرورياً لاستكمال سيرورة الاسترقاق والاستلاب. ولقد تميّز عصر ظلماتنا ذاك بمراتبية أيضاً شبه مطلقة. فتَحْتَ إبط السلطان انحشر رأس الباشا. وتحت إبط الباشا انحشر رأسا البيك والأفندي. وبين سيقان هؤلاء انحشرت رؤوس الناس.

ربما أعطت هذه المراتبية وهماً بتدرّج طبقي. والحقيقة أن الرؤوس التي انحشرت تحت الآباط يمكن حصرها في خانة الآحاد، إذا كانت الرؤوس التي بين السيقان تعدّ بالمئات. ولولا الأمراض والأوبئة والجهل، هذه الحاصدات النشطة للأرواح، لكانت مئات الرؤوس تلك آلافاً.

وربما أعطى مشهد البيع والشراء على قارعة الشارع وهماً بحيويّة أو برغد في العيش. كانت الأرض خصيبة حقاً، ومعطاءة على مدار السنة. كانت أمّاً عظيمة لنا. هذا النهر، وتلك التربة، وذلك الفضاء المنير المطير، قدّمت للبشرية واحداً من أخصب الأرحام

الغذائية على كوكبنا. ومثل القمر، كان الموسم يأتي ويروح، يهلّ هلالا، ويكتمل، ويتناقص ويمضي، ليخلفه موسم آخر.

لكن الناس كانت جائعة. تلك المئات التي صارت آلافاً قبيل الحرب عاشت ما يسمّيه المشفقون الفقر الأسود. لقد باتت العائلات تأكل نقيع الخبز اليابس في الخلّ، أو تقتلع أعشاب البراري وتغليها حتى تنضج، ثم ترشّ عليها الملح وتلتهمها بشهيّة لم ينعم بها هارون الرشيد. لقد اندثرت الآن كلّ الأعشاب واسمائها. لكنها قبيل الحرب وأثناءها كانت تشكّل حزام أمن غذائي لجماهير لم تجد من ينافسها عليها سوى الدوابّ.

كان ثمة حزام أمنٍ غذائي آخر من نوع غريب، استطاع أن يثبت متوالية حسابية بين كميّة الناس وكميّة الفقر. صحيح أن نهرنا الكبير نادر المثيل في العالم. لكن الأمراض والوفيات بالجملة، التي عزّزتها قلة عنايته الفظـيعة بالنظافة والبيئة، كانت ذات حياة خاصة بها. هذه الأمراض، وهي تعدّ بالعشرات، أزهقت سنوياً من الأرواح ما حقّق لجماهير مدينتنا التوازن البهيج المطلوب بين السكّان والأعشاب. وكان الجهـل يشـارك في تحقيق الموت بكفاءة تعادل كفاءة المرض.

إن قروناً من العيش الرتيب المتدحرج أفرزت في مدينتنا بنية نهائيّة، أو بدا أنها نهائيّة. كان سكان كورنيش النهر من النيلوتيين الأصلاء. ولديهم شجرات أنساب يغنيهم اعتزازهم بها عن هبوطهم المعيشيّ إلى المستويات الحضيضية. هؤلاء هم الذين زوّدوا الميناء بعمّالها والمدارس بالكثير من طلاّبها. أما الآخـرون الذيـن اختلطـت دمـاؤهـم بـدمـاء سكان وفدوا إلى مدينتنا من عوالم أخرى فكان لديهم أشجار السهول وقوارب الميناء ومعظم المدارس. وبالطبع أقاموا قصورهم أبعد ما يمكن عن النهر وفيضانه، وأقرب إلى التلال. ليس غريباً إذن أن تنقسم المدينة بسبب ذلك إلى منعزلات سكانية طبقية، رغم اتصال بيوتها الظاهر.

هذه الأحياء حوَت ظواهر عمرانية واحدة على كلّ حال. إذ لا يعقل مثلاً أن يخلو أحدها من جامعين أو ثلاثة، وربما كنيسة أيضاً، بحسب غنى سكانه وتقواهم. وهي بلا استثناء مطرّزة بالمقامات والتكايا والزوايا: في الأولى يرقد إلى الأبد الأولياء الصالحون موشّحي القبور بأجواخ خضراء، وفي الثانية والثالثة يسترخي الدراويش. وأينما التفت ناشدو التوبة والصلاح والصفاء الروحيّ، وجدوا مكاناً يمثلون فيه أمام خالقهم أو درويشاً يلتمسون منه الطريق الصحيح.

وهكذا فالتقوى لم تكن مهدّدة بأي هزال أو التواء. سوى أن بيوتها اضطرّت إلى التعايش ليس فقط مع دكاكين الشواء الحديثة ودكاكين الرقص الأحدث، بل ومع بيوت من نوع آخر لا يجد المرء مفراً من تسميته رغم الحياء الشديد. كانت (وعليتا) بيوتاً أفعوانية الاندراج والامتداد، متخصّصة بالبغاء. لقد تفرّعت من شارع (المهدية) الذي أخذ اسم الوليّ الراقد في مقام يتوسّطه، وظلّت تتلوّى يميناً ويساراً حتى بلغت نهاية المدينة الجنوبيّة الغربيّة، وواجهت المقبرة. كان المبغى الجماعي مدينة داخل المدينة، بفسقيّاته ونوافره وأزهاره وشجيراته وأرصفته النظيفة وحريته المطلقة المخجلة. إلى هناك التفت ناشدو اللذّة الحسّية الخسيسة، الذين فشلت أو انعدمت حياتهم العاطفية، والذين خرج من بينهم واحد منا وصار واحداً من أبرز عشّاق عصره.

وأخيراً المقهى. لقد اختيرت للمقاهي أجمل المواقع إطلاقاً، وخاصة على القناطر المائية. ثم ازدادت جمالاً بالعرائش والفسقيّات ودوالي العنب والأكشاك القصبيّة العازلة. فهذا العالم البديل، الذي سدّ مسدّ النوادي والسينما والحدائق العامة وأماكن الترويح (دون أن يستطيع تقليص نفوذ وعليتا)، منح الرجال أجمل أوقات الغياب عن زوجاتهم بعد أوقات المبغى. إلى هناك كان يفد الأغوات والبكوات والأفندية، والباشوات أحياناً، كل في شبه موكب رسمي. كان واحدهم يسير في الشارع مرتدياً الثياب الحريرية النفيسة، الملّونة بأصفى الألوان، متمنطقاً سيفه وخنجره، المرصّعين بالحجارة الكريمة. حوله ووراءه يمشي بانتباه ومزيد من الخيلاء خمسة أو ستة من أنصاره وخدمه، يمشون بصمت ووقار وأبهة، يحملون له الغلايين والنرجيلة، يزرعون الشارع بالنظرات المستريبة الفاحصة تمهيداً للانقضاض على معتدٍ أثيم ممكن، وأيدي بعضهم على مقابض خناجرهم اليمنيّة. أمام المقهى يستقبله الندل بما يشبه الزفّة. وهناك ينضمّ إلى البكوات والأغوات الآخرين، أو يجلس في مقصورته. وكيفما جلس، يبدأ بعد قليل إعداد المكائد والمؤامرات الدامية التي تعصف بالمدينة.

كانت مدينتنا مفتوحة. يأتي إليها من يأتي ويغادرها من يشاء. عبر العصور استمرّت وترسّبت علاقات نسب وكتب وطعام بين جميع المدن المتعنقدة على شاطىء النهر الكبير، وأغلبها أقدم من مدينتنا وأعظم. مدن كلها مفتوحة. وفي عصر الظلمات، كان بوسع من يمتلك دابّة قويّة الظهر والعراقيب أن ينطلق من الجبال الغابيّة الجنوبية، حيث تنبثق ساقا النهر، ويجتاز ألفي كيلومتر قبل أن يصل إلى البحر في الشمال، وذهنه خالٍ تماماً من جواز السفر، ونقاط التفتيش والجمرك، وغضب الآلهة. وظل الأمر على هذا النحو حتى بعد أن أشرقت شمس الاستعمار أواسط القرن الماضي، وباتت رحلة كهذه مرئية ومعلنة.

كان عفوياً وطبيعياً أن يتحرك سكان هذه المساحات الشاسعة مع حركة النهر أو بعكسها كما الشرايين والأوردة، وأن يفيضوا هنا وهناك مثلما فاضت مياهه. فمع هذا الجريان العظيم، ومع هذه السهول السعيدة، كان يتحرّك في الناس وينبسط شعور عميق بالانتشار والخصوبة، لا شك أنه هو نفسه الذي دفع الإنسان الأول إلى صنع التماثيل وكتابة القصائد. ومنذ أواخر القرن الماضي كانت شظايا هذا الشعور تتطاير شهباً قصيرة العمر فوق سندان عصر الظلمات وتحت مطرقته. وظلّت تتطاير بالطريقة نفسها، ولكن بعمر أطول وحجم أكبر. ثم اتصل الشرار وأوشك أن يصير حريقاً. وفيما كانت الحرب تقترب من ذروتها، قيل لنا إن المستعمر قد تعب منا جميعاً، كسالى وعمالاً ومجاهدين، وإن مدينتنا صارت دولة مستقلة.

يومذاك كانت الحرب شغل الأذهان الشاغل. حرب فظيعة، أدان شيوعيّو البلد أهدافها ومسيرتها. لقد استعادت للإنسان آفاق همجيّته بلا تعديل، وعلى عكس ما حدث لفيضة، روّعته أمام مرآة نفسه. هذه المرة لم تكن الأمراض والجهل ما أقام التوازن بين السكان والأعشاب، بل الصحّة والعلم. أربعون مليوناً من أبناء حواء أرسلهم إلى العالم الآخر أولئك الذين استبدلوا بالعصا الهمجيّة مدفع المدنية وبندقيتها. وفوق أمكنة كثيرة من أنحاء العالم انبثق الهول فجأة على شكل تلال من التراب والحطام ولحم البشر.

هذا النوع المنفّر من الموت كان بعيداً عن نهرنا ومدينتنا. غير أن حالات قريبة جداً منه وقعت بيننا بسبب الحرب. فالذي لم يجر دمه بالرصاص، استنقع الدم في عروقه لفقدان الرزّ والسكر والطحين واللحم، وتعفّن ومات. في البداية توجّه أهلنا إلى ضروع السهول الخصيبة ورضعوها. استعضنا عن الرزّ بجريش الحنطة، ثم عن الحنطة بالشعير، وبالدبس عن السكر، وبالبابونج والزنجبيل وأزهار الحقول عن الشاي والقهوة. وبعد فترة صار الخبز خليطاً سيمائياً من الشعير والذرة والكرسنّة. تلك المرأة التي كانت تغلي الأعشاب، وتذرّ عليها ملحاً قبل تقديمها لأطفالها، عادت ذات يوم وبيديها صفائح شائكة من الصبار. وكان قد بقي في (البريموس) ما يكفي من زيت الكاز ليغلي هذه المادة الزقومية ويجعلها حساء داكن الخضرة استطاع بسهولة أن يقتل أحد أطفالها.

لم نعرف عدد الذين ماتوا بفعل شبه المجاعة تلك. فإحصاءات الحرب العالمية الثانية لم تدرجهم في جداولها، لاقتصارها على الأوروبيين والأمريكيين. ولم يُعرف عن أحد من موتانا أنه كتب ملحوظة بموته قبل أن يموت. لقد كانوا على قدر كبير من الحشمة والاتّضاع، فلم يخطر لهم أن موتهم سيهمّ مؤرخاً أو روائياً. لكن الموت كان وفيراً في المدينة، راسخاً كندوب جراح قديمة، متكرمشاً كتلافيف المخّ، مبثوثاً كغبار الصحراء

ورطوبة النهر، متشرنقاً داخل الألوان الحرباوية والأشكال الصقيلة والرؤوس الرخيّة.

لم تكن الحرب مأساة كلّها. لقد جاءت إلى مدينتنا بنقلة حضارية نوعيّة، فمع الارتفاع الجنونيّ للأسعار، تضاعف وتضاعف سعر زيت الكاز، الذي انتقل إلى الأيدي الخفيّة من السوق السوداء. كان ضرورياً أن تنار الشوارع، ليهتدي المجاهدون والمشاة واللصوص والعشّاق والقتلة إلى غاياتهم. وبالطبع لم يسمح لزيت الزيتون أن يحلّ محلّ الكاز، فقد صادرته سلطات الاستعمار مع جلة مواد العيش الاساسية التي صادرتها لتدعيم مجهودها الحربي.

خلال أشهر ظلّت مطفأة وبهاء تلك القناديل المودعة كالتمائم في علب معدنيّة معلّقة على نواصي الشوارع. أخيراً اضطرّت السلطات إلى أن تنصب عندها أعمدة خشبيّة عالية متوّجة بحواجل زجاجية وأسلاك. وهكذا دخلت الكهرباء فضاء مدينتنا، ثم بيوتها. وتمّ للسلطات القضاء على ظاهرة جديدة أشبه بالمعجزة، هي انبثاق أجنحة ليلية لأكياس الطحين والقمح وغيرها، تتسلّل بها إلى بيوت محمد علي باشا العبد الله وشيحة بك سرحان وعزت باشا اللهاع. وخلال زمن لم يعد الآن حتى قصيراً صرنا نقرأ ونكتب على ضوء الدورق الصغير الوهّاج الذي سمي فيما بعد لمبة. لقد بزغ بدر عجيب في كل بيت. ولولا الخوفُ من الشرك، لركع أجدادنا وجدّاتنا خُشّعاً للكهرباء.

غير أن سلطات الاستعمار ما لبثت أن عاينت الإسراف الخطير المخلّ بأمنها في استهلاكنا للضوء. وقرّرت أن تخفّف عنا صدمة الحضارة فحبست الكهرباء إلا ساعتين يومياً، تبدآن بعد ساعة من المغيب. وهكذا عادت إلى العمل الطبيعي الدؤوب قطاراتها التي كانت تحمل موادّ العيش المصادرة لأجل المجهود الحربي، وكفّت عقول الناس عن التفاعل الخطر مع النور.

كان هناك أناس عجزت الحرب عن إخماد شهوتهم للحياة، أو حتى إضعافها. هؤلاء أنعم الانكليز عليهم بالكهرباء مساء كل خميس وسبت. وفي هذين المساءين من كل أسبوع، أثبتوا بما لا يقبل الشكّ أننا شعب ذو طبيعة سعيدة، وبلاد ذات خيرات لا تنضب. كانت أرقى الحفلات وأعظمها تلك التي أقامها محمد علي باشا العبد الله وعزّت باشا اللهاع. فهذان الفارسان العنيدان في حلبة الصراع على الأولوية في الكرم والضيافة، كانا أيضاً زيري نساء باسلين، ورسولي حضارة طوّرا بقدرة جزدانيهما الموسيقى والغناء والطبخ ورقص البطن، ثم حفلات الزار والزواج والختان، والتهريب والسوق السوداء والدعارة.

في تلك المراتب العلويّة من البرج البشري، شعّت شمس قوية من السلام والثقة والسعادة. وما الذي يمكن أن يقال في حفلة يقيمها محمد علي باشا على شرف المندوب السامي البريطاني، الذي عيّنه والياً على مدينتنا؟ لقد ظهر عطوفة الباشا على مدعوّيه متأبطاً ذراع المطربة ماريزا الإيطالية وذراع الراقصة بدعدع البدوية، فهاج المدعوون وماجوا، وأترعت كؤوس الخمر وأفرغت وأترعت. وباقتراب موعد وصول المندوب السامي اقترب الفرح من ذروته المرجوّة، التي ما كان شيء آخر ليتوّجها سوى تلك الإطلالة البهيّة.

لكن حادثاً صغيراً رافق وصول سعادته أوشك أن يتحوّل إلى روح شرّيرة تعصف بطقوس الفرح الرحمانية وتقوّضها، فعندما ترجّل سعادة المندوب أمام عتبة الباب الخارجي، استقبله محمد علي باشا ومرافقوه استقبال الكهنة لإلّه المطر. وكان بين العتبة وساحة الدار رواق طويل ضيّق، تقدّم عبره الموكب ويدا الكاهن ما زالتا ممسكتين بيد الإلّه وذراعه.

في منتصف الرواق انطفأت الكهرباء.

ارتعشت يداهما وتوتّرتا. كل منهما شدّت على الأخرى كما تشدّ يد المضحّي على عنق الأضحية، ولم تتركها. بعد دقيقة كاملة سطعت الكهرباء. كان وجه المندوب السامي رملياً شاحباً، ووجه الباشا دموياً قانياً. في ستين الثانية تلك أيقن الأول أنها المؤامرة، وتوقّع في اللحظة التالية سيفاً يهوي على عنقه من يد أحد المجاهدين الأبالسة المعشّشين بين البساتين وكهوف التلال المسردبة. وأيقن الثاني أن منصبه قد ضاع كرمى لعيني عزت باشا، وضاعت معه السلطة والتهريب والنساء والسوق السوداء، وأن ممثل جلالة الملك مقتنع لا محالة بترتيبه هو للمؤامرة. ستون ثانية أعادتهما إلى الزمن الثقيل البطيء، الذي جثم على أعينهما كظلام ذلك الرواق. وفي كهوف نفسيهما البدائية تلاطمت أمواج خوف ثلجيّ ما لبثت أن نفرت من المسام وتحجبت على الجبين والسالفين. وظلّت اليدان متماسكتين من الخوف المتبادل حتى أضاءت الكهرباء الوجوه فشهقت هذه بابتسامة. وبعد ثوان لا تزيد عن تلك الثواني، استطاعت الابتسامة أن تستعيد للحفل السلام والثقة والمحبة والسعادة.

في الوقت المناسب أقبل الحشد الرغيد إلى موائد شرقية صُفّت بطريقة غربية حول «الطاولة السامية»، حاملة ذلك العدد المتأبّي على الإحصاء من أنواع الطعام التي أبدعتها عبقرية مدينتنا. كانت القلوب عامرة بالفرح، والحناجر صادحة بالضحك واللغة. وقد رفضت ماريزا وبدعدع التوقّف عن إبداعاتهما على مدى وقت الأكل والشرب.

كان قصر الباشا يبعد عن أقرب دارة له مئة متر على الأقل. وهكذا أتاحت سعة المكان المجال لجماعات غفيرة من متسوّلي المدينة وكلاهما أن تتجمّع هناك، وتحوص بهدوء منتظر وصمت شبه قرير، واثقة تماماً أن معداتها ستكون ذلك الليل أملأ براميل القمامة المتناثرة على طول ضفّتي النهر الكبير.

- ٣ -

أدركت أمّ مصعب أن شيئاً غير عاديّ قد حدث لابنها. لم تعرف ما هو، لكن انقطاع الولد عن الأكل يوماً، ثم التهامه في وجبة واحدة ما يكفي ثوراً طيلة يومين، أشارا إليه. هي تعرف: عندما يضطرب عقل مصعب تضطرب معدته. وهذه القصيدة التي يكتبها ويعيد كتابتها منذ عشرة أيام ليست أقل من لمسة في عقله. شيء لم تشهده من قبل. إن لمصعب شياطينه، لكنه هذه المرة متلبّس حتماً بشياطين غيره.

أخيراً سألها. كان يعاين ازورارها النهاريّ وسهدها الليلي من اضطرابه ورعبه، فرتّب أوراقه جيداً (وكان منشور وجدانه السرّي قد هبط أخيراً كلّه في شكل قصيدة) وقرأ لها بعض ما كتب. نظر إليها منتظراً تعليقاً. ودمدمت الأمّ: «يا ابني لماذا كل هذا القول في الموت؟» تضايق قليلاً، لكنه قرّر أن يغفر لأمه أمّيتها. وبدلاً من الجواب سألها: «أمي، هل تعرفين فيضة؟».

في لحظة واحدة شهقت الأم ودقّت على صدرها. هل لقيها؟ هل تكلّم معها؟ هل أطعمته شيئاً؟.. قاطعها مصعب: «أعرف، أعرف فيضة مجنونة. لكن هل جُنّت لقتل أبيها وعريسها وبس؟» هدأت الأم. وجعت قلباً من السؤال: «الله يكون في عونها يا ابني،» تمتمت. أعاد السؤال.

مسكينة فيضة. كانت بنتاً ساحرة الجمال. أكيد أن جنّياً عشقها لكثرة ما هي جميلة. أبوها، شيخ مشايخ غجر عمريت، كتب اسمها على اسم ابن عمها منذ صغرها. ولما كبرت وبلغت، لم تبلغ. لم يحدث لها ما يحدث للنساء. ما هذا؟ أليس جنوناً هذا الحديث عن النساء مع ولد؟ يعني ما يحدث للنساء ولا يحدث للرجال. كل ثمانية وعشرين يوماً. أي طبيب! أنت مجنون؟ طبيب لعند النيلوتيين! هؤلاء عندهم كل طبّ الدنيا. ألف عشبة وعشبة. معلوم! لكنْ كلّها لم تنفع. هذا حكم الله يا بني. وبعدها؟ بعدها ذبح الانكليز مئة شيخ، الله أعلم، بينهم أبوها وعريسها. جاءوا بناعوس وعملوه سلطاناً.. تعرف. فيضة طقّ عقلها. يمكن على ابن عمها وأبيها. يمكن على حالها وحيضها. يمكن لأن جنّياً عشقها. لكن فيضة، الشهادة لله، من صغرها تتكلّم بكلام أكبر منها. وكلام مطقطق ومكسّر. لما تركت الجبال.. من ثلاث سنوات، يمكن.. تركتها لأنها طق عقلها.

لا ، يومها ما كانت مجنونة . إنما ، فيضة من صغرها وعندها شطحات . قلقة ، قلقة . قلبها قلق . المنجّمون ، وضاربو الرمل وحسّابو الكفّ ، خافوا من قراءة مصيرها . بربروا كلاماً وسكتوا . مع أنها بنت شيخ العشيرة . كانت ستأخذ مكان أبيها . قارئة كاتبة . محتسنة . والآن ، هائمة على وجهها .

« هكذا إذن ! » غمغم مصعب نصف شارد . « الآن فهمت » .

تخثّرت أمّ مصعب ، ويبس الكلام في فمها . إذن فهذا الولد تكلّم معها ! وربما أطعمته شيئاً ! وربما لمسته ، أو احتضنته ! متمنّية أن يأتيها الحيض ! جرضت بريقها وشرعت تتمتم آية الكرسي . لم تفارق عيناها وجه ابنها السادر المكروب : أكيد أن هذه الساحرة استعملته ليأتيها الحيض !

لم يعِ مصعب شيئاً من هواجس أمه . دوّم فمه وغاصت عيناه في شرودهما . وإذ نهضت الأم ببطء وذعر ، كان استغراقه برهاناً آخر قاطعاً على أن الساحرة قد لمسته . تراجعت بحذر ومكر ، وهي تقرأ آية الكرسي من جديد . توشّحت بملاءتها ، وانطلقت إلى دارة الشيخ السمنكي .

ولجت أمّ مصعب حجرة الشيخ السمنكي بلا إبطاء . قبّلت يده ووضعتها على جبينها . ثم نهضت من نصف جثوّها وراحت تتلعثم بطلب طاسة الرعبة . « ما خطبك يا امرأة ؟ » سألها . حكت له . « هذه غولة . ألم يصل إلى علمك أنها تنشر الآفات والأوبئة ، وتصيب بالمرض ، وتلوّث العقول ، وتقطع النسل ؟ »

« داخلة عليك يا سيدنا الشيخ ! » التاعت أمّ مصعب . وأخرجت من صدرها لفافة مال فوضعتها قرب المبخرة .

نهض الشيخ السمنكي بتؤدة ، وقصد خزانة ذات واجهة زجاجيّة . على الرفّ الأعلى لمعت الطاسة ، فكأن قدرة عجيبة أضاءتها من الداخل بنور خاص . عرفتها الأمّ فوراً ، فتلك لم تكن المرة الأولى . كانت نصف كرة من النحاس على قاعدة دائرية ، عبر بها الحاج السمنكي البحر عائداً من مكّة المكرمة . على سطحها الخارجيّ أمشاج مطليّة بالفضّة من الكلمات المقدّسة ذات الأشكال الفنّية الغريبة . « سمعت أن فيضة تأكل بثدييها . إننا عائدون القهقرى بلا ريب . مع هذا الجيـل الجديد ، مؤكّد أننا ملاقون مصير عاد وثمود . اسألي ابنك يا امرأة ، هل أغوته الغولة ، فنقلت إليه واحداً من تلك الأمراض . لأنه إذا لم يستفد من كرامات الطاسة ، فإن في الأمر بلاءً عظيماً . »

مع الكلمات الأخيرة انتقلت أمّ مصعب من طور إلى طور . انتهى حديث الشيخ فجثت

ثانية أمامه، ممدودة اليدين، وهتفت ملتاعة: «ولكن يا سيدنا الشيخ! إذا الطاسة.. استغفر الله.. قصدي، إذا كانت الحالة صعبة، ستضع يدك على رأس مصعب وتقرأ عليه، ما؟»

«روحي الآن وشوفي شغل الطاسة. بإذن الله سيزول المكروه.»

كان مصعب قد أعاد كتابة القصيدة عندما وصلت أمه بالطاسة،بعض الشعر. رآها فاحتدمت نفسه وتوتّر جسده. ولاحظته الأم فأيقنت أن مفعول الطاسة قد بدأ. ملأتها من جرة الماء واقتربت خطوتين. «أمي! أبوس يديك! لن أشرب الماء.» «بل اشربه يا حبيبي. الماء صار مقدساً الآن. سيشفيك.» «أمي! أنا إنسان يحترم العقل. الموقف السحريّ ضد العقل والحضارة. أنت تحتقرينني، وتهينين كرامتي!» «بلعة واحدة. وبعدها قل الذي تريد عن العقل. بلعة واحدة.» «ولا قطرة. وإلا خنت إيماني بالاشتراكية وبوحدة النهر الكبير. أمي! هذا شعر، شعر، ليس جنوناً.» «أريد أن أشفيك من فيضة. فيضة مسكونة. بلعة واحدة.» «فيضة كاهنة.» «اشرب وأعطيك قرشاً كاملاً.» «ولا قطرة. ولو كان وراءها مال الدنيا.»

أطلقت الأم آهة يأس: أين ذهب الأب يقاتل الإنكليز وترك ابنه للجنّ والمجانين. تهيّأ مصعب لتفادي رشّة الماء على رأسه. وخلال ثوان كان وأوراقه وقلمه قد صاروا خارج البيت.

هناك حسّ بالشيخوخة يهمي على المرء بنوع من الوهن والسكينة كلما استردّت الذاكرة أحداث يفاعة سعيدة. لقد انقرضت مدينة الباشا والبيك الآن، وطاسة الرعبة، والقنديل وبيع الخضار في الشارع. لكن هذه كلها تبدو كما لو كانت هنا العام الفائت فقط، بينما تلوح مدينة طفولتنا مرميّة وراء شفق الفجر البشري. كأنها ومضت قبل بدء البدء وظلت هناك: رؤية مستحيلة تتمحّلها الذاكرة، أكثر منها تاريخاً مؤكداً تراه العين. أو ليس عظيماً إلى حدّ لا يوصف أن تتمدّى في فضاء مدينتك، بعد منتصف الليل، بولَهٍ ونشوة وانتشار كما لو أنك تتمدّى في جسد الحبيبة؟ ولقد عشقنا المدى والخروج. صار هروبنا الليلي إلى صدر المدينة هوى متحكماً. بيوتنا المنغلقة بوجه العالم، المنفتحة على ذاتها برواسم الخرافة والاغتراب وتصيّد الغيوب، كانت تمتلك قوة نابذة تقذفنا إلى الخارج، إلى مجهول نتحسّسه، ومتوقّع لا نعرف ما هو. صبوة نهريّة لا نستطيع مقاومتها. هذا التوق المجنّح كالبقرة السماوية هو الذي أوقع فيضة في خيالنا وأوقعنا في حبائلها.

بعد أن خيّم الظلام ذات مساء ربيعيّ، وغبشت المدينة بضوء الكهرباء الضرير،

عصفت رياح الخماسين ونباح الكلاب الشريدة فأحالا الشوارع إلى قفر مرهب. خلال وقت قصير أمسى تسكعنا عبثاً. كنا نصف جائعين، كاملي التأكد من نظافة الشوارع في بيوتنا.

فجأة رأيناها. مثل عمود غباري. كانت تعبر الشارع. نسينا جوعنا وأسرعنا وراءها.

في الفضاء الأغبر أمام قصر محمد علي باشا وقفت وأطرقت. تراجع المتسوّلون قليلاً، خوفاً منها. وغعغعت الكلاب هنا وهناك، فنشرت أصواتها في الآذان حساً بشرٍ مقبل. بعد ثوان التفتت نحونا بابتسامة وهدوء فاتّضح لنا أنها كانت تنتظر وصولنا.

وقفنا هنا وهناك في الساحة وقوفاً متلكّئاً. كانت الكلاب قد التفّت حول فيضة، وصوت الغعغعة ما زال يصدر من حلوقها الوحشيّة. حقاً كان مشهداً نافذاً في النفس، رافق ذاكرتنا سنين طويلة. إلا أننا في اللحظة الليلية تلك، وفي ذلك العمر الصغير، وقفنا بثقة مطلقة من أن الكلاب لن تتمكن من فيضة أبداً.

« عندي لكم مطبخان يا جائعين. هنا واحد منهما. » وأشارت بعصاها الملفوفة داخل رايتها الخضراء فوق رؤوس الكلاب إلى ركن في قصر الباشا. « هنا كهّان وكاهنات. ومنشدون وموسيقيون. وخصيان (وبغايا هنا. هنا تقدّم الدهون والزيوت والجعة والنبيذ، كرمى للآلهة. »

مشى عبد العليم الغزال خطوة لا معنى لها، ونبر مخاطباً فيضة فيما هو ينظر إلى بدر الهلالي: « تتكلمّين كأنك تملكين القصر ومطبخه! »

« أنت ستملك القصور والمطابخ يا عبد العليم. لكنك ستبقى جوعان. »

مرّت ثوانٍ من الصمت. كانت ذراع فيضة ما تزال تمدّ عصاها باتجاه القصر. أحسسنا بقرصة في المعدة. قال بدر الهلالي: « والمطبخ الثاني؟ »

غير ملتفتة ولا بطيئة، انطلقت على الطريق الجنوبيّ المفضي إلى الجسر. مشت بخفة صبيّة في آذار عمرها. وأخذ هيكلها المجلبب برداء فضفاض يبتعد بسرعة، مخلّفاً وراءه شهوة جسدية غامضة.

قال مفيد: « هذه امرأة خرقاء. سمعتم حديثها عن الآلهة؟ » وأضاف عثمان فهمي: « لكنها مسلّية. » انطلق بدر وراءها، ثم مصعب، ثم طاهر ونذير، ثم كثيرون. خنخنت الكلاب للانصراف، وانفكّ عقدها.

رويداً رويداً، انطلقنا وراءها. لحقنا بالذين لحقوا بها عفو اللحظة وفي أعينهم صور

وإشارات. لم نكن واعين بهدف محدّد، أو دافع واضح، يحملنا على اللحاق بتلك المرأة. فقط حسّ بالدخول في عالم مختلف عن الذي خرجنا منه. أما فيضة نفسها فقد كانت تتوغّل فينا وقت اعتقدنا أننا في الحقيقة نتسلّى بجنونها ونضحك عليه. لقد أبقينا عقولنا ـ نحن الرافضين للسحر والخرافة ـ على مسافة أمان من جنونها، وهكذا سمحنا لوهج خفيّ يشعّ منها أن تلتقطه أعماقنا بسرعة مغنطيسيّة.

أدركناها عند الكورنيش، منحنية فوق كتلة ليلية جاثية. لم يكن القمر قد بزغ بعد، فمشينا إلى حيث وقفت تماماً قبل أن نتبيّن وجه الدرويش السادر وقبضتها الممسكة بياقة جلبابه.

لم تر أحداً منا. لقد نطق بذلك وجهها ونظرتها عندما التفتت.

«اتركوا النهر! اتركوا النهر!» قالت للدرويش وهي تشدّ ياقته للأعلى. «النهر سيفيض. وأنا سأطبخ لحوم أطفالكم. اتركوا النهر يا سماسرة.»

انتبهنا إلى أن الدرويش يغمغم بصوت فاتر رخو كأنه يرتدّ إلى صاحبه: «قابع في مطرحي من ألف ألف. قابع في ضفة النهر العريق.»

وقالت هي: «جسدي يئنّ، يضيق يلهث. الصعتر البرّيّ يغلي. الريح أدغال بأوديتي تهيج. ترغي وتكتسح الخليج.» وكانت قبضتها قد صنعت من جلبابه نصف خيمة فوق رأسه.

قال هو: «في خلاياك بروق الليل حمّى وشرر. ترتدّ عنك النار، تتكسر الخناجر والنبال. شمطاء تنبش في المزابل عن قشور البرتقال. رمل، نفايات، كلاب، مرفأ خَرِب، قمر.»

تحت قبضتها الغاضبة راح جسده يتأرجح: «اتركوا النهر اتركوه!»

وقفنا حول اثنين يتهاتران وكل منهما يظنّ أنه وحده يمتلك النهر والمدينة. لكن المشادّة انتهت بسرعة وعلى غير انتظار. كان الهياج قد جعل فيضة غولة حقيقية. إلا أنها التفتت فجأة نحو الشرق، مثل من نظر إلى ساعة حائط معلّقة في السماء فرأى أنه تأخّر عن موعد خطير. دفعت الدرويش على الرصيف وانطلقت باتجاه الجسر.

كثيرون منا عبروا بالدرويش المتكوّم الذي لم ينبس ببنت شفة. تركناه مرموحاً بين هوانه ونشيده الدهريّ، واندفعنا نحو الجسر. كثيرون: لأن الباقين آثروا الإخلاد إلى النوم، أو الإسراع إلى تناول لقيمات من بيوتهم، مطمئنّين إلى أنهم سيعلمون في الغد بكل

ما سيأتيه جنون هذه المرأة الهوجاء. وهمس عبد العليم الغزال لعثمان مقداد وسرحان سرحان: « هيا إلى القصر. في مطبخه واحد من بلدنا. يحبّني، ويحبّ الجيل الجديد.»

حتى ذلك الحين كان الجسر المعبر البرّيّ الوحيد الذي يصل شاطىء مدينتنا الغربيّ بالشاطىء الشرقي. جسر ضخم هائل لم نعلم يومذاك لِمَ أنعمت به سلطات الاستعمار علينا. وقد جعل الليل الحيّ والنسيم الودود أمتاره الستمئة رحلة انفتاح صامت على الوجود ونجوى داخلية. لقد فاض فينا حسّ بالوسع والعلوّ: هذا الجسر رحم وحبل سرّة؛ وحس بالبهجة والتحقّق: هذه البلاد الجميلة كلها لنا. وفاضت رؤى وابتهالات، ودخان حريق داخلي بطيء بدأ في نفايات نفوسنا الرطبة القديمة التي رسّبتها الرثاثة: هذه المرأة المندفعة في عرض الجسر كزوبعة من المطر، ونحن وراءها نحلم ونحلم ونحلم.

لكن شيئاً غريباً حدث قبيل وصولنا إلى نهاية الجسر. اختفت فيضة. لم نلحظ اختفاءها في حينه. مشينا وراء طاهر العطار الأمتار المئة الأخيرة قبل أن ننتبه. ثم تابعناه رغم ذلك عبر مسلك صغير، فطريق ترابي يتلوّى بين أشجار كثيفة. هو يمشي ونحن وراءه، كما لو أننا ماضون إلى نقطة معروفة محدّدة.

مشينا بسكون وانضباط. أحسسنا أننا حيال طقس، فارتمت وجداناتنا على حسّ عريق بالمثول والانخطاف. بدأ الطريق يعلو ويتداخل. توقّف طاهر مطرقاً. توقفّنا ونظرنا إليه. عندها فقط أدركنا أننا كنا نتبعه دون أن ندري. قال نذير النميري بحميمية: « يا الله يا طاهر. لماذا وقفت؟ قدنا إلى العيد.» لم يكن من عادة طاهر أن يرتبك. لكن حيرة عميقة بدت على ملامحه. وضع يديه في جيبه، وتمتم فيما نحن نزدلف حوله: « يا جماعة، قريباً من هنا يوجد نيلوتيون من أتباع فيضة. جاءوا بحثاً عنها، لأن الليلة هي عيد الفصح عندهم أيضاً. وفيضة دعتكم إليه. أظن، هذا هو المطبخ.»

قال وديع عيد: « يعني، أكل حقيقي، لا يوجد.» وقال بدر الهلالي: « عظيم! يا الله!»

تمتم طاهر: « إذا صحت فيضة من وشّتها، قد تترأس هي الاحتفال.»

قال مفيد: « معقول؟ احتفال كبير، واضرب واطرح، بلا أكل؟» وقال مخير سرحان: « سيعطوننا خواتم إذا التقينا بهم.» وسأل نذير: « ما هذه النيران الشاعلة في البعيد؟»

التفتنا إلى قناة عريضة شُقّت هناك لتسقي سهول باب إيل، فرأينا شاطئين من النار العالية يتلوّيان معها. كان القمر قد ظهر ونثر على المدى ضبابه الفضّي. قال طاهر مبتسماً: « بدأ الاحتفال. أنا شخصياً ذاهب. أنا نيلوتيّ، كما تعرفون.»

قال نذير بقوة: « ولو يا طاهر! نحن كلنا نيلوتيون! شعب واحد. وتقدّم واحد. واشتراكية للجميع. يا الله يا شباب! »

بعد دقائق من المشي النشيط المتشعّب بين الأدغال وقف طاهر فجأة أمام صخرة جسيمة، فوقفنا معه. كانت الصخرة محاطة بأكثف دغل يمكن أن تراه العين، وفي الوقت نفسه استثناء جيولوجياً محيراً. لكأن أعماق الأرض المجهولة لفظت هذا التكوين الأصمّ داخل غابة مترامية الأطراف من الأشجار الهائلة والتراب الفتيت. اقتربنا منها بفضول متزايد، وفي لمعة الضوء القمري رأينا رسوماً وصوراً وتعاريج وخطوطاً على السطح الأملس الأغبر، فوقفنا حيارى وخشّعاً: كانت تماماً كتلك التي اعتدنا رؤيتها في التلال.

سأل سعدون ساخراً: « ما هذه الأشكال؟ هل هي لوحة لبيكاسو، يا ترى؟ »

التفت طاهر إليه بجدّيّة: « هذه رسوم بدائية للإله القتيل أوزيري ».

كنا نتصوّر أول الزمان المجيد يبدأ بعبد أسود انتزع حريته بالسيف، وأول الشقاء البشري يبدأ بمنتقم سوداوي المزاج ظل يقاتل الناس أربعين عاماً كرمى لأخ متعجرف اغتاله مواطن رعديد.

أما أن يموت إنسان ويحيا كل عام، وتموت معه الطبيعة وتحيا كل عام، فحدوثة لم تكن لتخطر على بالنا. والحقيقة أن من بقي منا حياً حتى هذه الأيام، ما زال يجدها غريبة أو مجرّد مسلّية ـ رغم أننا نموت ونعيش يومياً دون أن نتسلّى.

تسللت الأسطورة الشيّقة إلى العقول بسرعة. وفي أواسط سنوات الحرب كان لها من القوة ما جعل حزباً سياسياً جديداً يسمي نفسه: « حزب أوزيري لوحدة النهر الكبير »، وسمّاه الناس بعدئذ اختصاراً: الأوازرة.

قالت لنا فيضة فيما بعد إن الآلهة لم تتعطّف وتبعث أوزيري حياً، وإنما أجبرت على ذلك. لأن الحياة كانت تموت بموت أوزيري. وإذا لم تكن ثمة حياة، فلماذا الآلهة؟ إذا لم يكن ثمة ثمار ونسل وحب وجمال وأغان، فلماذا الآلهة؟

قالت إن الآلهة في ذلك الزمان، ومعها سماسرتها، كانت تخاف من انتفاضات الإنسان البدائي، الهمجيّ. فعندما تهدّد الشمس القمح، أو النهر المزروعات، أو العاصفة البيت، فلا تفعل الآلهة شيئاً لمنع الكارثة، كان البدائيون يهجمون عليها بفأسهم فيشطرون جبينها، ولا يكتفون بالتذمّر أو السباب السّريّ. لهذا اضطرّت إلى إحياء أوزيري.

سأل بدر الهلالي: « ماذا يعني: يبعث حياً؟ تعرف أن هذه خزعبلات ».

بعدئذ لم يعد أيّ شيء واضحاً. كان أشباه الغجر هؤلاء مخيّمين عند شاطىء الترعة الشرقية، وكانت فيضة قد انضمّت إليهم. وقد حملت المتابعة مع طاهر إلى خيمهم خطراً واحداً فقط: إذا اكتشف النيلوتيون الغجر أمر أي واحد منا فسيلقى مصير أوزيري دون أن يبعث حياً. وإذا لم يكتشفوه، وظلّت أمعاؤه مكينة، فربما دخل أثناء التعري تحت سطح الماء النيلوفري وفاز بغجريّة يصطحبها إلى ما بين القصب.

أساساً كان الاحتفال العجيب ذاك احتفالاً إخصابياً. فبعد النواح واللطم بين النساء، وإدماء الجسد بالقواطع الحادّة بين الرجال، كانت النساء ينضين عنهن ملابسهنّ البيضاء ويركضنَ إلى الترعة تحت وهج النار الضارمة، ويرتمين على فراش أزهار النيلوفر المرشوش على الماء. وراءهن يمضي الرجال، بأجسادهم العارية التي تخضب النيلوفر والماء بدمها السفوح. في الترعة يختلط الماء والدم وزهر النيلوفر. ويسبح الجميع حتى تخمد النار أخيراً. عندها تدبّ الحياة في أشلاء أوزيري، ويخرج الغجر من الماء اثنين اثنين لاختيار التراب المناسب للحبّ.

لقد تركنا طاهر وغاب أيضاً. قال إن على كل فرد منا أن يدخل في التجربة بنفسه. من الذي دخل باستثنائه هو؟

مؤكد أن مصعباً قد دخل. هو وحده لم يؤكّد ذلك. لكنه فور عودته إلى البيت انتابته حمى فظيعة وظل يتأرجح أسبوعاً بين الموت والحياة. وكان لا بدّ من الشيخ السمنكي ولمسته وقراءاته. وكان لا بدّ من ذبح دجاجتين وتوزيع بيض كثير، نذوراً مستحقة لشفائه.

وإذ شفي تلاشى من المدينة أسبوعاً آخر، حتى أوشك مدير مدرسته أن يطرده. كان يستعيد في غرفة فيضة النبض والإيقاع والحلم والتجربة. فعندما انضمّ إلينا أخيراً، أعطانا ذلك الجسر بشكل أسطورة جميلة وقرأه لنا قصيدة من النوع الذي خرج به على مدماك شعرنا العريق:

يعبرون الجسر في الصبح خفافاً	أضلعي امتدّت لهم جسراً وطيد
من كهوف الشرق	من مستنقع الشرق إلى الشرق الجديد

- ٤ -

أياماً طويلة حرّك فينا عيد الفصح النيلوتي كلّ ما في طاقاتنا من خيال. كانت قصّة شهيد البشريّة الأول أبلغ رسالة يتلقّاها من العصور السحيقة عصرنا الذي تطلّع إلى الخروج من جلده التاريخيّ. لقد تضمّنت سحراً يكفي لكلّ واحد منا. وربما كانت مشاعيّة الحبّ والنهر والتراب أوشم تأثيراً في النفس من الكهرباء والمدارس الحديثة والطرق المسفلتة. وإذ تتابع عبورنا للجسر حيناً بعد حين، وعيداً بعد عيد، كنّا مثل من ينزع اكفاناً رثة عن جسد دفن منذ ألف عام ويرى أن ذلك الجسد ما زال حياً.

لقد تطوّحنا بين برء النيلوتيين الغجر وحرّيتهم وبين أجساد الموت المرمية على قارعات الشوارع باسم الحياة. وكلما تعبّأنا يقيناً بأننا حقاً أنسال أصليّون للنيلوتيين، فتحنا أعيننا على الوصايا العشر والخيانات المئة والمآتم الألف. كأن ثمة إنتاجاً بالجملة لأناس كثيفين، واثقين من وجودهم، ممتشقين الكتب سيفاً والأخلاق مطرقة. أناس بلا قلق، بلا ندم، بلا غضب، بلا أسئلة. لم يعرفوا ماذا يفعلون بالحياة التي امتلكوها فأثبتوا أقفيتهم على عرقها النازف دماً أوزيرياً وهم يفحّون غيبوبتهم باسم الكهنوت. لقد رأينا فيهم أنابيب كبريتيّة تنقل الموت المداجي إلى الحياة الكبرى التي ألهمت الأنبياء.

كان الدروايش في مدينتنا متسوّلين مقدّسين، كهنة متسلّطين على الوجدان ومن هناك على الجيوب. إذا لم ترهم في المعابد رأيتهم في التكايا، أو الزوايا، أو أرصفة النهر، أو نواصي الشوارع: جالسين هناك، حاضرين غائبين، وجوداً بلا كينونة، عروقاً بلا دماء، وجوهاً بلا ملامح، تاريخاً من العطالة المستبدّة بالروح.

وكانوا صيدليات يبيع منها الباشا الصبر للجائعين، وطاعة أولي الأمر للساخطين.

بالطبع لم نكن نحن أصحاب الأيدي الوحيدة التي امتدّت لتنزع الأكفان. إنه شيء كالفيضان، يتراكم ويتراكم بحسب قوانينه الداخلية الصلبة حتى ينساح على مساحة التاريخ المجاورة. في الأربعينات، ولأول مرة في تاريخ نهرنا الحديث، ظهرت أيدٍ أنهكتها القروح وبدأت معركة غير معروفة من قبل. وكانت الميناء مساحتها المجاورة الأقرب.

هناك من يقول إن نشوء حركة عمّالية في الميناء يعود إلى كون العمّال نيلوتيين

أصفياء. فهؤلاء امتلكوا شحنة جمّة من العصبيّة التي تكلّم عنها ابن خلدون، وظلّت مشاعرهم تهدر بدوافع لاواعية نافرة من شخصيّتهم المشاعيّة العريقة. لكن سعدون ورفاقه في حزب العمل قالوا إن الغضب لا علاقة له بالأصول البيولوجية، والجوع ليس من مفرزات اللاوعي. قالوا إن من شيمة الطبقة العاملة أن تحسّ بالظلم وتغضب، وإن من واجب طليعتها الثورية أن تجدول هذا الغضب.

مهما كان السبب فقد غضب العمّال. إن لكل شيء طميه الخاص حول نهرنا الكبير. وقد تراكم طمي الغضب في العمّال عاماً بعد عام. وتسارعت وتيرته بفضل النشاط الاقتصادي الذي أنعم به الاستعمار على مينائنا. لكن نفثاته ظلّت قابلة للاحتواء والسيطرة. غرق الكثيرون منهم في عرض النهر، إذ انقلبت بهم فلوكهم المثقلة أحمالاً. انفرمت أصابع كثيرين. انبترت أذرعتهم وأرجلهم. انقصمت أعمدتهم الفقرية.انفقأت أعينهم. قُتلوا تحت الصناديق الجسيمة.. فبقي هذا كله أحداثاً فرديّة استطاع شيء من المال وشيء من القمع أن يفثأا تأثيرها.

ربما بسبب اضطرابات الثلاثينات، ربما بسبب الحرب وانقطاع المواصلات، تمّ الاعتماد على المصنوعات المحلّية، نشأت معامل صغيرة وظهرت رأسمالية عائلات محلّية، ومعها رشحت طبقة عاملة وتضخّمت بالهجرة من الريف إلى سيولة المدينة. هذه الأحياء الشعبية التي أنشأوها في الشمال والجنوب كانت شوكة قبح في عين محمد علي باشا الذي لم يتعب يوماً من الإشادة بجمال بعليتا.

فيروس من نوع خاصّ، يختلف عن بقية الفيروسات الأهلية والمهلكة، تفشّى في العمّال أثناء الحرب. لم يكن أنهم تضايقوا من هزال أجورهم، فقد كانت دائماً هزيلة؛ ولا أنهم يعيشون على حافة الجوع، فقد ألفوا ذلك العيش. كان الأمر هذا كله وشيئاً أكثر. ربما أن الحرب هزهزتهم خارج دائرة بيئتهم النهرية إلى أفق العالم، وقدمت لهم عبر ضحاياها منشوراً علنياً كان كافياً لأن يجعل أجدادهم النيلوتيين يثورون على آلهتهم. لقد آنتشت الرسوبات في خصوبتها المضمرة حياة ناقمة ما كان لها أن تطفر إلا في ذلك الأوان.

هذا الشيء الأكثر ،الذي يبدو لغزاً فقط لأننا جاهلون به، هو على الأرجح نفسه الذي حرك ساكنات (وعليتا) أيضاً. هؤلاء اللواتي لفظتهن المدينة إلى ضواحيها الاجتماعية الصدئة فأعطتهن مزيداً من الحرية والطبيعية، قرّرن فجأة ما لم يكن ليخطر على بال أحد: أن يقمن بمظاهرة. إن شيئاً كهذا لن تعيشه مدينتنا ثانية، وخاصة بعد أن ألغي فيها البغاء العلنيّ وهو يستحق منشوراً موجزاً غير سرّي.

عندما أطلت الحرب كان النشاط المسرحيّ في بعليتا قد انفصل عن سهرات الباشوات وطبقتهم، ومضى إلى بيوت خاصّة استأجرها المسرحيّون أو استعاروها لتقديم أعمالهم. ولو لم تطالبنا الأخوّة الإنسانية، ممثّلة بالمندوب السامي البريطاني، أن نقدم خيرات بلادنا دعماً للمجهود الحربيّ لاستمرّ النشاط المسرحيّ على ما يرام من ازدهار وتنوّع. لكن وقتاً جاء في فترة معركة العلمين وهدّد هذه البيوت بالإقفال. وبدلاً من أن يأتي البرجوازيون الجدد إلى هذا النوع الحديث الراقي من المقاهي، صار العاملون المسرحيّون يذهبون إليهم حاملين البطاقات بالأيدي. لقد أملوا بيعها بالتخجيل والتبجيل. ولكن عبثاً: «نحن يا ابني، بعد الشغل، نصلّي العشاء وننام!»

غير أن الفنانين لم ييأسوا. امتنعت عليهم الدكاكين ومعظم المدينة، لكنّ حياً بأكمله ظلّ مفتوحاً أمامهم. كان لوعليتا مطعمان مسرحيّان يقدّمان الشواء والرقص، وعدد من البيوت الأخرى تقدم الرقص الخاص إلى جانب البغاء. وحقاً، فقد حلّت الأزمة كلها هناك. وكانت نقلة ثقافية مذهلة حين راحت البغايا يشترين البطاقات بلا تردّد. وكلّ يوم كانت الذاهبات إلى المسرح يتحمّمن بالكامل، يلبسن بلا بهرج ولا تبرّج، ويرتدين الحجاب، ثم يمضين إلى حيث أشارت بطاقاتهن. في الصالة كن يجلسن بهدوء وحشمة وانتباه، ويتابعن العرض المسرحي بانفعال شديد، فتهطل دموعهن مع المشاهد المؤثرة وتخرج أصواتهن وشهقاتهن، تعاطفاً مع من غدر بها الزمان أو الحبيب أو المجتمع.

إن للعافية النفسية الأرسطية التي كانت البغايا يعشنها بعد كل مسرحية وبكاء مكاناً خارج قصتنا هذه. لقد حرصت كل واحدة منهن على أن لا يحول سببٌ تحت الشمس دون قضاء عشية يوم عطلتها في المسرح. ومثل كرمهن المدهش في شراء البطاقات كان سخاؤهن المحرج في ذرف الدموع (سخاء بلغ مداه في غياب المساحيق والنثور). لكن رياح المدينة لم تجر طويلاً بما تشتهيه سفن المسرحيين وساكنات وعليتا.

بغايا في صالة المسرح! ويبكين أيضاً كالنساء الشريفات المالكات مشاعر صادقة! وكيف تحضر الحرائر المصونات مسرحاً وهنّ لا يعرفن هل الجالسة إلى يمينهن أو يسارهن، أمامهن أو خلفهن، حرة مصون أم واحدة من إياهن؟

باختصار، نهض الدراويش غيارى على الأخلاق والمنزلة الأجتماعية. ونهض من كان يصلّي العشاء وينام. ونهض كثيرون من الشرفاء بالعدوى. وفي زمن يسير نسيت مدينتنا الاستعمار البريطاني وهبّت تناضل ضد استعمار البغايا. واحتار الباشا هل يحافظ على الأخلاق العامة والثقافية فيرضي أبناء طبقته ويغضب المندوب السامي، أم يفعل العكس؟

وإلى أن صدر قراره اللبق بإلغاء العروض المخصّصة للنساء كان المجاهدون قد استغلّوا الفوضى الناشبة فنهبوا اثنين من مخازن حنطته وهاجموا موقعاً بريطانياً عند الجسر.

كان متوقعاً أن يمر قرار الإلغاء بسلام. لكن ذلك الشيء الأكثر جاش في خواطر ساكنات وعليتا فأثار حسّهنّ بالكرامة، بل ولعله حسّهنّ بالمواطنيّة. لقد روّعهن حرمانهن من فترات البكاء والشهيق الشافية تلك، ورأين أنهن سُلبْنَ حقاً كفلتْهُ لهنّ الطبيعة. ورغم أنه لم يكن ثمة دستور يومذاك، فقد نزلت الكلمة في مكانها الصحيح من أذهانهن فور أن نطق بها المحامي فاضل السمح أمام خليلته في شارع المهدية، ولم ينس أن يعيب على الإنكليز، في الوقت نفسه، تخلّيهم عن كياستهم إزاء المرأة وعن مبادئهم الثقافية.

وهكذا فعندما نشبت معركة الميناء وبلغت ذروتها بمقتل العشرات من العمال والمجاهدين، بينهم أبو مصعب السبتي، صارت الشرارات ناراً، وأجمعت المدينة كلها على القيام بمظاهرة.

كانت بداية المعركة إلقاء السلطات البريطانية القبض على اثنين من العمّال. لقد ضبطتهما وهما يسرقان قمحاً كان عليهما نقله بالفلوك إلى السفن البريطانية الجاثمة على صدر النهر. بين المستودع في طرف الساحة الغربي ومخفر الشرطة الاستعمارية من الطرف الآخر، جُرجر العاملان المتأبيان الصارخان، وأهينا، ورُكلا، ثم ضُربا بالهراوات. اصطفّ العمال على جانبي المشهد، يراقبون ما يحدث بغيظ مكتوم، ويتبادلون نظرات صامتة مشحونة. بين أقدامهم وأقدام الشرطة البريطانية نهض حاجز خفيّ ومنعهم من الحركة: خوفهم من حلمي السعدني، صاحب الفلوك.

حلمي السعدني، الذي راقب المشهد كلّه من غرفة مكتبه الزجاجيّة عند الرصيف، خاف أيضاً من دبيب الحركة في أقدام العمال. لقد بات يعرف، وهو العريق في ترويض شغّيلته، أنه لم يعد في الآونة الأخيرة ناجحاً تماماً في سحق تذمّرهم. وخاف أكثر لأن أشباح المجاهدين انتشرت هنا وهناك، محسوسة وغير منظورة، ومتربّصة بالمخازن الغذائية.

كالعادة، لم يعلم أحد مَنْ بدأ المعركة ولا كيف بدأت. قبل أن تصل الشرطة بالعاملين إلى المخفر كانت الساحة الخالية نسبياً قد امتلأت بالأجساد المتلاطمة والأذرع المتقاطعة فالأنوف المهشّمة. انبثق العمال من كل مكان، وكذلك الشرطة، وفتوّة حلمي السعدني، ثم الكوماندوس البريطانيون. وانخرط الجميع في معركة عضليّة ضارية.

نهر البشر هذا الذي فاض على الساحة بلمح البصر، غاض أيضاً بلمح البصر. ليس لأنّ المعركة حسمت بسرعة، بل لأن الرصاص لعلع، وانطلق باحثاً عن الرؤوس الحامية. بالطبع، لم يكن بمقدور العمّال أن يصارعوا إلا بعضلاتهم. أما صراع البنادق فقد استمرّ بين المجاهدين وبين الشرطة والفتوة والكوماندوس، إلى أن تمكّن المجاهدون من نهب كمية كافية من أكياس الطحين والسكر وعلب السمن، فأوقفوا إطلاق النار من جانب واحد.

لأول مرة في تاريخ الميناء ينطلق رصاص ويسقط قتلى. ولأول مرة أيضاً يضرب غرابان بحجر صارم واحد: العدوّ الوطنيّ والعدوّ الطبقيّ. لم يكن الحجر كبيراً، لكن قذفه دوّى في المدينة كلها. وقد صاحب هذا الدويّ إيقاعات للموت تداغمت فوق بعليتا كخيمة شاسعة من الرعب والصمت والترقّب، وتوغّلت في النفوس حزناً على أبي مصعب ورفاقه، الذين اعتبروا للتوّ شهداء.

وهكذا جاء ذلك اليوم، وانضمّ الجوع إلى الغضب إلى الحلم، مثل أثافي تحتضن ناراً ضارمة. صحيح أن مدينتنا لم تكن يوماً عاصمة لأية دولة قامت على امتداد النهر عبر العصور. لكنها في ذلك اليوم صارت عاصمة لمظاهرة شعبية كاسحة، انفجر بها عشرة آلاف من الجائعين الغاضبين الحالمين، ثم انتقلت عدواها إلى باب إيل وبيت رع والمخاة وعمريت وشوباد، وأوشكت أن تصل إلى نيلوتيا الشمالية. يومها أحسّت أمواج من البشر أنها يجب أن تخرج وإلاّ انفجرت: العمّال بالطبع، والطلاّب، والحِرفيّون، والمحامون، وأصحاب الدكاكين الذين أقفرت دكاكينهم بسبب الحرب، والجائعون من كل صنف ولون، وأخيراً البغايا.

انتشر خبر المظاهرة قبل وقوعها. باستغراب تامّ عاينّا مضاعفات حادث قبل أن يحدث. ليس أن المندوب السامي والباشوات تربصوا بالمظاهرة والمتظاهرين، وأعدّوا لها ما استطاعوا من قوة. هذه ردود فعل متوقّعة. لقد قامت تظاهرة غريبة تأثّراً بالمظاهرة العتيدة المرتقبة. فبعد غضب جارف وتبرّؤات معلنة من الآباء تجاه الأبناء، نفرت كل أمّ، وقد أيقنت أن الكارثة واقعة لا ريب فيها، إلى أول درويش صادفته، والتمست منه حرزاً حريزاً لولدها الحبيب أو لزوجها المجنون. «سيطلقون النار! قد تفوت الرصاصة في رأسه! أتوسّل إليك يا شيخي! وهات يدك لأبوسها! هه! اكتب لي حرزاً ـ الله يكتب لك مطرحاً في الجنة ـ يجعل رأسه وصدره وجسمه وأظافره مصفّحة مثل الحديد!»

سبّب هرع الأمّهات وهلعهنّ فوضى في المدينة واضطراباً. الدراويش وعديد من

الأتقياء، رأوا علامة من علامات القيامة. فبعد «الحرب» التي قامت في الميناء، ومقتل المؤمنين برصاص الكفّار، ها هي ذي النساء تخرج إلى الشوارع فكأنّ الحشمة والأنوثة والالتزام النسوي بالبيت قد اندثرت، وصارت الحرائر يقلّدن ساكنات وعليتا: أولئك إلى الحروز وأولئك إلى المسرح. لقد حفلت الزوايا والتكايا بحضور نسويّ لم يسبق له مثيل ـ مذهل بذاته وبجرأته وكثافته.

لكن الخوف الذي قرع قلوب الدراويش مع ذلك الذهول سرعان ما تلاشى، وحلّ محلّه حبور تقيّ جليل أوشك أن يدفع الأيدي إلى فرك راحاتها. إن مثل هذا الرزق فيض لم تَجُدْ به السماء منذ مئة عام (يوم ساق السلطان أجداد هؤلاء الأمّهات إلى حرب مماثلة لا عودة منها). وراح ثمن الحرز يزداد، وكلماته تقلّ، وحجمه يصغر. وفي النهاية كفّ السادة الدراويش عن أداء واجبهم في نصح الأمّهات أن يردعن أبناءهن عن معصية الله وأولي الأمر.

ليس في وصف المظاهرات الشعبية ما يفاجيء تاريخاً. وإذا كان المنظر الآن ممتنعاً عن العين في شوارع مدينتنا، ففي التلفزيون ما يرضي الفضول من مظاهرات الجماهير في هذا البلد النائي أو ذاك من بلدان العالم التي لم «تستوطن» فيها الديمقراطية بعد.

لكن تلك المظاهرة كانت شيئاً خاصاً. كانت انفجاراً لفلذات عميقة ثم انصهارها في أتون داخلي مهول مجهول. ففي السادسة من صباح اليوم السابع لدفن الشهداء خرج الآلاف من بيوتهم إلى المقبرة. كأن بوابات سدود هائلة قد انفتحت واندفع منها الطوفان. وعندما انساحت عبر شوارع المدينة، من كل مكان إلى المقبرة عبر حي المهديّة، كانت في صفائها وقوتها وبهائها شيئاً أشبه بجسد فيضة يوم تجلّي لمصعب.

عرف المتظاهرون استعداد هراوات الشرطة وبنادق الكوماندوس لمصاولتهم، لكن الخوف لم يصاولهم. بعد الصلاة على الشهداء، انتظموا صفوفاً صفوفاً وعادوا إلى المدينة باتجاه قصر البلدية.

في حي المهدية انضمت ساكنات وعليتا إلى مؤخرة أحد الطوابير. ومسسن قلوب سامعيهن بهتافات لا علاقة لها بسيرة حياتهن. وفي «باب تعامة» انضمت نساء الحرفيين. وعند كل مدرسة انضمّ الطلاّب والطالبات. وتشجعت نساء أصحاب الدكاكين فخرجن أيضاً إلى الشوارع المحتشدة.

كلما اقتربت الطوابير العائدة من مواقع الشرطة والكوماندوس آنساح الغضب والحلم على مساحة أُخرى من النفوس فطردت منها الخوف. ولطم طاهر العطا صدره العاري بقبضته وصاح: «هاتوا شرطة! وهاتوا عساكر!» وردّدت وراءه الهتاف مئات الحناجر.

فوجىء المتظاهرون وقد وصلوا إلى الشوارع الرئيسية والساحات بمشهد كاريكاتوري مريب. كان الدراويش جاثمين على نواصٍ ونقاط لا بدّ وأن يجتاحها سيل البشر. لقد تصمّغوا بالإسفلت كأنهم ولدوا هناك، أو نبتوا فجأة ذات صيف وصاروا أجمات قيظ صغيرة.

أوشكت طلائع المظاهرة أن تتوقف. رغم الرثاثة، كانت للدراويش هيبة في النفوس، صورة غامضة جليلة. لم يشأ أحد أن يكون أول من يبتدرهم بإهانة أو أذى. لكن فيضة، التي انبثقت من لا مكان، حاملة عصاها ورايتها الخضراء، تقدّمت من أولهم بجـرأة جنونها الخاصة ونعرت وجهه بمؤخرة عصاها:

لقد أضافت مزيداً من الكـاريكـاتـوريـة إلى حـالـة أوشكـت أن تثير الأعصـاب. فالدرويش الذي لطمت العصا قذاله هوى ببساطة كأنه هيكل من الكرتون. وكان ضغط الزاحفين من الخلف قد أرغم الطلائع على التقدّم، فتقدّموا، وهوى درويش آخر بعصا فيضة.

ثم اختفى الدراويش، كأن هاتف غيب جاءهم فتلاشوا كالأشباح في وهلة واحدة. بل إن كثيرين أقسموا أنهم شاهدوا الدراويش يطيرون طيراناً، أو يتحولون إلى قوام غازيّ سرعان ما اخترقه المتظاهرون. عندها انهمرت في النفوس شآبيب ظفر واجتياح. أعظم لحظات الحياة ليست لحظات الارتواء الجنسي أو الشبع المعدي. إنها لحظات تمسك فيها أصابع العينِ بجَسَـد الحرية، الجسد النابض صوتاً وفعلاً وشعوراً.

كانت تلك الصيحات أول خروج علنيّ شجاع ضد الاستبداد، حتى النساء وطالبات المدارس أشرعن أجسادهن وحناجرهن للحرية. ومع الاندفاع المنساح للموجة بدا أن عصوراً بأكملها قد احترقت وخرج من رمادها مدينة جديدة.

قبيل الساحة حملنا مصعب السبئي على الأكتاف، وراح يقرأ من شعره الجديد. لكن برعي بدران سرعان ما حلّ محلّه بشعره الحماسيّ التقليديّ رغم رداءته. وانعقدت في الجوّ الشعارات والأماني والشعر وصليل الحناجر. من المطالبة بالطحين والأرز والسكّر والسمن، انتقلنا إلى شجب الحرب والاستعمار والتهريب والسوق السـوداء والبـاشـوات والمنـدوب السامي، وتعطيل المسارح. انبثقت فيضة في كل مكان. وكان واضحاً أنها أطلقت العنان لجنّتها. إن أحداً لم يتذكّرها فيما بعد إلا وأقسم أنه رآها وأن عينيه التقتا عينيها.

لقد اتفق من قبل أن تصبّ أنهار المظاهرة في الساحة المركزية أمام قصر السراي، أن تأتي من جميع الاتجاهات لأجل تشتيت القوة النارية المنتظرة. ففي ذلك القصر العتيق

المهيب تجمّعت قيادة الشرطة وأركان الجيش وحرس الباشوات. وكان لدى هؤلاء بواريد جديدة، وأمشاط رصاص لم تترطّب بعد. إلى هناك وصل المتظاهرون بنشوة غلغلها الخوف والتوقعات الواجسة، وكان طاهر ونذير ومصعب ما يزالون محمولين على أكتاف الطلاب، فيما الرؤوس المتدافرة الحامية تتدفّق نحو السراي.

انكمشت أصوات وانحبست أخرى. لحظة الوصول إلى السراي كانت لحظة النهوض ضدّ السلطة والاستبداد، ونشوة ممارسة الحرّية كانت تصطرع مع ارتقاب مشبوب للرصاص المنطلق.

لم ينطلق الرصاص. ولم تظهر البدلات الرقطاء والخاكية. وعلى شرفة السراي خفقت الرايات نفسها التي خفقت بأيدي المتظاهرين. ولحظة انحصرت المتافات بالشتم على المندوب السامي والباشوات، والبكوات أيضاً، برز محمد علي باشا العبدالله. كان ممتقع الوجه، ذراعاه خافقتان في الهواء، يداه تلوّحان للجماهير، وابتسامة رحبة مناضلة تنفرش على محيّاه وأسنانه البيضاء. ووراءه مباشرة اصطفّ رئيس الأركان، وقائد الشرطة، ورئيس الحرس، وعدد من الوجهاء.

إنها لحظة تاريخية طال انتظارها، قال الباشا. لحظة الالتفاف والتكاتف والعمل لتحقيق مثل أعلى. سوف يضرب بيد من حديد كلّ متلاعب بقوت الشعب. ومنذ ثلاثة أيام ألقي القبض على ثمانية من تجّار السوق السوداء والتحقيق معهم آخذ مجراه الآن. إن آلام الشعب لهي آلام الباشا، قال الباشا. يوجعه ما يوجعهم ويفرحه ما يفرحهم. آمالهم آماله ومشاكلهم مشاكله. الجميع يد واحدة في السرّاء والضرّاء، وجبهة واحدة ضد أعداء الإنسانية، مضرمي نار الحروب. إن باب الباشا مفتوح أربعاً وعشرين ساعة في اليوم للمظلومين وذوي الحاجات. ويجب أن يعرف ذلك سكان المدن والقرى كلّهم. إنه سعيد بهذا اللقاء عرساً اشتاقت نفسه لرؤيته أو عيداً يحتفل به النيلوتيون في مضاربهم. سوى أنه كان يتمنّى لو حرم سعادة هذا العيد، وقُدّمت له «عريضة» بالمطالب والتظلّمات، مقابل أن يبقى الطلاّب في مدارسهم، والعمّال في معاملهم وشغلهم، والفلاّحون في أرضهم. لكن الآن، وقد قام العرس، فهو يفرح من كل قلبه. سيرفع أجور العمّال، ويؤمن الحاجات الأساسية للشعب الكريم، ويسمح للنساء الفهيمات بارتياد المسرح، ويعاهد الجميع.. الجميع.. «على إعداد القوة ورباط الخيل لطرد المستعمرين الداعرين، وعلى رأسهم المندوب السامي البريطاني رمز البغي والعدوان.»

كرمى للسماح بارتياد المسارح انعقدت تحت شرفة الباشا حلقة رقص فوريّة زاهية. وكرمى للنضال ضد الاستعمار هبط نذير وطاهر عن الأكتاف. اختفت فيضة. انسحب

مصعب. انفضّ المتظاهرون عن أنفسهم وتحلّقوا حول شرفة السراي. إن الباشا معهم! والأمر أكبر بكثير من مجرّد مفاجأة. هذه الديمقراطية بعد تاريخ طويل! ودون طلقة رصاص واحدة، دون قطرة دم! أين المشكلة إذن؟ لماذا التظاهر؟

كان شيء مماثل قد حدث في المدن الأخرى. وعاد إلى الحياة ذلك التاريخ الرحيب من التضامن البشريّ السعيد بوجه الحرب والجوع والفساد. أجل. ثمة حالة يرحّب الناس دائماً بتقديم القرابين لها كي تبقى حيّة بينهم. هي نوع من الحسّ المتخاطر الرغيد بأنهم ليسوا غرباء على بعد جدار أو اثنين من المساكن الصامتة. كذلك كان شعور الدراويش وهم يحصون أرباحهم، والأمّهات وهنّ يعانقن ويحصين أرباحهنّ أيضاً: ألم تتحوّل الحروز من حماية فرديّة لإبراهيم أو يونس أو حنفي إلى حماية جماعية للآلاف المؤلّفة؟ ألم تعطّل البنادق نهائياً وتستبدل بها الوئام والإلفة والمحبة؟

ترسّخ الحسّ بالنصر الذي أحرزته المظاهرة عندما سرى في المدن المتأجّجة على طول النهر الكبير الوعد الذي قطعه المندوب السامي على نفسه بعدئذ بجلاء قوات بلاده عن النهر، ومنح المدن الخمس التي تحتلّها استقلالها السياسي الناجز المتجسّد في دول ومؤسّسات.. وأقسم على ذلك الوعد بشرفه الشخصيّ وشرف حكومة صاحب الجلالة. وأذن للصحافة والإذاعة بتعميم قسمه على العيون والآذان. كان له شرط بسيط واحد، هو أن تتحمّل مدن النهر، وباسم الإنسانية المعذّبة التي ناضل النيلوتيون لأجلها على مرّ الدهور، أن يستمرّ شدّ الأحزمة على البطون، وإنقاص وجبة الأكل إلى النصف على الأقل، لكي تتمكّن قوى السلام والحرّية والخير من قهر النازية والفاشية.. والشيوعية إذا أمكن.

عملياً، استمرّ اختفاء الأغذية والتموين من السوق البيضاء. واستمر القطار ـ وكذلك السفن ـ في نقل هذه الموادّ إلى المقاتلين الأشاوس في ساحات المعارك. غير أن مسحة رسولية أضفيت الآن على الحرمان والجوع وفقر الدم، وأحياناً الموت شوقاً إلى الطعام. لقد أمسى ذلك كلّه تضحية تليق بالنيلوتيين لأجل الخير والسلام والحرّية والإنسانية. إن بلاداً كلها خيرات وذهب ومواسم، لن يضيرها موت قسم من سكانها، أو إصابتهم بأمراض سوء التغذية، كرمى لتلك الإنسانية المعذّبة.

قال بدر الهلالي، الرومنتيكي الفطريّ، إن هذه المظاهرة أطلقت مارداً من عقاله. جاءت بسلطة الحرية ووضعتها في رؤوس الجيل الجديد. فرضت إرادة الشعب على الباشوات والبكوات وجميع رموز السلطة المتعفّنة. قرنت الحرية بالتقدّم.

هناك نوع واحد من الحرية، قال الشيخ السمنكي: الحياة الجديدة التي حصل عليها

الناس بفضل الدراويش وحروزهم. نوع واحد من الحرية: الخلاص من الأهواء والجسد والحياة الدنيا، الخلاص من الوسواس الخنّاس. ولولا حكمة الباشا ودعاء الدراويش لسقط آلاف القتلى على طول الشوارع: لقد عرف كيف يخاطب عشرين ألف أحمق خرجوا على طاعة أولي الأمر. وحقاً فقد خُصّص معاش تقاعدي لرضوان السبئي وعائلته، وكذلك لرفاقه الشهداء. ورأت صحف المدينة الثلاث في هذا التكريم النبيل للشهداء كشفاً جاء في أوانه عن التلاحم النضالي بين المجاهدين ورجال الحكم الوطني. فالاستقلال بات قاب قوسين أو أدنى. بل وربما ظفرت به البلاد قبل نهاية الحرب، إذا ما ارتدّ النازيّون مدحورين عن الجبهة السوفيتية.

وهكذا تمكّنت أمّ مصعب من استئناف حياتها اليومية مع طست الغسيل والفول المسلوق، وأولاد ازدادت طاعتهم لها على نحو غريب، وازداد استقلالهم واعتمادهم على أنفسهم. وصار بوسعها أن تمنح أمّ بدر فلسين أو ثلاثة في المرة الواحدة فلا تخشى على لقمة أولادها ـ وربما أمّ ياسين أيضاً وأمّ نذير وأمّ إسماعيل. كذلك فعلت أمّ عطيّة، وأمّ عثمان، وبقية الأرامل. وخلال أيام كان بوسع عبد العليم الغزال ومخيبر سرحان أن يأسفا لبقاء أبويهما على قيد الحياة. إن هناك أرضاً واسعة يمكن أن تصير عند المغيب ملعباً للأبناء إذا ما استشهد أو توفي الآباء في الصباح. ورغم اشمئزاز طاهر العطا من مزاح رآه ثقيلاً وموجعاً، قال نذير النميري إن سلطة الآباء رمز لكل سلطة في الحياة، وإن أفضل شيء لهم هو أن يموتوا شهداء.

لم يكن مصعب وحيداً في خيبة أمله عندما مشى إلى شارع فيضة، كما صار يسمّيه، ولم يجدها هناك. لقد أراد أن يقول لها شيئاً عن حسّ متدرج بخيبة غامضة تفشّت فينا بعد أسابيع من المظاهرة. ربما بعد أن سمعنا كلام معلّمينا ومدرّسينا عن اللعبة الذكية التي لعبها علينا محمد علي العبد الله والمفوض السامي. ربما بعد أن تلاشى من نفوسنا حسُّنا الفتيّ بامتلاك الوجود والمصير، أو بنوع من التطهرّ والتعشيب في الذات. لقد كانت المظاهرة بالنسبة إلينا عملية اقتلاع لجذور تاخّة من المدنية الرثّة والعقول المدهلزة.

وها هي الأمور تعود إلى وجهها القديم. كأن المظاهرة لم تحدث. كأننا لم نعصف ونهدر في الشوارع، ونهدّد الباشوات والمفوّض السامي. كان في داخلنا نداء، وخرجنا لنلبيّه. وكنّا فرحين. وها هو النداء يتلاشى. نفرح بالمشاعر الجديدة، نستسهلها، نعيشها بعفوية وغبطة وحرّية. ثم نعيشها بعدئذ كأسف وإدمان، وتتقبّلها مثلما تقبّلنا فيما مضى إدماناتنا العزيزة وقدرنا الطليق. وقال بدر الهلالي إن ظهور الدراويش من جديد، بعد كل شيء، يعني أنهم متدرّنون في مدينتنا.

- ٥ -

بعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى بخسائر طفيفة لا تذكر من سكان النهر الكبير ـ لم يتجاوز عدد الضحايا ثلاثين ألفاً ـ أحسّ الإنكليز أنهم بحاجة إلى إعادة احتلال المدن على الشاطئين. وكان الشعب من الثقة والبداهة بحيث أنهى عصر الاستعمار بقرار من طرف واحد، فأقام حكومة وشكّل جيشاً.

لكن الإنكليز لم يستسيغوا هذه الدعابة. لقد اضطروا إلى سحب جيشهم أثناء الحرب، دون أن يعني هذا أبداً أنهم تركوا البلاد لتقيم حكومات مستقلة.

وهكذا كان لا بدّ من المواجهة. لقد قامت كوكبة من المتحمّسين الطافرين، تعدادها حوالي ألفي رجل سُمّوا جيشاً من منطلق التفاؤل والتيمّن، بالتصدي للإنزال النهري البريطاني وفرقاطاته. وقد امتطى بعض هؤلاء قوارب صُنعت من أشجار غاباتنا، وكانت ما تزال تضوع بروائح الطبيعة فبدت أجدر بوضعها في معرض فني منها على تيارات النهر الكبير.

بعد ساعات محرجة بقلّة عددها، أُبيدت الحملة الدفاعية المتطفّلة، وغرق قائدها مشطور الجسم.

كان محجوب لعازر قائد الحملة. سمته المدينة وزيراً للدفاع لشبابه المتحمّس، وإيمانه ببلاده وبالإنسانية، وبالديمقراطية البريطانية أيضاً. وقد أيقن بصدق مثير أن استشهاده متصدياً لقوات الاحتلال سيجعل ضمير الرئيس وودرو ولسون، المؤتمر في فرساي، ينتفض غضباً وشرفاً، ويأمر الإنكليز بالخروج طبقاً للمبادىء الأربعة عشر.

قبل الانطلاق إلى ساحة الحرب، التقى محجوب لعازر صديقاً للعائلة فقال له: «أنا متوجّه الآن إلى عرض النهر لأستشهد في سبيل بلادي، فإليك طفلتي ماجدة، فاحمها وارْعَها». ثم ودعها والدموع تنسكب من عينيه إلى حيث شطرت جسمه قنبلة لا تعرف المزاح.

إنها واحدة من العمليات البشرية النادرة التي يضع فيها الناس عقولهم ومصالحهم وحياتهم على رفّ أغبر ويقفزون فوقه نحو مثل أعلى، فتكون حماقتهم في الموت أجمل من

حكمتهم في البقاء وكسب العيش. لأجل الوطن مات ألفا رجل. لا لأجل السلطان أو المندوب السامي. ونحن الذين ولدنا بين تينك الحربين البشعتين، أحببنا في العملية أيضاً فكرة الخروج - كانت فعل خروج من الأضرحة والمحارات والشرانق. وعلى نحو ما رأينا أنفسنا وارثين لشيء آخر غير الخوف والدهاليز والحواجز، شيء يمكن أن نسمّيه ببساطة: بطولة، أو تجاوزاً للشرط البشري، كانت تلك المعركة الخاسرة اكتشافاً شبيهاً باكتشافنا لصخرة أوزيري بعد ربع قرن.

وكان الصديق الذي تعهّد ماجدة لعازر هو نفسه الذي أسّس قبيل نهاية الحرب الثانية حزباً صار اسمه الشعبيّ فيما بعد: اللعازرة.

كانت تلك الروح الجديدة هزّة داحمة في حياة اتّسمت حتى نهاية الحرب بقسمات الاقطاع الركيكة. فهذه السهول والجبال البعيدة، وهذا النهر، ملك لقبضة من ذوي الألقاب السلطانية. وهؤلاء اضطروا لأجل الحفاظ على ملكيتهم إلى استبدال سيّد ذي قبعة بآخر ذي طربوش.

شيء واحد، لعلّه من سمات الناس، جعل حياتنا تنبض بإنسانية جوفيّة، هو ضآلة حسّنا بالملكيّة الفرديّة. كان كلّ ما يُملك مقترناً بأسماء لا نرى أصحابها قط، أو لا نراهم إلا قليلاً. فكأنهم أشباح تخطر للعين وتختفي، وأخبارها تصل فقط إلى آذاننا. كنا نأكل من البساتين عشرات أنواع الفواكه والخضار، فلا يحسّ الفلاح ولا نحسّ نحن أننا نهبنا شيئاً. لقد نقصت كمية من موسم هذا الإقطاعي أو ذاك، أما الفلاح فقد ازداد تباهياً بسخائه.

لعلّها صورة غريبة، وخاصّة بالنسبة إلى مدمني التلفزيون والإذاعة والروايات العقائدية. فربما ظن هؤلاء أن طغيان الباشا قد بلغ من الجبروت حداً نسف به الحياة التحتيّة للناس. إن الباشا حاكم لا يختلف عن أي متسلط ذي تسمية مختلفة. وهؤلاء يأتون ويروحون، وتكتب تواريخهم في الكتب، وتقام لهم التماثيل وتغنّى باسمهم القصائد. ثم يخلفون أثراً ما في تلال من الآثار التي تؤخذ إلى الساحات والمتاحف. وفي تاريخ نهرنا الكبير لم يعرف الناس يوماً حاكماً كان من جنس الملائكة. لكن بواطن التلال، ممراتها السرّيّة، بقايا البشر الأقدمين فيها، تبقى ملكاً مطلقاً للناس الذين تحت. وهؤلاء عرفوا كيف يحب بعضهم بعضاً، وكيف يكرهه أيضاً، ويقدّم له دثاراً وكرسياً ومكيالاً من القمح وسلّة من الفاكهة. عرفوا كيف يعطون ما للباشا للباشا، ويؤدّبونه أحياناً ولو بثمن باهظ هو دماؤهم؛ وكيف يعطون لأنفسهم ما لها فيحافظون على تلك الدماء من

التلف والاختراق. وإذا كان هؤلاء لا يصنعون حضارة، فمؤكد أنهم يصنعون ابتعادهم الوئيد الوطيد عن الهمجيّة.

لكننا سنبقى الآن مع الحرب العالميّة الثانية. فعندما اقتربت المعارك من نهايتها، وأدرك حاكمونا أن هتلر ـ بمعونة الأمريكيين وصمود السوفييت ـ منهزم لا محالة، أعلنوا عليه الحرب. إلا أن هذا الإعلان لم يضطر قوات الجيش والشرطة إلى الانصراف عن معركة محلّيّة لا تقل أهمية.

ذلك الشيء الأكثر، الفيروس المختلف الذي تفشّى بين العمّال، تحرّك بين الفلاّحين أيضاً. ولأنّ الإنكليز كانوا أقل وصولاً إلى تلك الأحراج البشرية منهم إلى العمّال، فقد تمكّن محام شابّ من فعل ذلك. كان مرعي السنجاري شاباً يجمع نقائض كثيرة ويمتلك صفة جوهريّة بارزة. لقد درس المحاماة في جامعة بعليتا، وتطوّح عامين أو يزيد في لندن، فنال الماجستير وعشق عدداً من الانكليزيات برضاهن التامّ، وتعلّم الحرية والاستقلال. وفي قريته بمنطقة كفرطيبا، اعتدى غالب باشا شمداوي وابنه على أخت مرعي دون رضاها مدة سبعة أيام متواصلة. ولما عادت الفتاة المراهقة ملطّخة بدمها ووحل الطريق، اضطرّ أبوها إلى ذبحها بالسكّين أمام عتبة البيت. وعرف الجميع أن الرجل قد غسل عاره، فبادر بعضهم إلى حمل الجثة عند المساء شاقّاً طريقه بين حشد من الكلاب التي حوّمت هناك وجعل بعضها يشمشم الدم والعنق الذبيح.

وكان مرعي السنجاري ملعوناً من أبيه مباركاً من أمه، فحمل اللعنة لتبرير غيابه عن البيت والمحاماة، وحمل البركة للاستتار على صلاته بالفلاّحين. وقد عرف هؤلاء فيه تلك النار الداخلية الواقدة التي جعلته لا يرضى بأقل من إقامة دولة عصريّة عادلة في النهر الكبير.

إن مدخله إلى عقول الفلاّحين كان جوعهم الذي تفاقم طوال سنوات الحرب، وشيئاً من المعاني والإثارات. لا شك أن الجوع قد نبّه ملايين الخلايا الغافلة في عقولهم، لكن خوفهم من الباشوات على النساء كان منبّهاً أعظم، وعلى رجولتهم وكرامتهم كان أعظم وأعظم. وعندما توجّه إليهم بعد ثلاث سنوات من تدشين حياته كمحام كانت قد التفّت حوله عصبة عنيدة من شباب كفرطيبا. وهؤلاء جعلوا دخوله التحريضي إلى كل بيت سهلاً كدخول الهواء.

ظن الاقطاعيّون الباشوات أن مرعي السنجاري يتحرّك بدافع غلّ دفين كي يثأر لشرف أخته. حاولوا إرضاءه بالتعاقد معه محامياً لاثنتين من شركاتهم، وإذ رفض هزّوا

اكتافهم استخفافاً، وهزّوه خارج ذاكرتهم.

لقد أعطوهُ فسحة كافية من الوقت. وأعطته الحرب العالمية الثانية ميداناً من القلق والغضب والحزن والفظاعات والتمزّقات. وتبيّن للفلاحين، كما تبيّن لذوي الطرابيش الحمراء، أن المسّ الذي يحرّكه أقوى بكثير من رغبة في الثأر. وسرعان ما هالت الطرفين الاستجابة الكاسحة التي لقيها من الفتيان في مدارسهم، ومن الشباب الفلاّحين الذين تركوا هذه المدارس للعمل في الحقول. كان هؤلاء مزرعة مثاليّة للفيروسات، للشيء الأكثر.

عاش الباشوات في كفر طيبا، كما هم في كل كفر آخر، داخل قصور ضخمة مترفة، شُيّدت وسط جنّات تجري بينها الجداول، وداخل أسوار بشريّة من الحرس المسلّحين. وقد امتطوا في نزهاتهم السيّارات، وفي رحلات صيدهم خيولاً مطهّمة يستطيع كل منها أن يحمل بعد عناء النهار غزالين قتيلين. القرى العديدة التي امتلكوها مدّت لهم ميداناً غير محدود للحركة، والقطعان الغفيرة أعطتهم اللحم الفائض للشواء في الهواء الطلق خلال جميع الفصول. حتى إذا ما ضجروا واشتاقت نفوسهم الخضراء إلى النساء المختلفات واللذائذ الأدسم، ركبوا سياراتهم إلى وعليتا أو ملاهي باب إيل. إن شيئاً أو أحداً لم يكـن ليجرؤ على إعاقة حركتهم أو تعكير مزاجهم، فقد وقف جهاز الدولة بشرطته وموظّفي إدارته على خدمتهم. وقد فعل ذلك بطريقة استفزازيّة قبيحة.

هؤلاء أيضاً أصابهم شيء من مسّة العصر، ولكن الإصابة اختلفت. خلال دهور كانت ملكيتهم للأرض مهدّدة في أي ساعة بتغيّر طارىء لمزاج السلطان ـ وهو مزاج تفنّن صاحبه على الدوام بتغيّراته الطارئة. وربما استمرت أسرة الباشا قرناً كاملاً في إدارة الأرض كملكيّة خاصّة مطلقة؛ لكن تلـك اللحظـة المرعبـة كـان لا بـدّ مـن أن تجيء، لحظة يعمد السلطان إلى ريشته وورقهوخاتمه،فيكتب كلمة أو كلمتين وتغدو الأرض ملكاً لباشا آخر.

كانت الأرض ملكاً للدولة، والدولة ملكاً للسلطان. وعندما جاء الإنكليز في القرن الماضي، وهم مستعمرون أرستقراطيون غالباً، ابتأسوا من افتقار مجتمع النهر الكبير إلى أنداد طبقيين لهم. غير أنهم تقبّلوا الأمر الواقع، فأزالوا السلطان وثبّتوا ملكية الباشوات. ومع أن منصب الباشا الطبقـيّ اختصر بفجـاجـة كثيراً مـن التسميـات الارستقـراطيـة الإنكليزية الخطيرة، مثل (دوق) و (لورد) و (إيرل) و (سير)، فقد أبهج الإنكليز أن يتعاونوا مع هذا النوع الدارويني الشيّق، للاستفادة من ثروات النهر الكبير وإخضاع سكانه.

هذا الحسّ بثبات الملكية بعد قرون من الشفير النفسي، هو الذي صار مسّاً. على الأقل، أطلق من قماقم نفوس الباشوات مارداً حسّياً لم يعرفه باشوات القرون الماضية. لقد انتقلوا فجأة إلى الحرّية. شاهدوا ميادينها الفسيحة. والذي اعتبره آباؤهم حرمات ومقدسات، رأوه هم رثاثة خانقة للبصر والبصيرة. هم أيضاً ضاقوا ذرعاً، واندفعوا وراء تجربتهم الخاصّة في الاختراق. لقد اخترقوا الحدود المتعارف عليها للزنى ووصلوا إلى الفجور، وللاغتصاب ووصلوا إلى التمثيل، وللاستغلال ووصلوا إلى التجويع، وللاضطهاد ووصلوا إلى القتل، ولاستضافة الإنكليز ووصلوا إلى الخدمة.

بين سيقانهم انحشرت رؤوس الفلاّحين. وهؤلاء عاشوا تجربة اختراق في اتجاه آخر. رغم إيمان سعدون المطلق بـلا ثوريتهم، وبأن السنجاري إنما يسرق جماهير حزب العمل ويرسلها إلى الضياع والرثاثة، فقد تقدّم الفلاّحون من الفقر إلى الجوع، من الاتضاع إلى الذل، من القناعة إلى السخط، من الإيمان إلى القلق وأكل التمور المقدّسة.

وعندما ظهر مرعي السنجاري في كفرطيبا لم يقدّم لأحد حسّاً من العدم. كان الحسّ هناك، وكان فقط الجزء الطافي من ذلك الشيء الأكثر الذي غاص معظم كتلته في أنهار الوجدان العميقة.

لا عجب إذن أن تنحقن به النفوس التي ضيّقها تاريخ طويل من الذلّ والجوع والتطحلب. ولا عجب أن يرى فلاّحو كفرطيبا في التلة القائمة عند خاصرة بيوتهم انتفاخاً مماثلاً لانتفاخات قلوبهم. وربما بدا لهم أن التلة شطر من الأرض ضاق بما في جوفها من عظام وذكريات فنتأ متهيئاً للانفجار.

تلك التلّة التي صار اسمها (القلعة) أوائل القرن، هي التي لجأ إليها مرعي السنجاري يوم بدأ يحثّ الفلاحين على حرق محاصيل الباشوات، ومهاجمة القطعان، والإضراب عن العمل، والمطالبة بالشراكة في الأرض، ثم المطالبة بملكيتها. كان فيها تحصينات بدائية تعود إلى عصر الاحتلال القديم، لكن سراديبها الجوفيّة هي التي حرص الباشوات على تنظيفها من الأحياء. فمثل هذه المواصلات الخبيثة أعيي رجال الباشوات، الذين اعتادوا إطلاق النار على أرانب مذعورة تهرب أمامهم وليس على ثعالب تلتفّ عليهم من الخلف.

هناك تجابة حسّان بالحرية متضاربان متلاغيان. أحس الباشوات أن الحياة تهرب منهم، فأرادوا اقتناصها. وفعلوا ذلك دونما رادع. وأحسّ الفلاحون أن الحياة تختنق فيهم وبينهم، وأرادوا درء الموت عنها.

لا يزال الدم البشري يلوّن حتى الآن الصخور الكلسية الجاثمة على التلّة. إن ذكريات

القتال الشرس المقترن بالهول، هي التي حالت دون أن تصبح التلّة فيما بعد جزءاً من البلدة ضائعاً بين أطواد الاسمنت التي حلّت محلَّ البيوت القديمة في كفرطيبا. لقد كانت أولى الذكريات عن صراع طبقي تعمّد بالدم. والدم الذي شربته الحجارة صار على أديمها الأملس شقائق نعمان شابهت في اللاوعي النيلوتي أزهار الربيع التي شربت دماء أوزيري وتضمّخت بها.

أماكن كثيرة أخرى شربت دماء الطرفين. لكن مكاناً واحداً فقط شرب الدماء وأكل الأشلاء. إنه سهل فسيح من القطن، استطاع رجال شمداوي باشا أن يطوّقوا فيه أحد عشر من رجال مرعي السنجاري. كانت تيجان القطن قد تفتحّت عن لونها الأبيض غير منتظرة أيّ لون آخر. وفي وسط ذلك الامتداد أخذ خيط الرجال الأحد عشر يقصر ويضيق حتى صار دائرة عرجاء. أيقنوا أن الموت قادم، فاقترب كلٌّ من الآخر كأنما لوقفة أخيرة يقفونها أمامه معاً. احتكّ الكتف بالكتف، والظهر بالظهر. لم يهرب أحد. وفيما استدارت الظهور نحو مركز الدائرة، اشرأبت الأعين نحو الموت المتربّص، والبواريد أمامها كالنيازك.

كان حصاد الموت ما يقرب من خمسين رجلاً. بالطبع قتل الأحد عشر. وقتل معهم ثلاثون فلاحاً جاءوا لنجدتهم، أو حاولوا تمرير الذخيرة إليهم زحفاً بين شجيرات القطن.

عند الضحى أدرك شمداوي باشا أن شيئاً وخيم العاقبة قد حدث. هتف لمحمد علي باشا العبدالله وطلب نجدة عاجلة. وخلال ساعات كانت كفرطيبا ومنطقتها تحت وطأة احتلال كثيف شامل. قبع الفلاحون داخل البلدة وقراها حتى الصباح التالي، وكل ينتظر فجيعة بقريب.

الكلاب وحدها استطاعت أن تتسلّل إلى حقل القطن. ولم يكن مما يخفف عن شمداوي باشا أن يسمح لها بوجبة من هذا النوع. إلى هناك خفّت قوّة من مئة شرطيّ، تغلغلت في الحقل لا لتقطف القطن بل لتلتقط الجثث، بما فيها رجال الباشا المفارقون، وتكوّمها في مركز الدائرة. لقد أنهكهم نقل القتلى، لكنه كشف عما في نظرتهم من إنسانيّة مرهفة وحب للطبيعة. فخلال هذا الجهد الدؤوب المضني، لم تنقصم شجرة قطن واحدة يمكن للباشا أن يزعل عليها ـ إلا التي ماتت تحت جثث الموتى.

بعيد الظهيرة من اليوم التالي، وعلى تلك السعة الأرضية السافعة، ارتفعت تلّة صغيرة من الجثث البشرية. فيها اختلط اللحم والدماء والتراب بالبارود والقطن والشمس. كان

يجب أن يواري الموتى قبل أن يتعرّف عليهم الأحياء، فصار ارتفاع التلّة عند العصر نيفاً وخمسة عشر متراً. ومع المغيب ارتفعت أربعة جدران من الطوب حول ما بات يسمى الآن «تلة القطن».

قالت فيضة إن الدائرة انكسرت، والنبّال جاثٍ عند الغصن يسدّد نبلته على فكّ الوحش. خلال الأيام القليلة الفاصلة بين تلوين جدران القلعة بالدم وسقاية حقل القطن به، ثارت أبالستها في كيانها. أكثر من مرة همّ رؤساء مخافر المدينة بالقبض عليها وزجّها في الزنزانة. لقد جُنّ جنونها بالتأكيد. كل صباح كانت تنطلق في الشوارع رافعة رايتها الخضراء ومشرشرة كلاماً لا يفهمه أحد. وباستمرار حرّكت في الناس إحساساً بأن شيئاً فظيعاً يحدث. عطّلت الكثيرين عن أعمالهم، وشجّعت الفوضى والهيجان والهروب من المدارس. كان ثمة سرّ وراء اضطرام جسدها بالحركة، ولسانها بالهرف، ويدها بالراية الخضراء. كانت جهاز إعلام ملغزاً أثناء حصار شديد من الصمت قطع كفرطيبا عن العالم الخارجي.

ظلّ طعم المظاهرة قوياً بين أسنان الذاكرة. وخشي الباشوات أن يتجمّع جمهور صغير هنا وآخر هناك، وأن تغدو السواقي نهراً. وتفاقمت خشيتهم في النهار السابق لبروز تلّة القطن، إذا شاهدوا راية فيضة الخضراء مشكولة بورود وأزهار برية حمراء.

رأيناها أيضاً تواجه درويشاً هنا وآخر هناك. تقف أمامه وتتراقص باستفزاز وخلاعة، فيما يدها ترنّح عصا الراية بما يكاد أن يصير تهديداً. بل وربما همّت بضربه. والدرويش يستغفر الله لها، يرثي بكلمات الغفران، ويستغفر الله ثانية لرقصها وخلاعتها، ويهمهم: «سلاماً! سلاماً!».

ثم اختفت فيضة من المدينة. شاهدها عمال المدينة الصباحيون يوم المذبحة وهي ترمح فجراً باتجاه كفرطيبا، وقد أوشك ذيل ثوبها أن يتخلّف عنها لسرعتها. تابعوها بأعينهم حتى اختفت.

فيما بعد علمنا أنها سرقت بغلة مسمّنة من حظيرة محمد علي باشا، وقبيل المغيب وصلت بها إلى ميدان القتال. ثم اختفت ثانية. وفي اليوم نفسه اختفى مرعي السنجاري.

اضطرّت قوة الاحتلال الحكومي إلى البقاء أسبوعاً في منطقة كفرطيبا. ثم اسبوعاً ثانياً لتتسمّ أخبار السنجاري. لكن السنجاري لم يظهر. وابتسم الباشوات طرباً لمقتل هذا الإبليس الرجيم، الشيوعيّ، كما وصفه الشيخ السمنكي. وهل يحق له أكثر من أن يرقد على وجهه داخل تلّة القطن، بعد سنوات من الفوضى والفتنة؟ لكن حفظ الأمن ظلّ

ضرورياً أسبوعاً ثالثاً.

في الأيام الأولى لهذه الأسابيع انتبهنا إلى ظاهرة غريبة في حياة بلدنا الطبيعية. لقد كثر مرور الغربان في سماء المدينة. وكان سهلاً تحديد وجهتها من طيرانها: كفرطيبا. وقد جعلتنا الأخبار المتسلّلة من تلك المدينة نتخيّل شيئاً مثل سحابة شاسعة سوداء انفرشت فوق حقل القطن، ورفرفت بأجنحة كئيبة مشؤومة. تحدّث الناس عن وخامةٍ نشرت رائحة تقصّ المسمار، عن انقضاضات هاراكيرية تقوم بها الغربان على تلّة القطن، رغم انطمار الجثث تحت طود من التراب.

بالطبع انزعج أولو الأمر منّا بسبب هذه السحابة التلفزيونية، وخاصّة محمد علي باشا. لقد بسطت أمام الأعين ما لم تستطع الآذان سماعه. ولأنها بسطته بإثارة وغموض، خاطبت بلا قصد منها ذلك الشيء الأكثر في نفوس باتت تفخر بأنها لا يمكن استغفالها. ها هو ذا كل ظرف يتجمّع ـ قال الباشا ـ لاستفزاز الفلاحين أشباه الهمج. وإذا ظلّت الغربان في السماء انكشف كل شيء. لأن هؤلاء النيلوتيين الأغنياء سيعرفون منها مكان الجثث، ويقتحمون التلّة كالوحوش الكاسرة.

ولكن كيف للباشا أن يحارب الغربان في السماء؟ لسوف يظنّ الجنود أن قادتهم جُنّوا إذا تلقّوا أمراً بإطلاق النار عليها، والذين اجتاحوا المدينة يوم المظاهرة سيجتاحونها مرة ثانية، بالسخريّة والقهقهات الصاخبة، وربما بالعنف والغضب المنفجر.

حتى الدراويش لم يستطيعوا تقديم أية خدمة. هؤلاء الذين كشفوا الغيوب للناس، وزحزحوا بقوة إيمانهم صخوراً من مكامنها وعيوناً من محاجرها، عجزوا تماماً عن ممارسة خوارقهم على الغربان. لقد ثبت أن تلك الطيور الجارحة البشعة جائعة جوعاً أقوى بكثير من خوارق الإيمان. وإذن فحسب الدراويش التزام الصمت حيال ظاهرة بات واضحاً أنها إنذار ربّاني. صحيح أن أولئك القتلى خارجون على القانون، ولكن لا يعتم أن يوجد بينهم من سفك دمه وكان بريئاً. ولا مشاحة في أن ثمة دليلاً عليه في تلّة القطن.

ولقد اكتشف أولو الأمر هذا الدليل. بعد شيء من التفكير العلمي استطاع المقدّم عبدالله عبدالله، حفيد أخي الباشا، أن يؤكد وجود جثّة لم تدفن جيداً في التراب. وعندما اقتحم بثلّةٍ من الجند سور التلة، تأكّد من أن تفكيره صحيح. لكن المنظر كان شنيعاً.

لقد رأى ثلاثاً من الجثث التي لم تدفن جيداً. بتعبير أدق عندما دفنت لم تكن قد فارقت الحياة جيّداً. لم يعرف أحد العدد الحقيقيّ للذين لم يموتوا تماماً. لكن هؤلاء الثلاثة

لم يغطّوا بطبقة كافية من التراب، على ما يبدو. وواضح أن عزم الروح فيهم قد مكّنهم من شقّ التراب واستنشاق الهواء. واحد منهم خرج تماماً، ثم مات. وثانيهم خرج حتى ركبتَيْه، ثم مات. وثالثهم خرج حتى إبطيه، ومات.

على أيّة حال، لقد عاملتهم الغربان بالتساوي. مزّقت ثيابهم، أعينهم ووجوههم ولحمهم، وأخيراً نهشت أكبادهم. إلى جانبهم تصلّبت جثث عدد من الغربان القتيلة، حوالي عشرين أو أكثر، تمزقت أجسامها وهي تقتتل على الجثث.

وهكذا انتهت حياة خمسين فلاّحاً وشرطياً، وقصّتهم أيضاً. لقد ظلّ ما جرى خافياً حتى أعلنه مرعي السنجاري في الجمعية الوطنية بعد سنوات أمام مئة وأربعة وأربعين نائباً رأى مئة وعشرون منهم أن الرواية لا تستحق التصديق، وأنها جزء من شعوذاته المعروفة المضجرة. غير أنها الآن منارة للشهداء، صرح تذكاري تخفق في قمته وتنطفىء كلّ ليل لمبة كهربائية حمراء داخل خيمة حجريّة صغيرة.

بالطبع لم يقتل مرعي السنجاري. الروايات تروي أن فيضة التقطته وكان ينزف من صدره وذراعه وعرقوبه. نخّخت بغلتها على الأرض، فنهض هو بعزمه الخائر وركب. وعلى الطريق إلى أحد مضارب النيلوتيين الغجر، قادت البغلة وهي أشبه ما تكون بغولة متجسّدة: شعرها منفوش كدغلة، جسدها نصف عارٍ بعد أن مزّقت ثوبها لتضمد جراح مرعي، وعيناها جمرتان. قال الذين شاهدوها إنها عهدت به إلى ساكني خيمة من بني قبيلتها. وغابت في البرّية ساعات ثم عادت حاملة ملء حضن من الأعشاب.

طوال أسبوعين، بثّت فيضة سحرها في عجينة الأعشاب. كانت تصنعها بلعابها كل يوم وتلصقها على جرح مرعي السنجاري. وكل يوم كانت تغدو إلى البرّية لتعود حاملة ملء حضن من الأعشاب. قيل إنها لولا هذا اللعاب المسكون بالجنّ لما استطاعت أن تشفيه بهذه السرعة الفلكية، وتجعل منه إبليساً إلى جانب كونه شيوعياً.

بعد أن تأبلس السنجاري دوائياً، أقام في المخيم أسبوعاً ثالثاً لينام فقط مع فيضة. وهكذا تأبلس جنسياً أيضاً. إن الفلاّحين الذين عشقوه وأحبّوا فيه شعوذات أدانها الباشوات، لم يصدقوا أن هذا الرجل النحيل المتين البنيان يمكن أن يدفع ثمناً كهذا لعلاج بدائيّ. لكن الذين رأوا فيضة فيما بعد بعينيهم أيقنوا أنه قد عاش تجربة عمره، ولم يستغربوا أنه لم يتزوّج قط.

كما هو متوقّع، فإن الباشوات، الذين روّعهم السنجاري أكثر مما روّعهم المندوب السامي البريطاني، أحسنوا دمغه بصورة البعبع الشيوعي (رغم وجود حزب العمل)

والتشهير به كإباحيّ وممسوس ومتعامل مع الشيطان. وفي شوارع المدينة، أحسن الدراويش انتقاء اللغة الجميلة الصقيلة للتعبير عن هذه الحقائق البشعة الآسنة.

لكنّ التاريخ السّريّ للأرواح يكشف عن مشاعر مختلفة. فكما قال الدكتور سعد الله شمداوي فيما بعد، أسلم الباشوات وأبناؤهم خيالهم المشبوب إلى صور شبقية جامحة لم تكن غواني وعليتا أو باب إيل قادرات على ابتكارها. إن هناك شبقاً خاصاً، ثميناً، معجزاً، في أن تقبل عليك امرأة بمحض رغبتها، وأن تقبل عليك وهي مجنونة. لا شكّ أن السنجاري ظلّ يتملّى تلك الأيّام سنين طويلة. وليس غريباً أنها كانت السبب في بقائه عازباً. وليس غريباً أن ذلك الأسبوع الفردوسي معها قد فاقم وضاعف بلا نهاية حقد الباشوات الطبقيّ. فهم لم يستطيعوا الوصول إلى ذلك الشبق رغم اختراقاتهم كلّها. وكان الشيخ السمنكي خير من نقل إلى اللغة هذه المشاعر الدفينة، إذ قال: « قبّحه الله! يتمرّغ في طين جسدها الأفعواني، وهي تلتفّ عليه كلبلابة سامّة، وتحجبه بساقيها الجهنميّتين وشعرها الفحميّ عن وخز الضمير ونور اليقين. قبّحها الله. صحيح أنهما شيوعيان ملحدان ».

شيوعيّ؟ مستحيل!

هكذا هتف سعدون ونحن نتماحك في الأحداث الغريبة الأخيرة. لقد أعلن خاله الأستاذ فاضل بجلاء أن الشيوعيّة لا يمكن أن تظهر بين الفلاّحين، وأن السنجاري، إذا لم يكن مشعوذاً (من النوع الذي عرفته بواكير الحياة البشريّة) فهو مغامر يمتطي موجة، لا أكثر ولا أقل. إنه لا تربطه بالطبقة العاملة أيّة رابطة. ويجب الحذر الشديد منه، لأنه يسرق شعارات الطبقة ويميّعها في ملابسات دمويّة لا تخدم فكرة التقدّم ولا تخدم الصراع الطبقيّ.

إسماعيل سرحان كان أول من انفكّ عنا وغادرنا إلى الحياة العمليّة. فقبل أن تنتهي الحرب العالمية الثانية وتنتصر بعليتا على أدولف هتلر، نال اسماعيل الشهادة الإعدادية. وقد أكدت الإذاعة هذا الإنجاز إذ قرأ المذيع اسمه على ملايين الآذان المنصتة. كان في السابعة عشرة، وبدعوى بدائية صحّح عام ميلاده فصار في الثامنة عشرة. وبعد ثلاثة أشهر صار معلماً في مدرسة ابتدائية.

هناك، في منطقة نائية قريبة من المخاة، التحق اسماعيل ببيت طينيّ فيه غرفتان لأربعين تلميذاً وخمسة صفوف، وغرفة ثالثة للإدارة والنوم والطبخ والاستقبال، والأفكار الشاردة.

إلى حدّ ما فاجأنا اختياره وقراره السريع. صحيح أنّ أسرته احتاجت إلى القروش الثلاثة التي كان يعطيها لأبيه كلّ شهر (فقدت أول مرة بسبب كتابته المتبجّحة على الغلاف أن الرسالة تجاور ثلاثة قروش، فرأى ساعي البريد أنه أحقّ بها من أبي إسماعيل). وصحيح أنّه بالتعليم حصل على استقلال حلمنا كلّنا به. لكن ذكاء إسماعيل الواضح، وإخلاصه الفظيع لكلّ ما يؤمن به، جعلانا نعتقد أنه سيتابع الدرب إلى الجامعة، أو أكاديمية الضبّاط. كان قراره ذاك إحدى شطحات الذكاء الغبيّة.

عند نهاية الحرب أخذ الأنكليز يسحبون عناصر احتلالهم وعلاماته من البلد ويضعونها في السفن الحربية الراسية على يمّ نهرنا الكبير. وفيما العالم يتلّمس خطاه التائهة المتعثّرة بعد أن أفنت همجيّة حضارته أربعين مليوناً من البشر، كان إسماعيل سرحان يكشف عن اهتمامات مختلفة تماماً، ويكتشفها هو نفسه. إن أوّل ما يحاوله المرء حين يمتلك حسّاً بالاستقلال والمقدرة هو أن يمطر امرأة ما بماء حبّه الحليبي. وهذا لم يكن متوفّراً لإسماعيل في بلد نتأ الدراويش من كل زاوية وناصية فيه. فالبنات حتى ذلك الأوان كنّ حلماً أكثر منهن حقيقة. لذلك وجد إسماعيل طريقه السهل القصير إلى وعليتا.

وفيما كان مندوبو دول العالم (بما فيها بعليتا) يوقّعون ميثاق الأمم المتحدّة وحقوق الإنسان في نيويورك، حيث قبع تمثال الحرّية مرصوداً على منصّة بحرية شامخة، كان

اسماعيل سرحان، وفي غفلان تام عن جميع الخطابات وملابس الحفلات الرسميّة، يقيم علاقة غير معقولة مع إحدى عاهرات وعليتا. لقد اضطجع على سريرها المصأصيء بلا شموخ ولا كبرياء، ولكن بكل السعادة والانتشار اللذين يمكن لامرىء أن يحسّ بهما تجاه وجوده.

نحن لم نلتق قطّ بتلك المرأة العجيبة التي توغّلت في ذاته وأمسكت بعراقيبها. رفض أن يدلّنا عليها، أو يعطينا اسمها، أو يصفها لنا. وربما، بل ومن المؤكد أن الكثيرين من رجال المدينة، الذين بحثوا عن الحبّ ولم يجدوا غير الجنس، قد استلقوا هم أيضاً على سريرها المصأصيء، بعد أن وقع اختيارهم على جسدهـا دون سبب معلن أو معروف. لكننا لم نستطـع، حتى عندما راحت البوارج الإنكليزية تقصف الميناء والمدينة بلا سبب معلن أو معروف وتدمّر أرصفة السفن والبيوت النيلوتية القديمة، إلا أن نستغرب تلك الانعطافات الحادّة لينابيع حياته ومشاعره. لقد اندفع إلى امرأة موطوءة يستطيع أيّ رجل صغير أن يستبيحها، وكان بوسع إسماعيل أن يتذكّر ذلك.

إلا أنه وجد لذة خاصة في إسلام نفسه لامـرأة أسلـمـت له جسدها، وأيضاً في تحدي إحساسنا الخاصّ بالحياة والتجربة. ليس لأن البغايا خرجن من دائرة حقوق الإنسان، أو شيء نجس نتعاطاه الرجال كما يتعاطون أية نجاسة أخرى. بل للعكس.

عندما تلّقى إسماعيل مظروفاً متضخّماً برواتب ثلاثة أشهر، أحسّ باديء الأمر أنه يتلقّى قنبلة موقوتة؛ ثم منشوراً سرّياً عن الحرّية مكتوباً بلغة لم يتعلّمها بعد. عصر الخميس ركب القطار كعادته ولكن بمشاعر متضاربة قلقة. لم يعرج إلى بيته، حيث خمسة أفواه صغيرة تنتظره بالحب والجوع والفرح. رأى أنه قادر على فعل شيء عظيم، وأن تاريخ حياته الشخصيّ لن يعيد بعد اليوم نفسه.

ذهب إلى وعليتا. وفي شارع المهدية لم يجد شيئاً خاصاً يريح قلقه وتوقه. وصار المظروف ثقلاً يغيب عن ذاكرته ويعود إليها. لكن تأثيره لم يضعف. لقد شحنه بقدرة على الفعل سادرة وساحرة. انعطف إلى أحد الزواريب في غفلة عن وعيه. وهناك انبثق فيه فضول رخيّ لمعاينة هذا العالم الآخر. لم ينتبه إلى أنه يريد ممارسة حريّته مع امرأة. تقدّم على البلاطات الصقيلة البليلة، متلقفاً بانتعاش قطرات المطر النازلة عليه من شجرات الزاروب. جاست عيناه ذات اليمين وذات الشمال، وقلبه يخفق رهبة وتطلّعاً. تفحّصتا الأجسام المغلّلة بأرواب شفّافة الخيوط واللون. تساءل عما إذا لم يكن البرد يؤثّر فيها. أحس بمناعة وكبرياء، وبمقدرة فائقة على الفرجة دون التورّط في مهانة شراء الحب. ونظر

بازدراء إلى الرجال المتلهّفين، العجولين في دخولهم تلك الأبواب المشرعة.

لأول مرة في تاريخه يفعـل الإنكليز له شيئاً خاصاً به فقط. ففي ذلك اليوم الثالث من القصف النهريّ لوعليتا، والعاشر من إعلان استقلالها، قرر أنجال جون بول قصفها بالطائرات أيضاً. كان اسماعيل يتجوّل في الزاروب الملولب، ويداه مشبوكتان وراء ظهره لاتنفكّان إلاّ لتلمس المظروف الناتىء داخل جيب سترته الأيسر، والعودة إلى الخلف. وسقطت قنبلة في شارع المهدية، في مكان خمّن هو أنه قريب من المقام نفسه. ومنه هو شخصياً. ووجد نفسه يندفع إلى أقرب غرفة طرأت أمام عينيه وهو لايعرف ما الأمان الذي يمكن أن تقدّمه له.

وجد المرأة جالسة في سريرها غير منتظرة أحداً. كانت السيجارة بين شفتيها، وساقاها مقوستين للأعلى. نظرت إليه كمن وجدت فيه حضوراً مغنطيسياً جاء يلملم نثارة ذعرها من دويّ القنبلة. التقى الخوفان فالتقى الإنسانان. لوهلة رأى كل منهما أمام عينيه آخَرَهُ النجيَّ الطليق.

قدّمت له كرسياً. ثم فنجان قهوة. بلا كلام. وجلس هو مضطرباً. لم ينتبه إلى جسمها النحيل ونهديها الكبيرين. أحسّ أن كلاً منهما قد زالت عنه أرديته الاجتماعية بفعل القنبلة، وواجه الآخر كفرد بدائيّ عارٍ فراح يقرأه كمنشور سرّيّ ويلتقيه في حضن القمر.

يومها تعلّم إسماعيل أن هذه المرأة المدانة سلفاً، القذرة الآثمة، تمثال كسرته همجيّة متّشحة بالنقاءات العمياء، وكان ما عاشه معها وما أحسّ به تجاهها أكثر توغلاً في نفسه من أن يحكيه لأحد.

مع صمته المتزايد، مع هزئه بإهانات الأتقياء منا ووخزاتهم (حتى ذلك الأوان كانت مسائل كهذه تردّنا إلى دراويش أمّ مصعب كمرجع أخلاقي)، وبعد أن صمتت مدافع الإنكليز وطائراتهم، صمتت قصّته أيضاً. ووصلت إلى المدينة أخبار مرعي السنجاري المثيرة.

بعد أسبوعه الثالث مع فيضة ظل غائباً طوال الشتاء والربيع. كان ذلك كافياً للاشاة قصّة فيضة من الأذهان. لقد عاد اليقين الأولي بأنه مات واندثر، وفرض نفسه. ومع القصف البريطاني للمدينة، أطلّ الباشوات من شرفات قصور الدولة، ولوّحوا للجماهير الغاضبة، فبدوا أبطالاً حقيقيين.

وذات مساء ظهر السنجاري. كانت ساحة كفرطيبا تعجّ بأصوات الطبول والزمور

عجيجها بالبشر الراقصين والنار المضرمة. إن بلدة يسكنها خمسون ألفاً تستطيع أن تصنع عرساً كبيراً لأحد فلاّحيها رغم تهديدات المطر الوشيك. لكن ظهور السنجاري جعل الليل نهاراً والمطر دموع فرح. توقّف الرقص واضطرب. ثم تعالت الزغاريد والشوبشات.

في المضافة أثثت الترحيبات جوّ الألفة والمرح. ثم بدأت الغمزات المحبّة من الأسبوع الثالث. ولم يلبث الفلاحون أن خرقوا شكليّة الجلوس والتفّوا حول السنجاري لاهفين سائلين. لم يعطهم أيما جواب بالقطع. أراهم مواضع الرصاص وقد صارت ندوباً مجيدة.

« يجب أن تقول لنا، لماذا لم تظهر فوراً بعد شفائك » طلب أحد الفلاحين.

بلا توان ردّ السنجاري: « لأن شمداوي والباشوات كانوا سيستغلّون الخبر.. ضدّنا ».

« كيف يا أبو حنفي؟ ».

« عما قريب تجري الانتخابات. ونحن سننزل للمعركة. لن نعطيهم فرصة للتشهير بنا ».

« لكن أنت لم تقل لنا كيف كان طعمها يا أبو حنفي! »

« أنتم صدقتم كلام العدوّين عنها؟ أخس! »

يومها ـ ربما يومها ـ صادف مصعب شبح فيضة ينخطف من أحد الشوارع ويغيب في آخر. كان عائداً من المدرسة متجلبباً بكآبة المساء. بلا توان انخطف وراءها. هبّ فيه شوق وبنوّة. قاطع مسيرتها من شارع آخر. أوشك أن يدركها لولا تسارعها الغريب. كانت تحضن ثدييها براحتيها وتمشي، كأنها خائفة عليهما من الهويّ. سايرها على الرصيف الثاني. رآها تشدّ على الثدي حيناً وعلى البطن حيناً. وعلى أسفل ظهرها حيناً. ورأى وجهها ينشدّ كل مرة كأن الألم ينتقل إليه من تلك المواقع.

كان المنظر المضحك المحزن جارحاً لمصعب، وهو الذي رفض بإصرار أن يرى فيضة امرأة مجنونة، رغم نوبات جنونها. ولأنه كان يومها فتى غريراً، لم يستطع أن يفهم النوبة التي شرب تفاصيلها بمشاعره وعينيه. لقد عاين ألماً حقيقياً وحسب. وظلّ يعاينه حتى أدرك المرأة أخيراً داخل غرفتها وتلقّى تطليعاتها الموجوعة الواهنة.

لكن السعادة ضوّأت وجهها. كانت سعيدة بلا عكر ولا التباس، ومنتشية نشوة نارية زرقاء. « سيفيض! سيفيض! الآن، اليوم! هذا هو وجعه! هذا وجعه! » وارتمت على منكبي مصعب العريضين. غلغلت أصابعها في شعره الخرنوبيّ. ثم شدّت ذلك الشعر باندفاعة ألم جديدة. صار وجهها المغمض العينين مسرحاً متوهّجاً بالوجع. ثم هبطت على

السرير ويداها تشدّان على رسغي مصعب. رفعت وجهاً مشبوحاً بالحلم والتوق والسّريان، وأعلنت أنها ستحاول النوم. «سيفيض. هذه علاماته. رح أنت إلى البيت. النهر الأحمر سيفيض».

غادرها مصعب حيران مُبلبلاً. لم تشف أمّه غليله. تجهّم وجهها وانعقد حاجباها وهي تسمع الحديث، فيما ابتعدت الأخت شمّة مطرقة بحياء شديد وشبه ضاحكة. قالت الأم بتوسّل معلن: «برحمة أبيك يا ولدي. ماذا يقول عنا العالم إذا رآك أحد في غرفتها؟ أنت ابن شهيد! أما سمعت قصّتها مع مرعي السنجاري؟»

«ما هذا الوجع والتصلّب يا أمي؟ وما النهر الأحمر؟ ليس في وطننا غير النهر الكبير!».

«نعم يا ولدي. لا نهر إلا النهر الكبير. الله يفك كربتك يا فيضة ويردّ لك عقلك وخيرك». لقد تكلمت بهدوء هذه المرة لأنها أدركت أن لا دواء الآن إلا تميمة من نوع فريد يحبكها ويشبكها الشيخ السمنكي. وإذ انصرف مصعب تلفّعت بجلبابها الأسود وانطلقت هي الأخرى.

«واقعة على رجليك يا سيّدنا.. بعد وفاة المرحوم.. مصعب هو رجل البيت!».

بهدوء وأريحية تناول الشيخ من كيس كتّاني نثرة بحجم حبّة العدس، لم تعرف أمّ مصعب لها اسماً ولا كسماً. واندهشت المرأة المتقلّصة من إبرة صغيرة لها شكل القلم، أمسكها الشيخ وراح يكتب بها على النثرة. بفضول مرهف مدّت رأسها، فعنقها، فجذعها، حتى صارت أنفاسها تمسح أصابعه وقلمه ونثرته. لقد سمعت أن عدداً من الآيات قد حفر على حبة قمح. لكن هذه النثرة أصغر من حبة القمح، وأحد وجهيْها مغطى بشعرات سوداء قاسية.

«بمساعدة نتفة جلد المعزي هذه.. عليه سبع شعرات فقط.. سيشفى ابنك بإذن الله. والآن إليك هذا الارنب»، قال الشيخ فأنهى مرحلة من انسحار المرأة ليبدأ مرحلة جديدة. رسم صورة أرنب على ورقة صغيرة. ولف النثرة داخل الصورة. من إناء خشبي مغطّى في مصحنة جدارية تناول كرة من عجين بحجم حبّة المشمش. لفّ النثرة والأرنب داخل العجين. وفيما الروع يتلبّس أمّ مصعب كقفاز كبير، خاط الشيخ السمنكي الكرة داخل قماشة صغيرة. «صورة الحيوان الذي يحيض غلبت صورة المرأة التي لا تحيض». وكرّرها ثلاثاً. ثم قدّم التميمة للأم دون أن يرفع عينيه، فتناولتها وقلبها نافض على رأس رمح الذعر. ناولته القروش الثلاثة فأشارت أصبعه إلى إناء فخاري في المصحنة الجدارية.

« ضعيها تحت مخدّته ».

وهكذا كان. لكن الاندفاعة الكبرى التي شهدتها البلاد سرعان ما جرفت عذاب فيضة الذي لم يفض. وإلى أن فهم مصعب أنها كانت تتوقع الحيض أخذ النهر الكبير كلّه ينتفض بالتوقّعات. لقد انفرش على أحلامه وأشواقه كما انفرشت، وانفلش.

إذن، فنحن دولة. فجأة. كذلك شوباد وباب إيل. لقد استقلّ النهر الكبير كله ـ إلا المخاة. وتوجّب أن نثبت عملياً أن المفوّض السامي البريطاني كان أحمق أو حاقداً عندما نبس باصفرار أمام محمد علي العبدالله (ابتسم كمكيافيلي أصيل وبطل وطني غير منازع) أن بريطانيا راحلة عن هذا المكان، « لكنني أحب أن أرى كيف ستحكمون أنفسكم بأنفسكم في يوم من الأيام ».

قبل أن تجري الانتخابات كانت المدينة تتّسع. بدأت بالفراغات الداخلية فملأتها بسرعة ثم اتجهت غرباً نحو التلال. ومن يوم الاستقلال إلى يوم الانتخابات أخذت تتغير تغيّراً محيّراً. كانت أشبه براقصة باليه منبثقة في الفضاء. وها هي ذي تتضخّم، وتوشك أن تترهّل.

كانت العمارات الجديدة سكنيّة على الأغلب. أخرجت من جوفها تلك الساحة الداخلية المرصوصة المنوفرة، ووضعتها أمامها أو حولها. لقد رسمت خارطة عمرانية جديدة من الجنائن الصغيرة الفيحاء والحجارة النحيتة والشوارع المشجرة. هـذا الطـابـع المترف لمدينـة مرشوشة بالشجر والأفياء إنما بدأ في ذلك الحين. وكان أول بديل جيل للرثاثة الألفية التليـدة. ها هي ذي بيوت صلبة رشيقة كقامات بنات المـدارس. تحلّ محلّ البيوت المتشرنقة. إن لها شرفات تطلّ على الشارع والفضاء، وسوراً من الحجارة والأزهار. وها هي ذي شوارع مستقيمة عريضة متعامدة، تمضي بماشيها نحو هدفه، وتصير في أية لحظة ملاعب كرة قدم للشباب. وها هي ذي زوايا وتكايا كثيرة تندثر إلى الأبد لتظهر بدلاً منها الساحات والحدائق. لقد صارت المدينة تفاصيل في غاية الجمال وشكلاً فظاً.

وظهر المال أيضاً ـ بوفرة لم يسبق لها مثيل. وإلا فأية قدرة جعلت راتب الشهيد رضوان السبئي يقفز إلى خمسين قرشاً؟ وكيف استطاعت ثلاثة رواتب متجمعة أن تذهل إسماعيل سرحان بثلاثمئة وستين قرشاً؟ وكيف استطاعت أصابع أبي إسماعيل أن تنقبض على مئة قرش قبل يومين من موعد الانتخابات؟

هذا السؤال الأخير كان فاتحة حياتنا الجديدة المستقلّة. فمنذ أن أنشأ الرجال المدن على ضفتي النهر الكبير أنعمت الآلهة عليهم بروح صافية دمثة لَدِنة، تقمّصت أجسام طبقة

أبدية من الناس وتفشّت في سحايا كثيرين غيرها. إنها روح تحسن التعامل مع الدواب والسمك والحنطة والعقل والآلهة، وعلى الدوام تؤوب إلى مساكنها بربح يعادل ضعفي رأس مالها. إن شيئاً من المساومة مع الناس، وشيئاً آخر من السمسرة مع الآلهة، كانا باستمرار يحرزان هذه النتيجة الباهرة.

لذلك، ودونما وعي بأي انحراف أخلاقي، علق أبو إسماعيل في صدر دكانته، بماء الذهب وبالخطّ الرقعي، هذا المأثور: (عليكم بالتجارة والجسارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق). وأمضى هناك خمسة عشر عاماً يبيع الفحم. وعندما أقبلت سيرة الانتخابات أحس أن شيئاً ما في حياة النهر الكبير يتغيّر، وأن التاريخ قد لا يعيد بعد اليوم نفسه. إنه لا يتذكّر، ولا أبوه يتذكّر، ولا جدّه ولا أحد من أجداده، أنّ أيّ واحد من هؤلاء قد دعي يوماً ليدلي برأيه في من يحكمه. كلّهم، من أول سلف إلى آخر خلف، خرج من رحم أمه ليجد بانتظاره حاكماً لا يريد أن يعرف رأي أحد فيه، ولا أن يكون لأحد رأي مسموع فيه، ولا أن يكون لأحد رأي. الله، الله!

قبل يوم الانتخابات بسبعة أيام، اكتشف صلة للقربى بين الديمقراطية البرلمانية والتاريخ الذي يمكن أن يعيد نفسه. فلقد تجسّدت كلمة الانتخابات وصارت سلعة. «الهويّة بميّة»، عبارة سرت في الأزقة والحارات سريان الدم في العروق. كلّ صوت بمئة قرش! بالطبع كان الباشوات أقدر المرشّحين على الدفع. بل إنهم حفزوا أبا إسماعيل، وكل أب استطاعوا الوصول إليه، أن يستخرج من الدوائر المدنية بطاقة شخصية عليها صورة لوجهه السموح. إنه لِمَمّا يخجل أن نعترف بعزوف المواطنين عن تثبيت انتمائهم الاجتماعي والوطني للدولة الجديدة، وتلكّؤهم في استخراج الهويات. لكن الانتخابات تلافت هذا القصور المشين. لقد قربتنا الديمقراطية خطوة أخرى من التحضّر.

مضى مصعب يبحث عن فيضة ليعرف هل جاءها الحيض، فتقوم في ذهنه مصالحة بين هديره الخاصّ وهدير الشوارع. ولم يعبأ إسماعيل بمئة قرش عرضها عليه أبوه مساء الخميس لقاء هويّته المدنيّة. انطلق إلى امرأته في وعليتا، وأبرز هويته، ثم نقدها عشرين قرشاً ليحتكرها ذلك الليل كله. وطغت أخبار المئات على احتجاج المظاهرات... لكن الانتخابات بدأت في الثامنة من صباح يوم جمعة من آذار ١٩٤٦، واستمرّت يومين.

ذلك الصباح ظهرت فيضة في المدينة. انقشع الضباب الصباحي فشاهدها المتسولون تهجم على أحد الدراويش القابعين بجوار مراكز الانتخابات وتختطف من يده اليسرى رزمة بطاقات شخصية، ثم تطلق ساقيها للريح. وشاهدوا الدرويش ينتفض دهشة، ثم

غضباً، فيخلع رداء الوقار والحلم ويعدو وراءها.

بالطبع لم يكن لأحد أن يلحق بفيضة وهي تركض. لكن الدرويش لم يجد بديلاً آخر. إن خمسة بالمئة من ثمن كل هويّة مقتطع لميزانية زاويته، وواجب عليه ألاّ يفرط في أموال المؤمنين.

بعد ثلاثة شوارع قذفت بالهويات على طول يدها، واختفت. هرع الناس والأطفال. وبفضول طافح راحوا يلتقطون الهويات ويتبادلون رؤيتها. «الهويّة بميّة!» انطلقت الصيحات العابثة في الجوّ. أدركهم الدرويش لاهثاً. هجم على أول ولد فانتزع منه الهوية ولطمه. وهجم على ثانٍ، ولم تستطع يده التقاطه. راح يهجم، وراحوا يروغون منه. انتبه بعد لحظات إلى أنهم يلعبون به ككرة ذاتية الحركة. وقف. عبس. «هاتوها، أو أرمي عليكم اللعنة».

هدأوا مبتسمين. «لا واحد يعطيه الهوية يا أولاد». قال رجل في الأربعينات، وسربل الشيخ بنظرة واقرة.

كانت فيضة قد كرّرت الفعلة نفسها أمام مركز انتخابي آخر. هذه المرة لحق بها الدرويش القابع هناك، وعدد من أصحاب الهويّات الذين قدموا للإدلاء بأصواتهم. كان المشهد أكثر مسرحية. ولحق باللاحقين عدد من الأولاد، وصرخوا أصواتاً ثاقبة ووحشيّة.

لم يمض وقت قصير حتى دبّت الفوضى والإضطراب أمام المراكز الانتخابية. وفي الشوارع خرج الناس ليتفرّجوا: على فيضة والدراويش يطاردونها، والهويّات تتطاير في الجوّ، والأطفال يقفزون. فكأن فيضة انقسمت وتضاعفت. لقد ثبت مفعول سحرها أخيراً ضد خوارق الدراويش، إذ استطاعت أن تُوجَدَ في جميع الشوارع، كما أقسمت على ذلك أفواه كثيرة نقلاً عن العيون المندهشة. لقد أرضت فضول الجميع العاتي، ورغبتهم الجامحة في مشاهدة قوى الخوارق وهي تتحوّل إلى سيرك.

لكن سلطات دولتنا الجديدة انتبهت بسرعة وذكاء إلى التحدّي المستطير لأول ممارسة ديمقراطية في تاريخ المنطقة. وسرعان ما أعلن محمد علي باشا بنفسه ـ بصوته الرخيم الوقور وبسملاته التقية، وبعد ثلاث من آي الذكر الحكيم ـ من جميع راديوات دولة بعليتا أن مؤامرة قذرة دبّرتها بريطانيا قد انكشفت الآن، تستهدف تفشيل التجربة الديمقراطية وضرب الاستقلال الوطني.

لقد سمعنا ذلك الصوت في كل مكان. كان يطارد فيضة في الشوارع والأزقة.

وعند الظهيرة بلغ التوتّر حدّ الفيضان. صار كل دوريش يقسم أنه شاهدها. ودبّت الفوضى حتى داخل المراكز الانتخابية. وراحت مفارز الشرطة تجوب الشوارع والحارات بحثاً عن واحد من أشباح المرأة المجنونة، لاعتقاله وإيداعه السجن. فها هي ذي بريطانيا، التي خرجت من الباب صاغرة، تحاول العودة من الشبّاك لابسة طاقية إخفاء اسمها فيضة.

نزلت الشرطة إلى الشوارع ومع جميع مفارزها أوامر خطّية باعتقال فيضة، ونزلنا نحن أيضاً. كان اليوم جمعة والمدارس مقفلة. لكنّنا تجمّعنا. حتى إسماعيل سرحان انضمّ إلى حشد طلاّبي متجمّع في شارع المهدية. وفيما راح المذياع يحذّر «المواطنين» من «عناصر الشغب والفوضى»، وينذرهم بتطبيق قانون العقوبات الإنكليزي، شهدت الشوارع أول صدام بين السلطة والشعب في دولتنا الجديدة. وبالطبع فقد تغلّب العدد على عصيّ الخيزران، وولّت الشرطة الأدبار. اجتاحت الجماهير الطرق إلى المراكز الانتخابية. هناك كان الجنود يقفون أمام المداخل وقد أركزوا أخماص بنادقهم قرب أقدامهم وأشرعوا في الجوّ حرباتهم البارقة.

وقفنا مشدوهين جامدين. الجيش يحمي الانتخابات! كان المنادي ينادي على الاسم، فيتقدّم المواطن ويبرز هويته. ثم يدخل المركز كأنه غاب في جوف حوت. بعد قليل ينادي المنادي مرة أخرى. لقد اختفى الدراويش. اختفت فيضة. أحبطت المؤامرة.

مؤامرة مَنْ على مَنْ؟ لم نستطع أن نعرف. فيضة على الدروايش؟ محمد علي باشا على الانتخابات؟ بريطانيا على محمد علي باشا؟ الناخبين المرتشين على المرشّحين الكرماء؟ الانتخابات على إسماعيل وعشيقته؟ الباشوات على الديمقراطية؟

قال طاهر بحنق إن محمد علي باشا يذكّره بالمُشعوذين الذين تروى الأساطير عن نجاحهم مع الدهماء. وافقه نذير، وأضاف: «لكننا يجب أن نعترف بأن لديه ذكاء رجل دولة».

مهما يكن فقد نجح كثيرون ممن نعرف في تلك الانتخابات. محمد علي باشا طبعاً، وعزت باشا اللماع. الباشوات كلهم، ومعظم البكوات. واثنان من المجاهدين، أحدهما كبيرهم زيدان مصطفى. ثم حلمي السعدني بلا شك: بعد أن قُتل مَنْ قُتل يوم معركة الميناء، صار العمال طوع بنانه، وكان لهم ولأقربائهم أصوات تكفي لإنجاح نائب. وأخيراً مرعي السنجاري: لقد اكتسح الميدان بقائمة رباعية ضمّت فلاحَيْن أمّيَيْن عتليتَيْن أقرب إلى رجال الفضاء منهما إلى عضوي جمعية وطنية محتملين. لكنه لم يهدّد نجاح الدكتور سعد الله شمداوي ابن الباشا العريق.

لم يكن الناس راضين بنتائج الإنتخابات. وإذا ما تركنا المئة قرش جانباً، فكل شيء

آخر تقريباً خيّب آمالهم. مرّ شهران، وخيبتهم ما زالت تتفاقم، لكنها أخذت شكل الحيرة. اجتمع النّواب لإعداد دستور الاستقلال. بعد الاسبوع الأوّل انتبهوا إلى أولوية وجود رئيس للجمهورية على وجود دستور لها. وكانت الفكرة من اقتراح محمد علي باشا، الذي انتخب رئيساً بعد منافسة حامية ولكن محتومة الفشل مع عزت باشا.

عندما نزل إلى الشارع - كما يقال - الحزبان الجديدان، الأوازرة واللعازرة، كان حظّها في الانتخابات سيّئاً، بعد أن مالت الكفة ضدّهما مثقلة بالقروش المئوية. وها هي ذي ضربة أخرى تحبط أملها بأن تحلّ الجمعية التأسيسية نفسها بعد إقرار الدستور: لقد رأت هذه أن كل شيء على ما يرام، ولا داعي للحلّ.

كنا ساقية غاضبة في نهر جارف رفدته جماعات وجماعات: طلاّب جامعة، عمّال، محامون، معلّمون، حِرَفيون، وفلاّحون أيضاً، نساء، وبنات مدارس. لقد فاض البشر في شوارع المدينة كما لم يفض النهر الكبير قطّ، وهدّدوا باجتياح القصور. وبات مستحيلاً أن يصدّق أحد أن هويّة أيّ من هؤلاء قد دخلت دكاكين الانتخابات وخرجت ملفوفة بمئة قرش.

لقد تكرمشت بدلة إسماعيل سرحان أثناء الانتخابات وتهتّكت. وظلّت أسبوعاً قيد العناية المشدّدة، حتى أمست مرة ثانية تليق بمعلم ابتدائي يزور وعليتا. غير أنها هذه المرّة عانت رضوضاً شديدة في أنسجتها ومفاصلها عندما انطلقت وفي داخلها جسده المتطوّح لتَلِجَ طوفان المحتجيّن على «تزوير إرادة الشعب». يومها لم يبق أحد إلا وخرج في تلك المعمعة. حتى صديقة إسماعيل وصديقاتها خرجن بلا زينة إلى المظاهرات، وبلا حجاب هذه المرّة.

كان واضحاً أن قلب الرئيس محمد علي العبد الله لم يفرح بفورة الجماهير وسخطها. من المؤكد أنه أحسّ بشيء من المهانة لاشتراك ساكنات وعليتا فيها. فهذا الرجل المقترب صعداً من عامه الستين لم يقف حائراً قطّ أمام ظاهرة بشريّة. لقد جرّب وعاش كثيراً من المهانات. لكن خروج البغايا ضدّه فاق كل مقدرة لديه على التعامل مع القذارات المهينة. لقد عرف أعداؤه كيف يحشرونه. كان ذكياً، سريع البديهة، واسع الحيلة، حاضراً بوجه الرجال. ولولا فيروس من الرخص، تمطّى داخل عقله في اللحظات الحرجة، لغدا بطلاً قومياً بلا منازع. فالجميع يذكرون كيف أعلن المجاهدون حربهم عليه أيضاً، لأنه رفض أن يبيعهم أكياس المؤونة المهرّبة بأقل من سعر السوق السوداء، واضطرّهم إلى سرقتها.

لم نستطع أن نشارك في المظاهرات إلى الحدّ الذي تمنّيناه. فقد ضرب مدراء المدارس

حولنا سوراً من الإنذارات الصارمة أقوى من أسوار المدارس نفسها. لكننا تمكنّا من المشاركة بطريقة أو بأخرى. فقط سعدون، التزم بمقعده الطرفاني في الصفّ. لم يوافق على المظاهرات. إنها «تدخّل تعويقيّ في الصيرورة التاريخية». وعرفنا نبرة خاله العقلية. قال إن على جميع القوى الحيّة في المجتمع أن تتدخّل فقط لتسريع تفسّخ الطبقة الإقطاعية كي تنشأ برجوازية صناعية محلّيّة بدلاً منها. أما التصدّي لها فيساعدها فقط على إصلاح أخطائها وتجديد نفسها، وبالتالي: على إطالة عمرها. أن ينهار الاقطاع قبل أن يتمكّن من إقامة صناعة تتمكّن بدورها من خلق طبقة عاملة، تتمكن هي الأخرى من قيادة النضال الشعبيّ، فيعني بالضبط ارتماء البلاد في خضمّ الفوضى الاقتصادية والتفكّك الاجتماعي.

«عندما يتكلم سعدون، لا نعرف هل المتكلم هو أم خاله الأستاذ فاضل،» قال مخيبر سرحان الذي انتصب لسعدون على الطرف الموقفي المعاكس. هذا الفتى الطويل الواسع العينين كان ينهل من المظاهرات لذّة عشقيّة. صحيح أنه كان يتمغنط حول نذير النميري، المتقدّم أبداً على الأكتاف والهتاف، لكن انشباقه بهذا الفعل السياسي دفع الفعل باستمرار إلى لحظات وجودية تتجاوز السياسة والصراخ وترك المدرسة. لقد أوصله إلى حالة من الوجد غريبة متعبة. وعند قمّتها كان ينهبه القلق فيتأبّى عليه الهدوء والجلوس والصفاء. يحاول أن يشرح لنذير فتعيا لديه العبارة أمام التشوّش والعصبية. ويرى إلى ابتسامة صديقه المحبة المتعاطفة، فيبتسم بخواء وقنوط. إن لدى نذير المشاعر المضطرمة نفسها، لكنها تحجل على أديم من الصفاء والارتواء. وهو لا يستطيع أن يفهم ذلك أو يصل إليه. حتى انتبه ذات يوم إلى أنه يحلم بفيضة. ليس الانتباه أهمّ صفات مخيبر العقلية؛ لكنه انتبه: مذعوراً في البداية، فمندهشاً، ثم فرحان. هذا الجيل كله يحلم بفيضة، فلماذا يخاف هو من الحلم؟ صفت نفسه. فيضة! لم يكن مدى الانتباه كافياً لأن يدفعه إلى السؤال عن علاقة الحلم بالمظاهرات والانتخابات المزوّرة. ولأنه كائن فعلٍ أكثر منه دماغاً تحليلياً، رغم عشرين قصيدة طويلة كتبها، فقد انطلق ذلك الليل إلى غرفة فيضة قرب شاطىء النهر.

كان الطريق المنكسر المتلوّي إلى بيتها طويلاً بمعنى إيجابيّ واحد فقط ـ لقد اتّسع لعشرات المشاهد الجنسية، بآلاف صورها وحركاتها وأحاسيسها وغيومها، ولسؤال مخيف تكرّر أربع مرات: ماذا لو أن فيضة رفضته؟ من عشرات الخواطر الواجفة تبلور جواب واحد: إن هذه الكاهنة البيضاء والنفس الزكيـة الخصيبة لن يسعها حبس مياه الينابيع العميقة. وعند هذا الجواب البهيج اضطرب. إذن ماذا سيحدث؟ أحسّ بساقيه تدفعان أثقالاً خفيّة وتجرجرانها.

تذكّر مصعب، ومرعي السنجاري. وتخيّل كلّ احتمال مُضْنٍ آخر بأن تنّيناً ما قد لفّ أجنحته حول جسدها. لماذا يكون هو مرفوضاً، وغيره قد قُبل؟ وفيما هو يعصف عبر فضاء الشوارع خطر له ذلك الخاطر الذي صار في المستقبل سكّيناً قابعة كالأفعى في تلافيف رأسه: إذا كان كل هؤلاء قد عبروا بفيضة فسيسهل عليها أن تتقبّل عبوره؛ إن هذا الأفق الرحيب من الحريّة لا يطلّ عليه إلا البارئون من أسن العصر. أو لم يكتب مصعب، بعد اجتياح فيضة لمرعي السنجاري: ويظل للجسد الطريّ صفاء مرآة / وعنقود يجوهر في دعة / عبرت وما عبرت عليه الزوبعة/ ؟

كل هذا انفلش وتلاشى لحظة أمسكت يداه بقضبان الحديد في شبّاك فيضة. أيقن أن الغرفة معتمة وخالية. سقطت من ذهنه شاشة باتساع الفضاء. سقطت ألوانها البارقة ونبساتها الشجيّة. وانفرش على فراغها فيض من العتم والضباب لم يكن واضحاً منه سوى قضبان عمودية تتشاقل بين الأرض والسماء. وامتدّت إلى قلب مخيبر قبضة خواء رهيب فاعتصرته ورمته في الفراغ.

بضع عشرات من الأمتار وإذا هو يتمشّى الهوينا على كورنيش النهر. كان نفر قليل من الدراويش قد بدأ صيد السمك الليلي. غير أن القوة التي تمكّنه عادة من احتقارهم فارقته.

هناك عبرت هي، على الرصيف الآخر. عبرت بسرعة مضطربة، متخفية بجلباب مرتسم. انتفض مخيبر. أدار ظهره للدراويش وركض وراءها. عادت إليه قوّته المفارقة. وإذ اقترب من المرأة الحلم هالته سيماء التهاوي في جسدها ومشيتها. رأى يديها تحضنان نهديها، وظهرها متقوّساً فوقهما. تصلّب جسده. ومن عينيه تطايرت إشارات استفهام ساخنة.

رغم وجعها الصارخ وانهيارها المنتظر، تطايرت على الرصيف فاضطرته إلى ما يشبه الركض. رآها تضرب على فقراتها العجزية، وظهرها المقوّس يمتدّ بعنف إلى الوراء. ورآها تنعطف في الشارع الموصل إلى بيتها. ركض. يا للغباء! لقد رآها مصعب في حالة كهذه فاحتضن وجعها.

وفي اللحظات الأخيرة راح الاثنان يركضان. صارت المسافة أقصر وأقصر، ولهاثه أحفل وأعجل. ومرّت ثوانٍ أحسّ فيها أن بوسع يده التقاط جلبابها من مكان ما. لكنها، وكأنما أنجدتها قوة خارجية، ابتعدت كسهم شعاعي، وبسرعة خرافية وصلت إلى غرفتها ففتحت بابها ودخلت وأوصدته.

أدرك مخيبر أنها لا تريد أحداً أن يدخل. لكنه لم يقبل. التقطت أصابعه قضبان الحديد وهمّ بالمناداة. كانت فيضة متكوّرة على سريرها، متلوّية منعصرة، ويداها تنتقلان بين صدرها وعجزها.

عندما دخل مخيبر أكاديمية الضباط بعد عام كان واعياً بذلك الضعف الذي سيّل جسده أمام شبّاك فيضة. رغم خلقه الأهوج وطبعه الناري، أحسّ وهو متصمّغ بقضبان الحديد أن بشريّة بأكملها تتوجّع. وأنه غير قادر على تحمّل المشهد. وكان عازماً، وقد وقف مع زملائه أمام بوابة الأكاديمية، أن يجعل إرادته سوراً يحمي ذلك الضعف ويخفيه عن الأعين النابشة. صحيح أن الضعف لا يجمل بالرجال، لكنه الينبوع الأغنى للتواصل الإنساني. لقد علّمته فيضة أن الوجع قد يكون طريق النفس السّرّيّ إلى صنع تاريخ جديد.

وذات يوم وقف أمام تلك البوّابة. امسكت يداه بقضبانها وعيناه بالمبنى القرميدي العتيق في الداخل. وقف مع نذير وطاهر وبدر وعثمان وإبراهيم، والمعركة ضد «تعهير الانتخابات» تزداد ضراوة كل يوم. هناك أقسموا أن هذه الأرض لن تسمح بعد الآن لشجرة استبداد واحدة أن تنمو، وأن التاريخ لن يعيد نفسه باتجاه تلك الغابة السوداء.

حتى ذلك اليوم ظلّت بعليتا تعلو وتهبط في بحر المظاهرات والاضطربات. كان للعازرة والأوازرة مصمّمين على خوض المعركة حتى نهايتها، وقد وجدوا في السنجاري لسان حالهم الجماهيري البليغ. وكان حزب العمل معهم في هذا الموقف: فالانتخابات يجب أن تكون نزيهة.

خلال ذلك الصيف العاصف حقّقت المظاهرات أشياء كثيرة. ليس فقط أن الرئيس محمد علي ألقى عدداً من الخطب في الجماهير الحاشدة، وفصل نفسه عن الجمعية الوطنية المدانة التي انتخبته. بل إن المواد التموينية راحت تظهر الواحدة بعد الأخرى عقب كل خطبة. ليس هناك سبب ـ قال الباشا الرئيس لعشرات آلاف المتظاهرين والمتظاهرات ـ لاختفاء السكّر والرز والطحين بعد أن اختفى شبح الحرب. إن بعليتا بلاد الخصب والخيرات وقد وهبها الله كلّ ما يُمكِنُ للمعدة أن تفرح به.

مع الموادّ التموينيّة ظهرت البقالات. خلال عام أو عامين صارت المدينة مدينة حقاً. انقرض من شوارعها الحمير والبغال الرازحة بصبر جليل تحت أثقال الخضار والفواكه والبقول. وتمدّدت أعطافها بمزيد من البنايات الحجرية الناصعة والفنادق المهيبة، وبدايات القصور المرسومة باسم الدولة.

يقولون إن جمال المدن ينبثق من نظافتها، وأبواب بيوتها وحدائقها، ووجوه صباياها.

لكن هذا لا يكفي. إن لمشهد الرغيف المتلألئ بالبخار، المتوهّج بلون الخدود، الممدود على المنصّة الأمامية للفرن، جمالاً منعشاً مفعماً بالصحة. وهذه المدرّجات الخشبية العارمة بالألوان والأشكال والأنواع، المضمّخة بروائح الطبيعة البكر، التي ينصبها البقّالون في صدور دكاكينهم، لوحات فنّية حيّة، بشارة للنفس، فيض من الحسّ بالأمان والاطمئنان. إن منظر الصبايا وهن يملأن الشوارع والحدائق بأنس وجودهن الطليق، صار يومها شبيهاً بشبكة المياه العمومية، المنصوبة صنابيرها في الشوارع، وبالمصابيح الكهربائية التي حوّلت ليل مدننا إلى نهار بهيج.

لكن وقتاً جاء أحسّ فيه الباشا الرئيس والباشوات الذين حوله أن السيل قد بلغ الزبى. لقد لبّوا جميع المطالب، وزوّدوا الأسواق بجميع الحاجات. وإذن فقد آن الأوان لكبح جماح أغرار السياسة المغامرين، وأحزابهم الصغيرة المضحكة.

كان السفير البريطاني فوق العادة قد قدّم احتجاجاً شديداً على الإساءات المعنوية البليغة التي وجّهها المتظاهرون لحكومة صاحب الجلالة، وعلى الأضرار الكبيرة غير المنظورة التي لحقت بالمصالح البريطانية في «بلاد» المخاة بسبب روح الكراهية التي نقلتها المظاهرات إلى هناك. وفيما الباشا الرئيس يفرك راحتيه جذلاً لتوقيت الاحتجاج المناسب لاتهام المعارضة بتخريب علاقات بعليتا الاقتصادية والحضارية مع العالم، هبّت المعارضة من جديد لتسمّي الاحتجاج إنذاراً وتملأ الشوارع والساحات بالمتظاهرين.

ليس فقط ان الباشا الرئيس متواطىء مع بريطانيا ـ هكذا هتف المتظاهرون ـ بل ويبدو أنه ورؤساء الدول النيلوتية الأخرى قد غفلوا تماماً عن وحدة النهر الكبير، وسمحوا لبريطانيا بالتحدّث عن مصالح لها في المخاة.

وقال خال سعدون إن روائح بريطانيا الزاكمة قد عادت بكامل قوتها إلى أروقة الدولة الجديدة. وقالوا إن بريطانيا كانت وراء تعهير الانتخابات. وقالوا إن جمعية وطنية من هذا النوع يجب ألا يسمح لها بوضع الدستور. وقالوا إن لجنة دولية لتقصّي الحقائق ستأتي من طرف الأمم المتحدة.. وإن بريطانيا أرسلت سفنها الحربية لتمخر عباب النهر الكبير.. وإنها شدّدت قبضتها على مناجم الذهب وغابات الموز في المخاة. وقالوا بل إن لجنة التقصّي أمريكية.

في تلك السنوات الجميلة الناهضة كنّا قد سحبنا رصيدنا العاطفي كلّه الذي أودعناه باسم أدولف هتلر في مصرف الآمال السياسية، وعلّقناه على علم مزدان بالنجوم والأشرطة، مرفوف فوق أحدث تمثال للحرية في العالم. كان مستحيلاً أن نقع في حبّ

فرنسا وهي لا تحب سوى اللغة الفرنسية، أو نصدق أن بريطانيا يمكن أن تعشق سوى الباشوات والبكوات. فكيف بعد هذا لا نرحّب بلجنة أمريكية لتقصّي الحقائق يرأسها سام بلدوزر الأمريكي؟

حلّت اللجنة في أحد فنادق المدينة الحديثة. وفي اليوم التالي أطلّ أعضاؤها الثلاثة على الناس بقاماتهم الطويلة وشعرهم المرسل الذهبيّ، فسلبوا العقول بجمال شكلهم. وبعد ذلك سلبوها بجمال مضمونهم. تحدّثوا عن الحرية، والديمقراطية، والتقدّم، والانعتاق، والتحقّق الذاتي. وكنا في ذلك الحين، مثلما نحن الآن، نحسّ بحاجة بدنيّة إلى هذه الكلمات.

لعلّه ذلك التوق. لعلّه الحلم الذي كانت أجنحته أقوى من جلاميد الواقع. لقد جعلنا الأمريكيون نزداد إيماناً بحقّنا في كراهية الباشوات، والعقول الغريزية السابتة في الدراويش. كانوا طرازاً من البشر لا أثر للسلطة عليه أو فيه. وكان الباشوات والدراويش، ومعهم أسلافنا وأقانيمنا وطواطمنا الخفية، يمثّلون أكره معالم الرثاثة في مدينتنا، وعلى النهر الكبير: السلطة الخانقة، السلطة القامعة، السلطة البشعة المطاطية، السلطة الجوفاء المتكلسة، الواقفة بلا مضمون ولا قيمة ولا نظرة تاريخية جدّية إلى العالم. السلطة السلطة.

في البيت، كان ثمة أبو إسماعيل. وفي الميناء، حلمي السعدني. وفي المدرسة حكمت أفندي وشركاه. وفي الشوارع، الدراويش. وفي القصور والحقول، الباشا والشرطة. إن انتسابنا الهجروي إلى الأحزاب الجديدة، وخاصة في الأربعينات، كان حاجة دماغية لا بديل لتلبيتها سوى الجنون: هذه الأنماط الكبرى رزحت على وجداننا بطحلبية أخطبوطية، وحتّمت علينا أن نستبدل بها أنماطاً لامنمّطة.

كان انتساباً تصادفياً ـ وهذه حقيقة لم ندركها إلا بعد ثلاثين عاماً. فالذي أوصلته ظروفه إلى حزب العمل بقي هناك، ونفر من الأوازرة واللّعازرة. والذي أوصلته ظروفه إلى الأوازرة أو اللّعازرة، بقي هناك، وبالشعور نفسه. لكن «الحزب»، ذلك التكوين الحلميّ الرغبيّ، سرعان ما صار خباء أبوياً للنفوس اليتيمة، وشجرة مقدسة دفقنا فيها نسغ توقنا وحلمنا وولائنا الديني الغافل، وعواصف نزوعاتنا إلى الانتهاك.

لذلك لم ينزعج إسماعيل سرحان من الإنذار الذي وجّهه إليه أبوه بالانقطاع الفوري عن قحبته النتنة، الفاتحة ساقيها لكل عابر سبيل في وعليتا؛ أو يترك البيت فوراً. جاء إلينا، وبصوته الوديع النحيل ألقى على مسامعنا الزوابع التي انطلقت من حنجرة أبيه. ثم ابتسم بفتور وأرسل نظرة مستطلعة إلى وجوهنا. «أنا قرّرت الاستقلال نهائياً عن العائلة».

قال مفيد العبدالله إنه لأول مرة سيقف مع أب ضد ابنه. صحيح أننا جيل يريد تحطيم الطواطم، وكل سلطة وكل عائق لانطلاقنا، لكننا يجب أن نعرف إلى أين نحن منطلقون. إن تعلّق إسماعيل الغريب «بتلك المرأة» مسألة خطيرة فعلاً. «إذا ذاعت قصّتك معها في المدينة، لن تجد ولا فتاة مشلولة تقبل بك. أنا واحد من الناس، لو عندي أخت وأرادت الزواج منك لقتلتها».

وأردف عبد العليم الغزال بمزاح ساخر: «أنت تشرشح نفسك بنفسك. خلص، معك مال، وعندك امرأة تنام معها. خلص. لا تعمل من القصة عنتر وعبلة. وإذا بليتم بالمعاصي فاستتروا».

كان معظمنا في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية، رغم اختلاف أعمارنا، وكنّا في الشهر الأخير منها. غير أننا وقفنا نستمع إلى إسماعيل بخطورة. رأينا أن مشكلته تستحقّ تأجيل الدارسة يوماً آخر، والتوقّف لمناقشتها. إذا كانت علاقة شخصية صغيرة تثير هذه الزوابع الأبويّة والعائلية، فكيف ستنقرض الرثاثة إذن، وينهض مجتمع جديد؟ ومتى؟ كان الاستاذ فاضل قد أعلن أن هذه البلاد تبحث في الحقيقة عن شكل للحكم، وهي محتاجة إلى من ينشىء لها هيكلاً للدولة. حتى ولو كان رئيسها مشعوذاً من نوع محمد علي العبدالله. وقد أدركنا أن مثل هذه الدولة لن يقوم بجهود الباشا وأبي إسماعيل، ما دامت عقولهم تستنقع في مفاهيم كهذه، وإذا ما قامت فلن نقبلها.

قال مصعب لمفيد وعبد العليم: «لماذا تنكرون على إسماعيل حقّه في أن يحب وعلة من وعليتا؟ الإنسان يحب امرأة، لا صيغة اجتماعية!»

في تلك اللحظة انضمّ إلينا مخيبر سرحان. كان منقطعاً عن المدرسة ذلك اليوم. وعرفنا أنه ماضٍ وراء فيضة. من رخاوة بدنه، وكسل عينيه الفاضح غضباً مستتراً، أيقنّا أنه لاقى إحباطاً جديداً. بعد ثوان التفت إلى إسماعيل ودمدم باستخفاف: «واضح أنك تركت مدرستك من نصف النهار. يعني، أنت ماشٍ في طريق الهاوية».

رفع إسماعيل أنفه ونظر جانباً. وبهذه اللامبالاة المستفزّة طلب من مخيبر أن يأكل برازاً. ضحكنا. تطاير تعليقان أو ثلاثة. ثم التفتنا إلى مخيبر الذي تخلّف عنا بتوقّفه الفجائيّ. توقّفنا وآخرنا إسماعيل. قال مخيبر: «كنت دائماً أراك نصف ملاك. لم يخطر لي أبداً أنك ستتمرّغ يوماً في الوحل».

تناول إسماعيل من جيبه علبة سجائر. وسط دهشة ذاهلة من بعضنا، أشعل سيجارة، ثم أطفأ عود الثقاب بنفخة بطيئة من فمه. رفع السيجارة بالسبابة والوسطى إلى شفتيه.

خلال ثوان راح خدّاه يتقعران حتى أوشكا على الالتصاق من الداخل، فيما السيجارة تحترق حمراء متوهّجة. « امشوا! ما السبب، توقّفتم؟ » قال بهدوء لغميّ.

صرخ مخيبر بعصبية: «أنت تافه ومنحطّ، وبلا كرامة! أنا متبرىء من ابن عم مثلك!»

غمغم إسماعيل: «باين أن فيضة لم تسمح لك ببوس قدميها. أنت محقون بالغيرة. لكن، ماذا أفعل لك؟ هي لم تترك لك سوى البراز».

«أنت حقير! حقير! تقارن فيضة بموطوءتك؟ تقارن هذه الإلاهة، القدّيسة، ببغيّ!»

«أقارن إنسانة بإنسانة. واحدة قبّلتني، والثانية رفضتك».

اندفع مخيبر شاهراً قبضته نحو إسماعيل، فتلقّفته أذرع نذير وطاهر وحصرته بين جسديها.

بالطبع كان تصرفاً فظيعاً من مخيبر. فنحن الذين لم نجتمع يوماً على رأي، أو موقف، أو تصرّف، اجتمعنا دائماً على الحبّ، والسلام، والحرية. لقد عشنا في ذلك العمر الغضّ الغفول جمال أن نظل معاً، نتواشج ونحن مختلفون. ويقبل أحدنا الآخر بلا محاكمة ولا تجريم.

وسرعان ما استعادتنا مخاضات البلد إلى حياة وطنية باتت همّ حياتنا الشخصي. لقد تفاعلت قضية تعهير الانتخابات بين الجمعية التأسيسية والشارع حتى وصلت نقطة اللاعودة. خرج طلاب الجامعة مع بداية العام الدراسي. ولحق بهم طلاب المدارس. خرجت الجماهير. والكلّ طالب باستقالة الجمعيّة. وبسبب مذكرة تقدّم بها المحامون ونشرت في الصحف، التهب خيال الناس غضباً على مطمطمة مسألة التعهير وعدم التحقيق فيها. لقد مضت الآن ستة أشهر. وبالطبع، صارت الاستقالة مطلباً جماهيرياً.

في الميناء وجد العمال أنفسهم عاجزين عن مقابلة عضو الجمعيّة الوطنيّة، النائب حلمي السعدني. لقد انتخبوه بعد تعهدّات وثّقها قسم قرآني، وبعد كدسة من المثويات توزّعها «وجوه» العمّال. وها هي ذي الأجور كما هي، وساعات العمل، والطبابة، والتعويضات، وكل شيء.

كان فاتك السبئي (الذي ترك هو الآخر مدرسته عام آستشهاد أبيه وصار عاملاً بحرياً) ينثر الجمل الغاضبة ذات اليمين وذات الشمال. لقد أطلعته إحدى كراريس حزب العمل (وقد استبدلها بالكتب المدرسية) على الحقوق المذهلة التي يتمتّع بها العمّال السوفييت، والأوربيون أيضاً. ولأن هؤلاء بشر، وهو وزملاءه في الميناء بشر، لم يجد

مقنعاً لأن يحمل كيساً، فينخّ تحته كأنه عاد يمشي على أربع. لا شكّ في أن تاريخاً جديداً قد بدأ في تلك البلاد. ولا شكّ أن بعليتا قد بدأت بالاستقلال تاريخاً جديداً. وقد صمّم فاتك على أن يموت ولا يشهد التاريخ القديم وهو يعيد نفسه. يجب أن يدفع الباشوات ثمناً لتعهيرهم نهضة بعليتا الحديثة. يجب أن تعود البلاد إلى النقطة الصفر بعد الاستقلال، لكي لا تكتب الكتب أن بوّابة الوجود السياسيّ للبلاد كانت عهراً سياسياً.

مثل هذه المشاعر المفكرة كان يجتاح النفوس على امتداد وجودها. وعادت ساكنات وعليتا يهدّدن بمظاهرة احتجاج على نقص رعاية الدولة الطبّية لهنّ وعلى خرق رجال الشرطة المتكرّر لحقوقهن كمواطنات.

كان ما يقرب من عام قد مضى على الانتخابات، وأقل من ذلك بقليل على تشكيل الباشا الرئيس لوزارة موقتة بلا وزير أول. لكن المدة كانت كافية لأن يشعر أحمد صنبر بك، وزير الداخلية، بضرورة تعيين حارس ليلي لوزارته ـ وهي دار ذات شقّين وطابقين من الطراز القديم. كذلك نجح حلمي السعدني في تعيين الباشا الرئيس لأحد عملائه خفيراً جمركياً على بوابة الميناء.

وهكذا انفتحت شآبيب الغضب: التعهّر مستمرّ، وهو الآن يتفشّى في أجهزة الدولة.

منذ تلك المظاهرة حتى سقوط الجمعيّة التأسيسيّة بعد شهر، كانت ما تسمّى الآن بالجماهير تعيد إلى السهول والأشجار والتلال، والشوارع طبعاً وذاكرة الدراويش، ذكرى الطوفانات القديمة للنهر الكبير. في ذلك العهد القديم، فرض النهر على النيلوتيين أن يفرّوا أمامه مذعورين حتى هضاب البنّ، ولكن مبتعدين عن همجيّتهم. لقد أقاموا حضارة أساسها الفيضان، وملأوا سماءها بالأساطير وأرضها بالطقوس والأعياد.

الآن يبدو أسطورة من نوع ما ذلك الذي حدث منذ المظاهرة الأولى، طقوساً وأعياداً ما قبل تاريخية. ثلاثة أيام ظلّ المتظاهرون يحتلّون مكاتب وزارة الداخلية. أحمد بيك قبع في منزله. ثلاثة أيام ظلوا يطوقون مكاتب الميناء ومحارسها منتظرين فتوّة حلمي السعدني أن تبدأ العنف. كان فاتك السبئي، بقامته الضخمة وكراريسه النحيلة، برميل زيت يتدحرج هنا وهناك وينصبّ على ما يهمد من نيران الغضب. وكان طاهر العطا نيزكاً يخبو في مكان ويتوهجّ في آخر. «يسقط أحمد بيك!» وكان نذير النميري أول من يتلقّى أول عصا من الشرطة، وأول من يكسرها على فخذه الضامر ويَثِبُ وراء بدلات الخاكي المطلقة سيقانها للريح. «يسقط مزوّرو الانتخابات!»

كانت فيضة عند كورنيش النهر. جالسة على كرسي صغير. فستانها ململم في حجرها.

عارية الساقين والقدمين. بيدها قصبة لصيد السمك. إلى يمينها سلّة عريضة من عيدان البامبو الرفيعة. بين دقيقة وأخرى تصيد سمكة.

فجأة يراها الناس في ساحة محجوب لعازر. هناك تقف معلية رايتها الخضراء. يتجمّع الأطفال حول سلّتها. يتناول كل واحد سمكة ويهرول بها إلى بيت أمّه. تختفي من الساحة لتظهر عند النهر.

هناك يسألها أحد الدراويش بملائكية صادحة: «ولماذا لست معهم في المظاهرات يا مباركة؟» وتردّ هي: «ومن قال لك إني لست معهم يا مبارك؟» فإذا لم ينصرف، حوّلت القصبة إليه وراحت تدني الصنارة من أنفه. فإذا ظل متمسّكاً بأهداب الوقار، رافضاً تحاشي جنونها، جعلت المخلب المعدني يدغدغ أنفه المرّة تلو المرّة حتى يعلق بالخيشوم. فإذا لم ينصرف، جذبت بالصنارة أنفه كأنه سمكة عالقة، فشرمته وأدمته.

لقد تحسّنت صحّتها تحسّناً مدهشاً ذلك الشتاء. كأنها هي التي كانت تأكل أولاً من السمك. اشتدّت. نضرت. ربلت. ازدهى شعرها كشجرة أنبت فيها الربيع أوراقاً جديدة. وعادها ذلك المخاض الوجيع المستحيل أصعب من أي وقت مضى. ويوم صدر قرار الباشا الرئيس بحلّ الجمعية التأسيسية («بعد أن أنجزت مهمتها في وضع الدستور») رقصت في الشوارع والساحات رقصها النيلوتيّ الجنونيّ. رقصت كما لو أنها تترأس عيداً لشعبها. «قتلوهم! ولكن لن يفلتوا!» اجتمع حولها البشر. تكاتفوا وتراصّوا. بعضهم تتبع إيقاع خطواتها ورقص. كانت شهوة واحدة لعشرات آلاف الحواس والمشاعر والأدمغة. وهؤلاء أمضوا معها تلك اللحظات المازنة في عراء المدينة كما لو أنهم ولدوا رعاة وصيادين وغجراً.

لا يعلم أحد حتى بعد هذه السنين كم فيروساً من ذلك النوع بثّ رقصها وعافيتها ومخاضها في النفوس- هذه المجنونة الداشرة التي غدت أمنية مجنونة داشرة لا لمخبير وحده بل للباشوات والضباط والطلاّب والصنايعيّة والشغيلة، وكل من رآها تهشل تحت رايتها الخضراء الخافقة. إنه لمن المستحيل ألاّ يكون سحرها الممجّيّ قد مسّ مرعي السنجاري، الذي ظهر في شوارع بعليتا وهو يقود المظاهرات كما تقود الجذوة لهب النار، ويطالب الباشا الرئيس بالاستقالة أيضاً.

هذه المرة صارت أمّ مصعب تتكلّم عن الأيام، لا عن الشهور والسنين. لقد حمل لها كل يوم هزّة عنيفة. حتى الشيخ السمنكي أصابه الذعر وهو يعاين اختفاء الدراويش المتزايد من زواياهم وتكاياهم. مثل هذا كان يحدث كل قرنين أو ثلاثة، كل دهر.

وليس كل يوم. من جميع أنحاء العالم جاء الصحفيّون والمصوّرون، حمراً وبيضاً. وجاءت لجنة أمريكية أخرى لتقصّي الحقائق مرة أخرى. أما السفير البريطاني فقد سأل الرئيس العبدالله سؤالاً واحداً: « هل ستستطيع هذه البلاد أن تحكم نفسها بنفسها؟ » ولأول مرة في حياته يخلو وجه الباشا من الفرح بالمشاكل: « أظنّ أننا ربّما نستدعي الجيش هذه المرّة ». وقال سعادة السفير ويده تقبض بشدّة على ذراع نجيّه: « ضمان مصالح حكومة الجلالة في المخاة، أيها السيد الرئيس يعتمد على الهدوء والسلام في بلادكم. لكن، حذار من الجيش ».

وهزّ الرئيس رأسه وعيناه ما تزالان شاردتين.

كان السنجاري قد تكشّف عن شيطان حقيقيّ، عن جسد لا يتعب وصوت لا يبحّ وابتسامة لا تنطفيء. وقد نزل معه إلى الشوارع والساحات زعماء الأحزاب الجديدة ورؤوس العمال. وتراكمت السفن في الميناء بانتظار تفريغها، فيما العمال رابضون هناك، وفاتك السبئيّ يمتشق سيجارته ويسير بها على الأرصفة.

ذات صباح أفاق الناس ليجدوا البدلات الخشنة الصفراء تطرّز مفارق الطرق والساحات ومداخل الدوائر الحكومية. هناك انتصب الجنود بخوذهم الرماديّة اللامعة، وبنادقهم الرافعة رؤوسا فولاذية مدبّبة.

اختفى السنجاري والزعماء وفاتك. اختفت فيضة أيضاً. برزت رؤوس عديد من الدراويش. ولولت أمّ مصعب. وهدأت المدينة، حلّ فيها السلام.

ظهر حلمي السعدني في الميناء. عاد العمال إلى أعمالهم، والطلاّب إلى جامعتهم ومدارسهم، والفلاحون إلى حقولهم. ثم عاد الجنود إلى ثكناتهم.

الباشا الرئيس لم يكن سعيداً. إنه يريد الهدوء والسلام، ولكن ليس على هذا النحو. أحسّ أنّ أعداءه السياسيين قد كسبوا كثيراً من تدخّل الجيش، وكسبوا أكثر من اعتقال بعضهم وحبسهم في أحد سراديب التلال. أدرك أن هذه الحماقة ستكلّفه غالياً. لقد أعطى هؤلاء الرعاع قيمة ما كانوا يحلمون بها.

بعد أسبوع ظهرت فيضة ومعها رايتها الخضراء. وفي المساء أطلق سراح المعتقلين. وبعد يومين قامت المظاهرات من جديد. ومرّة أخرى وجّه السفير البريطاني سؤاله: « هل ستستطيع هذه البلاد أن تحكم نفسها بنفسها؟ » فهزّ الباشا الرئيس رأسه بالإيجاب: « الارض والمال بيدنا »، قال بابتسامة واثقة، « وبغيرهما لا أحد يستطيع أن يحكم ».

لكن المظاهرات اخترقت كلّ الحدود المتوقّعة، وتحوّلت إلى إضراب عام، ثم إلى عصيان مدنيّ، توقّفت الجامعة، فالمدارس، ثم أصاب الشلل الميناء. امتنع الموظّفون عن العمل. في القرى اندلعت الحرائق والنهب في ممتلكات الباشوات.

وكان لا بدّ من الجيش مرة أخرى.

لم يتصوّر الباشا الرئيس أن السنجاري وبقية المشعوذين سيتصدّون للجيش. لقد فاجأه السنجاري من قبل مفاجآت عديدة، وخاصة يوم طالب باستقالته. غير أنه هذه المرة أذهله، بلبله وأذهله. طلاب جامعة، وفتية أغرار، يهجمون على الحراب فيجبرون الجنود على التراجع خوفاً من الدم. عمال أمضوا دهوراً يلعقون الأحذية، يحاصرون الآن الجنود والسعدني معهم في مكاتب الميناء. المجاهدون الذين أخلدوا إلى راحتهم ورواتبهم المغرية بعد الاستقلال، يهاجون التلال بحثاً عن المعتقلين لتحريرهم. إن البلاد مهدّدة بالفوضى والخراب، وربما بطوفان دموي.

أثبت الباشا الرئيس أنه قادر بدوره على مفاجأة السنجاري وغيره. بعد أسبوعي عصيان مدني أصاب البلاد بالشلل، بثّ عبر المذياع استقالته على ملايين الآذان المشرئبّة المكذّبة. بصوته الرخو الخشن دعا زعيم المجاهدين زيدان مصطفى ليقوم موقتاً بأعباء رئيس الجمهورية، ووكلاء الوزارات لتسلم أعمال الوزراء ريثما تجري الانتخابات، والناس إلى الهدوء والعمل والمحافظة على الديمقراطية والموظفين إلى إدارة مصالح الناس. وختم كتاب استقالته الذي قدمه إلى «الشعب» بهذه البديهيات الغريبة: «إنني أستقيل وليس في البلاد جائع، والأفران مليئة بالخبز أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، والأسواق مليئة بالرز والسكر والطحين والسمن والزيت وجميع المواد التموينية الأخرى، والمحطات مليئة بالبنزين والمازوت والكاز، والدكاكين مليئة بالملابس والأحذية المتينة الرخيصة، والبقالات مليئة بالخضار والفواكه على مدار السنة، والمدارس كافية للطلاب، والبيوت كافية للسكان، والرواتب كافية للموظفين والدخل للعاملين، والحريات والعدالة كافية للمواطنين. وإذا لم تستطع هذه البلاد أن تحكم نفسها بعدل وكفاية بعد الآن، فإني براء من هذه المسؤولية».

في اليوم التالي كان يضطجع داخل جناح عصري مريح في أحد فنادق باب إيل، وحوله عدد من الباشوات الحزانى، الذين رافقوه فيما بعد إلى مضافة السلطان ناعوس.

لقد راهن على انهيار مؤكد للدولة والنظام العامّ يجعله منقذاً تُستجدى عودته. لكن الشهرين الفاصلين بين الاستقالة والانتخابات العامة الجديدة مضيا دون أن يفركش

التاريخ نفسه، وقد روي عن السنجاري أنه جلد بيده اثنين من الفلاحين سرقا بيارة من البرتقال المخاوي. حتى فاتك السبئي تخلّى عن سيجارته الاستفزازية ولازم شغله في الميناء. كانت البلاد هادئة مستقرة. وتذوق الناس لأول مرة منذ عصور حلاوة الحياة بلا دولة.

كان عبد العليم الغزال مندهشاً بإعجاب من شخصية مرعي السنجاري. وفي واحدة من لحظات الوجد والصفاء أعلن أن هذا الذي اختارته فيضة حبيباً لمدة أسبوع ليس أقل من مثل أعلى يحتذى به. وقرر لذلك دراسة القانون اقتداء براعي القطمان الذي «صار زعيماً لرعية متعطشة للاشتراكية والتقدم، للحضارة!».

جرت الإنتخابات. وجاءت لجانٌ أمريكية لمراقبة أمانتها. وكانت انتخابات بلا مئويات. وقال مصعب إن مستقبل الحرية في العالم مرهون بشعب نصب لها تمثالاً عند مدخل بلاده الشرقي.

أحرزت الأحزاب الجديدة والسنجاري قريباً من ٣٨٪ من الأصوات. وفاز محمد علي باشا العبد الله مرة أخرى برئاسة الجمهورية.

عاد السنجاري إلى كفرطيبا في ذلك الشتاء. واختفت فيضة من ساحات المدينة. انكفأت إلى حالة من الكآبة جعلت مصعباً يلازم غرفتها الليل بعد الليل. لم يلاحظ عليها ذلك الوجع. ونهبه الأمل والحلم. كما الخوف والقلق. مر قمر كامل على وجهها السادر، ولم يَتَلَوَّ القمر البشري بالألم. وفي قرارته هبط يقين حزين بأن ذلك الشيء لن يأتيها قط.

انتظر بضعة أيام أخرى. ولكن أبداً. وذات مساء عافت نفسها الطعام أيضاً. كان مصعب قد سرقه من حلّة أمه. تنهد. اقترب منها وليس في فمه كلمات. نظرت إليه بوجوم وشيء من الغضب. قرأت الكلام الذي في وجهه. ثم شردت نظرتها. ناداها، وأحس أنه لم يعد موجوداً في أية خلجة منها.

كان ذلك الشتاء أخيراً بالنسبة إلى كثيرين منا. لقد انتهت به المدرسة. وفي الصيف الذي تلاه توزع معظمنا على اختياراتهم: أكاديمية الضباط، الجامعة، التعليم، الوظيفة، الأعمال الحرة. وحده طاهر العطا كان كئيباً.

« في الطبيعة كل شيء يبلى. انظروا إلى البرتقالة الناضرة الجميلة. يجيئها وقت، إذا لم تلق يداً تقطفها، سقطت. بعد فترة، تجد أن شيئاً من داخلها، لوناً أبيض، يخرج إلى بشرتها المضوأة. بعد يومين تتعفّن البرتقالة. تندثر... رغم كل شيء، بعد كل شيء، بعد عصيان مدني من شعب بأكمله، يعاد انتخاب محمد علي العبد الله رئيساً للجمهورية! هذا العفن المصفى. العفن بعينه. جدي يعرف كيف صار أبوه أغنى رجل في المنطقة، وعائلته أغنى عائلة. مذ بدأ يتعامل مع الجيش الإنكليزي الذي احتل المخاة، حتى اشترى لقب الباشاوية. لم يخجل أبوه. كان يعلنها على الجميع. عشرين سنة وهو يقدم للإنكليز التموين الذي يريدونه، والشغيلة، والخدم، والجواسيس أيضاً.. شعب بأكمله يقوم ضد تعهير الانتخابات. يظل سنة كاملة ولا شغل له إلا تصحيح هذا الخطأ الفظيع. وعندما تستقيل الجمعية، فرئيس الجمهورية، يعود فينتخبها مرة ثانية! ».

وردّ نذير: « هذه شطارة منه. لكن مصيره التصفية على أي حال. هذه البلاد تتقدّم. أنا أقول لكم. التقدّم، قدرها. الباشا سيهوي تحت أقدامها الماشية بقوة. الثورة قادمة يا

شباب، الثورة محتّمة».

هتف سعدون: «عندما تتهيأ الظروف».

ورد نذير: «نحن سنهيّئ لها الظروف. إرادتنا هي التي ستهيّئ الظروف.

إذا الشعب يوماً أراد الحياة   فلا بدّ أن يستجيب القدر

كان شكل المدينة المتحول كل يوم يؤكد صدق اندفاعات نذير الإرادوية. لقد أوشك كيان حجري وشجري شاسع أن يطوق المدينة القديمة ويسربلها ويحتويها. وراء جدرانه الصقيلة، وأشجار شوارعه المتبقية من البساتين المندثرة، اختفت الرثاثة أخيراً. تقنّعت،توارت. نهضت بدلاً منها ألوان وأشكال وتدفقت حركة. وعوضاً عن الزوايا والتكايا ازدهرت المقاهي الحديثة على الأرصفة والنواصي. وبدلاً من المسامر الشعبي في المدينة القديمة قامت أربعة مسارح في المدينة الجديدة. وصار بوسع إسماعيل سرحان أن يصطحب صديقته من وعليتا إلى «ساعتين من الضحك المتواصل» في واحد منها أو «ساعتين من الدموع السيّالة» في آخر، دون أن يسمح ليدها البضة أن تغادر ذراعه لحظة واحدة.

وكانت الصبايا والنساء الحاسرات يتجولن في الشوارع والأسواق، كأن هذه المدينة لم تعرف الحجاب قط. وقد فاجأت أزياؤهن العيون، مثلما فاجأ حسنهن القلوب. لقد كن بدائل جميلة منعشة للهواء الراكد حول أبدان الدراويش.

لكن بدر الهلالي ظل يستدرج نذير النميري الى الحارات القديمة. هناك بحثا عن الصبايا الباحثات عن الحب. كان قلبه الدافىء يتحسس لديهن توقاً وحلماً طال انحباسهما. ويروح يشرح لنذير أن الحواس والمشاعر يمكن أن تتخاطب بلا عوائق. حتى إذا جاء دور الألسن كان الطريق ممهداً واللغة سهلة. كلاهما أحسّ بالطمأنينة هناك والثقة. في هذه الحواري الأليفة يمكنهما أن يتلقيا انبثاقات الشوق النسوي وعبارات العيون الزاجلة. يمكنهما أن يحفرا قليلاً فيلتقيا بالينابيع الحبيسة. الينابيع في الحارات الجديدة اندفعت. صار لها مسيلات ومسيلات.

لقد كان هنا، في هذه الشوارع القصيرة النحلية، أن لمح نذير وجهاً وعينين وشعراً أسود، فجعلت قامته المتطاولة تزداد تطوحاً، وشفتاه المدورتان تنفرجان اندهاشاً. أحسّ أن إصبعاً خفية نفذت عبر أضلاعه ولامست قلبه من حيث ينبثق النبض. وخلال يومين أحسّ بدر بالرثاء لصديقه الذي سقط منذ الجولة الأولى في حلبة الحب. «كيف تقع في حب بنت لم تكلّمها، ولا تعرف شيئاً عن شخصيتها؟!» لكن نذيراً أدار أذناً صمّاء

لمبادىء صديقه العشقية. وكان جوابه أن لازم ذلك الزاروب خميساً بعد خميس بعد خميس حتى لم تجد الفتاة مناصاً من ردّ تحيته. وبعدها سمحت له بخطوتين، ثم بخطوات...

كان يمضي في عامه العشرين. كان واحداً من كثيرين أمسكوا بسفينة التعلم وهم يخوضون في عباب العيش الصعب المضطرب. ومذ لازم المدرسة اقتصرت حاجاته البدنية على وجبتين في اليوم وما تيسّر من مجلوبات أبيه غير الشرعية.

لبّت الفتاة دعوته إلى جلسة على مقعد خشبي بين أشجار الكورنيش. وعاينت الارتباك الذي تفشّى فيه، فأمسكت، وأجّلت التنفيذ إلى اليوم التالي. كانت ضئيلة القامة دقيقة التقاطيع، ذات حجم منحوت صغير. وقد أحس نذير أنه إذا ما ضمّها يوماً فسيحتويها برمّتها ولن يفيض منها شيء خارج ذراعيه وصدره. وقد أثملته الصورة.

ارتاح للتأجيل. وما إن ودعته الحبيبة حتى اخترق الأمكنة بوثبتين لكل شارع، ودق بلهاثه قبل أصابعه باب أمّ مصعب. «تريد فاتك أو مصعب؟» سألت الأم مندهشة. «لا، فاتك، فاتك. رجع من الميناء؟» «طيب، ادخل. ادخل يا ابني. هو يغيّر ثيابه». «لا عليه. أنتظره هنا. أريده في كلمة بيننا».

صاح فاتك وهو يأخذ مكان أمّه: «أهلاً نذير!» وكان سريعاً في نقد صديقه ثلاثة قروش لكي «لا يسودّ وجهي أمام سمحة».

عاد نذير وقد وخزته نفسه. في فاتك شيء مترسّب جعله هو يحسّ بالارتجاج. شيء لا يحسّ به فاتك لكنه يلامس الآخرين. وقد بدأ مذ بدأ عمله في الميناء. إنه بلا عناء يتصرف كزعيم عمالي. بينما قبضة نذير ما تزال ممدودة نحو العالم. مؤكد أن طمأنينته هذه شعور بالسعادة، فقد أصبح،وهو بعد مراهق،الشخصية البغيضة الأولى في عيني حلمي السعدني. وكان في طليعة العمال الذين أجبروا تلك العلقة المامونية على تعهّد علني مشفوع بيد منبسطة على المصحف، أن لا يمارس التسريح التعسّفي بعد الآن.

كان سعدون قد نقل إلينا من قبل إعجاب خاله بفاتك السبئي. «أفضل بما لا يقاس من أخيه المتسكع في الشوارع مع الشعر والمجانين». وقال إن حزب العمل يدعم بلا حدود منع التسريح التعسفي، وتحديد ساعات الشغل، والطبابة العمالية، ومأجورية العطلة.

لكن الذي أقلق راحة النواب في الجمعية الوطنية، وأخرج المواطنين إلى الشوارع لتصدر تشريعات برلمانية تضمن هذه الحقوق، كان مرعي السنجاري. كان حوله واحد وعشرون نائباً من مئة وأربعة وأربعين، يصلحون لأي شيء إلا الجلوس على مقاعد الجمعية الوطنية كبرلمانيين. وقد أثبت هؤلاء، مع عدد من النواب اللعازرة والأوازرة، أنهم قردة وثعالب في مجمّع من الشياه والتيوس.

وحقاً فقد تساءل الذين كانوا لا هنا ولا هناك، كيف سيحكم الباشا الرئيس هذه البلاد؟ لقد أحسّت كل كتلة بشرية فيها، من الباشوات، إلى البغايا، إلى مسّاحي الأحذية، أنها تستطيع أن تتخذ قراراً وتفرضه على الحكومة. من هذا الإحساس نبعت مشاركتهم التضامنية مع أية دعوة للتظاهر. الذين لم تكن لهم مصلحة مباشرة اليوم، قد تكون لهم غداً. وقد بات واضحاً للباشا الرئيس أن مظاهرة يقوم بها العمال لرفع أجورهم، سينضم إليها انضماماً آلياً الطلاب والحرفيون والصنايعية وعمال الزراعة والمتبطلون، وفيضة. وستغلق الدكاكين خوفاً أو ابتهاجاً: ابتهاجاً، أجل، فناكرو الجميل هؤلاء لا يفرحون الآن لشيء قدر فرحهم لمشاهدة البشر في الشوارع وهم يشتمون الدولة بحرّية ويهتفون مطالبين بحرّيتهم.

لم يكن محمد علي العبدالله من صنف الزعماء الذين يبتئسون لرؤية المظاهرات المعادية لهم. على العكس، أحسّ بفرح جامد لظهور مدمني الفوضى والتظاهر وتحدّي سلطة الدولة وهم يتخبّطون أمام عينيه معتقدين أنهم بذلك سيفرضون عليه إرادة الرعاع والغوغاء. إن الدروب كلها تنتهي إليه. والخيوط كلها عالقة بيديه، والرجال كلها تصغر لديه، والبلاد كلها تتّكل عليه. إن خمس سنوات تنبسط أمامه الآن بالسيطرة والمجد وتحريك الرجال وتحطيم التكتلات.

وقد بدأ بأن استقبل السنجاري في مكتبه الرئاسي. فهذا الشاب المشعوذ الذي يمتلك غبار الشوارع ورغوة الأشداق يستطيع أن يكون ذا فائدة واحدة على الأقل، هي أن يصير بعبعاً في أذهان الباشوات فيمنعهم بذلك من التآمر على رئيسهم. و من السنجاري أخذ الفكرة الألمعيّة أن يقرر نظاماً للمنح في المدرسة والجامعة للمتفوّقين والنوابغ. إن البلاد بحاجة إلى من يتابع بناءها ويجعلها النبضة الأحي على النهر الكبير. ومرة أخرى استقبل في مكتبه الرئاسي بضعة عشر طالباً جامعياً ممن أقضّوا مضاجع المدينة والباشوات بقيادتهم للمتظاهرين. فهؤلاء الشبان اللامعون ذوو الحناجر القوية، يستطيعون بفعل شعوذة مضادّة أن يملأوا سماء المدينة بالهتاف له والدفاع عن اسمه. وعندما خرجوا من لدنه كان كل واحد منهم قد أجريت له مكافأة شهرية تدوم ما دام طالباً جامعياً.

لقد لقّبه رفاق دربه السياسي بالجمل. إنه لخير لك ألا يعرف الناس كم أنت ذكي وبارع. وابتسم وهو يضع استدارة قبضته تحت ذقنه ويتمشى في البهو الرئاسي الخالي متسائلاً: مَنْ أيضاً؟

وأمضى الأشهر الستة الأولى من ولايته وهو يضع الأجوبة. لقد أشرف بنفسه على تعيين ستمئة وسبعة وثلاثين من المتعلمين وأنصاف المتعلمين موظّفين ذوي رواتب سخيّة،

بعد إجراء مسابقات عامة لتعيين مئتي موظف فقط (بينهم شريف العبد الله، نسيبه البعيد - أهو نسيبه حقاً؟ - وأخو مفيد الأكبر الذي فاز بوظيفة حارس ليلي وأنهى ثلاث سنوات من ترك المدرسة والتسكع وراء لقمة العيش). وبعدها جلس على كرسيه الرئاسي وراح يعمل نسباً وحسابات على طاولته الرئاسية، حتى ابتسم أخيراً بنشوة غامرة وتهدلت شفتاه فيما عيناه تقرآن على الورقة أنه كان في كل يوم من هذه الأشهر الستة يعيّن نيفاً وخمسة موظفين - عدا أيام نهاية الأسبوع.

مدّ الجمل رأسه إلى الأمام وأثبت عينيه على صورته الرئاسية. الشفتان المنبسطتان المنتشرتان! والأنف الحادب المديد! هذه القامة المستفيضة! ثم وشاح النهر الكبير الممتد من الكتف إلى الخاصرة إلى الظهر. حقاً أنه لمصوّر بارع.

لكن فخامة الرئيس كان واجماً الآن. هناك شيء ما يربكه في العسكر. لقد اعتاد أن يلعب بعقول المدنيين، باشاوات وطلاباً وعمالاً وموظفين. لكن العسكر لا عقول لهم كي يلعب بها. والعقيد بابكر عبود مشعوذ أهوج، لم يذكر أحد أنه التقط منه ثلاث أفكار متسلسلة. إن تسريحه من الجيش إبّان الحرب كان واحداً من حماقات بريطانيا المميتة في مستعمراتها. طردت العقيد من الجيش فجعلت منه بطلاً، وبعدها رفعت الحماية عن أصدقائها الباشوات واضطرتهم إلى مجابهة الغوغاء بأنفسهم...ولكن! أين فخامة الرئيس الآن؟

في اليوم التالي صدر مرسوم جمهوري بإعادة العميد بابكر عبود إلى الجيش - مادة أولى - وتعيينه معاوناً لرئيس هيئة أركان القوات العسكرية - مادة ثانية - ويبلغ هذا المرسوم من يلزم لتنفيذه - مادة ثالثة.

في اليوم نفسه احتج وزير الحربية للباشا الرئيس على عدم استشارته. إن الرئيس يملك ولا يحكم، قال الوزير. الحاكم الحقيقي هو الوزارة، لأنها منبثقة عن الجمعية الوطنية والجمعية منبثقة عن إرادة الشعب. صحيح أن «العقيد» وجه شعبيّ لكنه منذ ستّ سنوات لا علاقة له بالشؤون العسكرية. وإذا كان صحيحاً أن المستوطنين البريطانيين سيقيمون لأنفسهم دولة في المخاة، فهذا العقيد المشعوذ ضمانة مؤكدة لانتصارها إذا كان قائداً للجيش الذي سيتوجّه لانقاذ المخاة.

هذا كلام سليم - قال الرئيس. حاشا الله أن يريد مخالفة الدستور أو التدخل في شؤون الوزارة. لكن يوماً سيأتي، قال وأنفه المديد يحنو على جمجمة الوزير، «تصيرون فيه كلكم محتاجين إلى الحماية من أوباش مرعي السنجاري وقاذفي الحجارة من عمال الميناء».

«مرعي السنجاري!» هتف الوزير مبهوتاً. «لكنك استقبلته وأكرمته أوّل الناس!».

«أنت ما زلت عبيطاً يا غالب بك، ما زلت عبيطاً»، قال فخامته وهو أقرب ما يكون إلى الاشمئزاز. لكن غالب بك أثبت أنه ليس كذلك. لقد ضاء الفهم في ذهنه، وبسرعة أطبقت راحتاه على يد الرئيس الرخوة المودّعة، شاهداً له بأنه رجل دولة حقيقيّ.

خرجت الصحف في اليوم التالي بعناوين رئيسية حمراء تنعى على وزير الحربية معارضته إعادة المجاهد العميد بابكر عبود إلى مكانه اللائق به لخدمة الشعب. وفي اليوم التالي تبيّن لرؤساء تحرير الصحف أن سبب هذه المعارضة رغبة وزير الحربية في عقد صفقات مريبة لتسليح الجيش بأسلحة بالية وتقديم فواتيرها إلى وزير المالية على أنها أسلحة حديثة متطوّرة. وفي اليوم الثالث انكشفت حقائق دامغة أخرى عن ميول الوزير الارتزاقية اللاوطنية. وفي اليوم الرابع حمل غالب بك بيسراه حقيبة حاجياته من مكتبه، وقدّم باليمنى استقالته إلى عزة باشا اللماع.

وكان فخامة الرئيس قد هيّأ البديل الفوري، إذ ليس معقولاً أن تبقى هذه الوزارة الخطيرة بلا رأس أكثر من دقائق معدودات.

وهكذا صار بوسع الجمل أن يخبط بقدمه السميكة المربعة على رأس فيضة. لا يدري أحد ما إذا كان محمد علي العبدالله قد اشتهى يوماً هذه المرأة المشتهاة. إن تسميته بالجمل توحي بجواب سلبيّ. فهذا الحيوان الأحدب، بعكس الحصان، لم يعتبر يوماً في وعي النهر الكبير الثقافي رمزاً جنسياً. وحقاً فإننا لا نستطيع أن نتصوّره مشتهياً لأية امرأة. لقد اعتدنا، مذ سمعنا باسمه أول مرة، أن نتخيّله رجلاً في الخامسة والسبعين. وإن أمره بإبعاد فيضة، بدل أن يودعها السجن مثلاً، يعني أنها لم تثر فيه سوى الضجر تارة، والاشمئزاز الأخلاقي تارة، والرغبة في الخلاص تارة أخرى. خلال عام المظاهرات رآها نافذة مفتوحة تندفع منها الريح، وها هو ذا يأمر بإغلاقها ليستريح. إنها لم تظهر قط إلا وحلت إليه تهديداً من نوع ما. وهم لم ينس، ولا يمكن أن ينسى، استقالة الجمعيّة الوطنية السابقة واستقالته هو. لقد أضرمت نيران النفوس كلما أوشك بحكمته أن يخمدها. كأنها هي هذه النيران، كأنها الطبيعة نفسها وقد شاءت، خارج إرادة عناصرها، أن تثور.

لم يصدر قرار رسميّ بشأن فيضة. لقد أوعز الرئيس إلى من أوعزوا إلى الشرطة أن ينبشوها من المدينة ويحملوها إلى عشيرتها في غابات الموز الجنوبية ــ بصمت وهدوء، لكي لا تقوم لأجلها مظاهرة، ولا تقوم بعدها مظاهرة.

داخت الشرطة شهرين قبل أن تنتهي إلى اليأس من اكتشاف فيضة. بالطبع صارت غرفتها هدفاً لإغارات تلاحقت بمعدل واحدة كل ساعتين. وكان محنقاً ومهيناً لقادة الشرطة أن تختفي من بين أيديهم متشرّدة مجنونة اعتاد الناس رؤيتها على مئة رصيف في وقت واحد. وزادهم حنقاً وتربّصاً أن عثروا من يوم لآخر على فتى خرنوبيّ الشعر أخضر العينين متمدّداً في سريرها، راقداً أو مخربشاً على دفتر صغير كلمات شعثاء لا تقرأ. إنه واحد من زبائنها ـ قالوا لأنفسهم. وفي المرة الرابعة لالتقائهم به هناك، كان غيظ الإحباط قد تحوّل إلى غيرة جنسيّة، فتعمّدوا إهانته وإيذاءه.

انتفض مصعب مستطار اللبّ ووثب عن السرير. التقطت يده سترة أقربهم إليه وعصرتها بين أصابعها. «الزموا أدبكم أو أجمع عليكم الحارة!» أنتم لا يحق لكم اقتحام البيوت! نحن عندنا دستور وأنتم تخرقونه! الزموا أدبكم، أو تندموا!» وإذ لـزموا أدبهم أخبرهم أن فيضة غادرت المدينة.

خلال ثوان من انصرافهم الخروفي تلاشوا من واعيته. وثب إلى سرير فيضة وسكن هناك. إنها قصيدة متمرّدة. أبياتها لا تقف. لا تعود إلى أول السطر. الكلمة الأجل تضرب إيقاع الوزن التقليديّ، والكلمة الموزونة تضرب إيقاع الصدق. والعبارة لا تقف، لا تعود إلى أول السطر. لأن القصيدة بشكلها وانعدام وزنها التفعيليّ قد صارت نثراً.

إن أصدقاءه ـ وكذلك أصحاب الصحف ـ يهزّون رؤوسهم مشفقين إزاء إخلال بالنظام الشعريّ؛ فكيف إذا ألغى الوزن كله. لكن القصيدة تأبى المجيء إلا بشكل من اختيارها هي. وهي قصيدة عن ذلك اليوم.

في ذلك اليوم بكت فيضة وهي تضمّه إلى صدرها وعنقها مودّعة. لقد فاضت جميع الأنهار عدا نهرها. كلما أوشكت مياه الينبوع أن تطفر في الجوّ انكفأت إلى الداخل. غاضت. أسنت. تكبرتت. لقد منحت روحها للعشرات خلال السنوات الأخيرة، لكنّ أحداً لم يمنحها روحه. وهتف مصعب بلأي: «أنا أحبيتك بكلّ وجودي!» فنظرت إليـه نصف شاردة، وقالت عيناها: لماذا إذن؟ ثم صارت دموعها ابتسامة. أيذكر حديثها في هذه الغرفة أول مرة؟ إنها ما زالت مؤمنة بأن شيئاً سيحدث في بعليتا والنهر الكبير. «كل شهر يشرق البدر ومعه ألف روح! أجل. لم يكن يفهم بعقله كلماتها المتضاربة المبهمة. غير أنه أحسّها بشعوره ووجدانه. فحتى تلك الأويقات القديمة، التي انفلتت من الأعراف والبراري والمتاهات وجمعتها معاً جسداً لجسد، كانت أسيرة خاطر ينبثق ثواني ويغيب دهراً، ودائماً يعود: هـذه الكتلـة مـن الأنسجـة والأجهـزة والشرايين والعظـام

والوظائف والممرات الجوفية، أي سرّ يجعلها جسداً ينثّ كل ذلك السحر والأمومة والحرية والرؤى؟

كان خاطراً مروعاً، يومض كموت قادم. أهو يا ترى السبب؟ ألم تكن روح أحد ممن أعطتهم روحها.. يا له خاطراً مروعاً.. وبشأن من؟ فيضة. فيضة التي فطمته، خلصته من الدراويش، ورمته سالماً في عباب الحياة. لكنها الآن ذاهبة إلى المخاة وعمريت. شيء رهيب يجري في المخاة الآن. سيغتالون أوزيري هناك. سينثرون أشلاءه على وجه الأرض. سوف يقتلعون عروق الذهب من جوف الجبال ويطهّمون بها جيادهم وخزائنهم.

وإذن فقد خلت المدينة من الفوضى والجنون والثورة. وافترّ ثغر الجمل عن ابتسامة مديدة. إذا كانت فيضة قد غادرت فالمدينة الآن سهلة القياد. لا شيء سيعجزه في التعامل مع الرجال وبهم. أما النساء، وخاصة البغايا والملتاثات، فتلك نقطة ضعفه الوحيدة. وهو لا يعرف أحداً يفيده في هذا المضمار.

لقد شعر بفرح متضاعف وهو يسربل بنظرته الرئاسية شريف العبد الله، الواقف أمامه متلعثم اللسان والبدن. ثمة نقطة ضعف أخرى، في الحقيقة، هي رخاوته أمام أقربائه. أطرافاً كانوا أم أصولاً، لا أحد منهم يخفق في الحصول منه على ما يريد. لكنه ضعف خفيف غير خطر، ونبيل ومشرف أيضاً.

انتبه إلى شكوى قريبه الغريبة الثمينة، وأنصت. لقد تعيّن شريف بفضل فخامته حارساً ليلياً ولكن في حيّ وعليتا. من سائر أحياء المدينة، ينتدبونه للحراسة في وعليتا! وهو ابن عم رئيس الجمهورية! أية إهانة! حارس على البغايا!

«أنا طلبت تعيينك هناك» قال الباشا الرئيس وهو ينهض معجباً بسرعة بديهته. لم يكن بوسع قريبه البائس سوى الغرق المباشر في صمت مذهول. وبادر الرئيس، وهو يلفّ قريبه بنظراته الثقيلة البطيئة، إلى تطمينه سلفاً: «وأنا سأعطيك من عندي راتباً ثانياً»، لكي يباغته بعدها بطلباته الأكثر إذهالاً: «ابق معهن. تحبّب إليهن. اعرف ما تحت ألسنتهن. مَنْ مِنَ الباشوات يصاحبهنّ، ومن النواب». وأخذ شهيقاً عميقاً قبل أن يقول: «وفوق كل شيء، اعرف لي إن كانت فيضة تزورهنّ».

كان يتكلم كأنه يوضح الوضع لنفسه أولاً. لذلك لم تؤثر فيه شهقة قريبه المبغوتة: فيضة! يا فخامة الرئيس؟»

وهكذا عاد شريف العبد الله إلى وعليتا. كان مضطرب النفس من مهمّته، مستقرّ

الوعي على راتبه الثاني. تدافعت في مخيلته تلال من العذابات الصعبة التي تبتغي إزاحتها قبل أن يتوصّل ضميره إلى صيغة مقبولة لواقعه الجديد. إن الرجل الذي أرغى وازبد مجروح الكرامة، تمترس بكلام قريبه الرئيس عن الخدمة الوطنية التي سيؤدّيها لبلاده. وفي وعليتا راح يراقب خلسة واختراقاً الأجساد البضّة العارية دون أن يحس بأن وضوءه قد نُقض. ويوماً بعد يوم، تولّد فيه شعور بالتخفّف من أثقال كثيرة، وهو يرى البغايا واقفات على أبواب غرفهنّ، داخل أثوابهنّ السرابية، وعلكة تفرقع بين أسنانهن أو كلمة نابية مقذعة. إنهن، بعكس المتوقّع، صديقات ممتازات، وخاليـات من أيّ حِسٍّ بالمنافسة. وقد ملأه زهواً وتحمُّساً ارتياحهنّ له وثقتهنّ به، ثم لجوؤهنّ إليه كلما عنّ لأحد الزبائن أن يخالف تعرّفات وعليتا المالية أو شيفرتها الأخلاقية.

وذات ليل كرّس نفسه ديدباناً مطلقاً للحيّ بأكمله بعد هذه الحادثة:

كان يتمشّى في طرف وعليتا الجنوبيّ الغربيّ المتّصل بالبساتين، عندما سمع صرخة مدوية. وبعدها سمع سباباً وشتائم من العيار الفاحش الثقيل. اغتلت عروقه. تتبّع مصدر الصوت حتى وجد نفسه يصعد درجاً إلى علّية مطلّة على البساتين. هناك وجد فتاة نحيلة الأطراف مليئة الصدر، تتلوّى بين يدي أحد أغرار المدارس، وعبثاً تحاول دفعه عنها. وكان الفتى يرغي ويزبد مطالباً بحقه في المتعة ما دام مستعداً لأيّ دفع.

لم يحتج شريف إلى أكثر من هراوة واحدة على ظهر الفتى. وبعدها نزل به الدرج إلى المخفر القريب. تساءل ما الذي أعجبه في هذه المرأة الممصوصة. وفي الزقاق شاهد بيد أسيره ورقة من فئة خمسة وعشرين قرشاً. صفعه. أعاد الفتى الورقة إلى جيبه وأخرج أخرى: من فئة الخمسين. كان واضحاً أنه ابن ذوات. لم يتكلّم. تلقّى الصفعة باندهاش، فالمبلغ كان فعلاً كبيراً. ثم طرأت لشريف فكرة جعلته يرى أن اصطحاب الفتى إلى المخفر سيكلفه وقتاً يفسد تنفيذها. «هات الخمسين»، وتناولها من يد الفتى المرتعشة، ثم لبطه على قفاه: «لا تعد لمثلها ثانية»، قال وهو يستدير نحو غرفة المرأة الممصوصة.

قالت المرأة إن اسمها تفيدة، وإنها لا تريد شيئاً، وهي شاكرة جداً وممتنة، وليته ـ شريف العبد الله ـ يظلّ دائماً في هذه الديرة. قالت إنها لا تردّ أحداً إلا ليلة الخميس. في هذه الليلة هي محجوزة. وقال هو إنه خمّن، من شكل الغرفة وإطلالتها على البساتين، وبعد البساتين المقبرة، أنها غرفة صديقة صديقه إسماعيل سرحان. «سلّمي لي عليه»، قال وهو يشدّ عمرته فوق جبينه. إنه يجب أن يمضي قبل مجيء إسماعيل تفادياً للإحراج.

خلال يومين لمس من ساكنات وعليتا الأثر السحريّ لشهامته ومروءته. ولمس أيضاً

انسانيتهن المدهشة خارج أوقات الدوام. وعندما قبض راتبه الثاني بعد أسبوع، رجا فخامته أن لا ينقل من وعليتا أبداً « فأنا فخور بتأدية واجبي الوطني هناك ».

ربت الرئيس على كتفه وصرفه. الآن، صارت السيطرة على بعليتا يسيرة. وبعد ثلاث سنوات سيمكنه السعي مع النواب لتعديل الدستور بحيث يمكن انتخابه رئيساً للجمهورية مرة أخرى.

وحقاً ماذا يريد أهالي البلد؟ ها هو ذا يوقّع على مرسوم (العاشور الصناعي)، الذي تقدّم به عشرة باشوات ورأسماليين أرادوا التحول من الزراعة إلى الصناعة. وهو يراعي نصيب كل ذي نفوذ في (كوتا) وزارة الاعاشة من رخص الاستيراد والعملة الصعبة، حتى أوشك أن يتفرّغ لشؤون هذه الوزارة. وفوق هذا كله، فها هو النظام البرلماني يستقرّ ويترسّخ.

وحقاً، ففيما كان عددنا يتناقص بين ملتحق بأكاديمية الضباط ومنتسب إلى الجامعة، كان ثمة شيء يزداد في المدينة. كان الناس يزدادون، والعمارات المتينة الوسيعة، والصبايا الباديات كأنهن نسل جديد آخر، ومنتجات الأرض والشجر، والصحف والمجلات واللغة. اللغة بشكل خاص. بعد كلمات مثل: الجمهورية، الدستور، الجيش، الشعبية، الجمعية الوطنية، صاحب الفخامة، دولة رئيس الوزراء، الأمم المتحدة، العالم الحرّ، أمريكا، الاتحاد السوفييتي - انتشرت إلى أبعد من صفوف المثقفين بكثير كلمات مثل: الإشتراكية، الوحدة النيلوتية، الديمقراطية، حقوق الإنسان، الأمبريالية، السلام العالمي.. لقد ولد مع الدولة الجديد شبه قاموس جديد.

لكن انتشار كلمة الاشتراكية كان وحده مصحوباً بالدم والفتن. فقبيل انتهاء الحرب، برزت في سهول البلاد ظاهرة اقتصادية جديدة أوشكت أن تخلخل في عهد الباشا الرئيس البنية العريقة للنظام الإقطاعي: مكننة الزراعة. في البداية راح رأسماليو المدينة وتجارها يستأجرون الأرض ليستثمروها بالجرارات والحاصدات والذرّايات. وكان الباشا الرئيس متفهماً لضرورة التطوّر ومضاعفة الدخل القومي، فسمح برخص استيراد جزيلة لجميع الآلات الزراعية.

لقد حرثت مساحات كبيرة من الأراضي المأهولة والأراضي البكر على حدّ سواء. وأوشكت المحاريث والجرارات أن تفلح السفوح الشرقية لهضبة البنّ. وفي العام الأول فقط تضاعف محصول القمح وازداد إنتاج القطن بعشرة أمثال.

اكتشف الفلاّحون أن العقد التاريخي غير المكتوب بينهم وبين الباشوات صائر إلى

الزوال. بعد إغماضة صغيرة لعين الزمن وجد عشرات الآلاف منهم أنفسهم بلا عمل. وهؤلاء حلوا أمتعتهم القليلة وارتحلوا إلى المدن. لم يكن الذين مكثوا على الأرض أحسن حالاً. لقد استمرّ الإقطاعيون في رمي جزء قليل من ناتج الأرض إلى أفواههم الفاغرة، ونقلوا الباقي إلى مستودعاتهم.

لم يتوان مرعي السنجاري عن طرح المسألة في الجمعية الوطنية الثانية. إذا كان شعب من الفلاّحين يهاجر إلى المدن بسبب حفنة من الآلات الزراعية تملكها حفنة من التجار، فيجب ألا نستغرب تحوّل هذا الشعب إلى متسوّلين ولصوص وقطّاع طرق. إن على الجمعية أن تحفظ كرامة هؤلاء وإنسانيتهم على حساب الآلات والتجار، وليس العكس.

كان البرلمان محاصراً وقتها بجماهير حاشدة صاخبة تصرخ بصوت واحد مطالبة بالإصلاح الزراعي. وإذ وصلت شظايا من أصواتهم إلى المجلس هبّ حنفي بك أبو العلا بصوت أعلى وكال للسنجاري عبارات بليغة مهينة. فهذه الشعوذة السياسيّة دمار للاستقرار السياسي والاقتصادي في البلد كله. ولو كان السنجاري يملك فعلاً هذه الشعبية لكان له الأغلبية البرلمانية على الأقل. أما اللجوء إلى الغوغاء في العمل السياسيّ للضغط على مجلس نيابي منتخب فليس أقل من عهر وطني. «ولماذا نذهب بعيداً؟» تساءل حنفي بك، «ألم يلجأ زميلي المحترم إلى عاهرات وعليتا لدعم وجوده في الجمعية الوطنية؟» وطالب بسنّ قانون يمنع «العهر والابتزاز السياسيين. وإلا فإن حضرة النائب المحترم سيطالب بعد غد بالاشتراكية!»

وثب السنجاري عن مقعده وهجهج: «بل اليوم. الآن. أطالب بالاشتراكية. أطالب بتوزيع الأرض على الفلاحين. وتعويض أصحابها بالتقسيط». ولكي لا يسارع رئيس الجمعية إلى إنهاء النقاش في الموضوع، نهض أربعة عشر نائباً سنجارياً وطلبوا حقّ الكلام، ثم راحوا يصرخون به في وقت واحد. وسرعان ما انضمّ إليهم الأوازرة واللعازرة، مطالبين بالوحدة النيلوتيه والإصلاح الزراعي.

بعد دقائق لم يبق في المجلس مستمع واحد. تكلم الجميع. والذي لم يجد كلاماً يقوله غادر المكان إلى الكواليس. وكان هؤلاء من الأكثرية التي امتقعت أدمغتها لسماع كلمة الاشتراكية وأوشكت أن تغني لتأكيد السنجاري عليها.

السنجاري نفسه أصيب بشيء من الدهشة. لم يكن في برنامجه السياسيّ أن يقف وقتها ويصرخ مطالباً بهذه الكلمة البركانية. رآها تخرج من فمه كأنها امتلكت بنفسها إرادة الخروج. لكنه وهو المتعشّق للتجلّيات والامتداد خارج رسوبات العقل والمدينة، أمسك

للتيّ بأجنحة الكلمة، وطار بها لاطماً عقول أعدائه الباشوات والبكوات بما يشبه الجنون.

في اليوم التالي غادر الجمعيّة الوطنيّة إلى كفرطيبا. وامتنع نواب المعارضة أيضاً عن حضور الجلسات. أُقفرت الجمعية من أصواتها. وتثاءب الصحفيون في صمت المبنى الجليل الحديث، ثم امتنعوا بدورهم عن الحضور. حتى الباشا الرئيس استاء من هذا الركود. كان فخامته يحب الصدامات الكلامية الطاحنة. «إلى هذه الدرجة أفزعتكم كلمة؟ نفخة هواء؟» جمجم أمام عزت باشا واللهاع، رئيس الوزراء، وهو يقول لنفسه إن عزّت باشا قد أمضى في رئاسة الوزراء عشرين شهراً، وهذا يكفي. لقد أوشك أن يصير مركز قوّة.

في ذلك الخريف سفكت دماء كثيرة على سهولنا الخضراء. بعد أن عرف الفلاّحون أن السنجاري ورفاقه هجّروا النواب المعادين لهم خارج مجلس الجمعية، هبّوا لطرد المحاريث الآلية من أرض كانت دائماً بين أيديهم ولم تعط أبداً لهم. وفي كفرطيبا وبجراما والريحانية لعلع الرصاص، وهوت الأجسام، ونفر الدم. واهتزّت بعليتا بأكملها تحت أقدام المتظاهرين.

هذا كله كان مفاجأة للباشا الرئيس. حرب ضدّ الاستعمار الإنكليزي - هذه مفهومة. ولكن حرب ضدّ الحكم الوطني؟ ضدّ تطوير البلاد؟ ضدّ مضاعفة الإنتاج وتكوين رأسمال وطني يجعل بعليتا في طليعة دول العالم؟ حقاً إن فيضة أصابت السنجاري بلوثتها ذلك الأسبوع.

ابتسم مغتبطاً. الآن يدرك الباشوات والرأسماليون قيمة إعادة العميد بابكر عبود إلى الجيش ورئاسة أركانه. وسرعان ما امتدّت يده إلى الهاتف لتطلب من العميد لجم هذا الجنون وإيقاف الاقتتال بين الأشقاء.

خلال يومين توقّف القتل وحرث الأرض. وبعد حوالي عشرة أيام استأنفت المحاريث أعمالها. انتشر الجنود تقريباً في كل مكان - على مفارق الطرق، على التخوم بين المزارع والحقول، على تلة القطن، وتلال المدينة نفسها. كانوا لطفاء وسعداء بسلطتهم الجديدة. وقد أضفت غيوم السماء على وجوههم مزيداً من الكآبة المهيبة والوجوم الوطني اللذين ضاعفتهما أصلاً الدبابات الصغيرة الصدئة والعربات العسكرية المتداعية.

وكان الباشا الرئيس مهموماً. لقد لجم إباحيّة وعليتا. وأبعد عن المدينة تلك المرأة الملتاثة اللاثئة. وترك للنواب جمعيّتهم ليتباطشوا داخلها. فلماذا إذن سفك الدماء؟ من أين جاء هذا الغضب كله؟ الأرض خصيبة، وازدادت خصوبة بالسماء والآلة. والسماء معطاء، وازداد عطاؤها بامتلاء النهر الكبير وتغلغل قنواته بين السهول. والبلاد تصدر كلّ

منتجات الزراعة تقريباً، والكثير جداً من موز المخاة. فكيف يمكن للسنجاري أن يحقن النفوس بالشرّ ويدفعها إلى جريمة الثورة؟ أتكون فيضة قد فرخت جرائم جنون في عقول هؤلاء السادة؟

لكنه يجب أولاً أن يزحزح اللمّاع عن كرسي رئاسة الوزراء، الآن وقد جاءته الفرصة من حميّا الأحداث.

كان رؤوف باشا كاشف الغمّة، أحد أعضاء العاشور الصناعي، قد حصل من وزارة الإعاشة على ترخيص باستيراد كمية من خيوط الحرير. غير أن العاشور كان محتاجاً إلى خمسة أضعاف تلك الكمية، فاستوردها كلها آملاً بالحصول على استثناء من القانون بحجة تنشيط الصناعة.

لم يكن وزير الإعاشة ممن يطيب لهم منح الاستثناءات. ولما وصلت الكميّة المذهلة إلى الميناء أمر بمصادرتها وإخضاعها لقوانين الوزارة. حسب رؤوف باشا الحسابات. وبسرعة وجد أن العاشور سيخسر بهذا الإخضاع أربعة ملايين قرش (ما يعادل الآن مئة مليون). لم يضع وقتاً. أرسل محاميه إلى الوزير ليعرض عليه مليون قرش دفعة واحدة، إما لجيب الوزير أو تبرّعاً لتسليح الجيش.

لكن الوزير كان من الحماقة المتعنّتة بحيث رفض هذا وذاك. «أنت نائب في الجمعية الوطنية يا فرج بك، وتعرض عليّ هذا العرض؟ ماذا يحلّ بالقانون إذا رحنا نلتفّ عليه، ونحن في أول عهدنا بالاستقلال؟ والأهالي؟ نتركهم طعمة لجشع التجار؟»

ذهب فرج بك إلى الباشا الرئيس. مليون قرش! غمغم فخامته داخل حلقه. إنه مبلغ لا يستهان به. لو تسلّمته وزارة المالية لاشترت به معدّات هامة للجيش. إنه مبلغ لا يستهان به. وكان سعيداً أن النائب قد لجأ إليه من وراء ظهر الوزير.

«ولكن ليس عندنا جيش يا فخامة الرئيس لكي نسلّحه»، هتف الوزير بغباء. وأعاد الأسئلة نفسها عن القانون والتجار والأهالي. هزّ الرئيس رأسه بالموافقة. استاء فقط من بغلنة الوزير في تقديره للجيش. وفي المساء طلب من عزت باشا إقالة وزير الإعاشة. «هذا ولد أرعن ضيّق الأفق. يريد أن يقف بوجه تصنيع البلاد».

كان عزت باشا خديناً حقيقياً لمحمد علي باشا. وما أكثر ما تبجّح بأنه يعرف فخامته معرفة غيب. ومثلما أدرك شو إن لاي أنه لن يستطيع أن يكون زعيم الصين بوجود ماو تسي تونغ، أدرك هو الحقيقة الكبرى نفسها بالنسبة إلى محمد علي. لذلك أحنى رأسه الآن

تفادياً لإقالة الوزارة برمّتها، غير منتبه إلى أنه قد خطا الخطوة الأولى نحو تلك النهاية. أقال الوزير، وتسلّم بنفسه أعمال وزارته. وماطل في مسألة خيوط الحرير حتى ضمن لنفسه ربع مليون قرش أخرى غير ما أخذته ميزانية الجيش.

بعد أسبوعين استقال ثلاثة وزراء دفعة واحدة. وهكذا خلا مجلس الوزراء من نصف أعضائه. ثم مضى شهر على النحو التالي: رئيس الوزراء يرشّح للباشا الرئيس أسماء بديلة محل الأسماء المستقيلة، الرئيس يقبل، يقابل المرشّحين كلاً على انفراد، يقنعهم كلاً على انفراد بالاعتذار، يعتذرون، يستقبل غيرهم، يعتذرون...

في الوقت نفسه اشتدّت حملة النواب على الوزارة. وكان هذا سهلاً ومأموناً في غياب المعارضة. إن الوزارة لا تمثّل الأكثرية جيداً. ولا بدّ من تعديلها. فهم عزت باشا باطن الأمر. استقال. وبعد ثلاثة أيام كلّف فخامته حنفي بك أبو العلا بتشكيل وزارة جديدة. ففعل، وجاء بمعظم المرشحين الذين اعتذروا. وكان فرج بك با محمد، محامي رؤوف باشا كاشف الغمة، وزيراً للإعاشة.

وقد أراح الباشا الرئيس دخول فرج بك الوزارة. إنه إسفين مدقوق سلفاً فيها. وسيكون مفيداً إذا ما خيّل إلى حنفي بك ذات يوم أنه فعلاً رئيس وزراء.

- ٨ -

في أواسط القرن السابع عشر اكتشف الهولنديون عمريت والمخاة. كانوا يظنون النهر الكبير بحراً لم يعرفه جغرافيّوهم بعد، ولا بـدّ أن يوصلهم إلى المحيط الهندي. غير أنهم بدلاً من الهند اكتشفوا الذهب والموز والبنّ. لم يزعجهم توقّفهم هناك. بل إنهم سرعان ما افتتنوا بالفردوس الجنسيّ الذي آقتنصوه أيضاً من أسلاف فيضة البرونزيّات الغامقات. إن الجبال والغابات هناك تجسّد آخر للبشر. فمقابل كل غابة قبيلة. وعلى ضفاف روافد النهر الكبير السبعة أقامت القبائل النيلوتية أعيادها وطقوسها، غير مكترثة بهؤلاء البيض الرخوين، ذوي العيون الملوّنة بشؤم عظيم. كان الطعام وفيراً فلم يأكلوا أحداً منهم، رغم الإغراء الشديد (لقد بدا أن لحم البيض الرخو هذا وليمة عظيمة حقاً). وجرياً على عاداتهم المشاعيّة قدّم الأهلون لهم الطعام والموز والبنّ، والنساء، وأيضاً تلك الصخور المضحكة التي أثارت اهتمامهم. وهكذا أسّس البيض شركة المخاة الهولندية الشرقية.

الاكتراث جاء من الإنكليز. عندما لمع الذهب في صخور المخاة انعكس ضوؤه في لندن. وبعد حوالي نصف قرن حرّروا البلاد من الهولنديين المعتدين، واحتلوا بيوتهم ومناجمهم كضيوف موقتين: هكذا قالوا لزعماء القبائل، الذين لم ينقصهم الحسّ الشغوف بالذهب، وطالبوا بحصّتهم.

كان الإنكليز عقلاء وعادلين. منحوا الزعماء ربع المحصول الذهبي بلا مقابل. كذلك ابتعدوا عن أماكن حلول النيلوتيين، فجدّدوا ثغراً صغيراً، هو المحطة السكنية الأولى على النهر والأخيرة بالنسبة إلى النيلوتيين، وكان اسمه المخاة. من هناك مدّوا سكة حديـديـة إلى المناجم، وأقاموا سكّة بحرية إلى أوروبا. وبالطبع صحّحوا اسم الشركة فبات: شركة النهر الكبير البريطانية الشرقية. وكانت تعني حقاً اسمها. بعد سنوات قليلة تمطّت باتجاه عمريت، حيث اتحدت عروق الذهب هناك مع شقيقاتها في المخاة، وكان لا بدّ من متابعتها بصمت وسرّية.

قبيل الحرب العالمية الثانية خشيت حكومة صاحب الجلالة أن يعيث الهتلريون أو الأمريكيون فساداً في المخاة وعمريت، فاغتالوا والد فيضة العجوز وخطيبها وعشرين

آخرين من زعماء القبائل. ثم أتوا بالزعيم الثالث والعشرين فصنعوه سلطاناً لعمريت. قالوا له إن دول النهر الكبير الجديدة ستلتهمه كما يلتهم هو عجلاً مشوياً على ملفاف، بدعوى الوحدة النيلوتية، أو الشيوعية، أو ما شابه ذلك من الجلود العقائدية التي ترتديها الذئاب. وبعدها أعطوه ستين بالمئة من مساحة الصخور الذهبية في عمريت ليتصرف بها على هواه ووفق مشيئته، دون تدخّل من أحد، وبحماية بريطانية ضد أيّ تدخل من أحد. تركوه وشأنه منتظرين أن يهرع إليهم بعد حين راجياً معاونتهم في استثمار تلك الصخور، والحلول محل تجار بعليتا في تصريف الموز والمنجه والبنّ أيضاً.

كان السلطان ناعوس يعرف جيداً كيف يُلتهم عجل شُوي على ملفاف. وقد ظلّت هذه المعرفة شعاره في الحكم حتى قامت حرب المخاة بعد تسعة أعوام.

بين ثغر المخاة وآخر محطة للقطار الواغل في الجبال، نشأ نسل جديد آباؤه أوربيون وأمهاته نيلوتيات. وقد تمرّس إذ بلغ سن الرشد بالاحتقار لأمهاته البرونزيات المتخلّفات، والحقد على آبائه البيض المتعجرفين. إلى هؤلاء انضمّ بيض أوروبيون شاءوا الاحتفاظ بنقاء دمهم والتخلّي عن عنهجيته إزاء النسل الجديد. تآلف الاثنان في مجتمع مدوّر من أثرياء الاستعمار الاستيطاني. وكان للجميع، دون استثناء، آذان بالغة الحساسية إزاء جيرانهم المحيطين بهم إحاطة السوار بالمعصم. إن دعوة السنجاري (ومحجوب في بيت رع، وبنعامر في شوباد، ودهقان في باب إيل، وشيبوب في نيلوتيا الشمالية) إلى الوحدة النيلوتيّة والاشتراكية لم تكن أوّل شيء أخافهم في هذا البحر المتلاطم من الهمج وأنصاف الهمج. لكن احتمال وصول هؤلاء إلى السلطة بواسطة النظام البرلماني، واحتمال تحالفهم بعدئذ مع السوفييت، كانا غابة من المخاوف الرهيبة. وما أكثر ما شتموا حكومة صاحب الجلالة بإدخالها النظام البرلماني بلداناً ما تزال قطعانها البشرية تعجّ بالبدائية والعنف والمزاج السوداوي. وشتموها أكثر لأن من خلّفتهم وراءها كرؤساء جمهوريّات وملوك تركوا الجيش والمدارس لزعماء النشاط الهدّام، ثم تعبّطوا علب كرتون اسمها البرلمانات ووقفوا يتفرّجون على انهيار طبقتهم.

شيء أكبر من الشتيمة كان يجب أن يحدث لحفظ كيانهم البشريّ والاقتصاديّ، مما لم ينهض له النيلوتيّون بعد. وهكذا أعلنوا قيام دولة خاصّة بهم، وانتخبوا فنسنت جانسن رئيساً لوزرائها، و (أوروبا الجديدة) اسماً لها.

في البداية كان صدر الباشا الرئيس ينشرح لموقف الازدراء والتهكّم من الدولة الجديدة. إن مساحتها لا تتجاوز أربعة بالألف من مساحة وطن النيلوتيين. والحقيقة أن

المهمّ ليس قيام دولة أو عدمه. فالانكليز باقون هناك كيفما كانت صيغة بقائهم. المهمّ هو الاستمرار في عمليات التفكيك والتركيب بين الزعماء والنواب، لكي لا يحدث استقطاب وحزبيّة يقسمان البلاد ويفرقان الكلمة ويطيحان بالإجماع. إن الإشراف على كل صغيرة وكبيرة في الدولة والشارع، والتوسّط لتعيين الموظّفين، والاستماع حتى للمنافقين والمستغلين، والتستّر على مخازي أقربائه وأصدقائه وأنصاره، وجمع ما لا يجتمع، وتفريق ما لا يتفرّق، ومحاسبة الوزراء والإداريين ـ يستغرق أكثر مما يملك من وقت. فكيف يمكن بعد هذا معاركة (أوروبا الجديدة)؟

وطبعاً أمضى تلك الليلة وحيداً وساهراً. اعتذر عن عدم استقباله رئيس الوزراء، ووزير الحربية، ورئيس الأركان الذي عيّنه بنفسه. اعتكف في مكتبه الرئاسي أمام صورته الرئاسية. إن إعلان الدولة المخوية سيطلق الثعالب والنمور والذئاب والقطا بوجه الجمل. وعليه منذ الآن أن يشكم ما يمكن أن يتحول إلى كارثة: إنه إذا أُجبر هذه المرة على الاستقالة فستكون نهايته. إن أحداً لن يقبل بعدها بعودته إلى الكرسي، فكيف بتجديد رئاسته؟

هؤلاء الإنكليز الأوغاد. ذهبوا وتركوا برازهم هنا. وها هم يجفّفونه كالطوب ويقيمون به دولة. وأين؟ في خاصرة حليفهم التاريخي، العدوّ اللدود للشيوعية والاشتراكية وكل ـ إيّة، وعدوّ الأميركان، السمسار الأفضل أيام الحرب الذي زوّدهم أسبوعياً بما احتاجوه من المؤن. يا للمكافأة. بعد أن أقاموا سلطنة في عمريت وحرموه من ربع سمسرته، ها هم يغرزون في خاصرته رمحاً.

ولكن، كلها أربعة بالألف. وهذا الرمح يمكن أن يكون مجرّد شوكة تُقتلع بالملقط. بل إنه قد يصير في المستقبل مصدر رزق عميم لآلاف العمال الشرسين من أمثال فاتك السبئي، الذين يمكن أن يعملوا في مناجم الذهب هناك، ويطالبوا باتّحاد عمّال على هواهم هناك، ويبعثوا بفيض ذهبهم إلى بعليتا.

رنّ جرس الهاتف فجأة! فظاظة لا تصدق وخروج استفزازي على كل ذوق ومقام!

كان الصوت الآخر قادماً من بيت رع. وبهت الباشا الرئيس. إنه صوت عبد المنعم باشا خفاجي، رئيس الوزراء.

كل خليّة من خلايا الباشا الرئيس تنبّهت. في رأسه نغلت عشرات الخواطر. تهدّلت شفته السفلى الشبيهة بقرص مرتّع من المرتديلا. وقال الباشا خفاجي إن قيام دولة للبيض تهديد خطير للبشر والسلام على امتداد النهر، وإن الشعب لن يقبل به بأية حال من

الأحوال. ارتفعت شفة الباشا الرئيس السفلى لتلطم بالعليا فتصنع كلاماً. وقالت الكلمات إن هذا التحدّي لن يمرّ ولا يمكن أن يمرّ، «هذا يوم تمتحن فيه رجولة النيلوتيين وكرامتهم وتاريخهم». وبحث الباشا الرئيس عن كوب من الماء حوله فلم يجد. وضع يده على السمّاعة ونادى الحاجب مسعوداً. وقال الباشا خفاجي إنه لا بدّ من التداول في الأمر واتخاذ قرار سريع. ودخل الحاجب فأشار له الباشا بتحريك راحته المقوّسة أمام فمه، وقال للباشا الخفاجي: «نحن هنا مستعدون للموت والفداء يا دولة الباشا. وأنتم قدوتنا». وتساءل في دخيلته أيّ قرار هو هذا الذي سيتخذ. ورأى الباشا خفاجي أن هجوماً سريعاً مباغتاً يقضي على هذه الدولة المصطنعة في مهدها، هو الحلّ الوحيد. فكيف هو الجيش في بعليتا وكيف استعداداته؟ دخل الحاجب مسعود حاملاً كأس الماء. تناول الباشا الرئيس الماء وأومأ صارفاً الحاجب: «أعطني فكرة عن مشروعك، لأعرف كيف أجاوبك». ووضع حافة الكأس بين شفتيه. ترنّح الماء بين شفتيه وداخل فمه. نظر إلى الكأس وهو يهزّ رأسه بالموافقة، كأن الباشا خفاجي يراه. وضع الكأس على المنضدة. «جيشنا في كامل استعداده ولياقته وتسليحه. والعميد بابكر يتحرّق شوقاً للمعركة.. طبعاً، طبعاً، يا دولة الباشا.. أنت فقط سبقتني.. كنت سأتصل بك شخصياً بعد انتهاء اجتماعي بالـوزارة..».

قال الباشا خفاجي إنه لا داعي إذن لمؤتمر يضيع الوقت الثمين ويكشف النوايا الجهادية. وما دامت المسألة سهلة، فيمكن بعد أسبوع أن يلتقي جيشا بعليتا وبيت رع في المخاة نفسها. «وساعتها تكون الانتخابات المقبلة في بلدينا فوزاً ساحقاً لنا على أولاد الخدّامات والفلاّحات». وقال الباشا الرئيس بنشوة: «أسبوع! هذا كثير!» ووضع يده على أذن السمّاعة ونادى الحاجب ثانية. لا بدّ من أسبوع، قال الباشا خفاجي، لأن جيشه سيلتفّ حول النهر الكبير ويدخل أراضي عمريت عنوة. دخل الحاجب مسعود وتلقّى من يد الرئيس إشارة بطلب القهوة. وقال فخامته: «نحن سنبدأ قبلكم.. في اليوم الخامس.. للفت الأنظار عن تحرّكاتكم.. ولكن لن نستعجل».

بعد وداع مثير للنفس بأخوّته وحرارته وتصميمه ونضاليّته، وضع الباشا الرئيس السمّاعة. وفي الخلوة القصيرة التي سبقت دخول مسعود بالقهوة، أحسّ أن المكان ينفغر ويصير منطاداً، يصير هوّة ملأى بالضجيج والأصوات الوحشية. وفي بارقة من الزمن استطاعت أذناه أن تميّز صوت فيضة ــ أين هي الآن؟ ــ وعيناه رايتها الخضراء ووجهها الذي بدا لأول مرة جميلاً. ثم دخـل مسعـود بـالقهـوة، فـانكمش المنطـاد والهوّة والأصـوات والرايـات والعيـون. وألصق فخامته شفته السفلى بالفنجان، وجرف بالعليا القصيرة نسبياً شيئاً من القهوة داخل فمه، هكذا، دون صوت، كما يفعل الإنكليز.

نعم. سوف يردّ الرمح إلى خاصرة الإنكليز. سيجبرهم على التعامل معه، على العودة إليه واعتماده، في تجارة البن والموز وغيرها. وسيصير في أعين الشعب البعليتي... أجل.. سيسحب البساط من تحت قدمي.. ويصير هو، الباشا الرئيس بطلاً وطنياً، وقومياً أيضاً. إذا وصل جيش بعليتا إلى المخاة قبل جيش بيت رع بعشر ساعات، فاز هو بقصب السبق. توَّجه النهر الكبير ربّاً للعزة والبطولة. اين هو العميد بابكر عبود؟

في السابعة صباحاً سمح لهم بالدخول: حنفي باشا رئيس الوزراء، فعزت باشا رئيس الجمعية، فكامل بك وزير الحربية، فالعميد بابكر عبود رئيس الأركان فمعاونه. باستثناء العميد، لم يكن أحد راغباً في الحرب. إذا لم يتدخل الإنكليز الآن، سيفعلون ذلك في المستقبل. نكون وراء تحرير المخاة، نصير وراء تحرير بعليتا. وبعدئذ ليست المخاة كلها في أيديهم. مجرّد الميناء وسكة القطار، وقسم من الغابات الصخريّة. شكل شبيه بمطرقة ذات رأسين. حوالي ١٥٪ من المخاة كلها، والباقي سيضمّ نصفه على الأقل إلى بعليتا.

تساءل الجمل في دخيلته، هل يوافق على هذه الحسابات فيكسب رضا الإنكليز وتعاونهم، مع السلام في بعليتا، أم يرغي ويزبد دون أن يعلم جلساءه باتفاقه مع الباشا خفاجي، ويضرب ضربته البطولية؟ تناول فنجان قهوته، وألصق شفته السفلى بجداره.. لكن حنفي باشا لم يتح لشفته العليا جرف شيء من القهوة داخل فمه: «مهما يكن، يجب عرض المسألة على الجميعة الوطنية. اليوم نجمعهم في جلسة سرية، ونطلب منهم اتخاذ قرار ـ بحسب ما يمليه عليهم ضميرهم وقوميتهم.»

همّ الباشا بأن يرغي ويزبد. حنفي باشا يزاود. وعزت أيضاً. أوشك أن يصيح: لا، لا. أوشك أن يقول إنه في مسائل كهذه يجب إبعاد النواب الثرثارين حتى الوقت المناسب، وإن هذا هو ما يحدث في مجلس العموم البريطاني. ولو فعل لأكسب كامل بك وحنفي باشا نقطة ثمينة ضده. هو أيضاً مقتنع بلا جدوى هذه الحرب، بل وبحماقتها وضررها. ولكن، الصبر جميل يا جمل. أثبت فنجان القهوة بين شفتيه، وحسا منه بطريقته المهذّبة المتحضّرة. كيف ينتزع المبادرة منهم؟ وعندها وصلت إليه الأصوات. لقد أنقذته العناية الإلهية.

لأوّل مرة في تاريخ المدينة تقفر البيوت من سكّانها. لقد خرج الناس عن بكرة أبيهم. خرجت سمحة من مدرستها وسط مئات الطالبات. وخرج مصعب من جامعته وسط آلاف الطلاب. وخرج فاتك من الميناء مع آلاف العمال. وخرجت أم مصعب وأم إسماعيل وأم نذير وجميع الأمهات. وخرج أصحاب الدكاكين تاركين رفوفهم ومعروضاتهم. وخرجت تفيدة

وساكنات وعليتا، وآلاف مؤلفة من شغّيلة الفلاحين ومتبطّليهم، وخلائق لم يعرف أحد من أين نبقت ولا كيف جاءت. حتى اللصوص والنشّالون والدراويش انخرطوا في المظاهرات الطوفانية، وهتفوا: «كلمة بكلمة عالمكشوف / أوروبي ما نبغي نشوف!»

لقد ابتلّت البلاد يومها بذلك الدفق العصيّ على التعريف، والينبوع الغائر تحت رسوبات الحياة اليومية وتلال النفس، الذي نفر فجأة من باطن الأرض البشرية حاملاً مليون إنسان إلى ساحات القرى والمدن.

لعلّ أعمق ما استبقاه الإنسان من عصر مشاعيته القديم هو الحسّ بالوطن، بالمدى الحرّ المباح للحركة واللقاء والحب والكراهية والائتلاف والاختلاف والفرح والبكاء والحياة والموت. إنه تلك الطمأنينة والراحة والسعة، ذلك الوثوق، الوجود المرشوش بطعم الذكريات. إنه الذي ليس خارطة وحسب في الجغرافية، ولا شكلاً وحسب في الهندسة، بل فضاء مسكون بالأسلاف والنهر والتلال والقمر والضحكات والوجع، بالتوق والحلم، المكان المعادي للغربة، المتشابك الخناصر مع الدنيا، المغلق دون التهديد، المفتوح للشجاعة والخطى والفاكهة والشراهة والبقاء.

مئات الآلاف تحركت في المكان الواسع. خرجت من بيوتها وانتشرت في الأرجاء. حملت معها تلك البيوت لتلصقها بالأفق البعيد المديد. هؤلاء هم الذين أوصلوا بحيح أصواتهم إلى أذني الجمل فسمعه فحيحاً. اقترب من النافذة وتأملّهم يتلاطمون ويصرخون. هؤلاء هم الذين يجب أن تنشب حرب كي يستتبّ السلام عليهم، الذين يجب أن يتحالف مع همجيّتهم ضد مدنيّة البيض في المخاة وذهبهم. هؤلاء هم اللغز الكبير، وليس البيض في المخاة. هم الخوف الكبير على المستقبل. على الديمقراطية.

ابتردت أحشاؤه وانكمشت. لقد شاهد غيلاناً ذات أنياب زرقاء. بالأمس كانوا يتعاركون للحصول على رغيف خبز وحفنة رزّ، والآن يريدون أن يرسموا سياسة الدولة، أن يفرضوا الوحدة النيلوتية ليلغوا إلى الأبد الجمهورية التي هو رئيسها.

نظر الباشا الرئيس إلى زملائه الذين تبعوه نحو النافذة. قال لهم شدقاه وعيناه وابتسامتُهُ المظفرة: «هؤلاء كلهم معي. أنا أريد الحرب والتحرير وهم يؤيدونني. اخرجوا إليهم وكلموهم، إذا رأيتم رأياً آخر».

«دولة الرئيس»، حمحم وزير الحربية، «البيض مسلّحون جيداً في المخاة. سيهزموننا».

هتف الباشا الرئيس: «ليس ضرورياً أن ننتصر لتكون الضربة بطولية. ألم يقل الشاعر:

شرف الوثبة أن ترضي العلا غلب الواثب أم لم يغلب؟»

هتف العميد بابكر: «سيّدي الرئيس! أعطني الأمر فقط، وبعد غد أكون في المخاة!»

صمت الجميع وسكنوا.

«اسمح لي بمخاطبة الشعب، سيدّي الرئيس!» هتف العميد بابكر.

نظر الباشا الرئيس إلى زملائه وهزّ رأسه هزّات قصيرة. «قل لهم (يقصد المتظاهرين) إن الرئيس أمرني بتحرير المخاة. قل لهم إن الرئيس يريد أقصى درجات الانضباط، ومتابعة العمل، والابتعاد عن الشائعات. افرش عليهم وطنيتك وتعهّداتك الشجاعة، أنت والعقيد حسنين».

كان العميد بابكر ضابطاً في سلاح الفرسان أساساً. لكنه في ميدان اللغة كان جندياً راجلاً. عندما أطل من شرفة القصر الجمهوري (طابقان بثماني غرف وبَهويْن) ولفح عينيه هجير مئة ألف من العيون، ابتردت أحشاؤه هو الآخر وانكمشت. رفع ذراعيه ليحيّي الجماهير الصاهلة ولم يعثر في ذهنه إلا على بقايا باهتة فقط من توجيهات «سيّدي الرئيس». لكنه أصر على أن يتكلم. كان ذهنه فضاء شاسعاً أصفر تلمع فيه ثلاث أو أربع نقاط صمغية وسط عباب من العيّ والخفقان. لكنه أصرّ على أن يتكلّم. وبقوة خارقة لم يعهدها في ذهنه من قبل، استعاد الكلمات بالحرف وفرشها على الآذان العطشى.

ثم توقّف. كانت الجماهير تحييّه كما لم يحدث من قبل، كما لم تفعل مع «سيّدي الرئيس» ولا مع السنجاري. وكان يجب أن يتكلم. ومثل ماشٍ قنع من البستان بالقطوف الدانية وراء السور، أخذ يتكلم بالعامية على هواه.

قال الباشا الرئيس لزملائه: «يا أخوان، هيئوا أنفسكم لهزيمة صغيرة أمام الإنكليز».

«أمام الإنكليز!» هتف كامل بك وزير الدفاع، «نحن سنواجه البيض في المخاة فقط».

لم يعبأ الرئيس به. «لأننا إذا لم نذهب أكلتنا الناس».

رنّ الهاتف، فمشى الجمل إلى المنضدة. أجل. كان المتحدّث السلطان ناعوس بذات جلالته. لقد علّمه الأمريكيون استعمال الهاتف. وقد تكلّم طيلة الوقت. بعد مسرودية مضنية من التحيات والاستفسارات الأخويّة، شرح للباشا الرئيس اتفاقه مع الباشا خفاجي على تقديم كامل التسهيلات والمساعدة لجيش بيت رع، ومع أصدقائه الخلّص ذوي المروءة

والشهامة، المستشارين الأمريكيين، على المساعدة المنزّهة الخالصة لوجه الله في تحرير الجبال الذهبيّة.

وإذن سيكون دور الجيش البعليتي سهلاً ومريحاً، قال فخامته لنفسه. المعركة الحقيقية ستكون حول الصخور ومع القبائل. وسيتناطح الأمريكيون والإنكليز برؤوسنا نحن. آه ما ألذَّ هؤلاء الأمريكيين!

التفت إلى زملائه وخاطب دولة رئيس الجمعية: «يمكنك أن تجمع الاخوان اليوم يا عزّت، وتقرّروا إعلان الحرب»، وكان في دماثة خطابه ما يوحي للآخرين بضرورة الانصراف.

كان العميد بابكر ما يزال يطوّح بلغته العامية على مسامع الشعب. لذلك اضطر فخامته أن يبعث النادل مسعوداً ليهمس في أذنه بطلب الانتهاء والعودة. وإذا كان مسعود قد انخطف لدى خروجه إلى الشرفة وشاله إحساس بأن له حصة هو الآخر في الهتاف والتصفيق، فقد احتشم فور إبلاغ رسالته وعاد من حمأة الدويّ واللهيب.

قال الباشا الرئيس ويداه تشدّان بقوة على زندي العميد الطافح نشوة وابتساماً: «اسمعني جيداً يا بابكر». وصمت قليلاً، متفرّساً في وجه صنيعته العسكري. «إذا اعتقدت لحظة واحدة أنك ذاهب فعلاً لتحارب.. ستكون النتيجة.. اسمعني جيداً.. ستكون هزيمة منكرة لك ولي، ومأساة لبعليتا وجيشها. انتبه جيداً ولا تأخذك الحماسة. تقدّم بجيشك. إنما، عندما تلتقي بجيش البيض، أو بمواقعه، فلا تصطدم به. هؤلاء الإنكليز يعرفون كيف يكسبون الحروب دائماً، بعد أن يكونوا قد خسروا كل معاركها. اعمل كأنك في نزهة. وسأقول لك عند اللزوم متى تعود. أظنها مسألة أسبوعين أو ثلاثة، لا أكثر. وستعود بطلاً، فلا يهمّك. أقصد، بطلاً إذا لم تحارب. سامعني؟ فاهمني؟ عظيم».

كانت حسابات الباشا الرئيس صحيحة كلها إلا في ناحية واحدة. لقد أثبت الإنكليز فعلاً أنهم يكسبون الحروب. وأثبت العميد أنه متحمّس مأخوذ بالحماسة. وأثبتت النتائج وقوع الهزيمة، وحتى المأساة، ودون بطولة. غير أن النزهة استمرت ثلاثة أيام فقط، لا ثلاثة أسابيع، وهي الأيام التي أمضاها العميد بابكر وجيشه ليصلوا إلى مشارف المخاة.

لقد استغربوا ألاّ تقصفهم الطائرات ومدافع السفن إلا في اليوم الرابع. ثم اتضح أنها كانت منشغلة في الجنوب، هناك حيث تقدّم من الشرق جيش بيت رع عبر عمريت ومع حشود هائلة من الغجر الحاملين بواريد صدئة وفؤوساً وكنانات وأقواساً. وكان غريباً

أيضاً أن يزحف ثلاثون ألف جندي.. وقيل أربعون ـ وحوالي ثلاثمئة ضابط، فلا يلتقوا بمفرزة أو موقع حصين أو آلية حربية. لقد ضجروا من الأكياس الهائلة الحجم التي تنكّبوها كالجمال، استعداداً لأيّام قتال عصيبة. كثيرون منهم تمنّوا الانصراف إلى قطاف البنّ الناضج من شجيراته الجميلة الخضراء. تقدّموا يتهيدبون مستجمّين بالشمس، وبأحاديثهم عن البيض الجبناء أولاد الموت، الذين لا يجرؤون على مواجهتهم وجهاً لوجه، كما تقتضي الفروسية والرجولة. ثم امتلأت السماء بما يشبه الطير الأبابيل وراحت تقذفهم بحجارة من سجّيل. وهكذا خسروا الحرب التي كسبها أعداؤهم وربحوا الرجولة التي خسرها هؤلاء.

عادوا بشعور ساحق من الخيبة والمرارة والخذلان. قبل سنوات كان الكثيرون منهم يهجمون بشعر صدورهم على معسكرات الإنكليز. يواجهونهم. وإذا ما تسلّلوا داخل معسكر ما وباغتوا جنوده، فقد كانوا يأخذونهم أسرى ـ أسرى معزّزين مكرّمين، إلا إذا حاول إنكليز آخرون إطلاق النار، وعندها كانوا يخوضون حرباً شريفة، وجهاً لوجه، بارودة لبارودة، ورجلاً لرجل.

أما الآن، فيا للعار ويا للخسّة!! إذا كان هذا النسل الاوروبي المهجّن مؤمناً حقاً بأن المخاة أرضه ووطنه، فليخرج إلى الساحات ويؤكد بدمه إيمانه وحقيقته. أما أن يعلن في المذياع كلاماً ثم يهرب من مواجهة نتائجه كما تهرب المناجذ في الجحور، فهذا وحده هزيمة لإيمانه وإبطال لادّعاءاته. إن الوجود نفسه قد انعطب. النّاموس الذي يحكم الحياة والكون اختلّ بفعل عدد من الطائرات والمدافع الصمّاء. هذه الحرب خرقت قانوناً أساسياً بين البشر وغير مكتوب، هو تكافؤ الفرص في تبادل العنف والهمجية، وأزرت بالرجولة والشجاعة والفداء.

عادوا أيضاً بأحمال مفجعة غير الأكياس الثقيلة التي انطلقوا بها. في اليوم الخامس للنزهة، كانوا قد انفرطوا إلى عدد هائل من الشراذم. تغلغلوا في السهول الغضارية والخضراء والسوداء، وكل شرذمة تحمل قتيلاً أو اثنين على نقّالة مرتجلة. كثيرون منهم اضطروا إلى دفن القتلى كيفما اتّفق، ليس فقط إكراماً لأجسادهم، بل لأن تلك الطائرات امتطت الفضاء فوقهم كأنها في نزهة هي الأخرى، وتابعت قصفهم بحجارتها النارية.

يوم وصلت طلائعهم إلى التلال كان معهم عدد هائل من القتلى. جاءهم أول عسكري بعد الحرب: توقفّوا هناك! كانت المدينة قد اقتربت من التلال اقتراباً أفزع الجمل ورئيس أركانه فأمرا الجنود بالتخييم هناك.

لأول مرة ينازعنا أحد ـ وينازع فيضة أيضاً ـ الدخول إلى باطن التلال، ومعرفة أسرارها. وحقاً فقد أحسسنا، نحن الذين تشرذمنا ولكن بطريقة أخرى، أن ملكية روحية قد انتزعت منا. لقد دخل ورئيس أركانه سراً إلى سراديب التلّة الرابعة، واستحسنوها مقبرة للشهداء. خلال يومين من عودة الجيش المنطفيء اكتظّت بالجثث تلك الجدران المتحفّية الملأى بالنقوش والرسوم والحفور، وانطمست مداخلها، ربما إلى الأبد. ثم ارتفع حول التلّة جدران إسمنتية عالية غطّيت بالرخام، ونصب تذكاري شاهق نحتت على قاعدته كلمتا «مثوى الشهداء»، وحفرت تحتها الآية القرآنية: «ولا تحْسَبَنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون».

إذن فقد أخذ الجمل ورئيس أركانه منا تلّة كاملة. وداخلها رموا من كان محبّوهم لاهفين للنظرة الأخيرة الدامعة وللدفن الكريم الذي تمنّوه لمفارقيهم.

لم يمنع هذا عساكر كثيرين من المضيّ بأحالمم البشريّة قدماً نحو مقبرة المدينة. ومثلما هجمت المنازل والعمارات من قبل على التلال، هجمت القبور الآن على المدينة. أسبوعاً أو عشرة أيام والقبور تحفر وتطمر، والبساتين الخضراء تنكمش أمام الموت المتقدّم.

وكان أن العيون التي تنفتح على هول الحرب، انفتحت على التلّة الرابعة ومقبرة المدينة. لكأن الموت قد هجم على بعليتا بأربع وأربعين قدماً، ثم تمدّد جسده التّنّينيّ على مشارفها قمراً أسود متفحّماً.

حكى لنا إسماعيل سرحان كيف أفاق ذلك الصباح بانفجار شهقة مفجوعة في حلق تفيدة. كان صباح الجمعة بالنسبة إليها إطلالة طقوسيّة على العالم الخارجيّ. الصباح الوحيد الذي يشاهد ارتداد الستارة عن الشباك وباب الشرفة، وانفتاح الباب كي يجلس الشريكان في الشرفة يحتسيان فنجاني القهوة على مرأى من الشمس و الشجر والهواء والمطر والمقبرة البعيدة. بعدها كان إسماعيل يغادر العلّية حتى مساء الخميس القادم.

لقد لطم عينيها منظر مروّع. كانت المقبرة قريبة جداً، حتى لتحسّ منها بلمسة الموتى. للحظة فارقها الحسّ بالوقت والتاريخ والبساتين، ورأت الشاهدات الجديدة وريحانها الأخضر، ورأت نفسها محمولة بالبياض على الأيدي نحو قبر حُفر لها هي تحت شرفتها. وشهقت.

كانت المدينة كلها تشهق. وكان النهر الكبير عند خطّه الأدنى، فبدا رمادياً وعكراً. هذه المرة أصيب الحلم والتوق نفساهما بلطمة كاسرة، بيقظة كابوسيّة. وقد وقفنا إزاءهما تماماً كما وقف سلفنا البدائيّ أمام بيته الذي قوّضته فجأة قوى لا يعرفها ولا يدركها.

أحسسنا بالضآلة والخوف، بأننا حملنا التوق والحلم وكانا أكبر من طاقتنا، ومشينا بهما إلى أبعد مما ينبغي. ما هذا الاستقلال الذي حاربنا لأجله إذن؟ ما هذا التقدّم الذي أنجزناه؟ إن الرثاثة ما زالت تعشّش في خلايانا.

شهرين أو ثلاثة والبلاد تلطم نفسها بأيدي عاشورائيّة. إسماعيل سرحان قرّر الزواج من تفيدة. لقد رأى أنها أشرف من هذا المجتمع المنخور. وهو لم يعد قادراً على تحمّل ستة أيام كل أسبوع، من الشوق المبرّح واللهفة الخانقة، والغيرة القاتلة من زوّار تفيدة الآخرين. بصورة خاصّة، لم يعد بتحمّل إهانة الزوّار الآخرين. ولولا أن المرأة صمدت صمود الأبطال بوجه سعادتها وطمأنينة حياتها، وردّت ضغوط حبيبها بألف دمعة حازمة، لكان إسماعيل شيئاً آخر تماماً الآن.

مصعب السبئيّ الذي روّعه ما انكشف من عورات هذا المجتمع الطّحلبيّ، اتّخذ قراره أخيراً بالسكنى الدائمة في غرفة فيضة، وقبول العمل في أسبوعية (البلاد). كان الآن في سنته الجامعيّة الثانية، طالباً يدرس الفلسفة وعلم النفس، وشاعراً لم تقبل دوريّة واحدة نشر قصائده التي لا شكل لها.

نذير النميري أراد أن يخطب سمحة. يداه الضخمتان شدّتا على زنديها وإبطيها بعصبيّة لكن الفتاة الباسمة لم تتوجّع. بسعادة مازنة أكدّت له أنها لن تقبل: يبدو أن جيل الشباب لا يعرف شيئاً عن جيل البنات، قالت له. هي أيضاً تريد أن تتفتّح وتكتمل. ولن تقبل أن تكون الزوجيّة محور حياتها الوحيد. سوى أنها لم تتمكّن من المناقشة أمام إلحاحه العتيّ. «تخرّج ضابطاً بالأول. وبعدها يكون لكلّ حادث حديث».

وافق نذير. احترام النفس قبل كل شيء. ثم هاجمه قلقه وحسّ الصغار. خلال فترة وجيزة انفتحت نفسه لإلحاحات طاهر العطا المتكررة: فيضة تحاربهم! هناك جيش من مغاوري الليل «يحاربون الأوروبيين بالأدوات التي كنا نعبث بها في التلال. ماذا ننتظر؟ مئة ضابط يحاربون الآن هناك. بعضهم معه بواريد».

«يحاربون مع السنجاري أم مع فيضة؟»

«لا فرق. المهمّ يحاربون».

«أنا أقدّس هذا الرجل».

بعدها انضمّ الطالبان الضابطان مع غيرهما إلى مغاوري الليل في المخاة. كان السنجاري قد ارتجل جيشاً من الطلاب وشباب الفلاحين والجنود المهزومين والمجاهدين السابقين، وبه أخذ يوقظ البيض المخويين على مباغتات الموت ومخاتلاته. وجاءت الأخبار أن مغاوريه من بعليتا ومغاوري فيضة من

عمريت يقومون بما لم يستطعه جيشان نظاميّان، وقد سمح السلطان ناعوس لمغاوري عمريت بالتوغّل غرباً في الغابات الجبليّة بصحبة جيش بيت رع. ثم عاد الجيش بعد أن دمّر بالصدفة بعض مناجم الذهب المخوية، وصار أقل عاراً وهزيمة، وبقيت فيضة وغجرها. لكن السلطان لم يقرّ عيناً رغم تطمينات الأمريكيين له. ربما كان وحده بين الناس الذي لم يصدّق للحظة واحدة أن هذه المرأة الهائمة مصابة في عقلها. ربما لأن خوفه كان أقوى من لوثتها. قال الأمريكيون إنها ورعاعها سيتركون في أعماق الغابات الوحشية بعد عودة الجيش. فإذا نفذت من السباع والأفاعي ومغائر الصخور الفاغرة، سيتلقّفها نسل الأوروبيين المخوي ويريح جلالته منها.

سمعنا أن فيضة وصلت إلى وكر الجانسنيين وقتلت دبابير كثيرة. وها هي ذي توشك أن تشلّ العمل في كثير من المناجم. إن نظرة جلالة السلطان لم تخب يوماً، فكيف تخيب في فيضة وهو يعرف هذه الغولة الشمطاء كما يعرف الموز والمنجة؟

وسمعنا أن الأمريكيين والإنكليز سرعان ما اتّفقوا على إنهاء مزاحها الدمويّ قبل أن يفلت من أيديهم ويصير كارثة. أوصلوا حصة ناعوس من الجبال الذهبية العمريتية إلى سبعين بالمئة مقابل سكوته عن الدولة الأوروبية الوليدة، وتكفّل أصدقاؤه الأمريكيون باستثمارها مقابل إخادهم لحركة القبائل الثائرة.

عندها صار بوسع الأطراف الثلاثة إنفاذ غجر مماثلين من قبيلة السلطان نحو الأعماق التضاريسية التي هبطت فيضة إليها. هناك بات الحسم الرهيب ممكناً. فحيث عجزت المدنيّة الأوروبية عن سفك الدماء، لأن التوغّل في ذلك العالم السفليّ تأبّى على طائراتها ومدافعها، كان بوسع هؤلاء الهمج المطيعين أن يفجّروا الينابيع الحمراء، وحولهم الجنود الجانسنيون نظيفو الأيدي.

بعد أسابيع قليلة سمعنا أن حرب الغجر والرعاع قد انتهت أيضاً، وأن جثّة فيضة قد عُلّقت بالمسامير على جذع شجرة شيح في قلب الغابة. أول الأمر طُعنت في عنقها النائم على بلاطة لازوردية. كانت حاسرة الجذع والساقين، وكانت وحدها، كما هو ضروريّ لابنة زعيم روحيّ. القاتل ورفاقه فرّوا رُعباً من توقّع أفاعيل سحرها السابق للموت. لاذوا بجنود فنسنت جانسن الذين تقدّموا بخطى متلصّصة بطيئة، وتأكدوا أنها ماتت. أطلق جنود السلطان سيقانهم للريح، وأصواتهم للذعر والصراخ. ولم يبق للجنود الجانسنيين سوى أن يعلّقوها على الشجرة.

تواتر نزيز الأخبار. خلال شهر اكتملت الصورة الرهيبة ـ وكذلك قصيدة مصعب

الفجائعية «لا للبكاء»، لقد كتبها وعين له على خصلة من شعر فيضة جاء بها طاهر العطا، وعين أخرى على نفسه والعالم الصفيق. ولم يفاجأ أن القصيدة اكتملت بمقطعين ووزنين مختلفين. فالعالم كله انشطر: حقل من الليمون أزهر ليلة / ما بين قلبي والمدينة / ثم جف / ذاك الفتى المنهور في وطن الشغف / وجه من البلور مكسور على درج المساء... وموتك سوف يكون نهوضاً مع العشب / بعد المطر / وسوف تصيحين في الناس من شرفة عالية / «حكمت بأن ينتهي موتنا اليوم»..

قالوا إنها في ذلك اليوم (أي يوم؟ أين؟) زيّنت بالحجارة الكريمة كل بقعة من جسدها ينهلها الحلم والشبق. حجرتا لازورد لحلمتيها. خرز بيضويّ لرأسها وردفيها. حجر الدرّ لضفائرها. قرطان برونزيّان لشحمتي أذنيها. دائرة مرمر لسرّتها. باقة من أفنان الصفصاف لفرجها. خفّان ذهبيان لقدميها. وراية خضراء لقبضتها.

كان الغجر من أبناء قبيلتها مسحورين خاثرين متوترّين: أخيراً قبلت فيضة أن تصير ملكة. وها هم في حضرة القدسيّة والجمال. ها هي ابنة الزعيم المطلّة عيناه من بين أوراق الشجر تهجر أخيراً عالم الغربة وتتسنّم موقعها العريق في الإمارة والحب.

«هيا نبعث الأعلى العظيم من الأسفل العظيم»، قالت لهم. «اقبضوا على شارات أوزيري المقدّسة، واصعدوا أعماق النهر السحيقة وجوف عالم الأشباح». وعلى رأسها وضعت تاجاً من سعف الموز، ولفّت حوضها بطيلسان.

قالوا إنهم رأوها للمرة الأولى في حياتها تتوجّع ذلك الوجع. كانت يداها لا تكفّان عن الامتداد إلى جسمها والضغط عليه. غير أنها كانت تزداد قوة كلما ازدادت وجعاً. وكلما ازدادت قوة اندفعت نحو المناجم المستباحة وصرخت: «سيفيض! سيفيض!»

في يومها الأخير رافقتها العذراوات إلى أحد مساقط المياه. هناك نضت طيلسانها، والوجع ناشب في عروقها وأعصابها. وقبل أن تنزلق داخل الماء ندّت عنها صرخة هائلة، صرخة وحشية شجيّة عنيفة. لقد شاهدت نقطة الدم على ذلك المكان من الطيلسان. جعرت: «فاض! فاض!».

كانت قطرة واحدة ـ قطرة كبيرة واحدة.

قالوا: إنها ظلت تغتسل كأن نهراً قد فاض حقاً. فارقتها الشدّة والوجع. تلفلفت بطيلسانها وهجعت. توسّدت الحجر اللازوردي. بدت متعبة، محتاجة للراحة، نصف قمر خائف، مسلوبة الوحشية، وجهاً يرمح فيه التوق المفيق والحلم المستعاد ـ وقامة متهيّئة للنوم والردى.

ما الذي أخذها إلى ذلك الجحيم؟ ـ صاح طاهر ومصعب. ولماذا لم يَفْتَدِها أحد؟

كان طاهر قد التمس مصعباً في بيته فلم يجده. ورآه في غرفة فيضة. بكلام قليل وخطى حائرة تفجّعا معاً على موت المرأة التي صارت لهما حياة. وبمصادفة غريبة ازدلف إلى هناك عدد من الأصدقاء القدامى وهم في حالة يتم كئيب. كان كل منا مفاجأة للآخر. لكننا لم ننبس بكلمة واحدة.

بعد هزيع من الليل غمغم طاهر، الواقف عند الشباك: «وبعد أن حدث لها ما ظلّت تنتظره تسعة أعوام».

- ٩ -

« وماذا سيحلّ بالسنجاري الآن؟ » خرج السؤال الصامت من تحت طربوش الباشا الرئيس.

حتى ذلك الحين، كان فخامته سعيداً ببهلوانيات السنجاري في المخاة. لقد قدّمت للجماهير الساخطة سلواناً مجنّحاً أنساهم هزيمة الجيش المهينة. عموماً، كان كل شيء على ما يرام. الهزيمة أخزَت العميد بابكر ولجمت خيلاءه. وأحرجت عزت وحنفي لصفقات الأسلحة الفاسدة التي أبرماها بلا تردّد. وأبعدت السنجاري والدهماء عن شوارع المدن. إن الجمل الآن سيّد الموقف، أقدر الجميع على الحركة. سيستبقي الوزارة، بعد أن يضطرّ حنفي باشا إلى تقديم استقالتها، ويبقيه ضعيفاً أمامه. والأهمّ هو فوز أحد أنصاره في بعليتا المدينة بالمقعد النيابي الذي أخلاه رشوان الساجر بحماقة فظيعة عندما مات فجأة أثناء الحرب. إن بقاء السنجاري في أهوار المخاة، محاولاً استعادة الفوز بامرأة لا يعلم أنها ماتت، سيجعل ترتيب الفوز بالمقعد محكماً وبلا ثغرات، وسيبقي هذه الغوغاء ساكنة بانتظار نصر لن يجيء من مغاوري الليل.

عاد السنجاري قبل الأوان. لقد حسب سلفاً اليوم الذي ستخلو فيه البواريد والجعب من الرصاص والقنابل. ولم يشأ أن يصير مقاتلوه طعمة لمصائد الجانسنيّين النارية. الضباط والجنود الذين زوّدوا حملته بأدوات النار المقاتلة، أجبرتهم الضرورة العسكريّة على العودة إلى ثكناتهم وأكاديميّتهم. صحيح أنهم تلكأوا في الالتحاق، لكنهم التحقوا. وبعدهم عاد السنجاري إلى بعليتا. لم يعلم أحد متى سمع بمقتل فيضة. غير أن النبأ كان مكتوباً على وجهه ومستتراً في كلماته عندما جلس في مقهى سانتياغو ومعه عدد من النواب والضبّاط والشباب. كان حائراً، هرماً، أصفر الابتسامة.

الحقيقة أن النبأ كان مكتوباً على وجوه بعليتا كلّها. حتى الشيخ السمنكي ترحّم على المرأة العاثرة الحظّ. حتى الشوارع بدت للناس شيئاً آخر بغير رايتها الخضراء. بكت أمّ مصعب رغم كل شيء، وأم إسماعيل، وأمهات كثيرات، على التي أوشكت أن تطأ أرض الخصب فماتت قبل أن تزغرد في يوم عرسها. هنا كان ثمة حسّ بالهشاشة، بانفضاض عهد

من الحلم والطفولة لم يتمكن من تثبيت قدميه بوجه العالم الشرس المخاتل. المخاة، وفيضة، والجيش المندحر، والمرارة، والانكسار ـ أيعقل أن هذه السهول الخصيبة تنبت كل هذا العقم في البشر؟

حتى المظاهرات لم تجد من ينشئها. حاول فاتك السبئي خلال أسبوعين أن ينهض بالعمّال إلى الشوارع ليصرخ بسقوط الحكومة، ولكن عبثاً. والسنجاري الذي فوجىء بزيارة العميد بابكر له في المقهى، رأى أن المسألة الآن ليست حقاً في الإحاطة بحنفي أبو العلا. قال العميد معزّياً، إن الجيش لن يتدخّل في الشؤون السياسية إذا ما اجتاح السنجاري بجماهيره شوارع المدن. وقال السنجاري إن هذا هو الموقف الطبيعيّ والقاعدة الأولى في النظام البرلماني. وقدّم حنفي باشا استقالة وزارته ورفضها الباشا الرئيس، تجنباً لأية هزة في هذه الظروف العصيبة و «إيماناً بمقدرة الحكومة على تسيير شؤون البلاد». لكن ما بعد الهزيمة لم يستطع أن يكون استمراراً لما قبلها. لسنا نحن فقط، الذين توزّعنا داخل الجسد البشريّ لبعليتا، بل الناس كلّهم: أحسّوا بالهوان، أحسّوا بالغضب والحيرة والقلق. وفي غضون أسابيع غدوا ينابيع مكبرتة احتقنت بمياه ساخنة لا مخرج لها. إن البلاد كلّها مهزومة، متخلّفة. وليست هذه هي الصورة التي أحبّ الناس رؤيتها في مراياهم.

داخل هذا المنخفض النفسيّ المرير، المشبع بأبخرة الغضب القعيد، دوّمت حياة المدينة واضطرمت. التجار الذين تحمّسوا للحرب وتبرّعوا للجيش وعائلات الشهداء، أظهروا مقدرة أعظم على رفع الأسعار إلى منسوب الاستثمار الأقصى للمناسبة التاريخية. وهكذا ظهر من جديد الخبز الرديء، والرزّ المسوّس، والبطاطا العفنة. وعادت وزارة الإعاشة إلى ارتمائها الشبق العريق في حضن السماسرة والمرتشين. لقد اطمأنّ وزيرها وموظفوها إلى الجوّ الشعبيّ الخائر ورحابة صدر الباشا الرئيس، فاندفعوا في مساومات القطع النادر ورخص الاستيراد وتعهّدات الدولة البالونية. وكأن حرباً لم تقم، عقدت الجميعة الوطنية جلسات عادية، كان نصفها الثاني يتحوّل على الدوام إلى ما يشبه عراك الديكة على المزابل الشحيحة أيام الحرب العالمية. هذا النائب يشتم ذلك الوزير، وهذا الوزير يتهم ذلك النائب. وتسنّى حتى للصحفيين المتوسّطي الذكاء أن يربطوا الخيوط، ويتحفوا جرائدهم بمسرحيات السمسرة والرشوة التي صارت تؤلّف في أروقة الجمعيّة وتعرض على منصّتها العامة.

كان الجمل يراقب. كلما ازداد الوزراء والنواب انسياحاً نحو لقمة عيش إضافية، ازداد اصطياده لهم في شبكته الممدودة الخافية. وبهدوء راح يصوغ النص الأمثل لتعديل المادة ٦٧ من الدستور بحيث يتسنى له تجديد رئاسته خمس سنوات أخرى.

العميد بابكر عبود عكّر عليهم هذا الصفو الرغيد حين تقدّم إلى الباشا الرئيس بمذكرة وقّع عليها ثلاثة وعشرون غيره من الضباط القادة. هؤلاء، كما نشرت صفحات أولى في بعض الجرائد اليوم التالي، نقلوا إلى «حضرة صاحب الفخامة قائدنا المفـدّى» مشاعر الألم والكبرياء الجريحة والغضب للهزيمة القومية، والمرارة للإهمال المتعمّد المستمرّ من قبل وزارة الدفاع لمتطلّبات الجيش. «وقد قبلنا في الماضي التأجيل والتسويف والمماطلة مدفوعين بقوميّتنا الصادقة وإخلاصنا العميق للبلاد ولشخصكم المفدّى. لكن السيل بلغ الزبى. ولم يبق في النفوس صبر ولا أناة ولا قوة احتمال». والآن «يريد الضباط الموقّعون أدناه ١) محاكمة المسؤولين عن إهمال الجيش منذ الاستقلال وعن عقد صفقات الأسلحة الفاسدة؛ ٢) تخصيص ميزانية ضخمة لتسليح الجيش؛ ٣) تكليف العميد رئيس الأركان بشراء الأسلحة المطلوبة؛ ٤) تصديق قانون الجيش فوراً من قبل الجمعية الوطنية.»

واختتمت المذكرة بالعبارات البليغة المحتدمة التالية:

«إن الجيش يا صاحب الفخامة في توتّر وهياج من جرّاء ما حدث. وسيزداد الهياج والتوتّر كلما ازداد التأخير في المحاكمة وتحقيق المطالب. وإننا إذ نرفع شكوانا ومطالبنا إلى مقامكم، فإننا نرفعها إلى زعيم البلاد وسند الجيش وقائده الأعلى الذي ندين له بالولاء التامّ والثقة العمياء. حفظكم الله ذخراً وسنداً وملاذاً للأمة النيلوتية وزعيماً وهدى».

طوى الباشا الرئيس المذكرة كما لو أنها رسالة شخصية، دون أن يفوته الارتياب بمرامي هذه المدائح العارمة التي كالتها له. وحرص على أن ينقل فحواها إلى أكبر عدد من الوزراء والنواب.

إذن فالجيش لن يسكت على الهزيمة، قالت الناس. إذن فالجيش يدين بالولاء والثقة لقائده الأعلى، قال الجمل. إذن فالعميد بابكر لم يتحرّك لإصلاح الجيش إلا بعد الهزيمة، قالت الناس. إذن سيكون العميد با بكر بُعبعاً ـ يُخيف النوّاب المعارضين لتجديد الرئاسة، قال الجمل. إذن فالجيش ستكون له وزارة إعاشة خاصة به، قالت الناس. إذن سيشبع الضباط المهمّون في الجيش ويزدادون ولاءً، قال الجمل. إذن سيكون الجيش قادراً على الحرب بعد الميزانية الضخمة، قالت الناس. وإذن سيسرح الضباط ويمرحون إلى حين تجديد الرئاسة، قال الجمل. هذه المرة لن تستطيع الطائرات والمدافع أن تهزمنا، قالت الناس. وبعدئذ يبدأ تقليم الأغصان النافرة من شجرة الجيش، قال الجمل. قد يستطيع العميد بابكر تحقيق الانتصار، قالت الناس. قد يكون العميد بابكر أول الأغصان المقطوعة، قال الجمل. وعندها يصير للنهر الكبير دولة واحدة، قالت الناس. وعندها يحلّ محلّه العقيد حسنين المعادي للحرب، قال الجمل. المهم الآن أن لا يسكت العميد بابكر

حتى يتمّ التسليح، قالت الناس. المهمّ الآن أن لا يسكت العميد بابكر حتى يتمّ التجديد، قال الجمل. وعندها تتحقق الأماني، قالت الناس والجمل.

وقال العميد بابكر: المهمّ الآن أن لا يسكت العميد بابكر.

وقالت الصحف أشياء كثيرة. وفي أثير من العبارات المدغدغة التي ملأت صفحاتها، مثل الوحدة النيلوتية، والإصلاح الزراعي، والاشتراكية، ومغاوري الليل، عاد إلى الحياة الشعبية التوق والحلم اللذان غادراها بعد الهزيمة ومصرع فيضة. لقد صارت حرب وهزيمة ومغامرة ليلية وصلب لفيضة وسمسرة وارتشاء وإعلان عن انتخابات فرعية، وظلت الناس لا تعرف شيئاً واضحاً سوى أن الجانسنيين الجبناء لم يجرؤوا على مواجهة جيشنا الباسل، وأنهم اختبأوا داخل دروعهم ومصفّحاتهم وراحو يقصفون جنودنا الميامين الذين تحدّوهم للمبارزة دون جدوى. كان شيئاً مثيراً للسخط يومها، وللحسرة الآن، أن تظلّ ملايين الناس قادرة على رتق الفجوات المروّعة التي شقّتها الحرب في نسيج بهيّ غنيّ من الحلـم والطفرة واللارؤية. إذا كان حديث سعدون المزعج ضد الإرادة صحيحاً عموماً، فقد كان مجرد فيض كلام في ذلك الشتاء القارس الذي تلا حربنا مع الإنكليز. لقد انتهى كلّ شيء إلى يقين بلديّ صلب بأن مجرّد تسليح الجيش سيعني جولة جديدة حاسمة تطهّر النهر الكبير من الغاصبين الدخلاء، وتحقّق الوحدة النيلوتية.

راح العميد بابكر يزداد حضوراً. لقد ملأ خيال ضبّاطه الشباب بخارطة عسكرية يقف على أطرافها جيش مسلّح قوي يدعمه الأمريكيون، ويمضي في بدايتها مغاورو الليل نحو المخاة السليبة لبدء تحريرها. وملأ عين مرعي السنجاري حين عرض عليه أن يتقدّم الفلاّح والجندي يداً بيد لتحقيق الاشتراكية الزراعية. وملأ أعمدة الصحف بتصريحاته المحتدمة عن الإصلاح الاجتماعي الذي عجز عنه الساسة المحترفون عملاء بريطانيا.

ثم جاء الوقت، فتخلخل رماد التشوّش والارتباك، وبرز منه غضب دائري كان موشكاً على الانكفاء إلى الداخل بفعل المراوغات والأحابيل والمسلسلات النيابية.

كل شيء كان هادئاً يوم الانتخابات الفرعية في المدينة. الدكاكين مفتوحة، الزحام عاديّ، السنجاري غائب، الدراويش حاضرون هنا وهناك، صور المرشّح عبد الله عبد الله تتلاحق على الجدران ونوافذ الترام والباصات. الباشا الرئيس لم يطمئن إلى هذا الهدوء الخادع. لقد فرض على الباشوات مرشحاً ضعيفاً لمجرد أنه قريبه البعيد. لكن المرشح المناوىء أضعف: بيّاع سمك نكرة من الحارة النيلوتية.

كان يجب أن يفوز عبد الله العبد الله دون اللجوء إلى الصناديق الاحتياطية. يجب أن

يفوز بالصناديق الأصلية، لأن الباشا الرئيس سيّد هذه المدينة ووليّ نعمتها. والمدينة يجب أن تكافئه. إنها مدينته. حاراتها له، دكاكينها له، شوارعها، عماراتها الجديدة وأسواقها.

لكن العسس نقلوا إليه أخباراً مكدّرة. هؤلاء الرعاع الذين أوصلهم إلى مدنيّة الإنكليز ورقيّهم، رموا القصاصات في الصناديق وعليها اسم بائع السمك. الخاطر الذي ومض في ذهنه عند الضحى تحوّل الآن إلى حقيقة مفزعة: إن مؤامـرة صامتة تحاك ضده شخصياً وراء مظاهر الاقتراع العادية. بل هي خيانة، ومن نوع وضيع وغادر. ومع بائع السمك. كأن العقوق لم يكفهم فأضافوا إليه فساد الذوق وقِلّـة الأصـل.

أُذيعـت النتيجة صبيحة اليوم التالي فانتفضت بعليتا من تحت رماد صمتها وتشوّشها. قريب الباشا الرئيس نال عشرات آلاف الأصوات، ونال بائع السمك أربعة آلاف. لم يطل الأمر بالاندهاش حتى تحول إلى غضب انفجـاري. كـان كـل نـاخـب قـد تـوجّـه إلى صندوق الاقتراع وكأنه ذاهب إلى إنزال عقوبة بخاطىء أثيم، وبعد هذا كله ينجح عبد الله العبد الله!

أخرج فاتك السبئي آلاف العمال إلى الساحة المركزية، ومنها إلى الجمعية الوطنية. وبعد مماحكات صغيرة، تدفق طلاّب الجامعة إلى المكان نفسه. وسرعان ما حذا حذوهم طلاب المدارس. وفي الساعة الواحدة كان كل دكان في المدينة مقفلاً. هذه المرّة لم تنفلت فيضة في الشوارع حاملة رايتها، لكن الجميع عرفوا طريقهم إلى مبنى الجمعية الوطنيّة الجديد في شارع الحمراء.

كان عزّت باشا قد دعا النواب إلى اجتماع طارىء بناء على إلحاح الباشا الرئيس. وحسب الاثنان أن نواب المعارضة لن تكفيهم ثماني عشرة ساعة للتوافد إلى الجمعية، وأن عبد الله العبد الله سيقسم اليمين وينضم إلى كوكبة النواب المؤيدين لحكومة فخامته.

كان هذا هو الاجتماع الأول بعد الحرب. وقد ظلّ الجمل يستنبط حجّة دستوريّة من هنا وأخرى أمنيّة من هناك حتى أيقن أخيراً أن الهزيمة قد باتت أقرب إلى الحديث المسلّي والندوب القديمة منها إلى الجرح الطّريّ الساخن.

في الثامنة من ذلك الصباح جلس السنجاري في مقهى سانتياغو يحتسي القهوة. إنه لم يغادر بعليتا أصلاً. وفي العاشرة كان ونواب المعارضة يسدّون مداخل قاعة الجميعة لمنع عبد الله العبد الله بالقوة من الدخول. عبثاً ذكّرهم عزّت باشا وحذّرهم من أن فعلتهم هذه مخالفة للدستور وأنها ليست من الحياة البرلمانية في شيء. قال السنجاري إن دعوة نائب منتخب لأداء اليمين قبل التحقق من الطعون المقدّمة في نيابته هي المخالفة للدستور.

وأصر على سدّ مداخل القاعة.

ثم اختلط الحابل بالنابل. بدأ الأمر بتعليقات متبادلة ساخرة، ثم واخزة، ثم شاتمة، ثم صارخة وشاتمة، ثم صارخة وشاتمة ولاكمة. وفي الثامنة عشرة كانت القاعة أشبه بسوق الخيل. وفيها جلس عزّت باشا اللاع باستسلام رصين للفوضى والشتائم والصراخ، علا فوق الضجيج صوتا مرعي السنجاري ووزير الدفاع.

كان الأول يقول: «أنت بعت وطنك بصفقة سلاح فاسد... أنت بعثت الآلاف من أبنائنا للموت وكنت تعرف ذلك... لو كان فيكم شرف لاستقلتم... ورئيس الجمهورية يجب أن يستقيل... البلاد تغرق وأنتم لا همّ لكم إلا تزوير الانتخابات... لو كان فيكم شرف لحللتم الجمعية ودعوتم إلى انتخابات جديدة...»

وكان الثاني يقول: «أنت فلاّح... أنت كذّاب حقير... أنت شيوعيّ ماسوني وعميل للروس... نحن استقلنا وفخامة الرئيس رفض الاستقالة... رح رقّع شرف أختك قبل أن تحكي عن شرف الأشراف... تريد تدويخ البلاد بانتخابات جديدة والعدوّ على الأبواب...»

انتفض السنجاري عن مقعده وطار باتجاه كامل بك. أمسكه من خناقه وطرحه أرضاً. وهمّ برفسه لولا دفعتان قويّتان جاءتاه من الخلف. اشتبك الحابل بالنابل. وراحت الأيدي والأرجل وأحياناً الرؤوس تتكلم هي الأخرى بلغتها الخاصة. وتبيّن أن خشب المقاعد والمنابر والطاولات من نوع نفيس ومتين، وأن صفقات شرائه كانت نظيفة، فقد استعصى على الخلع والانكسار. أما الحرس فقد تسمَّروا في أماكنهم حائرين تماماً حيال ما يجب أن يفعلوا.

كان المتظاهرون في الخارج يعتلون السور الحجريّ للجمعيّة ويمسكون بمشبكات السور الحديدي فوقه. تحت أقدامهم، بين السور والبناء، وقف رجال الشرطة الصابرون الصامتون بحرابهم المشرعة المستعدّة لتلقي من تسوّل له نفسه الوثوب إلى الداخل.

لم تسوّل لأحد نفسه ذلك. فهذا البناء المستلهمة هندسته من هندسة التلال، والمبنيّ بشكل زقورة عصريّة، كان رمزاً وطنياً قبل أن يكون موطئاً للأقدام الرجيمة من نواب حزبي الاستقلال والأمة وحلفائهم. غير أن الحجارة وثبت. طرقت النوافذ، زجاجاً ومضفرات خشبية. وسرعان ما صارت الكوى التي فتحتها هناك كافية لاختلاط صراخ الداخل بصراخ الخارج.

كانت صرخات وحشيّة كاسرة. تغلغلت في النفوس والأسماع بأنس متبادل. عشرات

آلاف البشر مسّتهم الحرية بصاعق أوزيري، وأطلقوا في الفضاء الرحيب منشوراً بنجوى ضمائرهم السرّية.

وصاح حنفي باشا بمرعي السنجاري: «أنت ستحطم بالغوغاء الحياة البرلمانية! أنت تعيدنا إلى البدائيّة والهمجيّة!» وكان السنجاري مسترخياً على مقعده، صامتاً منفرج الأسارير، وسبابتاه على ذقنه المغمزة. وصاح حنفي باشا: «يجب أن يصدر قانون يعاقب الذين يستغلّون الديمقراطية لإثارة غرائز الناس». فصاح السنجاري دون أن يرفع سبابتيه عن ذقنه: «بل يجب أن تستقيل يا بائع الوطن».

«رُدَّ هؤلاء المتوّحشين، أو أعلن الأحكام العرفيّة وأعتقلهم بالمئات!»

«إن كنت رجلاً اعملها! أعلن الأحكام العرفية!»

غمغم حنفي باشا مشمئزاً متعباً: «على أي حال، هذا الشعب سينتخبني أنا في الجولة القادمة».

كان البحر البشريّ يعلن مطلبه الواحد بعد الألف. وفي القصر الجمهوري كان الباشا الرئيس يحاول عبثاً أن يعرف مقرّ العميد بابكر عبود ليأمره بإنزال الجيش إلى الشوارع. وفي فورة غضب كظيم اضطرّ للاتصال بالعقيد حسنين، فلم يجده أيضاً؛ وبالمقدم رشوان؛ والرائد ممتاز.. وظل يهبط على سلّم الرتب العسكرية حتى اضطرّ إلى فتح الموضوع مع مدير مكتب العميد، الملازم نذير النميري، الذي أخبره بكل الاحترام أن هؤلاء كلّهم تعمدّوا ترك مكاتبهم كي لا يضطرّوا إلى عصيان مباشر لأمره بإنزال الجيش إلى المدينة.

في ركن غير استراتيجي حول سور الجمعية جثا مصعب يلتقط أنفاسه ويرمّم صوته. عدد كبير من الناس، أنصتوا لواحدة من قصائده المرسلة، التي لم تعترف بمشروعيّتها الصحف، وصفّقوا واستزادوا. لكن برعي بدران تلقّف أسماعهم. على أية حال، أعطته المظاهرة ما يريد. انزوى وقد تنبّه فيه واجبه الصحفي تجاه جريدته، فراح يلتقط على دفتر صغير تفاصيل دقيقة جيلة لأجل تقريره عن المظاهرة.

«هل تعبت من المجد فاكتفيت بتسجيل انطباعاتك عنه؟»

هبط عليه الصوت الأخنّ مع صاحبته التي وثبت عن سور الجمعيّة وجثت أمامه. رفع رأسه مستطلعاً. كلمات كادت تنبثق من فمه، أوقفها تحوّل صاعق لشعوره من المفاجأة إلى الذعر. «فيضة!» حشرج صوته المبحوح. تبادل الاثنان نظرة صمت مكهرب. «يا ريت. هل أشبهها إلى هذه الدرجة؟» تأمّلها مصعب حزيناً فرحاً. هذا الوجه البديل الذي هبط عليه من السماء. كان شعرها قصيراً، أسود ومنفوشاً، وعيناها كالمظاهرة وحشيّتين

وجيلتين وسعيدتين. راح مصعب يتأملها محاولاً التقاط التفاصيل الدقيقة الخفيّة التي تميّزها عن فيضة. بربرت شفتاها اللوزيّتان أمام وجهه:

«لماذا هؤلاء الأغبياء لا ينشرون قصائدك في جرائدهم..... أأنا أشبهها إلى هذه الدرجة؟!»

كان ما يزال يكوّم على وجهها نظراته القمرية النافذة. انتفضت واقفة وانتفض. تناولت من جانبها جزدانها المتقن الصنع. ابتسما بحرج. تغلغل المكان فيهما والأصوات الوحشيّة وانبثّ فيهما أنس متبادل وخشية واشجة. لم يعرفا كيف يتحركان. هذا النوع من الخطى الملغي للمسافة بينهما، الذي تبتدره طبيعة الأشياء، لم يكونا قد مشياهُ بعد. كلّ منهما أحسّ بسيل يندفع في صدره فيدفعه نحو آخرِه الطليق المخيف. داخل خيمة الصراخ البشريّ التي حولهما انطلقت جوارحه إليها، وبدغدغة تربّصيّة مرتعشة توقّعته.

لم تبق في ذاكرة مصعب تفاصيل تلك الساعة الغابرة من اللقيا والحب والاكتشاف. لا صورة ولا قصيدة. يتذكّر فقط أنهما بعد كلمات قليلة انفكّا عن المظاهرة. «تحبّين أن تشوفي غرفتها؟»

هلّلت الفتاة للفكرة، ثم استدركت بوجوم: «وإذا احتاجوك لقراءة قصيدة ثانية؟» وقال شيئاً مثل إنهم لن يحتاجوه ما دام برعي موجوداً، أو إن المظاهرة انطفأت في نفسه.

قالت بحيوية وانشغال بال: «عندي أخ أكبر يحبّ كثيراً استعمال كفّه الغليظة. خاصّة إذا كان الشاب الماشي معي مسلماً. لكن، دعنا. أنت.. ماذا ستقول عنّي إذا مشيت معك؟»

«سأقول إن فيضة لم تمت، وإن نهري سيفيض».

تسلّلا خارج المظاهرة. «هؤلاء الأغبياء يقولون في كتب الاجتماع إن روح الدهماء والقطيع هي التي تسيطر على الناس في المظاهرات... أنت تحبّها؟»

«من؟ فيضة؟ ليس بهذا المعنى. من يستطيع أن لا يحبّ فيضة؟»

شيئاً فشيئاً راحت المدينة القامعة تبتعد عن ذهنيهما. حركة الباص جعلتهما يتلامسان بين الحين والحين، ويتماسّان. انشحنا بالعذوبة والخيال. الناس العابرون، والدّكاكين العابرة، والركاب الداخلون الباص والخارجون منه، الوجوه المستغرقة في وجودها ـ ذلك كله نصب لهما مظلّة.

في الزقاق قال لها: «أنت فتاة استثنائية». فابتسمت وهزّت رأسها: «أنتم لا تعرفون شيئاً. البنات كلهن مثلي وأكثر. وهن أكثر شوقاً للحياة منكم أنتم الصبيان. العصر الجديد

داخل في عقولهن تماماً مثلما هو داخل في عقولكم. ألم نذهب إلى مدارس واحدة، وندخل جامعة واحدة؟»

«نحن مسؤولون عن العالم أخلاقياً، رغم ما بيننا من حواجز».

«أنت شاعر وتحلم. أمام قدميك وصوتك اليوم كان حاجز يمنعك من الوصول إلى الجمعية الوطنية. بين الشغّيلة وحقوقهم حاجز من الدراويش،والباشوات والرأسماليين الأوغاد. ما لك؟ أكيد كلماتي أيقظت رجعيّتك. أنت تقول لنفسك هذه بنت مسترجلة».

«لا يا آنسة. أنا أقول إني أحب أن أكونك. لقاؤنا جزء من إرادة الحياة. وأنت أيضاً حياة».

«أنت تعرف اسمي! كيف عرفت اسمي؟»

«ها، ها. أنا شاعر، أنا أعرف الأسماء كلها. لكن اسمك لا أعرفه».

«آ، فهمت. اسمي حياة».

«معقول! يا الله لندخل».

كانا يقفان أمام شباك الغرفة المقضّب بالحديد. هتفت حياة بعبث ودود: «لا، هنا تستيقظ رجعيّتي أنا».

بعد سنوات، عندما راح مصعب السبئي يستعيد الملوحة الأرضية لذلك اللقاء، رأى الحاجز الخفيّ، بل الحواجز التي وقفت أمام قدميه وصوته فيما هو يجوس عبر غرفة فيضة. حاجز «الدراويش والباشوات والرأسماليين الأوغاد» أفرخ أجساماً كتيمة ترتفع بينهما حتى العنق. مثل تلك المسافة لم تنهض كتلة حرباء بينه وبين فيضة ـ هناك أحس أنه يعيش زمن ما قبل الزمن. أما الآن /بل في ذلك اليوم / بل والآن أيضاً / أوه إنه الآن أيضاً، فالتلال صارت جبالاً... أمّا الآن فقد أحس أن السنتمترات القليلة التي فصلته عن حياة في عتمة الغرفة الكاشفة قد أوقفت شروق القمر وصارت فجوة في الجسر.

لكن المسافة التي طواها نحو حياة، وطوتها هي نحوه، كانت أميالاً. ولم يكن ثمة ما يوحي لها بأن السنتمترات ربما تمطّ أرجلها لتصير فجاجاً. أحسّا بالأميال فقط، وابتسما للسنتمترات ابتسامة منتظرة مُلغية.

قدمت المدينة لنفسها بعد أشهر عدداً من الإنجازات ومفاجأة واحدة هائلة. لقد ألغيت نيابة عبد الله العبد الله، وانتخب بائع السمك في الاقتراع الجديد. وتم تشكيل اتحاد للعمّال كان فاتك السبئي أحد أعضاء مكتبه التنفيذي، وآخر للطلبة. وصدرت صحيفة

أدبية أسبوعية بعنوان (الحصاد) قدمت لمصعب قصيدة (الجسر)، فأحدثت الاثنتان دوي منشور سريّ.

لم يتشكّل اتحاد العمّال بفعل وصول الصراع مع حلمي السعـدني إلى نقطة اللاعودة. ولا الناس خرجت للمظاهرات رفضاً للجوع. ولم يقم اتّحاد الطلاّب لأن شيئاً تربوياً أو معيشياً ينقص الطلاّب. وقد تحوّل الفلاّحون من أقنان هادئي البطون إلى سنجاريين ساخطين ومغاوري ليل يهجمون على شونات الباشوات.

وفيما كان فنسنت جانسن يعقد هدنة مع السلطان نـاعـوس، وسفـراء كثيرون يستقـرّون في المخاة، توّج الباشـا الرئيس جملة الأحداث بمقلب بارع كان تمهيداً لعزل العميد بابكر عبود.

يوم رفض العميد بابكر بلباقة لا ينقصها المكر إنزال عساكره إلى الشوارع، أحسّ الجمل بخطر غامض، لأول مرة في حياته السياسيّة. اعتكف في مكتبه الرئاسي أياماً، يشرب القهوة بطريقته الإنكليزية، ويستدعي حنفي وعزّت وكاملاً للتشاور. لا بدّ من فخّ يصطادون به هذا الضابط الذي لا يجيد غير الهزيمة وتحبير المذكرات.

كان العميد بابكر قد أرسل لفخامة الرئيس (متخطّياً للمرة الثانية وزير الدفاع ورئيس الوزراء) مذكرة ثانية أعفى فيها نفسه من مسؤولية مغادرة الضباط والجنود مراكزهم القتالية وثكناتهم، لأن الأموال المخصّصة رواتب لهم تذهب إلى جيوب البعض (؟) ثمناً لصفقات أسلحة وهميّة لا تشترى أبداً.

حتى ذلك الحين كانت ثمة هزيمة، وآلاف الشهداء، وضابط مشحون برأس الجيش، وفساد ناغل في الدولة، وشبه حرب أهلية بين الفلاّحين والباشوات، وشعب يتّجه بالملايين نحو المدارس والمعامل والحقول والنهر ويلتهب كالبارود أمام مؤسسات الدولة.

لكن الباشا الرئيس أحبّ أن يعطي للصحف مادّة إعلامية مختلفة. لقد سبّب ابتعاده عن الناس فشل قريبه في الانتخابات. وهو سيثبت لهم أنه بين ظهرانيهم على الدوام. وأنه قادر على استعادة شعبيّته العريقة بينهم.

كان بوسع الباشا الرئيس إصدار مرسوم بعزل العميد بابكر عبود وتنفيذه خلال أربع وعشرين ساعة. لكنه وقد بلغ من الضجر عتياً، بات يفتقد النكهة والطعم في معظم ما كان يستمخّ عليه قبل سنوات. ثمة على راحة يده ثلاثة أو أربعة أسباب جوهرية، يكفي واحد منها لعزل هذا الضابط المأفون، الذي خيّل إليه أن اجتماعيْن غير مأذونيْن أو ثلاثة مع السفير الأمريكي تمنحه مشروعية كافية لكتابة مذكرات تهديدية خرقاء. وعندها سيصير سهلاً أن يحمّله بعض الصحف (وليس كلها، لأن البعض الآخر معارضة خرقاء

هي الأخرى) ليس فقط الهزيمة بل وجميع الأوساخ والفضائح التي تقوم ضدّها المظاهرات. على هذا النحو ستكون هناك لمسة فنّية مسلّية. وسيتندّر الناس بالحدّوثات الشيّقة عن أولاد الرعاع الذين منحوا خساسة أن يصيروا ضباطاً، فظنّوا أنهم صاروا بني آدم. سيحسّ أصحاب الذوق الرفيع بشيء من الدراما، بحبكة ومعانٍ وتوتّرات، تعوّضهم عن رثاثة المسارح المحدثة التي يملأها أبناء الدكنجية.

أوائل الربيع اصطحب الباشا الرئيس حنفي باشا في زيارة إلى مطابخ الجيش. وما إن وطئت أقدامها المربع الآجري الفسيح، الحافل بالحلل والمواد والطبّاخين، حتى زكمت أنف فخامته وأنف دولته رائحة نفّاذه مقيتة. ولأن صاحب الفخامة كان ذا أنف مستفيض هلاليّ، فقد احتاج لإخلائه من تلك الرائحة إلى ثلاثة أضعاف حجم الهواء الذي احتاجه منخرا صاحب الدولة.

وقد احتاج أيضاً إلى ثلاثة أضعاف الجهد اللازم ليضبط نفسه، ويقمع عطسة أوشكت أن تقمع تهذيبه الإنكليزي وترشّه بالرذاذ. ثم سيطر على صوته بحيث يستطيع الكلام. ولئلا يصيب قوماً بجهالة فيصبح نادماً على ما فعل، طلب بلسانه وشفتيه مقلاة وبيضتين. وجاءه ما طلب، فطلب ثانية أن تقلى البيضتان أمام عينيه الرئاسيتين بسمنة من تنكة جديدة (لم يعرف أحد لم طلب فخامته بيضتين وكانت واحدة تكفي).

لحسن الحظ كان لدى فخامته ودولته منديلان حريريان ظلا يحشرانها في أنفيهما الراقيين حتى تمكّنا من الإفلات نحو الفضاء الخارجي، وهما مبهورا الأنفاس. يا لهذه السمنة ما أفسدها!

تحقّق للباشا الرئيس ما أراد. لقد مرّغ بالوحل سمعة العميد بابكر، وصار سهلاً بعد ذلك أن تعزى إليه الهزيمة وصفقات الأسلحة المريبة. كذلك دمغ المؤسسة العسكرية كلها باللصوصية والارتشاء والفساد. وقد وجدت الصحافة مادّة مستفيضة دسمة (وهل أدسم من علب السمن رغم فسادها؟) في نبش الخفايا وملء الفجوات الغامضة. وصار بوسع النوّاب، المستائين من انفراد الجيش برخص استيراد وميزانية خاصة مستقلّة، أن يطالبوا بمزيد من «الانفاق الشعبي» و «الخدمات العامة» عن طريق تقليص الميزانية العسكرية وتخفيض رواتب الضبّاط المهزومين. أما صبية الشوارع فقد برعوا في مسك أنوفهم كلما مرّ عسكريّ على رصيف: كم هي سيّئة رائحة السمنة الفاسدة!

شريف العبد الله استطاع أن يشمّ في وعليتا رائحة أخرى. فذات ليل، وفي مطبعة إحدى الصحف المعارضة، شاهد بأم عينيه العميد بابكر ولفيفاً من الضباط يقسمون يميناً

على المصحف الشريف، ثم يجلسون حول طاولة ويفردون بينهم خريطة. كان مشهداً عجيباً: قسم على القرآن في هذه الحارة الموحلة السمجة!

في تلك الساعة المتأخرة من الليل طلب مقابلة الباشا الرئيس. وفي مساء اليوم التالي استطاع أن يراه. «ماذا وراءك يا شريف؟» سأله، «رأيتَ السنجاري عند إحدى البغايا؟»

«لا يا سيدي..»

«سمعت أخباراً أنه يؤلّب علينا الفلاحين، إذن».

«لا يا سيدي..».

«اتّقِ شرّ من أحسنت إليه. عند أول مناسبة يعضّني. طبعاً. آخر مرة رفضت تعيين بعض أزلامه في الشرطة. قلت له إنه أخذ حصّته من التعيينات. قلت له خفارة الميناء أحسن. أصرّ على الشرطة. طبعاً. ليقوم ضدّنا بالمظاهرات على كيفه، وأزلامه في الشرطة يساعدونه. ليخرب هو واللعازرة والأوازرة النظام الديمقراطي الذي أنعمت به على البلاد، أنا، وليّ نعمتهم، هؤلاء الطلاب المتسوّلون الذين لا يستحقّون الديمقراطية، ينظمّون مظاهرة إذا لم أعيّن أحد أجرائهم في وظيفة..».

«سيدي، ليس السنجاري يا سيدي..»

«إذن ساكنات وعليتا يدبّرن مظاهرة ضدنا».

«لا يا سيدي. العميد.. العميد بابكر..».

«بابكر يدبّر مظاهرة ضدنا! أنت مجنون؟»

«لا يا سيدي.. رأيتهم بعينيّ هاتين!»

«هو والسفير الأمريكي؟ مرة ثانية!»

«لا يا سيدي.. هو وضبّاط. حلفوا يميناً. هم سيقومون هذه المرّة بمظاهرة!»

انفرجت شفتا الباشا الرئيس بهناء حليم. «على نفسها ستجني براقش. سيقليه جنودي وشعبي بالسمنة الفاسدة التي اشتراها، إذا شاهدوه، أو شاهدوا واحداً منهم في الشارع».

كان ذلك المساء ماطراً. وكانت الكهرباء، التي باتت تنير الشوارع بفضل الاستقلال، تسطع داخل قطرات المطر الهاوية. وعلى امتداد الأرصفة المستقيمة النظيفة تألقت الأغصان العارية، وجذوع فتية نضرة غرستها أيدينا قبل سنوات. لقد هطل المطر بغزارة كانت وحدها كافية لأن تثني مصعباً وعبد العليم عن الخروج. لكن موعد مصعب مع حياة، وموعد عبد العليم مع وجبة الطعام الشهيّة التي انتظرت الصحفيين في فندق قصر

الشرق، أطاحا بالحافات أمّ مصعب وإغراءاتها أن يبقى الصديقان لتناول وجبة وداعيّة من السبانخ.

كان السفير الأمريكي قد دعا كلّ من استطاع دعوته إلى حفل عشاء راقص بمناسبة الذكرى الرابعة لإقامة العلاقات الدبلوماسية بين واشنطن وبعليتا. وقد بلغ من سعادة سعادته بالمناسبة أنه جعل الحفلة مفتوحة للزمن، لا تنتهي إلا متى شاء آخر مدعوّ أن يغادر قاعات الفندق الرحيبة.

في الطريق إلى الفندق امتنع المطر عن الهطول. وفيما ذراع عبد العليم تدفع ذراع مصعب لأجل مزيد من السرعة، أخذت خواطر مصعب تستبدل صديقه القصير الربعة بقوام أكثر انسجاماً مع الليل والسكينة والهواء المنعش البليل. «هنا يا رجل! أنا جائع»، دمدم عبد العليم. «وأنا جائع»، غمغم مصعب، «ولكن المدينة بعد المطر جميلة يا أخي».

«خلّنا نملأ بطوننا، وأعدك أن نمشي معاً في المدينة حتى الصباح».

«لا. سنذهب أنا وحياة إلى غرفة فيضة. وأنت ستكون مؤدّباً وتتركنا بسلام».

«أنا يهمّني أن أدخل ببطاقتك الصحفية إلى المضافة. وسأظلّ أرقص مع المناسف حتى تنتهيا أنت وحياة من الرقص في قاعة الموسيقى».

لم تأت حياة. ووجد مصعب نفسه وحيداً وضائق الخاطر، بعد أن اندفع عبد العليم إلى قاعة الولائم. كانت ثمة موسيقى صاخبة، وشقراوات يطلقن سيقانهن الطويلة العارية في الهواء ببراعة وسهولة وحيوية. وفي قاعة جليلة أخرى لمعت الطرابيش الحمر وفراشات العنق تحت أضواء الثريّات الهائلة.

لقد قبل كتابة تقرير صحفيّ عن الحفلة ليتمكّن من حضورها مع حياة. لكنه الآن محبط ومتضايق. كلّ شيء في فندق قصر الشرق نابٍ وغريب عن بعليتا التي يحبّها ـ بعليتا النهر الكبير، والكورنيش المدرّج، والساحات والشوارع النظيفة الخضراء، والأبنية البهية، والدكاكين والمواسم والتلال، والغجر.

لأن حياة لم تحضر، عوّل مصعب على خياله لكتابة التقرير. وخرج يتلمّسها بعينيه ويديه في الحدائق وأسوار البيوت النباتية وقطرات المطر الهاجعة. هلّلت روحه للمدينة التي برئت أخيراً من رثائتها. أحسّ أنه يسمع تنفّسها بعد المطر، وأن هذا التنفسّ يتقاطر في لغة جديدة، منشور باطني يخرج إلى العلن، وأصوات تهتف باسم حياة جديدة.

لم يدر كم بقي هائماً في الشوارع، انتبه إلى ارتياب مباغت يداخله في أحاسيسه، وقد خيّل إليه أنه يَسمع فعلاً أصواتاً ذات خرير مزعج وتكرّر رتيب كئيب. وسرعان ما

علت الأصوات واتّضحت، وإن ظلت بعيدة الصدور، فإذا هي هدير وشخير، وإذا هي تقترب منه هو بلا توان، وإذا هي تصله بعد دقائق مع أشباح ضخمة، خفافيش عملاقة تمشي على الأرض، تقعقع وتزمجر، وتندفع عبر الشارع بجنازيرها الطاحنة. وشاهد مدافعها المصوّبة إلى الأمام وخوذ الجنود المتصلّبين الناتئين من أبراجها.

وقـف يتفرّج متّقد الحواسّ مطفأ الفهم. ألفى نفسه قريباً من مبنى الجمعية الوطنية. باسترسال تامّ راح يراقب الدبابات وهي تطوّق المبنى، والجنود وهم يثبون منها. ورأى سيارة عسكرية تمرق كالسهم ثم تقف بصرير مكابح فجيجيّ أمام المدخل، ليخرج منها ثلاثة ويقتحموا بابه المغلق.

ثم هدأ كل شيء. تقدّم مصعب إلى أقرب دبّابة. كان العسكري متنكّباً رشّاشه بوضعية الرمي. «ماذا جئتم تعملون في الجمعية الوطنية يا أخي؟» سأل العسكري الجاثم هناك بحميمية مندهشة.

«جئنا نعمل انقلاباً»، قال العسكري بوجه فارغ، ولم يتحرّك.

«ماذا تعني: انقلاب؟»

٢ _ بلاغ رقم واحد

- ١ -

[بعد الاتكال على الله والشعب، ومتألمين مما آل إليه وضع البلد من فساد وإفساد وتنكيل بالديمقراطية وتفريط في حقوقنا القومية في المخاة، ومستجيبين لإرادة الشعب في التغيير والإصلاح والتقدّم والتحرير، ومدفوعين بغيرتنا الوطنية والقوميّة، لجأنا مضطرين آسفين إلى تسلّم زمام الحكم موقّتاً، بنية صون الديمقراطية الحقيقية، وتحرير إرادة الشعب من الباشوات الفاسدين، وتهيئة حكم ديمقراطي صحيح يؤتمن على مصالح الوطن وحقوق الإنسان.

وإننا لندعو الشعب الكريم الأبيّ أن يلجأ إلى الهدوء والسكينة، ويقدّم لنا كل معونة ومساندة، لإتمام مهمتنا التحريريّة، وإن كلّ محاولة تخل بالأمن أو تسمح بالظهور للعناصر الهدّامة الاستعمارية، ستقمع فوراً دون شفقة أو رحمة.

رئاسة الأركان العامة]

أوّل حادث هامّ في حياة العميد بابكر عبود- الذي بلغ الخمسين قبيل إذاعته للبلاغ رقم واحد بأسابيع - وقع في السنة الأولى لترقيته نقيباً في جيش الشرق. لقد تشاجر مع ضابط انكليزي في حفلة ساهرة. بطبيعة الحال كان السبب امرأة. ولا بدّ أن أمراً فظيعاً قد حدث، لأن الضابط الإنكليزي خرج عن طوره الجلموديّ العريق، وصفع النقيب بابكر صفعة داوية وسط جلبة الرقص، ثم استأنف هدوءه ومراقصته للمرأة.

لم يعتبر الإنكليز الصفعة كافية لمعاقبة النقيب بابكر. فهذا الضابط الذي ينتمي إلى عالم بدائي تجرأ وتصرّف كأنه مصنّف في خانة المدنيّة. وإذا كان مثل هذا العقل عاجزاً عن التمييز بين المتحضّرين والهمج، فلا أقلّ من شهرين في السجن يساعدانه على التخلّص من ذلك العجز.

دخل النقيب السجن مصطحباً معه تلك الصفعة - حرارتها، دويّها، الانفتال الذي أحدثته في وجهه، ثم الغمامة الصغيرة السوداء التي أدخلتها في رأسه وبقيت هناك، وظلّت أخطر ما دخل في رأس النقيب طوال السنوات العشرين المتبقّية من حياته. هذه الغمامة أفلتت في وقفته البدنيّة الصلبة رخاوة محيّرة، وفي تفكيره البطيء انقضاضاً فجائياً صاعقاً،

وفي عينيه استعداداً مداهماً للبكاء، وفي مزاجه طيفاً من الألوان المتناوبة، وفي أعصابه باروداً وحُمّى وجليداً.

[بلاغ رقم ٢ : بعد الاتكال على الله والشعب، يمنع التجوّل في شوارع المدن منعاً باتاً من السادسة صباحاً وحتى إشعار آخر.]

جاء الحادث المهمّ الثاني بعد أقلّ من عشر سنوات. كان هتلر يومها يداعب توق المقدم بابكر وحلمه، مثلما فعل مع الملايين من كارهي الإنكليز. وفي السنة الأولى للحرب العالمية الثانية، وفي حالة وثوب جديد لتفكيره وانفجار آخر لأعصابه، توجّه لسانه بدعاء النصر إلى برلين بعد أن توجّه قلبه. هذه المرة سيق إلى المحكمة، بعد أن تبادل اللكمات الطاحنة مع ضابط إنكليزي آخر: قف دون رأيك في الحياة مجاهداً / إن الحياة عقيدة وجهاد. وهتف به القاضي الإنكليزي العسكري: « ديمقراطية في الجيش أيّها المعتوه، وحريّة رأي؟! » وأصدر أمراً فوريّ التنفيذ بتسريحه.

عبر السنوات الستّ الأخيرة من الاستعمار البريطاني لبعليتا، عاش بابكر عبود حياة متنوّعة مهدّدة. لقد طاف بالبلاد شبراً شبراً كما يقولون. شاهد الأرض الخصبة والبشر الأشقياء، المتوجّعين شبعاً والمتضوّرين جوعاً. وكان في واحدة من جولاته التي قادته إلى المخاة فعمريت أن التقى بتلك الغجريّة الشبيهة بشوكولاتة الانكليز الصلبة الشهيّة الملساء. كانت أقصر نظرة في حياته زمناً وأدْوَمها تأثيراً. شاهد قامتها الباسقة الرائعة. وكانت في الخامسة عشرة. شاهد عينيها الجامدتين المفترستين تبكيان دمعاً خفياً أحمر، كما لو أن لوناً وحسب، هو لون الدمع ولا دمع، آنثال منهما إلى الوجنتين الرابيتين وبثّ فيهما وهجة النجيع. وسأل فقيل إن اسمها فيضة، وإن الإنكليز قتلوا أباها وخطيبها ابن عمها. وسأل فقيل إن لوثة أصابتها يوم القتل قد تعززت يوم اكتشفت أنها لا تحيض، وتحوّلت إلى نوبات جنون وفسق وتيه. ولأنه كان ملتاثاً يومها بالغمامة الصغيرة السوداء، لم تصعب عليه مماثلة حاله بحالها ولا تقمّصه لحزنها وفجيعتها.

بعدها مارس أعمالاً لا حصر لها ومزاولات لم تكن لتخطر له على بال. أبرزها كان بلا شك صلته التي لم تنقطع بالمجاهدين. لقد زوّدهم بالخبرة والخطط، وأحياناً بالسلاح والذخيرة، عن طريق أصدقائه في الجيش؛ وإن ظل يتساءل أيّ استقلال تستطيع هذه الشراذم أن تنجز ما دام الإنكليز والباشوات ضدّها، والجيش يتفرّج عليها. ورغم أن حاله ظل فقيراً طيلة الحرب، فقد أخذ ذهنه يغتلي بالأسئلة.

هذه البلاد تملك كل شيء، قال لنفسه، لكنها تفتقر إلى الإرادة والاندفاع.

[بلاغ رقم ٣ : بعد الاتكال على الله والشعب، يجب أن يكون واضحاً وقطعياً للأخوة المواطنين أنه سيتم إعدام كل من يحمل سلاحاً فوراً وبلا محاكمة].

لم يعرف بابكر عبود بوضوح ماذا يعتمل في نفسه. وما أكثر ما أحسّ بتفوّق فيضة عليه في نقطة واحدة. فهذه المجنونة ـ كما أمسى وصفها الشائع ـ تعرف تماماً ماذا تريد ولا تستحي أو تخاف من الإعلان عنه: إنها تريد بعلاً يخصبها. أما هو فحتى رغبته العاتية بأن يكون ذلك البعل لم تجرؤ على الظهور إلا بشكل عذاب قلق خفيّ.

[بلاغ رقم ٤ : يوجه قائد الانقلاب الذي تم لمصلحة العمّال والفلاحين والكادحين التحذير التالي إلى أصحاب الأفران وتجار المواد الغذائية. إن التسيّب والفوضى في العهد البائد قد ذهبا إلى غير رجعة. وقد بدأ عهد جديد في بعليتا. وإن السلطة العسكرية الشعبية ستضرب بيد من حديد كل من يتلاعب أو تسوّل له نفسه أن يتلاعب بقوت الشعب. وسيعدم بلا محاكمة كلّ خباز يبيع خبزاً فاسداً أو مغشوشاً، وكل تاجر مواد غذائية يخفي هذه المواد أو يتلاعب بأسعارها أو يغشّها].

بعد الاستقلال أحسّ بابكر عبود، مثلما أحسّ غيره، أن بوسعه أن يفعل شيئاً، ويجب أن يفعل شيئاً، لو فقط عرف هذا الشيء. وسرعان ما اهتدى إلى مقهى سانتياغو.

يوم كنا نتسكّع في الشوارع ونكتشف وعينا الخاصّ بين النهر الكبير والتلال الغربية، كان جيل أسبق منا بعشر سنوات تقريباً قد انمسّ بذلك الفيروس. هؤلاء اقتنصوا من الباشوات والبكوات الجلوس في مقهى سانتياغو وحوّلوه إلى منصّة لآراء الشباب. وبدلاً من اصطحاب النراجيل والقبضايات المسلّحين، كان هؤلاء يصطحبون الكتب والصحف والقبّعات الفرنسية. وبدلاً من طبخ المؤامرات والإيقاعات والفتن، كان هؤلاء ينشئون أسئلة وأجوبة عن النهر الكبير والإنسان والتقدّم.

لقد انضمّ إلى تلك الحلقة سياسيّون وأساتذة وصحفيّون وموظّفون وضباط وطلاّب. وكان أبرز الأعضاء، بالنسبة إلى المقدّم المسرّح بابكر عبود، هو مرعي السنجاري. فهذا الذي أنقذته فيضة من الموت بأعشابها وحبّها، الذي يبتسم أكثر مما يتكلّم، والذي إذا تكلّم أصغى الجميع، كان يُخمد في رأس بابكر عبود تفشّيات تلك الغمامة الصغيرة السوداء وتطوّحاتها الأخطبوطية. كل شيء واضح وصريح بالنسبة إلى مرعي السنجاري، وبصورة توقع الأضطراب.

بابكر نفسه كان قليل الكلام أيضاً. فمنذ البداية قدّم « للشباب » مساهمته العظمى، ولكن الوحيدة، في إنشاء الأسئلة والأجوبة: لتحقيق أيّ تقدم لا بدّ من الاعتماد على قوة

منظّمة فعالة تقطع دابر الفوضى والمؤامرات. وهذه القوة هي الجيش. وبعدها صار يتدخّل فقط ليغتنم فرصة في الحوارات الدائرة كي يـؤكد صحّـة فـكـرتـه وجدواها. وبقليل من الأحاديث عن شخصه (اعتقاله، تسريحه، سياحاته، عزمه على إقامة دعوى لدى مجلس الدولة لاسترداد منصبه العسكري)، صار بوسع سامعيه أن يميّزوا هذا الرجل القصير البدين، الذي يدخّن النرجلية، عن بقية زملائه الضباط الذين سرّحهم الإنكليز أيضاً.

أخيراً وصلت شكاواه إلى الباشا الرئيس، فأعاده إلى الجيش غير منتظر قرار مجلس الدولة.

[نداء: أيها الشعب الأبيّ الكـريم، لقـد انتفـض الجيش ليطيـح بطغمـة البـاشـوات والبكوات الفاسدة التي استغلّته جيلاً بعد جيل. وقد أثبت الجيش أن إرادة الشعب في التقدّم والتغيير قد نجحت وتمّت دون إراقة قطرة دم واحدة ودون إطلاق رصاصة. إن هذا الوئام بين الشعب وجيشه هو خير هديّة نقدّمها إلى إخوتنا المضطهدين في المخاة. وفّقنا الله جميعاً على درب التقدّم والتحرير والاتّحاد ـ القائد العام للجيش والقوات المسلحة، الجنرال بابكر عبود].

« يا مو! يا مو! بذمّتك، ألست رائعاً في هذه البدلة؟ »

كانت الأمّ ماضية في تدوير طاحونة البنّ اليدوية فلم تسمعه جيداً. لم تعبأ بالاستفسار. ولم يعبأ بصمتها، فصرخ بالسؤال مرة ثانية. وجاء جوابها ولكن عن سؤال آخر: لقد آن له أن يَتزوّج ويخلّف ذرّية تحمل اسمه اهتف بفرح إنه فعلاً سيتزوج. « تظنّين أنها ستقبل بي؟ » سأل أمه وهو ما يزال يتبختر أمام المرآة.

ليس سهلاً على أية امرأة أن تقبل به إلا إذا كانت مجنونة، قالت الأمّ. فمن هي هذه المرأة التي يبدو أنها موجودة، وداخلة في مخّه وتفكيره؟

« فيضة! » هتف الجنرال بابكر عبود وهو يضرب كفاً بكف، ويرفع جسمه بالوقوف على أصابع قدميه. ببسمة متلاشية شاهد ما بقي من شعر أمّه يرتفع أيضاً ويقف على أصابع أقدامه. كان قد عاد إلى البيت ليلبس بدلة الجنرال الجاهزة، بعد أن أصدر قرار الأركان العامة بتسميته لواء.

« لكنها ماتت! »

« افـرضي أنها مازالت على قيد الحياة. ما قولك؟ »

عادت الأمّ بسرعة إلى طاحونتها وصرخت، كأن الطاحونة تجرش في ذهنه هو أيضاً: «هكذا رجل تلزمه هكذا امرأة».

التفت إلى أمه: «أتظنّين أنها ستقبل بي؟»

«فيضة هي المرأة الوحيدة في العالم التي إذا قبلتك تكون عاقلة. لكنها ماتت!»

«إذا رفضتني سأجعل البلاد كلها تحمل اسمي».

لم يكن بوسع الأم أن تستنبط معنى واضحاً لآخر نموذج من هذيان ابنها المضجر الرتيب. نهضت بانصراف تام وغابت في المطبخ. وعاد الجنرال بابكر إلى المرآة فاستأنف الاطلاع على وقفاته الأبيّة المتنوعة.

منذ هزيمة الجيش إلى ما بعد فضيحة السمن بقليل شهدت أمّ بابكر ابنها أكثر من مرة ينفجر داخل أعصابه وإهابه وينهمر سائلاً حاراً خارج عينيه. وسواء أمام أمّه أم في مواجهة ضبّاطه، كانت لغته الأصدق هي التي تتطاير من فمه مع شيء من الرذاذ أرخبيلاً هائج الماء من السباب الجنسيّ المقذع والشتائم الدينية المفزعة. ولطالما أكد نذير النميري وطاهر العطا فيما بعد أن الفواحش اللغوية الأثيرة عند أقرانهما وكثير من المثقفين والشيّالين وساكنات وعليتا، إنما استمدّت بالأساس من قاموس بابكر عبود العفويّ الغاضب، أو اغتنت به.

وها هو ذا الآن يجتمع بضبّاطه ـ طافح الوجه، صلباً، صافياً. لقد وقف أمامهم أو جلس معهم كما لو أنه واقف أمام مرآته. رآهم حتى العظم. ورآهم هو، مكرّراً في خمسين نسخة. وجعلهم يرون أنفسهم هو، مندغمين في أصل واحد.

وأما هم، فقد وقفوا أمامه وركبهم توشك أن تتداعى خوفاً ورهبة. قال الملازم نذير إن وجهه المليء السمح ما كان ليعبس قط، لكن شيئاً رصيناً ثقيلاً كثيفاً في ذلك الوجه، وفي الكتفين المستقيمتيْن العبلاوين، شيئاً واسعاً ورسوبياً، حالماً ويقظاً وراثياً، جعل نذيراً يتمنى أن يتناثر في الفضاء شظايا كلما وقف أمامه ـ فقط ليخلص من ذلك الوقوف.

أغلب الظن أن وقفته المهيمنة ونظرته الصائلة إنما جاءتاه من وعي شخصيّ، لا يمتلكه إلا ندرة من الرجال، بوجود فلذة من الجنون العظيم مطمورة فيه مثل عرق الذهب الذي رآه في مناجم المخاة وعمريت. هـذا الوعي هو الذي مكّن فلذ جنونه ذاك من الإطاحة بالباشا الرئيس، ذاك الذي لم يخامره يوماً ايّ شك في أنه أعقل رجل أنجبه النهر الكبير.

هذه الثقة المطلقة، المؤبدّة في ذهن الباشا الرئيس، تحوّلت برمتّها إلى ذهول مصعوق شمل سائر أنحاء جسده. قال الملازم مخيبر سرحان، الذي رافق عملية الاعتقال، إن شفة

فخامته السفلى ترنّحت تحت وطأة المفاجأة حتى لامست ذقن فخامته المغموزة الناتئة. وقد ظل هكذا حتى بعد أن أودع المستوصف العسكري رهن «المداواة»، وبعدها جعل يرغي ويزبد.

لعلّ هذا هو ما كان الفرق بين الرجلين. استمرّت المداواة، لكن الباشا الرئيس، وقد ارتفعت شفته السفلى أخيراً، رفض كل علاج للأزمة عن طريق الاعتراف بالأمر الواقع وتقديم استقالته. «اربعين سنة ناضلت لأجل بعليتا! أشطبها الآن بجرّة قلم؟ مستحيل! ولأجل من؟ لأجل ضابط! ابن فلاح! أنا انتشلته من الوحل! أبداً! أنا زعيم هذه البلاد الوحيد، وأنا رمزها!»

[بلاغ رقم ٦: يسمح للمواطنين الشرفاء بالتجوّل دون حمل أسلحة، من السابعة صباحاً إلى الثامنة مساء. الجنرال بابكر عبود، القائد العام].

بعد حوالي ساعة من إذاعة البلاغ السادس صار بوسع الجنرال أن يضع الباشا في سيارة عسكرية، بين كتفي الملازمين مخيبر سرحان وبدر الهلالي، اللذين طافا به شوارع بعليتا الرئيسية وساحاتها. وكان البشر، وليس النهر الكبير، مَنْ ملأ المدينة بالأمواج الصاخبة. وقد شاهدهم الباشا، وسمع هديرهم.

كان الباشا قد تجاوز الستّين. بومضة، استعاد هذه السنوات المديدة ووجد أنه لم تسنح له في أي منها قط أن يتفرّج على بعليتا بهذا التفرّغ والشمول. لقد رآها الآن كلها - بأحيائها القديمة والجديدة، بأشجارها الفتية، وحدائقها الغناء المنعشة، وساحاتها الحافلة، بدكاكينها العصرية وشوارعها النظيفة، بمقاهيها المأهولة وتكاياها المهجورة، بمسارحها ومدارسها ونواديها وسينماتها وملاعبها وكواعبها. لقد رآها بكل ما أتاحت لها يداه الرئاسيتان من النموّ والاتساع. فكيف بعد كل هذا تخرج الحشود البشرية الهائلة لتهتف ضدّه!

لقد شاهد أيضاً الأفول المهيب الحزين لعصر أنجبه. لأول مرة يحسّ أن بعليتا، تحت سمعه الغائب وبصره الزائغ، قد ألقحت أجنّة وولدت نسلاً لا يستطيع أحد أن يتنبأ بدربه ومصيره. وأحسّ الباشا أن هذا النسل قد جاء بعده، وأن فخامته لم يعد لازماً له:

من أين جاءت هذه الخلائق كلها؟ وكيف غافلته المدينة فزادت عدد سكانها هذه الزيادة؟ متى ولدت هذه الآلاف المؤلّفة من الفتيات والفتيان، ومتى بلغت من العمر ما أوصلها إلى الرقص في الشوارع؟ متى حدث هذا كله دون علمه؟ وهذه الطبول والدفوف والمزاهر والمزامير، من جاء بها كلها؟ ومتى تعلّموا العزف عليها، والعزف مقصور على

شعب فيضة الغجريّ؟ بأي لمح للبصر خُطّطت مئات تلك اللافتات التي تندّد بالباشاوات، به هو، بعهده الذي تصفه بائداً؟ وفوق هذا كله: كيف تخرج الخلائق، هذه القرود والسعادين، كأنها في يوم حشر، لتحيّي اغتصاب ضابط للحكم؟! أيّ شعب هو هذا الذي يهلّل للإطاحة بالديمقراطية ولظهور الديكتاتورية؟ أيّ شعب؟ أيّ شعب؟

[بلاغ رقم ٧: بعد الاتكال على الله والشعب، يعلن زعيم الانقلاب للمواطنين جميعاً تمسّكه بحقوق الإنسان وسعيه لترسيخ روح الديمقراطية بين أبناء الشعب. ويؤكّد من جديد أن قيادة الجيش العليا تسلّمت مهامّ الحكم موقتاً لتهيئة السبيل أمام حكم ديمقراطي صحيح وإنقاذ البلاد من الفساد والفوضى. وفي الوقت نفسه يؤكد الزعيم تمسّكه بالتّعهّدات الدولية وبميثاق الأمم المتّحدة].

عبثاً حاول الملازم نذير اللحاق بالملازم طاهر إذ رآه يشقّ طريقه بين حشد الضباط والعساكر في قيادة الأركان. من ركن إلى ركن، وطاهر يمرق بين الأجسام كريشة نحيلة تملك في داخلها قدرتها على الاتجاه. وخطوة بخطوة هرول نذير وراءه، دون أن يستطيع إدراكه.

أخيراً اصطدم الاثنان برجال شرطةعسكريّة اندفعوا يزيحون عابري الرواق في ما بدا تمهيداً لخروج شخصيات هامّة من مكتب الجنرال. «تعال هنا!» صاح نذير وهو يلتقطه من ذراعه. «ألا ترى الشرطة العسكريّة؟»

«سيادة العميد فوّضني بالدخول إليه في أي وقت».

«عميد! هه! ألست في هذه البلاد يا ترى؟ جنرال، يا صديقي، جنرال! أين كنت؟»

صمتا إذ انفتح مصراعا مكتب الجنرال، وأثبتا أعينهما هناك.

«ثلاث عشرة ساعة وهو يقابلهم»، همس نذير.

«من هم هؤلاء؟ ابتسامتهم صفراوية».

كان الجنرال قد خرج بهدوء وثقل بين أربعة من معتمري الطرابيش. وجد المكان. مشى جليل القامة منتصب الرأس مطبق الشفتين. ومشوا متهدّلي القامات، رخوي الرؤوس، مبتسمي الشفاه.

تقدمتهم ثلّة من ضباط الشرطة العسكرية ووجّهت خطاهم نحو الدرج. وإذ أيقنوا أنهم الآن ذاهبون، التفتوا إلى الجنرال التفاتة وداع شدّوا فيها قاماتهم وهزّوا راحاتهم فوق حواجبهم، كطلاّب جدد في أكاديمية الضباط.

عندها رفع الجنرال يده حتى أنفه ليردّ التحية، ثم أنزلها. ولبث واقفاً حتى غابوا. كان المكان ما يزال جامداً. وهدر صوت الجنرال عاصفاً كاسحاً: «أين أنت يا ابن ستين كلباً وكلبة واحدة؟ تعال هنا!».

انتفض الملازم طاهر، وتقدّم من الجنرال بخطى نظامية صارمة. وعلى مبعدة ثلاثة أمتار منه جمد جسمه بخبطة قدم ووقف ينتظر الأمر.

«قسماً بالعليّ القدير، لأعلّقنّك من قضيبك إذا كانت أخبارك سيئة. ادخل! أدخلك الله جهنم!»

انغلق مصراعا الباب وراءهما وبقيا وحيدين. ارتعشت شفتا طاهر بلأي، واغرورقت عيناه بالدموع. وفي برهة خاطفة، أقسم الجنرال لنفسه أنه لم ير في حياته قط إنساناً بهذه السعادة. «إذن الأخبار صحيحة يا بنيّ؟» سأل طاهراً وصوته يرتعش.

«صحيحة يا سيدي»، غمغم طاهر شبه مختنق.

«ورأيتها أنت بعينيك، تكلّمت معها؟»

«نعم، سيدي. رأيتها وتكلّمت معها».

تناول الجنرال بيديه زندي طاهر وضمّه إلى صدره. وفيما تكلّبت أصابعه على الزندين استرخت حدقتاه فغاض دمعها.

«هل ستأتي إلى بعليتا؟ هل ستأتي؟»

«قالت إنها ستأتي يا سيدي».

«ومعها رايتها الخضراء؟»

«مكنسة يا سيدي. معها مكنسة».

«الله أكبر!» ضرب الجنرال راحتيه وجعل يتمشّى. «خمس سنوات يا ربّ. خمس سنوات. وبعليتا تصير مثل سويسرة. ملازم طاهر! أنت منذ هذه اللحظة الملازم الأول طاهر!»

«لا يا سيدي. أنا أخذت مكافأتي».

«يا صرصار يا أخا الموطوءة! تقول لي لا، وأنا قادر أن أفعل بأختك! مثاليّ منحطّ تافه! أنا كلفتك بمهمة وأنا أكافئك على تنفيذها».

«لو لم تأذنوا لي بالذهاب إلى عمريت، سيدي، كنت من نفسي ذهبت ـ قصدي بعد ما سمعت أنها ما زالت عائشة».

انفتح الباب قليلاً ودخل ضابط برتبة عقيد. دخل بمشية مدنيّة وحيّا تحيّة قصيرة.

« سيّدي، الشيوعيون اعتقلناهم. واعتقلنا المرتشين في وزارة الإعاشة ومديرية تموين الجيش، وحنفي باشا، وحلمي السعدني، وشمداوي باشا. وحوالي ثلاثين نائباً مشاغباً، وعدداً آخر من الباشوات وأزلامهم... »

« الله يجازيك »، هتف الجنرال مبتهجاً، « أين نذهب بكل هؤلاء! ».

« أنا هنا لأسألك هذا السؤال. اين نذهب بهم؟ ».

« سجن الكورنيش؟ ».

« سجن الكورنيش، سيدي، وسع مقهى. بالكاد يتسع لعشرين سجيناً إضافياً ».

« معقول! » دمدم الجنرال، لنفسه أكثر مما لرفيقه. « مدينة بلا سجن! كيف فاتت هذه على الباشوات البناديق. أكيد لأنهم يعرفون أنهم سيكونون ضيوف أيّ سجن يبنونه ».

« ما العمل سيدي؟ » عاد العقيد يسأل ببراغماتية رخوة. « هؤلاء مربوطون بالحبال، ومشلوحون في سلحة ثكنة يوسف لعازر. الآن صار الجوّ بارداً، وبعضهم صحّته محروقة ».

« عزيزي نوفل، أنا فكرت في كل شيء إلا في السجن. أنا قمت لأحرّر البلاد، لا لأبني سجوناً فيها. ماذا تقترح؟ »

« لسنا بحاجة إلى بناء سجن، سيدي. على الأقل حالياً. ترميات فقط. إذا أعطيت أوامرك. تذكر تلّة الشهداء، سيدي؟ حولها إحدى عشرة تلّة أخرى. أي واحدة منها تفي بالغرض ».

« آه يا ابن الزانية! ما أوسع خيالك وأنشط مخّك! »

« سيدي! » هتف طاهر مرتاعاً.

كان الجنرال والعقيد قد نسياه تماماً. التفتا إليه متفاجئين قليلاً بوجوده. « ماذا بك يا ولد؟ » زمجر الجنرال مقطّباً.

كان طاهر قد وصل إلى انزياح أولي لارتياعه، عندما صرخ الجنرال فضخّ الأضطراب مجدّداً في صدره. غير أن عزماً أعمق طفا منه وشحنه بالحماقة الكافية للردّ: « سيدي.. التلال.. سيدي.. هذه تراث. حضارة. منازل الأسلاف ومراقدهم. ماذا يقول العالم إذا.. جعلنا واحدة منها.. سجناً؟ ».

« واحدة فقط يا طاهر »، قال الجنرال مدركاً وجهة نظر ملازمه الناشيء.

« واضح يا طاهر أنك لن تفكر بانقلاب عسكري في حياتك »، قال العقيد نوفل مبتسماً.

« التفت الجنرال إليه: « أنت ترى يا نوفل أنه لا بأس، ما؟ »

« طبعاً سيدي. على الأقل ننظفها من المستحاثات والأوبئة. نحافظ على صحة الناس؛ المدينة صارت قريبة جداً منها. وفي الوقت نفسه نوفّر على الخزينة نفقـات بناء سجــن ».

« فليكن »، قال الجنرال أخيراً. تحرّك العقيد للخروج بعد تحية عسكرية بسيطة. قال الجنرال: « مرّ في طريقك بالسنجاري، وشف إذا كان هيّأ البلاغات لبكرة ».

[نداء إلى المواطنين الكرام: يذكّر زعيم الانقلاب الأخوة المواطنين بضرورة الالتزام تماماً بالبلاغ رقم ٦ القاضي بمنع التجول بعد الثامنة مساء، وبالبلاغ رقم ٣ القاضي بالإعدام دون محاكمة لكل من يحمل سلاحاً دون ترخيص. اللواء بابكر عبود القائد العام].

في ذلك الليل كان الجمل قد روّض نفسه على أن انقلاباً قد حدث. هؤلاء الأمريكيون، قال لنفسه. فعلوها! من كان يصدّق؟ أوّل جمهورية ديمقراطية في العصر الحديث تطيح بأول جمهورية ديمقراطية في النهر الكبير! أين اختفى الإنكليز؟ لماذا اكتفوا بشريط ضيّق من المخاة وأعطوا الباقي للأمريكيين؟

لكنه لم يستطع أن يتقبّل زيارة صديق العمر، رفيق الدرب والتهريب والسوق السوداء والكفاح والمجد، عزّت باشا اللمّاع، وسماع كلماته الناصحة بالاستقالة.

هو يعرف شعب بعليتا جيداً. لطالما هبّت حشوده مزمجرة غاضبة، واستطاع هو إطفاء نيرانها بعبقريّته وحُسْن تصرُّفه وتخلّصِه. لطالما جعل الهاتفين ضده يهتفون له. هذه المظاهرات سراب، زبد، ضجيج، روح غوغاء وقطيع. وقد فتلت رأس العقيد الخائن يهوذا عبود بالخيلاء ونشوة النصر. إن الجمهور الذي يصفّق له الآن، هو الذي سينتخب غداً مؤيّدي الباشا إذا جرت انتخابات حرّة نزيهة.

« محمد علي »، نبس عزّت باشا بهدوء وعطف، « هذه البلاد لم تعد تريدنا. خلّنا ننسحب بكرامتنا ». عزّت كل عمره رخو نيء، وكلّ عمره يحاول اقتناص لحظة قوة ليتفوّق فيها على الباشا. ها قد جاءت اللحظة. فليسعد. أكيد أن العقيد يهوذا اشتراه. وعده بمنصب كبير، ربما الرئاسة.

« لا يا محمد علي. أنت تنظر بين قدميك، لا حولك ولا أمامك. أنا مثلك أحترم الديمقراطية. لكن هذا الزمان لم يعد زماننا. يكفينا الاقتصاد، وبلا سياسة ».

كلام فارغ بالطبع. اقتصاد البلاد كلّه، مؤسساتها، الجمعية الوطنية، الأرض والشجر، المصانع الجديدة، الميناء ـ كلها بأيدي الباشوات والبكوات. كيف سيحكم العقيد يهوذا

واقتصاد البلد ليس بيديه؟ إذا كان الضباط، أو بعضهم معه، فإن رجال الاقتصاد كلهم ضده.

«هؤلاء كلهم في السجن يا محمد علي. ومن هناك، من السجن، بعثوا برقيات التهنئة والتأييد. واحداً واحداً. كل واحد باسمه، يهنىء ويبارك».

«يستطيع يهوذا وضباطه أن يسجنوا الرجال. لكنهم لا يستطيعون أن يسجنوا الأرض والمال والمصانع. هذه كلها بأيدينا. أجهزة الدولة كلّها بأيدينا. الرجال. أنا عيّنتهم، من أصغر موظف إلى أكبر موظف. هذه الدولة دولتنا! والشعب شعبنا!»

«لا تركب رأسك يا محمد علي. أنت لا ترى الناس في الشوارع والبيوت. لو تعرف كيف يقصّون شعرهم، أيّ ملابس يلبسون، كيف يتزاحمون على العشق والرقص والمشاوير والكتب والجرائد. لو ترى البنات وأزياءهن ومشيتهن. الناس تريد حياة ثانية. أنا أعرف هذا الشيء من أولادي. ابني الصغير يا محمد علي يريد أن يصير ضابطاً. تصدّق؟ ابني الأول في كلية الطب الآن. هؤلاء وليس بابكر عبود. ملايين. ألم تر كيف استجابوا للسنجاري».

«أنت طول عمرك رخو، نيء. أنا لن أسلّم البلاد والنظام الديمقراطي للعقيد يهوذا».

أوشك أن يدركهما الصباح قبل أن يسكتا عن آخر كلام صادق مباح. نهض عزّت باشا، متلكئاً دون أن يعرف لماذا بالضبط، وشاعراً بغموض أن هذا اللقاء قد يكون الأخير. لقد اتفقا قليلاً على فهم الواقع واختلفا تماماً على اتخاذ موقف منه.

في الساعة السابعة صباحاً كان صبر الجنرال المفروض عليه بحكم انتظاره لعزّت باشا قد نثّ في رأسه تلك الغمامة القديمة، وفي جسده ذلك الهيجان المزبد. ثلاثة أيام مضت حتى الآن، والباشا لم يستقل، وهؤلاء الببغاوات لم يستطيعوا تشكيل وزارة.

أقبل عزت باشا بابتسامته الحليمة وأخبر الجنرال رفض الباشا الرئيس للاستقالة. وفي تلك اللحظة همد كل شيء في بدن الجنرال: الوثوب والحمّى والبارود والضباب. بقيت فقط رغبة مداهمة بالبكاء. تجلّد. اقترب من عزّت باشا خطوتين بطيئتين فأرسل الاضطراب في جنانه، ونبس بصوت واضح مستقيم: «لو أن الباشا الرئيس وقف دائماً هذا الموقف، لما كان هناك داعٍ للانقلاب».

وعاد إلى طاولته فوقف وراءها، وهو ما يزال رهين رغبة بالبكاء. «الآن يا باشا. هؤلاء الأولاد، كلّهم يريدون أن يكونوا رؤساء وزارة. قلت لهم اتفقوا. لم يتفقوا. برأيي أن تحسم أنت الأمر، وتشكّل وزارة».

« أنا لي رأي ثالث يا جنرال »، قال عزّت باشا مبتسماً ابتسامته الحليمة. ازدادت قامة الجنرال انتصاباً، وقد صفا رأسه وهدأ انضغاط صدغيه. « تقدم أنت واحكم البلد مباشرة. لأنك بعد حين ستكتشف هذه الضرورة. سيكونون سعداء بالعمل كوزراء معك. أما أنا فاسمح لي بالعودة إلى مزرعتي في جرين. والله يوفق بلادنا ».

لم يشأ الباشا أن يجلس، ولا أن يقدم نصيحة أو يوصي بشيء. خرج أسرع مما دخل. وترك الجنرال مستغرقاً في انتصابته وصفائه.

بعد قليل هبطت عينا الجنرال من اللامكان الذي كانتا فيه إلى الهاتف. تناول السماعة، وبصوت واضح مستقيم نبس: « اكتبوا البلاغ رقم ٧ بحل الجمعية الوطنية كخطوة أولى لإقامة الديمقراطية الصحيحة ».

- ٢ -

كانت الشوارع ترقص. وكذلك خفقات قلب الجنرال. لقد غدا سهلاً عليه الاعتقاد بأن الناس والجهاد على حدّ سواء يحتفلون به ويمنحونه القوة.

وكانوا - أناس من كل صنف ونوع، من كل عمر ومكان - يتدافعون كلجج النهر الكبير يوم يندفع فيه فيض الينابيع والأنهار والمطر، ويميسون كحقول القمح والقطن عندما تتلمّس بشرتها أنامل النسيم والعصافير والفراشات.

يومها لم نتوقف لنسبر عمق التوق في النفوس ولا درجة توتّره. ببساطة، كان موجوداً هناك. لم يقتلع جميع الأعشاب الميتة، لم يحوّل جميع الديدان إلى فراشات وخلايا نحل. لكنه استطاع أن يخرج من أحشاء كينونتهم أصواتها الطبيعية ويجعلها تصرخ في طلب الحرية والتقدّم.

قال مصعب لحياة إن بلاداً تستطيع أعشابها نسج اللحم باللحم، وصنع الدماء في العروق، كي تستردّ إلى الحياة إنسانةً نزفت القطرة قبل الأخيرة من دمها، لهي بلاد تستحقّ أن تحيا وتتحرّر. إنها حقاً البلاد التي لا بدّ أن يستجيب القدر لإرادة شعبها. كان مسحوراً بالقدرة البسيطة الساذجة، ولكن الجسيمة كالسهول والنهر والجبال، لدى هؤلاء البدائيين المسمّين غجراً، أن ينزلوا المرأة الهالكة عن صليبها الشجري في الغابة، وبعد أسابيع يجعلوها تستردّ دمها، كأنها استولدته من ذات جسدها أو فتحت باب ينبوع دفين فسال منه دم إلى الأوعية الخاوية والعينين الخابيتين، وتوقّف منه دم عند الأخدود الذي أحدثته سكين الرجل الأبيض في جيدها الأتلع، رافضاً أن ينزف من هناك، منعطفاً إلى شرايين احتياطية لم تقطع أوصلته إلى القلب والرأس والشفتين.

كيف سيمكن لهذا الفيض المستحيل أن ينسكب في آنية من الشعر؟

مستشفاها كان الغابة. سريرها، مهاد الأوراق المتساقطة عبر السنين. الأشجار والهواء النقيّ وانسرابات الشمس بين الأغصان منحتها العناية المشدّدة التي قالت للجرح التئمْ فالتأم. وكان النيلوتيون الغجر أطبّاءها وممرّضيها. هؤلاء كلهم - الغابة ومفرداتها، والهواء والشمس والقمر والغجر - كانوا الألوان الأساسية في لوحة طقوسية تقول إن شعباً

محباً وطبيعة مسكونة ينقذان ابنتهما من الموت.

وأضاف طاهر أنّ عذارى عمريت كنّ يصنعن لها الرداء بعد الرداء ثم يشبكنه بأفنان فتيّة نضرة تخفيه خلفها. كلما ذبلت الأفنان بدّلت ثوباً. وكلما بدّلت ثوباً اقتربت من الحياة خطوتين. لقد آمنوا إيماناً طودياً أن لباسها، وقد تفشّت فيه نقطة الدم التي فاضت منها ذلك اليوم، هو الذي أعطى ويعطي (إذ طمروه في جوف التربة) قوة البرء الإلهية التي نقلتها إليها الأعشاب والتراب والأوراق والهواء والشمس وأيدي البشر.

مع نموّ الحياة الجديدة فيها نما شعرها، طال. وحين لقيها طاهر شاهد ذوائبها المضفورة تخفق بين الكتفين وعلى الظهر. عبر الخفقان شاهد ذلك الخطّ النحيل المتعرّج الذي يكاد لا يرى، الذي شقّته هناك سكين النغولة البيضاء في المخاة، الذي كان درجة أو درجتين أضوأ من الجيد الوعلي الأتلع، الذي شابه خط فلاحة وحيداً في سهل غمرته مياه النهر.

كان في الجوّ كله بُقيا من السحر البدائي، وكلمات من النوع الذي كان يُحمحَم به في زمن هيولي اللغة. وكان في السحر والكلمات غياب مثير لأيّما لمسة من لمسات الحسّ بالخطيئة. فهؤلاء الأطباء والممرّضون، الذين هم أصلاً عشّاق لا يبتغون وصلاً، أرادوا لكاهنتهم أن تبقى فقط هناك، في مجاهل الأرض التي كانت برمّتها معبداً نسيمياً شامخاً لها، وأن تنفر عن العالم الملوّث المنكوب، المنشقّ طولاً بالعنف، وعرضاً بالعبودية، وعمقاً بالدينونة. هناك حيث الصلبان مواكب، صليب وراء صليب، ولا أحد يمكنه أن يخلصك، قالوا.

لم يعرفوا أنها كانت تتوغّل في واحدة من سكرات الجنون والحلم، وأن كلماتهم وصلتها هلاماً من الأصوات والنبرات والخوف. لقد انبتّ وشج مع تلك الأرض البكر الغافية. وها هي ذي قطرة الدم تنبثق للمرة الخامسة بعد شفائها. وكيف نهر بلا ملاّح؟ ستصنع قارباً، وستبحث عن أوزيري. وأوزيري سيأتي من عالم مدموغ بالخطيئة، لأنه إذا لم تكن هناك خطيئة فهو لا يأتي، إذا لم يكن هناك غلط وقبح رقحط لا يجيء حاملاً غصنه الجميل البعيل. وأوزيري يجيء يوم يموت السمسار. أوزيري يجيء عندما يسقط عن العرش إلّه الدراويش وكاهن المشعوذين. هؤلاء السحرة، حَمَلَة البلاسم العقيمة، معتمرو التيجان الحمراء الوسخة، فشلوا في صدّ العاصفة والفيضان والقيظ. الطقوس التي أقاموها في الساحات، والعبادات السوداء داخل المعابد، كانت شعوذات خنقتهم بدخان الكبريت.

هذه هي علامات أوزيري. السمسار مات. سماسرة آخرون يموتون. هذه هي علاماته.

لأول مرة نجتمع معاً منذ وقت طويل ـ الضابط والجامعي والموظف والعامل والمعلم

والخفير والمتبطّل. كنا جالسين في غرفة فيضة، متوقّعين بغموض وفضول مجيئها الموعود. ولأول مرة يمسك السكون بأنفاسنا ونحن ننصت طوال ساعة على الأقل لتفاصيل رحلة طاهر إلى عمريت.

أخيراً نهض عبد العليم الغزال. نبر وهو يرفع بنطاله إلى الأعلى أنه لا يستطيع أن يرى في فيضة أكثر من متشرّدة مصابة بجنون الشبق الجنسي. «البلاد تمرّ الآن في منعطف خطير. لقد قضي على مستنقع الباشوات إلى الأبد. ولا شكّ أن تعاون السنجاري والجنرال سيكون لمصلحة الفلّاحين والعمال. هذا التضامن بين الرجلين أهمّ بكثير من خزعبلات لا تصدّق عن امرأة طقّ عقلها».

«وماذا أستفيد أنا؟» سأل إسماعيل سرحان. «منع التجول قضى على سعادتي الوحيدة. أنا ضدّ هذا الإنقلاب».

ضحكنا. قال نذير: «المهمّ أن يستطيع الجنرال الإمساك بما وصل إليه. هذا هو المهم».

قال مخيبر سرحان: «المهم أن يفعل ما يريد. حرّ تماماً. الحرّية أهمّ شيء».

«وماذا ستفعل امرأة جميلة برجل في الخمسين؟» سأل برعي بدران.

«هل ستكون محظيّته؟» سأل مفيد العبد الله غامزاً.

«مثلما كانت محظيّتك»، صاح بدر الهلالي ساخراً.

«وهل ستجيء فعلاً إلى بعليتا؟» سأل نذير طاهراً.

«يا جماعة»، تنحنح سعدون أخيراً، «أنا لا أفهم كيف تؤيّدون الجنرال. هذا رجل مستبدّ. سمسار أمريكي. هل هناك عاقل يرحّب بالاستبداد على حساب الديمقراطية؟ أم لعلكم، كلّ واحد فيكم يظنّ أنه هو الجنرال، وأن ما سيحدث لن يكون سوى تحقيق ما يريده ويتمنّاه هو بالضبط؟».

هبط بدر الهلالي عن قاعدة النافذة وهتف: «لا أعرف ما الذي ينقصك يا سعدون. شيء من الخيال، ربما من ماء القلب. وإذن تقول هذا الكلام عن حركة ستصنع للحياة تمثالاً! بلاد بأكملها تمور، تريد أن تكتسح الفساد والركود، تغتسل من تاريخها وأوساخه.. أنا لا أعرف كيف يدافع إنسان يعيش في هذا البلد عن المزبلة السياسية التي كنا نعيش فيها؟».

همهم سعدون ساخراً: «والدليل على تقدميّة الجنرال أن أول شيء فعله أنه ابتكر سجناً».

قال مصعب: «نعم. الجنرال آفترع واحداً من رموزي الشخصية. أليس هناك مكان غير التلال؟»

ردّ بدر الهلالي: «لكنه أطلق حرية البلد. حرية الناس. وهذا هو الأهم. ما الذي سيقف الآن بوجه تحرّرنا ووحدة نهرنا؟ قل لي الجنرال سوف يشكّل من جديد جيش مغاوري الليل. وسوف يجد كل إنسان مجاله الخاص لصنع الحضارة في النهر الكبير».

أضاف نذير: «فعلاً. أحياناً يمتلكني إيمان عظيم بأن قدراً خاصاً ينتظر هذه البلاد، دول النهر الكبير كلها، وأننا نحن جيل هذا القدر».

عقّب سعدون ساخراً: «أنتم جيل البؤس والخيبة. والأوهام. أنتم تفصّلون الجنرال على قدّ أحلامكم وجهلكم. تماماً مثلما فصّلت ألمانيا هتلر على قدّ أحلامها وعنفوانها، فدفعت أوروبا والعالم معها أفدح ثمن».

«مشكلتك يا سعدون، أنك لا تتكلّم كابن بلد»، قال برعي بدران. كان ستة أو سبعة على وشك التصدّي لخطاب سعدون المحكم. لكن شاعر المظاهرات المتوّج هيمن عليهم. «نحن فعلاً جيل القدر، مثلما قال نذير. اسمعني وراهن على كلامي. خلال ربع قرن، إذا لم تصر نيلوتيا القوة العظمى الثالثة في العالم، فابصق على شواربي. أمة حيّة، وأرض حيّة، وتاريخ حيّ - فلماذا نصير مثل ألمانيا هتلر وليس مثل أمريكا ابراهام لينكولن؟».

أسبوعاً كاملاً والمظاهرات تكتسح النهار والشوارع والساحات، تأييداً للجنرال. الطبول قرعت تأييداً للجنرال. والأبواق نفخت، والحناجر صدحت، والخطابات هلّلت، والمهرجانات ازدانت. الطلاّب والجنود وشباب الحارات، كلّهم رقصوا فرحاً بالزعيم. كان برعي بدران مطلوباً في كل ساحة، وكل مهرجان. ولأمر ما غدت قصيدته (سلّم المجد) مطلباً جماهيرياً، وبصورة خاصة هذان البيتان:

هذا أوان الشدّ نحن زحوفه   جئنا من النكبات والأرزاء
لنجدّد التاريخ بعد ذبوله   ونعيد سيرة أمّة غرّاء

حتى الشيخ السمنكي كان واحداً ممن لمسهم الانقلاب. ففي أول يوم جمعة تلا السماح بالتجوّل النهاري خطب في إحدى الزوايا ما اعتبره الدراويش أعظم خطبة في حياته. «إن هذا الانقلاب قد أزال عهد الفوضى والرشاوى والمحسوبيات وأتى بعهد جديد يستند إلى قوة الحق ومطالب الأمة. إن الله قيّض للبلاد بشخص اللواء بابكر عبود، ابن هذا البلد البار، منقذاً أنقذ الجيش من الانهيار، وخلّص البلاد من ثورات داخلية». وبعد أن دعا

له بطول العمر والبقاء، طالبه باسم العدالة وإحقاق الحق، أن «يؤلف محاكم عسكرية لمحاكمة الخونة ويعمر جديد الزوايا والتكايا لعباد الله القانتين ويطهّر البلاد من الجنون والرذيلة».

هذا الطلب الأخير أصاب إسماعيل سرحان بالكآبة. بين تقوى غافية أفاقت وعشق غريب هجع، انسربت مشاعره الحائرة الخائرة. لقد وضعه الانقلاب أمام مشكلته الكبرى التي كان في مراوغتها أبرع من الباشا الرئيس في مراوغة مشاكله.

من كل أسبوع، كان يعيش ستة أيام على أنشوطة معلّقة في الفضاء، نسيجها الغيرة والخوف والشوق والعار والجنون والقلق، وليلة واحدة يعقبها نهار قصير على أرجوحة من الحب والرضى والارتواء واللامبالاة والتوازن. ستة أيام من الخيالات الجهنمية الكاوية، التي أضنته وأرّقته: تفيدة بين ذراعي رجل آخر، عارية بين ذراعي رجل آخر، وربما سلسلة من الرجال في الليلة الواحدة، وعدد فظيع مروّع من الرجال في ستّ ليال؛ وهو هناك، ملازم مدرسته الابتدائية اللعينة تلك، تقطع طريق عقله صورة لها لا تتغير: عارية بين ذراعي رجل آخر، وآخر، وآخَر، وكلهم لا يحبّونها، لا.. يحترمونها.

إن انقلاباً لا يقلّ خروجاً واختراقاً عن انقلاب الجنرال لازم له كي يقتنع بالزواج منها، فكيف إذا كان المطلوب تنفيذ اقتناعه؟ هل الحبّ باهظ الضريبة إلى هذا الحد؟ هل هذا هو الحبّ؟ عاهرة. طبعاً. من وعليتا. ويغار عليها. وهو لا يحتقر نفسه. إنما الآخرون.. لأن الآخريسن.. ستة أيام.. وكل يوم.. عدد مروّع. يجب أن يرتاح من هذا العذاب. لم تعد القصة الآن مثلما كانت في البداية: مغامرة واكتشافاً وتجربة. صارت الآن مشاعر وعلاقة، وتوقّعات وأحلاماً. مرّ زمن طويل. علت تراكمات للفرح والقلق والتأزّم والنشوة. كلّ لقاء فيض. فيض وراء فيض. والآن لم تعد سهول النفس مثلما كانت أول مرة. مادّة جديدة استقرّت عليها. صار هناك طرف آخر: طرف مغلوب على أمره، مسكين، مستلب، يغرق في الدعارة ستة أيام ويحزن في اليوم السابع. بادىء الأمر كانت تفيدة تنظر بنوع من الاستطراف والغبطة، ثم باعتزاز بالنفس، وبعدها صارت أنيسة ومستجيبة، تحسب له حساباً، تنتظره وتراعيه وتودّعه. وها هي الآن تخمر بالجنس ستة أيام، وتحزن بالحب في اليوم السابع، تترنّح فيه تحت وطأة الأيام الستة السابقة، وتقع بين ذراعي إسماعيل جثة مغلقة، أضحية تفوح منها الرائحة الكريهة للاحتقار الذاتي والعذاب واليأس.

ولكن من هو إسماعيل سرحان ليقوم بانقلاب؟ ماذا سيقول الناس عن أولاده، بناته؟. عن أهله؟ وكيف سيعمل، ويلهو، ويتعامل؟

كانت عيناه تعبران بمنشور حزب العمل الملصق على الجدران ضد الجنرال، عندما وقر في رأسه ذلك الخاطر الذي لازمه بقيّة عمره: إنه شخص عاديّ، وليس بمقدوره أن يكون أكثر مما هو. لو كان شخصاً استثنائياً لقام بانقلاب - تحمّل قدر عمره وقلبه، وترك لأولاده أن يتحمّلوا قدر عمرهم ومستقبلهم. لكنه لم يخلق لهذه الطفرات.

أحسّ إسماعيل أن روحه تماسكت أمام عذابها. تناثرت الأسئلة والمشاعر وحلّ محلّها برد وسلام. وتمكّنت عيناه أخيراً من قراءة أحد المناشير فوقف مندهشاً غارقاً في لجة جديدة من الحيرة والخوف.

توجّه المنشور « إلى جماهير العمال والشغيلة وأبناء الشعب »، وهؤلاء هم الذين شاركوا في المظاهرات، قال اسماعيل لنفسه. لكنه يدعوهم إلى « مقاومة الفاشية والتصدّي للطغمة العسكرية التي أطاحت بالديمقراطية »، ويدعو « الضباط والجنود الشرفاء للعودة إلى ثكناتهم وإفساح المجال أمام الشعب لبناء حياة نيابية سليمة »، ويدعو « إلى إطلاق الحرّيات العامة »، ويصف الجنرال بأنه « بهلوان من الطراز الأول، أو سمسار أمريكي مخدوع ». يا للكلمات القويّة المخيفة! « الشعب هو الذي يبدل الأوضاع وليس الجيش »! يا للجرأة الحمقاء الجديرة بالإعجاب!

وقف مندهشاً. إن إسماعيل سرحان، وعلى قدر ما يعرف نفسه (وهو يعرف نفسه جيداً) مواطن متعاطف مع حزب العمل. لأنه حزب الفقراء حقاً. لكن المنشور يظلّ باطلاً رغم أنه قيل بكلمات حقّ.

كان الشعب منشغلاً بشيء معاكس تماماً. لقد لمس بلا لبس أو تمويه نموذجاً عن التجدّد والتغيير اللذين طالما تاق إليهما. منذ اليوم الثالث للانقلاب شاهد الانقراض الفوريّ السعيد لمواكب توجّه الباشوات والبكوات إلى المقاهي والفنادق والجمعيّة الوطنية. وبات ذكرى متضائلة مشهدهم في الشوارع وهم يتقلقلون محفوفين بالقبضايات حاملي الخناجر والمسدّسات، والأزلام حاملي النراجيل والغلايين، والسعاة حاملي الحبّ والولاء والتبريكات على المفرش البشري الذي شكله تكملة لمواكب الباشا.

لقد انتهى هذا كله. كان رجال الجنرال، الذين حلّوا محلّ الوزراء والمسؤولين الكبار، يتوجّهون إلى مراكز عملهم في موكب مختلف. كانت المقدمة سيارة عسكريّة أو مدنية، يجلس على مقعديها الأماميين سائق برتبة رقيب ومرافق برتبة رقيب أول، وعلى المقاعد الخلفية المسؤول الجديد. من الجانبين والخلف حفّت بالسيّارة، وعلى شكل كفين مفتوحين يتلاقيان عند المعصمين، خمس دراجات نارية تحمل خمسة من رجال الشرطة العسكرية،

وتطلق في فضاء المدينة بالونات صوتية راعدة. كان اللون الأحمر يلمع في أشرطة الكتف وشارات خوذ الشرطة، وعلى مساحات بارزة من الدرّاجات. وبعد ثوان تقريباً من انطلاق الموكب، كانت الجماهير تبدأ بالخروج إلى الأرصفة، لتحفّ أعينها ومشاعرها المغتبطة بالمسيرة المنطلقة.

اعتزّ الناس بهذه المواكب (تلك هي البشائر، قال أبو إسماعيل سرحان) واعتبروها تأكيداً على بدء المرحلة الجديدة. وشرعت نفوسهم تترنّم بإيقاعات الفخر والجدة والانطلاق. هذه الإيقاعات لامست الشغاف القلبية وغدت طقساً بهيجاً يوم جُلد أول خبّاز أمام مخبزه في الشارع. ويقيناً أن الذين شاهدوا العملية كانوا أقل استمتاعاً بها من الذين استمعوا لأخبارها، فالاستماع والرواية يُسقطان ما هو بغيض ومروّع ويحتفظان للخيال بالرمز والمغزى. إنه ليستحق الجلد فعلاً فرّان يبيع خبزاً ما يزال يلتوي أو يقع فلا يتدحرج على محيطه.

احتجّ محامو نقابة الخبّازين على عقوبة الجلد: إنها غير منصوص عليها في الدستور؛ والقانون يحدّد عقوبة بالسجن والتغريم، لا بالجلد. لكن رجال الجنرال ردّوا، نقلاً عنه، أنه سيصار إلى إصدار دستور جديد ينصّ على هذه العقوبة، وإلى ذلك الحين سيستمرّ عقاب الفساد بهذه القسوة البدائية الضرورية.

في الأشهر الاولى للحكم العسكريّ عمّت البلاد رياحٌ عاصفة من الثواب والعقاب. قائمة تتلو قائمة من أسماء المسرّحين كانت تصدر بمرسوم كلما سرحت الغمامة في رأس الجنرال. الذين فسدوا وأفسدوا نالهم مرسوم تسريح وأحيلوا إلى القضاء. والذين عيّنهم الباشا الرئيس شخصياً، أو الباشوات الآخرون، نالهم مرسوم تسريح ثم عشرون جلدة لكل منهم عقاباً لقبولهم المحسوبية أو سعيهم إليها.

كان الناس فرحين. لكن أساتذة كلية الحقوق انزعجوا. وفي فورة حماس باسلة لأصول المجتمع المدنيّ وقواعد الحياة المدنية، التي رسّبتها في وجداناتهم جامعات فرنسا وبريطانيا، تقدّموا بعريضة إلى الجنرال. لم يفتهم أيّ مبدأ حقوقي، ولا أية ملحوظة صغيرة. وجاءت العريضة أقرب إلى الوثيقة منها إلى أيّ مسمّى آخر. افتتحتها ديباجة بارعة عن شرعة حقوق الإنسان التي أقرتها الأمم المتحدة ووقعّت عليها بعليتا ودول النهر الكبير.

في اليوم التالي لتقديم العريضة صدر المرسوم رقم ٢٥٨ بتسريح ستة من الأساتذة وخمسة من الأساتذة المساعدين وعشرة مدرّسين في كلية الحقوق.

بين مرسوم من هذا النوع وآخر كان مرسوم يصدر بإثابة موظّفين أحسنوا الخدمة والعمل. ولأن الضباط الصغار كانوا الغانم الرئيسيّ من هذه المراسيم لمعت نجمتان ذهبيتان على كتف نذير وطاهر وبدر ومخيبر وأسماء كثيرة أخرى منحت أيضاً «قدحاً ممتازاً».

فجأة وجد الملازم الأول نذير النميري أن راتبه علا إلى ١٣٥ قرشاً. وفوراً حصل على إجازة طويلة وأسرع إلى بعليتا القديمة ليفاتح سمحة في الزواج.

ادهشته المدينة التي أمضى فيها ثماني عشرة من عمره وظن أنه يعرفها جيداً. لقد اقتحمت خيال فتوّته الراسخ، والسيّارة العسكرية تحمله عبر شوارعها، بصورة أخرى برقت فيها النظافة والجدّة واللون والعافية، فتلفّعت الصور القديمة أمامها بالعتمة والإبهام. شوارع، بل أحياء جديدة، وحدائق جديدة، وقصور حكوميّة وساحات وبشر جدد. كلّ هذا منتصب أو متحرّك خارج ذاكرته وعلمه. أحسّ بشيء من الغربة. جفلت نفسه للشعور بأن هذا المهاد الحنون لقلبه وذكرياته ووعيه قد تفكّك وبهت.

على أن نفس الملازم الأول انفتحت بسرعة لهذا الاتساع البهيج. إنه الآن مقبل على اتساع مختلف، ولكن مماثل في بهجته؛ خروج من ذاته يشبه خروج المدينة من زواريبها الملولبة إلى الفضاء الرحيب.

عندما طرق باب بيت سمحة، مباشرة ودون أن يعرج أولاً إلى بيت أهله، كان قد حمل في صدره وابتسامته سعة المدينة كلها. وبلغ فرحه شأواً جعل كتفيه يفيضان اعتزازاً بما عليهما من نجوم.

فتح لـه الباب طفل عابث نشوان شدّه إلى الداخل ثم راح يدفعه من الخلف كي يتابع دخوله. خلال ثوانٍ اجتاز الملازم الأول نذير بضعة أمتار من مدخل الدار ومترين آخرين من باحتها الحجرية. على بعد ثلاثة أمتار من الفسقيّة، وعشرة من المكـان الذي تصـدّرتـه سمحة، تراكب الصوت والصورة في وحدة عضوية. اكتشف الضابط الحالم أن هذا العدد الغفير من البشر الصائحين المصفّقين الراقصين، وهذه الموسيقى والضجيج، وسمحة والشاب الأجلح الجالس إلى يسارها على علوة من المكان، إنما يشكلون حفل زفاف من نوع ما (خطبة؟ زواج؟) وأن هذا الذي يراه ويسمعه هو بحق أضخم ما قدّمته له المدينة من مفاجآت.

شهقت سمحة إذ رأته وانتصبت. ورآها وهي تنتصب. إذن فالأمر ليس أقل من خطبة. تقدّم نحوها. ثلاثة عشر متراً: عندما اجتازها أخيراً كانت الأصوات كلّها قد تلاشت والحركات همدت. وقف العريس أيضاً. وأمامها وقف نذير: نذير وحسب، لا

الضابط الذي أرهب العيون المحملقة، ولا الغريب الذي أحبط فرح الأحباب والولف؛ نذير العاشق الآتي من مكان بعيد كي يظفر بحبيبته.

لم يتكلم أحد من الثلاثة الواقفين في قلب المشهد المشحون. وسبق إدراك العريس للموقف مقدرة نذير على سبك شرارات صوته. التفت إلى سمحة: «من هذا العسكريّ؟» سألها وإصبعه المحتقرة تشير إلى نذير إشارة خفيفة.

وبدلاً من أن يخاطب سمحة، توجّه نذير إلى الرجل الصلف بقبضة جذبت سترته وربطته وقميصه، وبسؤال كان غير لائق على الإطلاق بدماثات الحياة المدنية السامية: «بل من أنت يا أخا الموطوءة؟» وللتو ذكّرت الكلمة الأخيرة سامعيها ببذاءات الجنرال التي باتت معروفة تماماً عبر لقاءاته ومؤتمراته الصحفية. لحسن الحظّ كان العريس من التمدّن بحيث رفض أن يستجيب للعنف. لقد فضل طعن الملازم الأول بنظرة احتقارية متعالية، رأى أنها بالتأكيد أعمق إصابة في النفس ممّا أصاب ملابسه الرافهة من جعلكة.

تدخّل أصحاب الدّار وذوو النوايا الحسنة. وبسرعة حضر والد سمحة وحسم الأمر. أجل، إنه هو الذي قرّر هذه الخطوبة. وبالضبط لكي لا تتزوّج ابنته عسكرياً. طبعاً هو يؤيد الجنرال. وضد الفساد والمحسوبية. لكن تأييد الجنرال شيء وتزويج ابنته لعسكريّ شيء آخر. أو يكون حضرة الملازم حالماً بأن يصير جنرالاً؟ وأيضاً الحب شيء وتزويج ابنته لعسكري شيء آخر. الحب مثل الهواء، يأتي ويروح.

ثم جاءت تلك اللحظة المارجة التي بثّت في نذير النميري يقيناً نهائياً بأن لا فائدة ترجى من حوار الطرشان هذا. أمسك سمحة من يدها وجذبها بقوة غير مؤذية عن كرسيّها العالي. تعالت الصيحات والاحتجاجات. هجم بعضهم عليه لإيقافه. وانفجر الصراخ. وتناول نذير مسدسه وهيّأه للإطلاق.

في هذه اللحظة أحسّ نذير أنه واقف على مفرق حياتين اختلفتا في المطلق. بالطبع لم يكن في كامل وعيه المدنيّ عندما سحب المسدّس. لكنه كان في كامل وعيه الوجودي. أو هكذا خيلّ إليه، والحشد الصاهل من المحتفلين يلتفّ حوله مثل جنزير من الزئير والعواء والفحيح، ويحيله إلى حيوان محاصر. تحتّم عليه ليس فقط أن ينجو من الهوان والخسران، بل وأن يلبسها رأس حامد بك دحدح، ابن ملك صناعة الزجاج في بعليتا. ففي ذلك الموقف تلاشى كل احتمال بشقّ طريق ثالث بين البيك والعسكري، ابن العائلة وابن الناس، ابن الصناعي وابن المتسكّع.. بين مستخفّ بصاحب السلطة لأنه يملك المال ومستخفّ بصاحب المال لأنه يملك السلطة.

ونذير النميري جاء إلى بيت حبيبته سمحة لكي يبدأ حياته الجديدة لا لكي ينهيها. هذه الحياة التي بدأت يوم حققت سمحة له أول حلم فيها: قبلت صداقته دونما وسائط من عائلة أو مجتمع، ثم استمرّت تتجوهر وتزدهر لأنها طراز جديد، لأنها لم تكتف بنزع الملاءة السوداء عن وجهها، بل نزعتها من أعماقها أيضاً.

وها هي ذي، بقدّها القصيم وروحها الأنيسة، تعلق بعالم الباشوات مثلما كانت سمكات النهر تعلق بشصوص الدراويش. ولم تكن هذه أول مرة يرى نذير أن حياته مرصودة في قمقم البكوات والباشوات، وأن الخروج يعني ببساطة فكّ الطلسم وتحطيم القمقم. وقد أذعره ليس فقط حادث يوشك أن يسلبه حبيبته إلى الأبد، بل أن هذا الحادث لن يكون وحيداً، إنّه أول حلقة في سلسلة من حوادث مماثلة ستسلبه الحلم بعد الحلم والتحقّق بعد التحقّق، لترميه أخيراً قصبة سكر ممصوصة على كورنيش النهر الكبير.

كان الحضور مؤيّدين حقيقيين لانقلاب الجنرال. لكن هذه النسخة المحلية من الانقلابات لم ترد إلى خيالهم مع فيض ما ورد إليه عبر بلاغات الجنرال ومراسيمه وقراراته وتصرّفاته. وفوق هذا، فإن معظم ما يصدر عن الجنرال يفوح على الدوام بنكهة الفكاهة والغرابة المستحبّة. أما هذا العسكري ذو النجوم فلا يبدو أنه سمع نكتة يوماً، ناهيك بصنعها أو إلقائها.

ضحكنا بنشوة للجسارة والطرافة في قصّة حملت توكيداً إضافياً على انبثاق عصر بشريّ جديد. إنها المرة الأولى في تاريخ مدينتنا - وإذا لم تكن الأولى فلا شكّ أبداً في أنها الأسرع - التي يتمّ فيها استبدال عريس بعريس. لقد رفض حامد بك الإهانة التي وجّهتها العروس إلى بكويّته وأسرته (بات واضحاً أن سمحة تفضّل العسكري على ابن دحدح بك ابن ملك صناعة الزّجاج في بعليتا) انسحب مع مدعويه بكل إباء واحتقار، رافضاً توسّلات أبي العروس شبه الباكية وتعهّداته المغلّظة. وفيما تردّد العازفون والمغني والراقصة، أيبقون أم ينصرفون، جلس نذير على كرسي العريس وأشار لهم أن يتابعوا، ففعلوا. وكان واثقاً أن أبا سمحة سينتخي ويدفع.

مصعب فقط لم تعجبه هذه النهاية. هو أيضاً أراد أن يتزوّج. (إنه لشيء يتعذّر فهمه ذلك العدد الهائل من الزواجات التي تمّت في السنة الأولى للانقلاب). بعد عناء طويل، وفي فيض من حسّ المغامرة والتوق والحبّ، قرّر أن يتنازل عن حرّية طالما رآها غير قابلة للمساومة، وانطلق إلى حياة ليقنعها بأن تفعل ذلك هي أيضاً.

كانا يلتقيان تقريباً كلّ يوم. منذ الانقلاب لم يعد طلاّب الجامعة يخرجون

للمظاهرات. وشيئاً فشيئاً غدت مدرّجات كلية الآداب وقاعاتها جنّات صغيرة للمشاعر المحتشدة بين طلاب قليلين وطالبات أقلّ. لقد حوّم حول كل زميلة له تقريباً. وحوّم حوله عدد لا بأس به منهن. كنّ فراشات يسطعن باللون ويفضن بالحركة ويعبقن بالشميم. وكان هو حواسّ متنبّهة وخيالاً جسوراً وقهقهة طليقة حاشدة.

إلا حياة. هذه كانت نحلة. وقد أحبّ فيها أنها لسعته، وأنها تلسع. لم يطل به الوقت حتى سمّاها بالفعل نحلة. وقالت له إنها لولا الشعر، الرؤية التي تشقّ مهوداً جديدة لنهر الحياة، لسمّته يعسوباً.

« طيب. قسماً بالله إن قصّتك أحلى من قصّتي. فلماذا لم تفرح لي؟ » سأل نذير متحيراً، ونحن جالسون حول طاولة في نادي الضباط نحتسي البيرة الوطنية المثلجة.

« لأنكم اعتقلتم حياة يا حضرة الملازم الأول. حياة خطر على الدولة. لذلك هي الآن في سراديب التلّة الرابعة ».

صمتنا. كان الخبر مفاجئاً ومزرياً في وقت معاً. تساءلنا في صمت أنفسنا المنعزل عن أمر هذه الغرابة المحلية: أن تنتمي فتاة إلى حزب العمل، وأن يعتقلها الجنرال مع الباشوات. أن تكون شيوعياً عنى خروجاً أقصى من الدوائر المغلقة والمتحلزنة، وعنى أيضاً البقاء على مبعدة، شيئاً مثل أن تلقي بنفسك من حالق في فجّ عميق مجهول. ولأننا اعتبرنا أننا نحن بالذات الذين قمنا بالانقلاب على العهد الفاسد، فقد وجدنا أنفسنا متلبّسين بمشاعر المسؤولية والذنب.

« أصلاً، ما كان لازماً أن يعتقل أحد من حزب العمل »، قال طاهر.

صاح بدر وعبد العليم بصوت واحد: « كيف! » وتابع عبد العليم: « حتى أزلام العهد البائد لم يقولوا كلمة ضدّ العهد الجديد. حزب العمل أصدر حتى الآن خمسة مناشير معادية ».

وهتف برعي بدران: « حزب العمل صنيعة عهد الباشوات. الجنرال معه حقّ يوم قال للصحفيين إن الفساد والفقر والجهل والجوع والمرض هي السبب في وجود هذا الحزب ».

وعاد بدر الهلالي فعارض إذ اغتبط بصواب المنطق أكثر مما اغتبط بصواب الاعتقالات: « إذن، لنترك أعضاء حزب العمل أحراراً ما دمنا سنلغي الفساد والفقر والجهل، ولْنَرَ مَنْ سيبقى في الميدان؟ تعالوا نطبق الاشتراكية، ونر إن كان حزب العمل سيستمرّ على قيد الحياة ».

قال نذير: « برأيي الاعتقالات غلط. وهي ستعطيهم شعبيّة على حساب الجنرال ».

كانت عينا طاهر تتصفّحاننا باندهاش صبور: «أنتم غريبون، اعتقالهم غلط لأنه غلط. لأنه لا يجوز أن يعتقل أحد. نحن خرجنا في مئة مظاهرة لإثبات حق الاختلاف في الرأي. نحن ضدّ الباشوات والفساد، لا ضدّ الديمقراطية».

صمتنا. لم نختلف مع طاهر في آرائه. لكن شبحاً ذا حضور طاغٍ وجسد هلاميّ انسلّ بيننا، ثم بين ذواتنا وأعيننا، مثل ضوء قويّ يتوغّل في ماء رقراق بلون رماديّ حيناً وفضيّ حيناً آخر فتراه العين ولا تراه. ذلك الخيال كان كلمة تعلّمنا من الهواء أن نكرهها ونجفل منها، اعتدنا بما يشبه الفطرة ان نتحسّس نبراتها على بشراتنا كنوع من الجرب أو الطفوح الجلدية. لقد لامست تلك الكلمة وجوهنا دون أن ينطقها أحدٌ، فيما نحن جالسون حول الطاولة الصيفيّة، وكنّا ظننّا أننا رميناها وراء الجدار يومَ صَمَتْنا باتفاق غير معلن ومشين عن غياب سعدون.

لكن مخيبر تجرأ ولفظها: «أنت تؤيد الشيوعيّين يا طاهر؟»

وصاح إسماعيل: «وسعدون يا جماعة. نسيناه؟»

«أنا ضابط ولا علاقة لي بالسياسة»، قال طاهر. «لكن إذا كانت الشيوعية مثلما يعيش الغجر النيلوتيون فأنا أؤيدها».

«أعتقد أن سكوتنا عن اعتقال سعدون خيانة»، قال محجوب مقداد.

«كلام فارغ»، قال عبد العليم، «لا يمكن أن ينجح نظام اجتماعي بلا ملكيّة فرديّة. اشتراكيتنا ستحافظ على الملكية الفرديّة.. غير المستغلّة».

صاح بدر الهلالي به: «أنا لا أعرف ما هي هذه الاشتراكيّة التي تؤمن بها، إذن. اشتراكية وملكية فردية! والله عقلك اليوم ملخبط يا عبد العليم».

قال نذير: «برأيي الأحزاب الجديدة يجب أن تتعاون مع الجنرال لتحقيق الاشتراكية. هكذا يتّحد الجيش والشعب في العمل الوطني».

«المهم تحقيق العدالة، ليس المهمّ وضع شعارات»، قال مخيبر. «لكن أنا لا أطيق الشيوعيين».

صاح إسماعيل وكان يعرف ماذا يقول: «الملكية الفردية عدوة الإنسانية. لو تعرفون فقط سعادة البرء من آفة الملكية الفردية».

قال طاهر: «ما علاقة نطيق أو لا نطيق، بحقّهم في العمل السياسي؟ المهم الحرّية. التقدّم».

تعالت الأصوات وتقاطعت. تقاطعت الأنخاب. قال نذير: «والله كلام سليم. إذا اختلفت آراؤنا واتجاهاتنا السياسية، فهذا لا يهمّ. المهمّ نحن مؤمنون بالتقدّم. الشعب كله مؤمن بالتقدّم».

« نحن مع الديمقراطية والحرّية. وبغيرهما لن تقوم للنهر الكبير قائمة». قال ابراهيم عثمان.

« المهمّ تطبيق الاشتراكية وتحرير المخاة. هذا أهم شيء. مجد الجنرال سينطلق من تطبيق الاشتراكية وتحرير المخاة»، قال نذير النميري.

هتف مفيد بحرارة ولكن بلا نبرة: «يسعد دينك! يسعد دينك!» والتفت إلى مخيبر وعبد العليم: «الانقلاب وتصحيح الأمور، أستاذ، لا يتحقّقان إلا إذا أصدر الجنرال مرسوماً بتسريح شريف العبد الله؟ يعني شريف، والآنسة حياة، وحتى سعدون، سيدي، خطر على العهد الجديد؟»

تحمّس نذير: «أنا وطاهر سنطلب مقابلة الجنرال. أنا مستعدّ أن أقطع إجازتي وأطلب المقابلة. وسأتكلم أمامه بلا خوف. حتى لو عاقبني بالسجن أنا الآخر. ما رأيك، طاهر؟»

وقد التقاهما الجنرال فعلاً، ربما كرمى لطاهر، أو تنسّماً لأخبار فيضة المنقطعة. «الآنسة حياة - تكرموا! أنتم شباب نشيطون، وأنا أحب أن أكرمكم». ثم اتجه إلى سمّاعة الهاتف ورفعها أمام وجهه: «الآنسة حياة الملاح، في التلّة الرابعة. اتركوها. نعم، فوراً. اسمع! أوصلوها إلى بيتها. اسمع! خذوها بسيارة مدنيّة. فوراً. اسمع! وهذا سعدون.. الثرثار، طالب الجامعة.. أوصلوه معها إلى بيته».

كانت أوصال نذير وطاهر قد صارت أطرى من الخبز المغشوش، وهما يجاهدان للإحتفاظ بوقفتها عند باب الخروج. «بشرط»، رعد صوت الجنرال، أو هكذا سمعا تلك النبرات المقتضبة الحازمة، ثم شاهداها وهي تهبط من فمه على وجهيهما وآذانهما فتنقل إلى إدراكهما شيئاً ما مثل رغبة الجنرال - الشرط! - أن يكون الشاهد الأول لقران مصعب الشاعر المجدّد وحياة الفتاة الباسلة، و «ماذا عن زواجك أنت يا نذير؟».

حكى نذير القصّة كلها، موجزة أولاً ثم مسترسلة بطلب من الجنرال. وفجأة هدر الصوت: «تعال عندي».

التفت نذير إلى طاهر مستنجداً ناشف الحلق. ثم حرّك رجليه إلى الأمام شاكراً ربّه الكريم أن ثمة مشية عسكريّة تسمح بالبطء والثقل، وبخبطة بين برهة وأخرى، وكلّه يمنح سربالاً للاضطراب الذي عفر قلبه تماماً، قبل أن يصل إلى بعد ثلاث خطوات من الجنرال ويجمد بخبطة أخيرة هناك.

اقترب الجنرال من نذير متحرّر اليدين من صولجانه وقفازه. أمسك بالذراعين المتصلّبين وعانق صاحبها، فأمعن التصلّب إيغالاً في بدن الملازم الأول. هكذا يكون

الرجال، قال سيادته، هكذا نقهر أولئك الفاسدين البناديق.

«أتاذن لي يا سيدي أن أوصل الآنسة حياة إلى بيتها بنفسي؟».

وقد أذن الجنرال. أما بالنسبة إلى الشريف العبدالله، فلا، هذا أولاً، رغم فقره وتعتيره، ابن عائلة العبد الله النخرة، عميلة الاستعمار البريطاني. وهو ثانياً جاسوس، عميل مباحث قذر، كان يعمل في وعليتا لمصلحة الباشا، والوحيد الذي لم ينتقل من مقرّ وظيفته كما يقتضي القانون بل بقي هناك لأنه كلب ابن كلب وكاتب تقارير عن جميع الذين كانوا يقصدون وعليتا للترويح عن أنفسهم.

ثم جاءت تلك اللحظة التي لم يفكّر فيها نذير إطلاقاً والتي خشي طاهر أن تجيء، اللحظة التي تحرّك فيها الجنرال مطرق الرأس وقبضته على فمه (دون أن يأذن لها بالانصراف) ومشى خطوات لا معنى لها قبل أن ينظر إلى وجه طاهر نظرة غامضة قلقة، عازماً أن يسأل سؤالاً ومستكبراً أن تبدو عليه الحاجة أمام اثنين صغيرين من مرؤوسيه. وظلّت نظرته ترتطم وتبتعد ثم ترتطم من جديد بوجه طاهر الخامد المستجير، حتى بعد أن تناول الصولجان بيد وراح يضربه على راحة الأخرى، وبعد أن تأبّط الصولجان أخيراً وتناول القفاز الأبيض بدلاً منه وراح يضربه كذلك على الراحة الأخرى.

أخيراً تنحنح طاهر، حمحم كما لو أن شيئاً وقف في حلقه: «لم يأت أحد بعد، يا سيدي».

البيت الجديد الشبيه ببيوت الأثرياء الإنكليز يوشك أن يكتمل، قال الجنرال. كلّ شيء فيه سيكون جميلاً وحديثاً. وفي قلب بعليتا الجديدة، حيث نهضت مدنيّة وعمران لا مكان فيها للدراويش والزواحف، ستسكن هي، وتكون أميرة عهد جديد، الملاك الحارس لكل تقدّم ينجزه جيل ناهض، والضباط بشكل خاصّ الذين تقع عليهم مسؤولية اقتلاع الجذور العفنة وتنظيف الأرض من أشواكها المعادية للديمقراطية.

«لم يأت أحد بعد يا سيدي».

لم يكن الجنرال من النوع الذي تثنيه الصعوبات أو العراقيل أو الجنون: ما رأي طاهر إذن أن يمضي بسيارة خاصة إلى عمريت، عبر أرض المخاة التي ضُمّت إلى وعليتا؟

- ٣ -

في الفترة الأولى للانقلاب كشفت فطرة الجنرال عن باع طويل في الطبابة الذاتية. ذلك الليل بعد أن تلقى نبأ فيضة ونصيحة عزّت باشا، جلس في شرفة منزله بصحبة المذياع وأصغى لمرسوم حلّ الجميعة الوطنية في أخبار الواحدة والنصف. واسترسل قليلاً فأصغى لبرقيات التهنئة والتأييد. وفي غفلة عن المكان والليل جمح خياله فوق بعليتا حاملاً مكنسة المرأة العائدة من الموت.

عند استيقاظه في السادسة والنصف صباحاً، كان صوت المذياع ونضيد الصحف والصور الجامحة التي صارتها كلمات طاهر تتقاطع في خاطره كانسة رعدة الخوف من الانقلاب. إذا تجرأت أفعى ورفعت رأسها فسيفلعه برأس المكنسة، بعقب حذائه، بأخمص البندقية، بطلقة مسدّس.

دخلت أمه حاملة فنجان القهوة الصباحيّ. أنتِ أمّ الدولة الآن أيتها الخائفة. لا تقفلي حاجبيك، فالبلاد كلها تهابه. إذا لم تعد فيضة فسيرسل لها محملاً يعود بها. سيوثق تشرّدها بين أقواس البرق وأعمدة المطر. سيضع حداً لتيهها البدائي وراء القمر.

رفع سمّاعة الهاتف: «أين الأستاذ السنجاري؟ قولوا له أن يكتب مرسوماً....»

شكراً لأمّ الدولة هذا الصمت والانسحاب. وضعت فنجان القهوة وعادت من حيث أتت. تلك الغمامة. ذلك الوثوب الجنوني. الرغبة المداهمة في البكاء. وأيضاً الانتشار فوق أسافين الخوف. الانتشار الذي قاد انقلاباً وبكى فرحاً وتلظّى شهوة وتاه ظفراً. ماذا سيفعل الجنرال الآن؟

[مرسوم رقم ٨: إن القائد العام.. بناء على.. وعلى.. يرسم ما يلي.. تلغى ألقاب الباشا والبيك والأفندي وتحظر من التداول الرسميّ والشعبيّ، اللفظيّ والكتابيّ.. يصدر خلال أسبوع من تاريخه قانون جرمي خاصّ لمعاقبة من يخرق المادة الأولى.. يكتفى بلقب سيّد للتداول في جميع المناسبات والحالات.. ينشر هذا المرسوم...]

ها قد سقطت الملابس الباشوية عن الأجساد المترهّلة. هذه البلاد بحاجة إلى أجسام

مخيلة قوية، مثلما هي الأجسام في سويسرة. وعندها تنطلق عقولها لتصير مثل عقول سويسرة.

في اليوم التالي خرجت صحيفتا (النصر) و (النداء) بهجوم مباشر على المرسوم رقم ٨. كان الجنرال يحتسي قهوته الصباحية، يسمع من المذياع ويقرأ في الجرائد ما أملته إرادته في اليوم الفائت. ولكن ها هي ذي صحيفتان تندّدان بمرسوم إلغاء الألقاب. إن الذي منحه الله لا يجوز أن يلغيه البشر، قالت إحداهما، فاللقب جزء من ميراث والميراث مقدّس في جميع الشرائع. وقالت الأخرى إن الثروة ليست بالضرورة المال والأرض والعقار، إنها أيضاً اللقب والمكانة والاحترام. وأضافت أن من حق الآباء الذين أساء - أساء! - إليهم المرسوم ٨ أن يتمتّعوا باحترام أبنائهم لهم.

طظ! هتف الجنرال، أسرع بارتداء ملابسه. لسوف يريهم مزيداً من الاحترام بعد مجيء فيضة. رفع السّماعة: «فالح أبو النصر وشتيوي صيداوي، ضعوهما في السجن. اتصلوا بالأستاذ السنجاري. وقت يجيء. أنا بانتظاره».

كان بوسعه أن يخفّف من صرامة المرسوم التاسع المتعلّق بالصحافة: للقيادة العامة للجيش والقوى المسلحة أن تلغي امتياز كل جريدة أو مجلّة ترى في استمرار صدورها ما يؤدّي إلى الإخلال بالمصلحة العامة أو بأمن البلاد أو بالعلاقات الخارجية.

لم يبن مرعي السنجاري ذلك اليوم. وحلّ المساء دون أن يأتي عنه خبر. استشاط الجنرال غضباً، ليس فقط لأن هذا الفتى الأرعن ينتهك حسّاً شافياً بالجدارة ترقرق في خاطر الجنرال، بل لأن هذا الخاطر نفسه ما كان ليطيق الغموض. لقد هدّده الغموض دائماً باحتمال حضور الغمامة إلى دماغه، وأيضاً بالختل والغدر وقطع الطريق. إن أشقّ أيام الجنرال قاطبة كانت تلك التي سبقت بداية العهد الجديد - اسبوعان تقريباً من التكتّم والمداهنة كادا يقضيان عليه، أو على عقله في الحدّ الأدنى.

ثم دخل عزّت (باشا سابقاً) وكامل (بك سابقاً). قالا إن هناك أملاً باستقالة الباشا الرئيس، وهذا الأمل يتوقّف على طلبين، أولها زيارة الجنرال للباشا في معتقله...

وعندها لم يعد الجنرال يسمع. رأى شفاهاً تتحرك وعيوناً تبتسم. وظل خياله جامداً في صورة جامدة: هو والباشا الرئيس وجهاً لوجه. هو وهذا الجمل وجهاً لوجه، وهذا الغول المفترس، وهذه الأسنان الناتئة المدبّبة، وهذا الأنف المحدودب كالسوط اللاهب، وهاتان العينان الغائرتان كقبرين متجاورين منتظرين... وجهاً لوجه!

«قولوا للباشا الرئيس، الجنرال يسلّم عليك ويقول لك، أنت لم تعد باشا ولا رئيساً».

« حاضر سيدي ».

« وقولوا له إنه إذا اختار السجن فليبق فيه. وإذا شاء الخروج، من بعليتا كلها، فليقدّم استقالته ».

« أمرك سيدي. والطلب الثاني؟ »

« أيّ طلب؟ »

« أن تذاع استقالته من الإذاعة، سيمليها على المذيع، وتذاع من الإذاعة، وبعدها يكتبها بخطّ يده ويوقع ».

« سنلبيّ له هذا الطلب ».

على عكس ما توقّع الجنرال، لم يصحب استقالة الرئيس أيّ دويّ، رغم أنها ابتدأت بمخاطبة الشعب. كأنه استقال فعلاً منذ يوم الانقلاب وجاءت الإذاعة فأعطت فقط شكلاً لذلك الفعل وتكريساً. حقاً لم يحدث في تاريخ العالم أن أجبر الشعب رئيسه على الاستقالة مرّتين. حقاً إن هذا الجمل بلا حياء. حتى الكلمات التي أذاعها كانت مضحكة، بتّعت كلمات استقالته الأولى. « حافظت على النظام الديمقراطي، وعلى قدسيّة الاختلاف في الرأي ». ومن لا يحافظ على مدجنته التي تضمّ داخل روائحها النتنة البيض والفراريج؟ « وهأنا أترك السدّة الأولى والخيرات تعمّ البلاد والناس تتمتّع بكل شيء: الخبز، الماء، السكّر، البنّ، الشاي، والرزّ، السمن، الزبدة، البطاطا، الحليب، الجبن، اللحوم، الدجاج، الملح، الكهرباء، الباصات »، واستمرّ يعدّد حتى ضجّ الناس بالضحك ولا شكّ، وأمسكوا خواصرهم. كأن الباشا الرئيس لم يكن رئيساً بل كان بقالاً وخضرياً، أو مدير إعاشة على أحسن حال. كأن خصوبة بعليتا وكل بلدان النهر الكبير، وخيراتها من نتاج براز الباشا الرئيس.

وهكذا انفتح توتّر جواني وغادر جسم الجنرال. مع الاستقالة وجد نفسه قاطعاً نصف الطريق إلى الشرعية، بعد أن كان حتى هذا الضحى أقرب إلى مجرّد قاطع طريق. إن بوسعه أن يفعل الكثير الآن.

ولكن أين السنجاري؟

قال السنجاري إنه لا يريد أن يقترن اسمه بممارسات خرق حقوق الإنسان والديمقراطية.

« يا لقاموسك العجيب! » هتف الجنرال. « الديمقراطية وحقوق الإنسان! هكذا دفعة واحدة؟ ماذا حدث؟ »

« صحفيّان اعترضا على المرسوم ٨، تزجّ بهما في السجن! ».

«آ»، صاح الجنرال بصفاء ونبرة مطمئنة. «فهمت عليك. خذ». ورمى إلى السنجاري بسلسلة مفاتيح. «خذ سيارتي إلى السجن، وهاتها لنتعشى معاً».

«لا أفهمك يا جنرال. إذا كنت مستعداً لإطلاق سراحها بهذه البساطة، فلماذا اعتقلتها؟»

«هيا الآن إليها. وسنصدر معاً بياناً قصيراً إلى الشعب. صار بوسع الجنرال أن يفعل الكثير الآن».

[بيان إلى الشعب الكريم

إن القائد العام للجيش والقوى المسلحة، رئيس السلطتين التشريعية والتنفيذية، يشكر الشعب الأبيّ الوفي على تأييده ومساندته، ويَعِدُه بإقامة نظام تقدميّ جديد يستمدّ أصوله من رغبات هذا الشعب وآماله. إننا سننشىء لجاناً للتحقيق في مساوىء العهد البائد، وسنعمل على إقرار العدالة الاجتماعية في إعادة النظر بملكيات الأرض الكبيرة. وسنضع نظاماً لتحديد الثروات الضخمة. وسنعمل على رفع مستوى العمال والموظّفين، والقضاء على البطالة. وستضع لجنة من رجال التشريع قانوناً جديداً للانتخاب تعطى المرأة بموجبه حقّ التصويت. وستسفر الإنتخابات عن جميعة جديدة لا محلّ فيها لكسول أو مرتزق. وسيعود مغاورو الليل إلى الجهاد قريباً جداً. وسنعمل على تحقيق الوحدة النيلوتية على شاطىء النهر الكبير. وسنقضي بذلك على الشيوعيّة الهدامة. وسنتمسك بصداقة الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة. وسنلتزم بميثاق الأمم المتحدة وحقوق الإنسان والديمقراطية].

وهكذا اكتملت الأسباب التي جعلت المستر بيتر دورل يطلب مقابلة الجنرال بوصفه سفيراً للولايات المتحدة الأمريكية. إن أول جمهورية في العصر الحديث، قال لفخامة الجنرال، يسعدها الوعد الذي قطعه الجنرال لشعبه باستعادة الديمقراطية النظيفة. وهي ترى في استقالة الرئيس السابق خطوة إلى الأمام لتحقيق هذا الهدف ولاستعادة الوحدة الوطنيّة كما أن التزام فخامة الجنرال بميثاق الأمم المتحدة وحقوق الإنسان، وبصداقة الولايات المتحدة، يشجع الولايات المتحدة على تقديم اعترافها الكامل بالنظام الجديد في جمهورية بعليتا اعتباراً من ذلك اليوم.

كان الجنرال يصغي ووجهه عابس قمطرير، وعندما خيّل إليه أن الدبلوماسي الأمريكي أنهى ما بدا له ديباجة ركيكة، التفت إلى المترجم برصانة رئاسيّة ونبر: «قلْ لأخي الموطوءة هذا، إن الجنرال يريد أن يعرف إذا كانت الولايات المتحدة هي التي قامت بالانقلاب في بعليتا. وإذا كان الجواب بالنفي فالجنرال يريد أن يعرف لماذا يتكلم

سعادة السفير وكأنه وصيّ علينا. إننا نقبل اعتراف بلاده بنا ونرحّب به، لكننا لا نقبل أي شيء أكثر».

«سوء التفاهم» هذا، كما وصفت المقابلة فيما بعد، جعل الكولونيل ستيف ميدو يلحّ طوال شهر كامل على مقابلة الجنرال في منزله. وقد روّض الكولونيل نفسه طويلاً كي يضبط حرارة أسلافه الإرلنديين التي أحماها ما رآه تغيّراً غير مفهوم في الجنرال، ويعاتبه بمودّة حافظت مع ذلك على الدفء اللازم لها: «ماذا جرى يا بابكر؟ بحسب ما أعلم، نحن أصدقاء طيّبون».

ظلّ الجنرال يصغي ست دقائق متواصلة، وصمته العابس القمطرير يضطر الكولونيل إلى متابعة حديث كان يجب أن يتوقّف عند الجملة الأولى. لقد تكلّم الكولونيل وتكلّم. وكلما ازدادت مفرداته ازداد ارتباكه وحيرته. إنه تغيّر مفاجيء بالتأكيد، لكنه حقيقيّ. وهذا الضابط البدين الذي كان بالأمس فماً مبتسماً وحسب ورأساً أجوف، بات في هذه اللحظة يلقي الاضطراب في جنان ضابط تمرّس بالآفات، ويشوّش إدراكاته، بل ويهيمن عليه بحضور لاجم بهيم.

وقد صحّ توقّع الكولونيل، وإن يكن بصورة صاعقة. خاطبه الجنرال بعد ستّ دقائق من الصمت الكهرطيسي ـ وكان الاثنان يتكلّمان اللهجة المحليّة ـ بجملة مقتضبة خفيضة: «يجب أن تغادر البلاد يا كولونيل ميدو خلال ثلاثة أيام، وإلا طردتك منها شرّ طردة».

ويومها أيقن الجنرال أن بوسعه حقاً أن يفعل الكثير. وأيقن الذين سمعوا تفاصيل المقابلتين أن ما قيل عن «صداقة» الجنرال والملحق العسكري الأمريكي إشاعة مغرضة تستهدف تلطيخ سمعته غير القابلة للتلطيخ.

ولقد تتالت في ذلك العام مراسيم من كلّ جنس ونوع، جسّدت بالقوانين الوعود التي قطعتها بيانات الجنرال: التسريحات، الترفيعات، لجان التحقيق، مشاريع قوانين أساسية... وماذا أيضاً؟

الأوكار التي يعشّش فيها العفن والغدر والتأخر: وزارة الإعاشة (ألغاها وصفّاها المرسوم ذو الرقم ٦٣)؛ الأوقاف الذرّيّة (إقطاعات قديمة خصّصها الباشوات اسمياً للبرّ والإحسان ليتقوا انتزاع السلطان لها، وألغاها وصفّاها ومنع إقامة الجديد منها المرسوم ذو الرقم ٧٦)؛ الأوقاف الدينية (دولة داخل الدولة، ألغاها وصفّاها المرسوم ذو الرقم ٩٣، فوضع الزوايا والتكايا وأماكن كثيرة أخرى تحت سلطة الدولة وإشرافها).

كان الجنرال يعتبر هذه المراسيم إلهامات خاصة به هو. وقد جعله وعيه الذاتي ومقدرته على الطبابة الذاتية يوقن بصورة قاطعة لا لبس فيها أن هذه الإلهامات منّة رحمانية تجود بها السماء على أشواق قلبه. إنها بدائل صحيّة خارقة لتلك الغمامة السوداء التي دخلت طور نزعها الأخير منذ أطاح بالباشوات الأوغاد، وجعلت ذهنه متشبّعاً على نحو مدهش بالرؤية لمكامن مصلحة الشعب.

وماذا سيفعل الجنرال الآن؟

بعد عشاء حافل مع ضبّاط أركانه ووزرائه المقرّبين، قاد الجنرال سيّارته آخر الليل وهو في غمار صاف جليل من الحلم ورعشة خلويّة من التوق. إن هذه السعادة جديرة بحضور فيضة. إن هذه السلسلة العظيمة من الانجازات ستلتحم بوجودها وتصير عقد لؤلؤ على صدرها البهيّ.

كانت أم الدولة نائمة على غير العادة؛ لعلّها خشيت غضبه الليلي. ابتسم بحبور ودعة. إنها ليلة انقشاع الغمامة السوداء إلى الأبد. ليلة الهدوء والسلام المدنيّ.

قصد المطبخ ليعدّ فنجان قهوته الليليّ الأثير. وكان كل شيء هادئاً صافياً، سوى حكّة خفيفة في عينيه. لقد بدأت لحظة أغلق الباب دون العالم الخارجيّ. وها هي ذي بين برهة وأخرى تعترض مشاعره المغتلمة، تعترضها ككائن عضويّ حيّ يذكّر بنفسه. كان عشاءً مسرفاً حقاً.

هيّأ موادّ القهوة في المغلاة ووضعها على النار. فيضة لم تجيء. عام كامل وفيضة لم تجيء. جاءت ولكن بطريقتها الخاصة. أرسلت فكرة. تلك المكنسة ـ التي كنست فيما كنست الغمامة السوداء.

أغمض عينيه وقد داهمتها الحكّة بنثار كبريتيّ حارق. خبط المغلاة على النار. وخبط قبضته على الطاولة المدوّرة. وخبط جسده على الكرسيّ الخيزران. راحتاه المتشنّجتان في الهواء، احتضنتا جبينه وعينيه وخدّيه، وبدورهما ابتلّتا بالدموع. ولأن أنفه وفمه بقيا طليقين، فقد تمكّن من أن يجهش بكل قوته وعنفه.

[مراسيم ٢١٠، ٢١٢، ٢٢٧، بتسريح ٣٢٧ من موظفي الدولة لارتباطهم بفساد العهد السابق].

قال الدكتور وزير العدل، وأيّده في ذلك مرعي السنجاري، إن خلود نابليون يعود بالدرجة الأولى لا إلى انتصاراته، التي أطاحت بها هزيمة واحدة في واترلو، وإنما إلى التشريعات العظيمة التي أصدرها.

« ولكني لا أفهم في التشريع أيها السادة »، قال الجنرال بابكر عبود.

« وماذا؟ نابليون لم يكن يفهم في التشريع »، قال الدكتور الوزير.

التفّ الجنرال حول منضدة الاجتماع وحول نفسه. وإذن فلا ضير من تأجيل حرب مغاوري الليل فترة أخرى. ما يزال للمكنسة شغل كثير.

كان بوسعه أن يفهم الأثر الهائل للقانون على العقول والعلاقات. إن اثنتين وثلاثين سنة من الحياة العسكرية كافية وتزيد لأن يعرف عظمة الدوزان الدقيق الذي ينطبع في العقل والعلاقات بفضل القانون. وقد أكّدت له تجارب الحياة كلّها أن الفرق بين المدنيّة والهمجيّة تلخّصه كلمة واحدة: القانون. أجل. وهو يقول إنه لن تقوم لهذه البلاد قائمة ولن تعرف التقدّم يوماً، ما دامت محكومة بقوانين غير مكتوبة، قابلة لألف تفسير وتفسير وألف ليّ وليّ، هي العادات والأعراف وعقليّة الباشوات والدراويش. لكن جهله بالتشريع جعله يتأخّر في معالجة هذا الشأن.

« والآن هيّا بنا أيّها السادة نعتمد القانون المدنيّ الفرنسيّ، كما يقول الدكتور ».

هتف الشريف عادل نائب رئيس الوزراء: « هكذا دفعة واحدة! يلزمنا بعض الوقت لدراسته وتنقيحه وتعديله. يجب أن يلائم حاجات البلد ».

« وهل عقولنا أرقى من العقول الفرنسية، لنناقش عصارة تفكيرها وننقحها؟ » سأل الجنرال ساخراً.

« ليست المسألة في الرقيّ. المسألة في الاختلاف. نحن مجتمع مختلف. ونحتاج إلى قانون مختلف ».

« غلط! » صاح الجنرال. « نطبّق قانونهم لنصير مثلهم. هذا هو المهمّ. هؤلاء أبناء عمّ السويسريين. المهمّ رقيّ. اختلافنا عنهم يعني أننا في حالة سيّئة. ونحن يجب أن نصير منهم ».

« نصير أحسن منهم بطريقتنا نحن، لا بتقليدهم تقليداً أعمى ».

« اسمع يا شريف عادل. أنت تماطل على طريقة الباشوات. وأنا لا أقبل بهذه الأساليب. أريد التصديق فوراً ».

نبر الشريف عادل بحدّة: « وأنا لا أستطيع الموافقة على قانون لم أقلّب صفحاته ولم أدرس موادّه! ».

وكان أن تأجّل المرسوم الخاصّ بالقانون المدنيّ شهراً، وصار رقمه ٢٧٧. غير أن هذه المدّة لم تذهب هدراً. لقد صدر خلالها قانون التجارة بالمرسوم ذي الرقم ٢٥٤،

وقانون العقوبات بالرقم ٢٦٩.

مرّة أخرى صار الجنرال قرير النفس. بقدراته الخاصّة على الطبابة الذاتيّة، استطاع دونما التفاف على الواقع أو تأثر بكلام الأعداء أن ينتبه إلى عرق ثاوٍ في أعماق روحه، نحيل أساساً وهزيل. هذا العرق أخذ يتمطّى وينتفخ منذ الانقلاب، ويضخّ في الأعصاب الأخرى ما كمن فيه من طبائع الاستبداد. لقد فوجىء الجنرال تماماً بهذا التهيّؤ العجيب لديه لأن يكون طاغية. وخشي أن يكون صحيحاً كلام أمّه الذي اندفع باستمرار كلما تحوّلت هي نفسها إلى طاغية: «أنت ديك معنفص. لكن إذا رأيت نفسك رجلاً صرت ذئباً».

سوى أنه أثبت للرجال المحيطين به، المرّة تلو المرّة، أنه ليس ذلك الذئب. في اليوم الأخير لمناقشة القانون المدنيّ، وكان ما يزال لدى الشريف عادل وبعض الوزراء ما يتريّثون بسببه في إصدار القانون، اكتفى بأن نهض عن كرسيّه بعصبيّة طبيعيّة، واتصل هاتفياً بكفرطيبا: «يا مقدّم مأمون. عندكم وزير سابق أزعر يطيل لسانه.. نعم.. سعد الله شمداوي، بدون بك.. نعم. هاتوه بسيارة عسكريّة، غداً أثناء الدوام».

وأدرك الشريف عادل عندها أن النقاش قد أخذ حقّه، فأجيز المرسوم.

الدكتور سعد الله شمداوي: كان وزيراً للمالية في آخر وزارة باشويّة، وعضواً بارزاً في حزب الأمة. مفتوح الساقين، مثُل بين يدي الجنرال واضعاً رسغاً على رسغ، ومتمرساً بما استطاع من الصلابة والعبوس والإباء كي لا يترنّح تحت صفعة الجنرال المرتقبة.

إلا أن الجنرال خيّب توقعاته: «أنت سعد الله شمداوي؟» سأله باعتيادية وافرة.

«نعم».

«قال لي الشباب إنك تشتمني في جلساتك الخاصّة وتقول إني موسوليني».

«....»

وعندها انثال من فم الجنرال وبهدوء رشيق أقذع سباب سمع به معاشروه أو سمع به إنسان، سباب لن يسمح لنا الرقيب الأدبيّ بتسجيل معشاره.

«جئتم بي فخامتكم مسافة ٦٥٠ كم لتشتموني هذه الشتائم؟».

«نعم»، قال الجنرال بابتسامة ظافرة. «ولتعرف أني ديمقراطي ولست موسوليني. هيّا إلى بيتك».

وهكذا تتابعت أيام الجنرال في سنته الثانية. شيء واحد فقط لم يتحقّق له: عاد طاهر من المخاة وعمريت بعد ثلاثة أشهر ليقول إنه لا أثر لفيضة هناك. وسوى هذا فقد

تحوّلت تلك الغمامة القديمة السوداء إلى مطر، وهطلت بالرضى والحبور على نفسه المنتشرة. خلال عام ونيف لم يبق في بعليتا درب أو أفق حياة إلا وألصقت عليه مراسيم الجنرال الإصلاحية وتشريعاته. لم يعرف عنه أنه تردّد يوماً في صنع القرار وقطع برامج الإذاعة لبثّ المرسوم الخاص به. (وها هوذا يصدر المرسوم التشريعي ٢٠٥ لإصلاح الجامعة ومناهجها؛ والمرسوم ٣٤٥ لمنع مجلة نيوزويك الأمريكية من دخول بعليتا لدعايتها المضادة للبلاد والمؤيّدة للنظام العنصريّ في المخاة؛ والقرار ٣٩٩ لإباحة تصدير زيت الزيتون إلى شوباد ونيلوتيا الشمالية).

وقد دأب على رياضة عاطفيّة شحنته بالثقة والاندفاع: ركوبه سيّارة عاديّة وتجواله في شوارع بعليتا، كلما استطاع الانسلال من معمعة جمعيّته الوطنيّة المصغرة (ضباط، متخصّصون حياديون، سياسيون تقدّميون). ثم جعلها رياضة أسبوعيه منذ صدور المرسوم ٢٨٦، القاضي بمنع وإلغاء الطرابيش والقلنسوات والشراويل والجلاليب والأخفاف، واستبدال القبعة والسترة والقميص والبنطلون والحذاء بها. ويومها وجد في الشوارع كشكولاً من الأزياء يذكّر بالسوريالية، رغم أن هذه المدرسة العاقلة الجنون لم تكن قد وصلت بعد إلى شواطىء نهرنا. لم يغضب. الإنسان لا يمكن أن يغضب بين يوم وليلة. هو نفسه لم يتغيّر إلا بعد أسابيع طويلة من استقالة محمد علي العبدالله. فكيف بشعب كان الدراويش حتى الأمس القريب معشّشين في حياته ووجدانه؟

لقد عصف بهذا المجتمع أخيراً. هزّه خارج غمامة رقاده السوداء. وهؤلاء البنات الزاهرات على الأرصفة مثل سائحات سويسريّات! كان محتاراً ومضطرباً كيف يصدر مرسوماً بإلغاء أرديتهنّ السوداء دون أن يثير ثائرة آبائهن. إنهنّ أكثر تقدّماً من الرجال. لقد أعفينه من الإرباك كلّه. خرجن إلى فضاء المدينة وسيقانهنّ لامعات كلجين القمر. ووجوههنّ نضيرة كالنرجس. وشعرهنّ فيّاض كالحلم. ووجودهنّ بشارة وفرح.

وحدها فيضة لم تفض. وحدها مَنْ عصف به.

لقد انبثق حبّها فيه كأنه طبيعة أولى، كأنه كان هناك منذ عهد قديم ثاوياً تحت تلال وركامات. ثم استوطن حشاشته أعمق مما استوطنتها عناصر تكوينه الراسبة. أحبّها لهفة إليها، إلى صفاء رأسه واستواء أعصابه. أحبّها كضرورة لم يعرف كنهها، لكنها تأكّدت له عاماً بعد عام. ونحن نعرف أنه رجل أدمن الطبابة الذاتية فكيف لا يحبّ امرأة منحته حتى وهي غائبة البرء والسلام؟

وحده مخيبر سرحان رأى حبّ الجنرال حادثاً أقلّ من عادي. «يا جماعة! نسيتم

إسماعيل وتفيدة؟ كيف يغار عليها ويتحرّق عليها؟ ويتعذّب؟ طيّب، قسماً بالله العظيم، إن تتزوجني فيضة، الآن، الآن لأكتب كتابها، وأجعلكم كلكم شهوداً عليه! لماذا نحن جبناء؟ لماذا نخاف؟ الأفكار التقدّمية وحدها لا تكفي. لازم معها تصرُّف تقدمي. ما الفرق بين امرأة نام معها رجل واحد ألف مرة، وامرأة نام معها ألف رجل مرة واحدة؟ فلنعترف بالحقيقة ولنكن شجعاناً: رجال هذه البلاد دون استثناء، بفطرتهم يحبّون العاهرات».

لكن الجنرال أدرك أخيراً استحالة العثور عليها. أرسل «الشباب» إلى كل مكان في المخاة وعمريت وبيت رع وباب إيل. لا فائدة. أغلب الظن أنه في ذلك الحين أبلغ نفسه بصمت أن الأوان قد آن لكي يتقدّم نحو رئاسة الجمهوريّة. لقد فعل لبعليتا كل شيء. أطلق القوى الكامنة الحيّة في النفوس كلّها. وما عليها الآن سوى أن تنطلق على دروب التقدّم.

أجل. وقد وصل التقدّم إلى الشوارع التي لا نعرفها في بلدان النهر الكبير. هناك حيث غدا الجنرال قدوة وكابوساً. حتى عاصمة السلطان ناعوس شهدت في تلك الجبال الغابيّة خروجاً متحدّياً للسيقان المتسامحة. لم تثبط المخافر ومقصّات الشعر فيها أيما فتاة عن متابعة هوى قلبها. لقد كانت في اليوم التالي تخرج إلى حفل أو زيارة وكأن شعرها القصير وسام لها.

الآن يمكن للمرء أن يرى المعاني العميقة لظواهر عابرة ومجرّد مسلّية، كالأزياء والتسريحات. فمثلما تلبس الأرض أردية الفصول التي تهلّ عليها تلبس الطبيعة البشريّة أردية الزمن الذي يهلّ عليها. وفي النهر الكبير كان الفرق هو تماماً ما بين الشتاء والربيع. باديء الأمر نبّهت مقصّات الشرطة في عمريت وغيرها (وكانت تنشط نشاطاً استثنائياً أثناء المظاهرات) إلى الامكانات الجمالية الزاخرة في الشعر القصير، وبعدئذ إلى النشوة النافرة في احتطاب رموز الخنوع والقعود والانجرار، التي طرّزت الشعر الطويل. حتى ذلك الحين لم يحدث أن ابتكرت الشرطة أيّة تسريحة لشعر النساء. لكن هذه التي صنعتها مقصّاتهم غدت طقساً جمالياً. لقد شابهت تقليم الأشجار أواخر الشتاء، وفوق هذا كله طفرت بالروح والرموز والحلم.

على امتداد شواطيء النهر أيضاً ظهر شعراء يكتبون قصائد مقصوصة، قصائد سارع دهاقنة الأدب إلى مطاردتها مثلما سارع رجال الشرطة إلى مطاردة البنات غير المحتشمات. ورغم أن كثيرين من مثل برعي بدران لم يتوانوا هناك عن التقاط أنفاس الحياة الجديدة

وطعمها، فمدّوا أنابيب بين الأواني القديمة والخمرة الجديدة، فإن أشباه مصعب السبئي لم يتوانوا عن صبّ الخمرة الجديدة في الأواني الجديدة. وكان شعرهم، قبل أن يظهر الجنرال، أوّل من قال إننا على أعتاب وحدة جديدة للحياة النيلوتية.

غير أن أحداً لم يحدث له أن تزوّج بطريقة مصعب السبئي. في ذلك اليوم انطلق إلى جانب نذير النميري بسرعة سيّارة عسكرية نحو التلّة الرابعة. كان ضباط المعتقل الحديث قد أوقفوا حياة وسعدون أمام ما صار الآن بوابة حديدية. التقى الأربعة باضطراب وعصبية، وبانكماش أمام أعين الحرس وجهامة المعتقل. في ثوان دخلوا السيارة، واستدار نذير بهم نحو المدينة. ركنت حياة إلى جانب مصعب في المقعد الخلفي، ساهمة وشعثاء الشعر، فأثارت في الشاعر انفعال انسان يلتقي بجنّية الشاطىء بعد توق طويل. «ما بك؟» سألها.

كان سعدون مسترسلاً في هجوم عقلانيّ منطقيّ على العسكر والاعتقالات وجيش المخبرين الذي أنشأه الجنرال في غمضة عين. ابتسمت حياة،والتفت وجهها نحو مصعب دون عينيها.

«ما بك؟» سألها ثانية. انفرد وجهها وانضمّت عيناها إلى ابتسامة حضور مستجيبة. عاد إليها نزق الصبيّة اللامبالية. أرادت أن تقول إن أهلها ينتظرون عودتها فقط ليتبرأوا منها، الآن وقد أضافت إلى عار الشيوعية شنار السجن. لكن لسانها اختار خوفاً آخر، وهتف لمصعب بمعابثة: «ما بي؟ كيف أجد من يتزوّجني، وأنا الآن خرّيجة سجون؟».

«أيا حمقاء!» قال مصعب متبختر الشعور. «ألم يخطر لك أني جئت آخذك من السجن إلى بيت الزوجيّة؟».

صمت سعدون والتفت إلى الخلف. وتوقّفت يد نذير على مدرّج السرعات.

«مصعب!» هتفت الفتاة بكرم إنذاريّ، «لأني أحبك سأعطيك دقيقتين لكي تتراجع. أنا شيوعيّة وعندي صحيفة سوابق».

«أنت زوجتي بالثلاثة»، صاح مصعب مشرئبّ الوجدان.

«وأين بيت الزوجية هذا؟ حذرك أن يكون غرفة فيضة!».

في اليوم التالي وثّقا زواجها معاً مع نذير وسمحة. غادر نذير وزوجته إلى مساكن الضباط في معسكر يوسف لعازر، وبدأ مصعب وحياة يبحثان عن بيت أقلّ افتضاحاً من غرفة فيضة.

ذلك ما أقضّ مضجع بدر الهلالي. شاهد بأمّ عينيه أن غيره قد فعل ما لم يفعله هو

حتى الآن. ولم يكن بالذي يرضى أن يسبقه أحد إلى إنجاز أو مكرمة. بالطبع كان بوسعه ان يخطب ويتزوّج في يوم واحد، فقط لو كان بوسعه أن يختار مرة وإلى الأبد واحدة من ست أو سبع صبايا تيّمنه وتيّمهنّ. لكنّه وقد هزّته أربعة زواجات لرفاقه أربع هزات، أحسّ بخواء حياتيّ لا مثيل له، بأن مسيرة عمره تتخذرف وتندثر عاجزة عن أن تبدع تكويناً جديداً.

في لحظة حسم جنرالية قرّر أخيراً أن يخطب الفتاة الأفقر مالاً وحظوة والأغنى حباً وجمالاً. كان وعيه الذاتيّ يسمح له بين حين وحين بالاطلاع على مزاجه العاطفيّ المتقلّب. وقد حسب أن امرأة بهذا الجمال لن تعجز عن مخاطبة مشاعره الأصفى والأحيى مهما انشرخت بينهما علاقات الحياة. إن للجمال أجنحة تطير بالمرء، بعيداً عن همجيّته قريباً من إنسانيّته. وبعدئذ، أهناك شيء يؤكّد الحياة ويندفع بشجاعة إليها، مثل الزواج؟

تلك الشجاعة فاتت إسماعيل سرحان أخيراً، وربما نهائياً. خلال العام الأول من حكم الجنرال باتت عذاباته لبلابة صفيقة تتفرّع بلا توقّف وتتسلّق جذوع أفراحه وآماله. فتوشك أن تمنع عنها الشمس والهواء. ويوم انتقل عمله إلى بعليتا المدينة وصل ذلك العذاب إلى برهة انفجاريّة مؤجّلة. فما مضى كانت المسافة البعيدة ذريعة كافية. ولكن ها هو الآن أمام تفيدة وجهاً لوجه، أمام ارتمائها تحت الطواحين. فماذا بوسع إسماعيل أن يفعل؟

إنه منجرف في نهر من المستحيلات: أن يلتقي تفيدة كلّ ليل ولو تراكمت عليه ديون الدنيا؛ أن يتزوّجها إذن؛ أن يكتفي بليلة الخميس الشحيحة؛ أن لا يرى تفيدة ألبتة؛ أن يتزوّج عن طريق أبيه. وقد عرف في الأشهر القليلة الأخيرة أن النفس التي لا تجد طريقاً خارج قلقها وعذابها تستنقع في بحيرة من السموم الآكلة.

ثم عرف ما هو أسوأ من ذلك: هذه البحيرة توشك أن تبتلع تفيدة نفسها. كلما قطع ذلك الطريق ليلة الخميس رأى روح امرأته تسبح على ذلك الموج الآكل المخاتل. وشاهد ساعات الفرح تصيـر أخطبوطاً مغاوياً.

أخيراً اختفت تفيدة. شريف العبدالله وحده هو الذي عرف مكانها. لكن لن يبوح به لإسماعيل. «أقول لك أنا سأتزوّجها! وهذا هو الخاتم!»

كان أحد مراسيم الجنرال قد سرّح شريفاً قبل شهور. وعلمت ساكنات وعليتا بالمرسوم فرفضن تنفيذه. هنّ لن يتحمّلن خسارة هذا الحارس الشريف. فليبق في عمله كل ليل، وهنّ سيقمن بدلاً عن حكومة الجنرال بدفع راتبه الشهري مضاعفاً. لكن

شريف العبد الله رفض: لسوف يأتي حارس جديد باسم الجنرال ولن يرضى به زميلاً غير شرعيّ في هذه المهمّة. كلا. لا أحد يستطيع أن يكون حكومة غير الحكومة. حتى ساكنات وعليتا.

في إحدى زياراته العاطفية إلى مثوى هنائه السابق، فوجيء شريف ذات مساء بيد تمسك بيده وتقوده إلى بناية جديدة فاقعة الحمرة. لم تلفظ كلمات. كان المطر يهمي مدراراً فيطرّز الضوء الكهربائي في الشارع الضيّق بحبيبات ذات لمعان خاصّ. وقد عرفها شريف فوراً، فهرول وراءها منتعشاً بالمطر وهذا العرفان النبيل.

في ذلك البناء القرميدي أمضى شريف ليالي الأعوام التسعة التالية من حياته. هناك اتخذت ثلاث عشرة أمرأة مقرّات لأعمالهن، وأجلسنه حارساً ليلياً داخل السور. وكانت تفيدة النفوذ الأكبر الذي جعله يقبل عملاً طالبه بأن يتصرّف كخصيّ. كان في الثالثة والعشرين، فحل القامة والرغبات، ومطالباً بأن يحمي ثلاثة عشر جسداً نسوياً من كل ذكورة عاديّة، بما فيها ذكورته هو.

ثم انضمّ إلى قافلة المتزوّجين منا. كان في نكبة الباشا الرئيس فائدة واحدة على الأقل: لقد اضطرت أصغر خادماته سناً وأحلاهن إلى القبول به زوجاً بعد يومين من مجيئها إلى المبنى القرميدي. وكانت في الفتاة مفاجأة واحدة محيّرة على الأقل: هذه الخادم، أمينة، أظهرت من أفانين العشق والوصال ما يستحيل معه أن تكون عذراء. لكنها كانت.

- ٤ -

في الذكرى الثانية للإنقلاب وصل الجنرال إلى الدرجة قبل العليا من سلّم مجده الشخصيّ والشعبيّ. كان كل شيء مفهوماً وواضحاً ومستمراً. ومن هناك بدأت الخطوة الأولى في مسيرة لم تستطع أن تكون واضحة ولا مفهومة، ولا مستمرّة أيضاً.

صحيح أن الجنرال رصّع حياة بعليتا بالمراسيم والقرارات. لكن الدراويش سخطوا على مهرجان الحجارة الكريمة ذاك. أين كان الدراويش؟

خلال الأشهر الأولى من حكمه اختفوا كما تختفي حيوانات السبات الشتوي. وبدا للجميع أنهم تركوا الأوقاف الدينيّة لأئمتها العاديين. لكن الجنرال ظلّ واعياً بالأوكار. بعد سلسلة من التشريعات والمراسيم (الأوقاف الذرية، الأوقاف الدينية، مساواة المرأة بالرجل، القوانين الجديدة) استطاع إخراجهم إلى الفضاء المنير. وكان عليهم اتخاذ قرار.

كثيرون منهم هاجروا تحت جنح الظلام إلى عمريت. وعند السلطان ناعوس وجدوا الإكرام المادي والمعنوي الذي يسمح لهم بالدعاء له والثناء عليه. أما الذين مكثوا فقد قرّروا إصلاح المنكر بألسنتهم. ثم قبلوا تجريدهم من ألسنتهم. أما استبدال القانون المدني بالقانون الدينيّ، ومساواة المرأة بالرجل، فبدعة خطيرة لم يشاؤوا أن يسمحوا بها. ولم يقبلوا مزاعم المذياع أن القوانين الجديدة هي القوانين الدينيّة ذاتها مضافاً إليها اجتهادات فقهاء العالم الحديثة. قال الشيخ السمنكي إنه بدلاً من تحريم الخمرة وإغلاق الحانات مثلاً، يصدر قانون ينظّم للمواطنين «آداب» الشرب والارتياد. أضف إلى ذلك، مظاهر التحلّل والانهيار المتفشّية في الشوارع والمقاهي والمسارح، وجيش المخبرين الذين يقطعون على المؤمنين صلاتهم بحثاً عن الدراويش. أهذا هو الذي ترشّحه الصحافة والناس للفوز برئاسة الجمهورية في الاستفتاء المقبل؟

«لا بدّ من تشكيل وفد لمقابلة الجنرال».

«ولنقابلـه ونحن لابسون أكفاننا».

«نحن كثيرون. اختاروا عشرين، وهؤلاء كفاية».

وارتفعت في الجو مئة صيحة متقاطعة: «أنا وكفني!»...

لقد فاجأهم قبول الجنرال السريع، رغم علمه بنواياهم. بعد يومين، وفي الحادية عشرة صباحاً، كان يفتح لهم باب قاعة الاستقبال ويدعوهم إلى الدخول غير حافل بأكفانهم. لقد حسبوا أنه سيلقي بهم في سراديب التلّة الرابعة الرطبة الوثنية، ويقابلهم هناك. ولكن ها هوذا، بكامل أوسمته، وصولجانه، وقفازه الأبيض، ويصافحهم واحداً واحداً، واقفاً كالقدر المارد بين أعينهم والقاعة، حتى اصطفّوا أخيراً أمام الكنبات. وقفوا بانتظار وصوله إلى كنبته، حائرين تماماً في أمر الرهبة الاحترامية التي تلبّستهم،ومدركين على نحو ما الغرابة المربكة في أرديتهم الضريحيّة المحرجة.

لم يتجه الجنرال نحو الكنبة بل نحو الهاتف. وكان ذلك هو الخطأ الوحيد في الترتيب كله. لحسن الحظّ رنّ جرس الهاتف قبل وصول اليد العسكريّة إليه. تناول السمّاعة وأنصت وجهه إليها ثواني معدودات. وفجأة رعد صوته التينوريّ: «أنت مجنون يا مقدّم نوفل! أعدمـوه فوراً!.. يحمل مسدّساً في ساحة الشهداء، وتعتقلونه؟... أعدموه فوراً.. بلا محاكمة، بلا بطيخ.. أنت تعرف البلاغ رقم ثلاثة.. أنا سأربّي هذا الشعب. محمد علي العبد الله علّمه على الفوضى وخرق القانون.. ولا تعد لإزعاجي بهذه التفاهات. الذي يخالفنا أعدموه!».

وخبط السماعة على الجهاز. عاد إلى الكنبة. جلس. الشيخ السمنكي وعشرون آخرون. رأوه متهلّل الأسارير. رأوا الغضب يتلاشى من قامته الغولية بالسرعة التي تلاشت فيها شجاعتهم من أجسادهم المكفّنة، ومن ألسنتهم العازمة على تقويم المنكر.

«ماذا يريد أساتذتنا الكرام؟ لماذا هذه الأثواب البيضاء؟»

هجم الصمت على الحواسّ الخمس، وضجّت الأذهان بـالكلام والمشـاعـر. تلاقـت العيون. ارتخت الشفاه. تصفّح الجنرال الوجوه واحداً واحداً. كان مغتبطاً، عالياً، صافياً.

«نحن، نحن سمعنا.. يا صاحب الفخامة.. سمعنا أنكم، تنوون، تنوون ترشيح نفسكم لرئاسة الجمهورية. جئنا.. نحن جئنا، لنعلن تأييدنا. وعلى بركة الله»، قال الشيخ السمنكي.

«وهذه الأثواب البيضاء.. تريدون الاستشهاد في سبيل انتخابي؟».

«في سبيل المخاة يا صاحب العظمة.. والفخامة.. والله، والله.. نحن جئنا نكون.. أول المتطوّعين.. متى يحين الوقت؟» قال أحد العشرين.

«قريباً بعد انتخابي رئيساً للجمهورية».

«إذن، فخامتكم.. اسمحوا لنا، بالانصراف، ريثما، يحين، الوقت..» تضرّع الشيخ السمنكي ونهض لتوّه. ونهضت معه عشرون قامة.

« شعب كهذا يلزمه حاكم كهذا »، قال الجنرال بعد انصرافهم.

ومضى عقله وراء تشابكات غدت مقلقة في الآونة الأخيرة. إذا كان السنجاري قد قبل التعاون معه وهو مجرّد جنرال، مجرّد مغتصب موقّت للسلطة، فلماذا يرفض الاستمرار معه وهو رئيس شرعيّ للجمهورية! وأين بحق الموطوءات اختفت فيضة في باب إيل؟ ماذا تفعل في باب إيل؟ تترك ثورة الجنرال وتذهب إلى بلد يحكمه المـ...ك. يقولون إنها صارت أشهى. يقولون إن الندبة الخيطيّة التي خلّفتها السكّين الطاعنة لم تمّح، لكنها جعلتها أشهى. صارت أملأ قليلاً. والناظر إليها لم يعد يجفل ويتلخبط من قوة عينيها فقط، بل ومن قوة جسدها أيضاً.

في المساء قال لأمّ السلطة إنه سيصير رئيس جمهورية ويحكم كما يريد. كالعادة لم تلتفت أمه نحوه وهي تسمع الكلام. وفيما يتأمّل نفسه مقابل المرآة خطر له كم أن أمّه امرأة محيّرة فعلاً، ومغيظة. هرع إليها قبل أن تغادر الغرفة فوقف أمامها. شهقت المرأة. رفعت مرفقها أمام وجهها كمن ستتقي لطمة. حركة محيّرة ومغيظة حقاً. لأن الجنرال لا يمكن أن يلطم أمّه. لكنها امرأة طاعنة في السنّ تتحرّك حركات خرقاء، كأنها خائفة أو مستطيرة.

ما الذي يجعلها تمثّل دور الخائفة من ابنها؟

ثم جاءت أخبار غامضة من باب إيل. لطالما سأل الجنرال نفسه فيما بعد، لماذا جاءت هذه الأخبار من باب إيل. ولماذا جاءت في تلك الآونة. كانت المراسيم والمراسيم الاشتراعية قد صدرت، والجماهير المحبّة قد تهيأت، ويوم الاستفتاء على رئاسة الجمهوريّة قد تحدّد. كان واضحاً أن الشعب لن يقبل بغير الجنرال رئيساً، إذ لم يجد أيّ زعيم سياسيّ سابق رصيداً له بين الجماهير يشجّعه على ترشيح نفسه ضد الجنرال.

السنجاري الأحمق، الذي رفض بتناحة بغليّة وبلا هوادة فكرة انتقال الجنرال إلى رئاسة الجمهورية (أراد جمعية وطنية روثية كسابقتها تضيع وقت الشعب في العلاك الصدىء وتنهب ثروته وقطعه النادر بالسمسرة والارتشاء)، اختفى فجأة، وبعد أيام ظهر في باب إيل.

وفيضة. الحلم الأجمل والتوق العنيد. التي نجت من الموت لأجله فقط. بعد شهور مضنية من الاختفاء ظهرت في باب إيل.

لكن الذي ظهر أيضاً في باب إيل هو هذا الذي لا يعرف أحد سوى اسمه، واسمه كان بحدّ ذاته لالقاء الرعب اليابس في قلب الجنرال. وقد اقترن الظهور بفعل كان حلم

الجنرال وتوقه سنين طويلة لكنه تشظّى الآن بين شعاب الأيام والظروف. فيضي السعيد: من لا مكان، من الفضاء المطلق، من أحشاء فساد برلمانيّ مماثل للذي في بعليتا، انبثق باسمه النزير التعيس، وقاد في المدينة خروجاً مماثلاً للذي قاده السنجاري في الريف.

قالوا إنه بدأ خروجه على السلطة في باب إيل بُعَيْدَ خروج الجنرال على السلطة في بعليتا. كان ينظّم شباباً متحمّسين (طلاباً وعمالاً ومتبطّلين ريفيّين وكل من نبّهه ذلك الفيروس المريد الذي نبّهنا نحن) يمتلكون إرادة القوّة والتغيير والتقدّم. وكان يدخلهم طواعيـة معسكرات تدريب فصليّة ليخرجوا منها وقد أتقنوا ممارسات المليشيا المدينية وكثيراً من أعمال مغاوري الليل. خلال أشهر من التدريب الكثيف ومن عجز الحكومة القلق تبيّن أن هذا المغامر الذي يقترب من الثلاثين يريد في الواقع الاستيلاء على السلطة أولاً كي ينطلق من باب إيل إلى تحرير المخاة وتوحيد النهر الكبير وخلق مجتمع العدالة والتقدّم. إن الحرّية لا يمكن أن تُنال إلا بقوة السلاح، قال لرفاقه.

فيضي السعيد: هذا الاسم الاستفزازيّ المثير، الذي يفعل ولا يقول، الذي يمتلك مغاوري ليل جاهزين للانقضاض ولكن على حكومة باب إيل، كأنها تقف في طريقه لتحرير المخاة، الذي سرق من الجنرال كلماته ومراسيمه ووعوده وصحوه، سرق توقه وحلمه: فيضة التي انطلقت من جبال الذهب عابرة جبال عمريت وشعابها، مخترقة عشرين نهراً ورافداً، ملتفّة حول أروقة النهر الكبير لتصل إلى باب إيل، ولتبدأ هناك احتفالها بميلاد خصوبتها، بتلك النقطة الحمراء الأولى التي أطلقت من أعماقها صرخة ظفر وحشيّة، بجيل من المراهقين المتعطّشين للدم المتعبّدين لموسوليني حقيقيّ اسمه فيضي السعيد.

لم يجد الجنرال تفسيراً لأيّ شيء. لم يجد راحة في أيّ شيء. وعانى بوضوح ارتداد الغمامة السوداء إلى دماغه كموجة عاتية تشبّ وتهوي.

قبل ثمانٍ وأربعين ساعة من يوم الاستفتاء طلعت عليه الأحزاب الجديدة بمفاجأة خيانيّة. لقد استيقظت بعليتا وكفرطيبا وبندرة وبقية المدن لترى جدران بيوتها مغطّاة تماماً وحتى علوّ قامة الرجل بملصقات حملت منشوراً مشتركاً.

« يجب أن يكون الانقلاب نقطة انطلاق جذريّة نحو الحياة المنتجة المتقدّمة. لقد انهار العهد السابق بنتيجة سياسته القائمة على السمسرة والدناءة والرخص وتزييف إرادة الشعب وتسخير الدولة والاقتصاد لتأمين مصالح طبقة الحكام الجشعة. لا بدّ إذن من قلب هذه السياسة من جذورها لتنطلق إرادة الشعب، وعن طريق انتخابات برلمانية تجري ضمن الغرف السرّية، في رسم منهاج العهد الجديد، وصياغة دستور حياته وتقدّمه، وانتخاب

رئيسه من بين عدة مرشّحين، ليتمّ بناء الأشتراكية وتحقيق الوحدة النيلوتية».

لم يكن للسنجاري حزب، لكنّ الجنرال الذي بات يعرف جيداً هذه الأمور، شمَّ رائحة لغته في البيان. وعندما مَثُل الملازم الأول مخيبر سرحان أمامه، كان يحسّ بقوة، وإن يكن بلا وضوح، أن ساعة الصدام مع الكاتب السابق لبلاغاته وأوامره قد دنت. هو أصلاً لم يُدْنِهِ من مركز الانقلاب إلاّ كُرْمى لفيضة. لكن الجنرال بابكر عبود يعرف كيف سيأتي بفيضة وبه مخفورين، وكيف يلقي به في التلّة الرابعة، ويمضي إلى المخاة بجيش شعبيّ يحرّرها. وإذا كان لا بدّ من التعاون مع فيضي السعيد لهذه الغاية.. فليكن.

«لا أستطيع يا سيّدي. اسمح لي أقل لك: مستحيل».

«أنت ضابط أم حيوان؟ نابليون لم يكن يعرف المستحيل. خذ معك مئة عنصر. مئتين».

«سيدي، فيضة، غير الخالق لا يمكن أن يعثر عليها. هي مع شباب وشابات فيضي السعيد في أحد المعسكرات. والسنجاري عليه حماية رسمية من حكومة باب إيل، سيدي. نحن لا سلطة لنا في باب إيل لنعتقلها على كيفنا».

«إذن هات لي زعماء الأوازرة واللعازرةوالعملوالاشتراكي التعاوني والأمّة والوطني. وخذ عناصرك وانزلوا. انزعوا البيانات عن الحيطان. أريدهم هنا. حول الطاولة».

«حاضر سيدي».

في اليوم المحدد للاستفتاء أقبل الناس إلى المراكز بأعداد جرادية. كانت التجربة بحدّ ذاتها ممتعة: الاستفتاء! كلمة جديدة مديدة! ولم يكن البعليتيون من النوع الذي يمتنع عن الاقتراع لمجرّد أنهم لا يوافقون. لقد أحبّوا أن يقولوا (لا) وينزلوها في الصندوق أكثر مما أحبّوا ذلك مع (نعم).

ليس البعليتيون من صنف الملائكة، بالطبع. لقد تضايقوا لاعتقال الزعماء، ولكن ضيق من حُرم مشاهدة مسرحية حديثة فاضطر إلى سماع الحكواتي. هذه الأحزاب كانت شيئاً آخر جديداً غير التكتّلات الباشوية المقيتة. وقد اغتبط الناس بوجودها. سوى أن الأسواق حافلة بمستلزمات العيش، والجنرال عازم على تحرير المخاة بعد الاستفتاء، وكل شيء على مايرام.

لم يكن غريباً بالتالي (ألم يكن؟) أن يصدر عن مجلس الوزراء القرار ٣٩٦ ليكشف عن نسبة تأييد لم يسبق لها مثيل في تاريخ الديمقراطية، بلغت ٩٩,٩٩ بالمئة، ويعلن انتخاب «السيد» بابكر عبود رئيساً للجمهورية.

إنّ شعباً يؤيّد رئيسه المنتخب هذا التأييد، سيفوّضه ولا شك بجلب ستة من قطّاع الطرق مقيّدين بحبل واحد وإجلاسهم حول طاولة مستديرة. لكن اثنين من هؤلاء كانا قد هربا سلفاً مع السنجاري إلى باب إيل.

كانت الأوراق والأقلام والمحابر جاهزة على الطاولة. وكذلك المسلّحون الثمانية الذين طوّقوا الزعماء الأربعة كملائكة حارسين ومسدّساتهم متوجهة الفوهات نحو الرؤوس المطأطئة.

هناك كتب الزعماء بيانات حارّة عن تأييدهم المطلق للرئيس الجديد وخطئهم الجسيم في معارضتهم السابقة له. وبعد دقائق شحنتهم سيارة عسكرية إلى التلّة الرابعة.

لطالما شكا الجنرال الرئيس من تسطّح أرض بعليتا. وفي تلك البرهة أحسّ أن هذا النقص فظيع حقاً. لقد أراد أن ينظر إلى المدينة المتّسعة من عل ليرى شكلها وحركتها؛ الآن وقد صار رئيساً للجمهورية وأنهى الباشوات النتنين والزعماء المرتزقة. الآن يقف الجميع على قدم المساواة، لكن الرئيس لا يستطيع أن يراهم كلهم. منذ بدء التاريخ، والمساواة رمز من رموز التقدّم.

جلس إلى الطاولة. كانت الأوراق والمحابر والأقلام جاهزة. وهناك خطّ استقالة حكومته كرئيس للوزراء ووجّهها إلى نفسه كرئيس للجمهورية. تأمّل الاستقالة مرتاحاً للتحسّن المدهش في لغته الأدبية، ثم خطّ أوّل مرسومين جمهوريين أمَرَ في الأول منهما أن يصير ماريشالاً أي رئيساً ينتخب ويكون بالأصل عسكرياً، وأمر في الثاني ببناء قصرين للرئاسة ورئاسة الوزراء.

في ذلك الربيع استطاع المارشال الرئيس أن يلتقط مزاجاً شعبياً عاماً لا تفلح الصحافة عادة في قراءته. فعلى نحو غامض، توقّع الناس، ورغبوا، أن يمضي وفيضي السعيد يداً بيد لفعل شيء ما، مثل تحرير المخاة وعمريت، أو توحيد بلدان النهر الكبير، أو إعطاء تعبيرات جديدة عن حياتهم الجديدة. وذات مساء قال للعقيد نوفل: «تعرف يا نوفل، أنا دائماً أحسّ أني قادر على فعل أشياء كثيرة لمصلحة الشعب. لكن مع فيضي السعيد هذا، سأفعل أشياء خطيرة. خطيرة».

كان فيضي السعيد يدرّب جماعات بعد جماعات من الجيل الجديد على قتال الشوارع، ثم يأتي بهم إلى باب إيل والمدن الأخرى. وجاء يوم جعل الحكومة القابعة على الشاطىء الشرقي للنهر تجد أن مؤسساتها الباذخة ورجال شرطتها السمينين المدلّلين مجرّد أعشاش هشّة في حقل من الألغام. فهذا الشاب الذي لم يغادر بعد عشريناته، المفتتن الخيال بإرادة

شعبيّة مسلّحة تكتسح النظام القديم، أضاف إلى برنامجه كلمة العدالة، وأصبح تهديداً للدولة، وذعراً لدول النهر الكبير، وقلقاً للأمريكيين والأنكليز والفرنسيين.

وذات صباح باسم بالمطر، مضاء بالبرق، هجمت ثلّة من جيش باب إيل (جيش ا) مجهّزة بما لم يستطع فيضي السعيد الحصول عليه من نصائح أمريكيه وأسلحة رشاشة وآلات حرب خفيفة، واجتاحت مكاتب حزبه الثوريّ التقدميّ.

أدرك الشابّ، وقد شاهد الأسلحة الغريبة والعساكر الأغرب، أنه مقبل على معركة غير متكافئة ضدّ قوّة لم يحسب أنها ستنزل إلى الميدان، فانسحب ببراعة أعجوبية، وتوارى مع هيئة أركانه في غابات القصب المحيطة بالقنوات.

هذه الأخبار أضرمت ناراً في هشيم أيامنا التي جفّفها اعتقال الزعماء ورحيل السنجاري.

ليس بعليتا وحدها، بل النيلوتيون كلهم هتفوا بلسان مصعب: «ما له ينشقّ فينا البيت بيتين / ويجري النهر ما بين جديد وعتيق». لقد تأطّر لون النار الأحمر بضفائر خضراء امتدّت عبر ما بدا الآن غيهباً سحيقاً، وهو ليس إلا سنوات قليلة مضت على يفاعتنا، يوم كنا نعبر الجسر لنستحمّ في تلك القنوات مع غجر وغجريّات يحتفلون بأعيادهم الوثنية، ونبتهل بلا وعي لرجوع أوزيري.

خلال الأسابيع التالية، التي طالت فأمست أشهراً، عبر رجال فيضي السعيد الجسر في الصبح وفي النهار إلى بعليتا. وكان ممن عبر امرأة باسقة الطول، مضوأة الوجه، يستتر جسدها الشهيّ بشعرها أكثر مما بثيابها، وتتوكأ بعناء خفيف على زانة كالرمح حاملة في قطبها العلوي راية خضراء متروكة للريح.

امرأة حامل، ربما في أيام حملها الأخيرة. وجهها ينضح بشارة وينطق بها. امرأة في أواسط عشريناتها. لا يمكن أن تمشي بعناء وهي المنتصبة كعمود من الضوء إلاّ بسبب هذا الحمل. وقد عبرت الشارع الرئيسيّ الجنوبي لبعليتا دون أن تتوقّف.

تلك كانت ناراً حقاً. عبورها المتواني في الطرقات والدروب صار سريعاً في المشاعر والذكريات وقد سرى من شارع إلى شارع ومن خاطر إلى خاطر، ثم انذرى في المدينة. لقد تحقّق ما تمنّاه الناس طيلة سنين. أم مصعب، دمعت عيناها حباً وتأثراً، وتغاضى وجدانها الصارم عن الذي «هو». اكتشفت أنها طول سنين وسنين كانت رغم كل شيء تتمنّى لفيضة ما حدث أخيراً ولبّى نداء الطبيعة، بعد عشر سنين، فيضة حامل. يا ضيعة هذا الجمال والخصوبة. لو لم تفقد عقلها لكانت ملكة على النهر الكبير.

وبالطبع سرى النبأ في بعليتا كما يسري السمك في النهر الكبير. تقاطرت جماهير من الناس، مشياً وبالسيارات والحافلات، إلى غرفتها وانتظروها هناك. ووقفت جماهير على الأرصفة وأبواب الدكاكين. المرأة التي كانت تعصف بالأمكنة والعيون، منطلقة وراء رايتها الخافقة، تمشي الآن بعناء قرير، تخترق بعليتا وفي أحشائها رشيم. تمضي من شرقها إلى غربها فجنوبها، عابرة بالشوارع والناس والشجر والتلال، على وجهها ضوء وابتسامتها تنظر إلى بعيد.

من هو؟ ـ سأل المارشال الرئيس ومعه عشرة آلاف وجدان محرور آخر. لقد أدركوا أنها عبرت بعليتا ومضت إلى المخاة. لم يستطع جيش المخبرين، ولا الملازم الأول اللاهف اللاهب، مخيبر سرحان، أن يعثر لها على موطىء قدم فور مبارحتها التلّة الكبرى.

من هو؟ ما اسمه؟ ذلك الذي رمى في رحم المرأة العائد من الموت ماء الحياة، فيروساً بشرياً دفـع صحن بطنها فاحدودب إلى الأمام؟

قال طاهر: «فيضي السعيد أو أحد رجاله. أظنّ، أحد رجاله. مؤكّد أنه لقاء بالصدفة. في معسكر تدريب. أو قرب شونة أو حظيرة. فيضة تهتدي بمشاعرها الفطريّة، لا بعقلها. وها هي سبقت رجال فيضي السعيد».

قال مصعب: «ولها بعل إلّهي قديم / طالما حنّت إليه عبر ليل العقم أنثى والهة / فضّها البعـل ورّواها / فغصّت بالرجال الآلهة».

من هو؟ ـ ظل المارشال يسأل. عندما علم أن فيضة عبرت المدينة والتلال، ثم ضاعت في شعاب الطريق إلى المخاة وعمريت، جُنّ جنونه. أحسّ أن فرصة حياته قد جاءت وعبرت أيضاً دون أن يلتقطها بأصابعه العشرين، وأن هذا الغبي مخيبر، الذي مُنح قدحاً ممتازاً لا يستحقّه، أضاع عليه، وربما إلى الأبد، تجسّد ذلك الحلم الذي دخل الآن عامه التاسع وهو يزداد قوة كل يوم. لقد ظفر مرعي السنجاري بما لم يقترب هو منه قيد أنملة، وفيضي السعيد هو الأب الحقيقيّ الوحيد لتلك النطفة.

عندها أعلن الجهـاد ضدّ المغتصبين البيض في المخاة. سيقود مغاوري الليل المجاهد القديم زيدان مصطفى. وسيمضي مع السنجاري والسعيد إلى المخاة. سيذهب معهم هذا المأفون مخيبر (يا له من رجل مهمّات خاصة!) ليأتي بها ووليدها إلى بعليتا. لا بدّ من فيضة. لا بدّ من ذلك الدواء.

نشرة الأخبار الأخيرة من ذلك المساء حملت إلى «شعب بعليتا البطل» المرسوم الجمهوري ٥٧. لقد أعلن «الجهاد المقدّس لتطهير المخاة من رجس الكفرة المحتلّين،

ناهبي ثروات الشعوب». كانت مفاجأة مربكة لمصعب وحياة، وجميع العاملين في الصحف. توقّفت الآلات، وأزيحت من تحتها سبائك رصاص الصفحتين الأولى والأخيرة ليفسح المجال للمرسوم الوليد، ولتتغيّر نبرة التشكيك المستتر بالسعيد والسنجاري في بقية الأخبار. صار لازماً أن يستفتى الشيخ السمنكي في فراش نومه. وصار لازماً فوق هذا كتابة افتتاحيات تقبس من معاني الجهاد وتاريخه ما يجعل المرسوم في مرتبة تالية للحديث الشريف.

كانت مفاجأة مربكة أيضاً للكولونيل ميدو، الذي خرج قبل نيف وعام من نافذة بعليتا ليعود قبل أسابيع فيدخل بوّابتها سفيراً للولايات المتحدة؛ وللسير آرثر مورتيمر سفير المملكة المتحدة، الذي أراحه شيء واحد فقط بين أشياء كثيرة مكدّرة، هو التطابق المثير بين مزاج المارشال الرئيس وطقس بلاده الإنكليزي.

قالت الصحف إن المارشال الرئيس لم ينس ما فعله به الجيش البريطاني المحتلّ وكان رمزاً لما فعله بأقطار النهر الكبير كلها. لقد سلّم عمريت للأمريكيين وشرق المخاة للنغولة البيضاء الفاسدة. إننا منطلقون الآن لتصفية الحساب.

«إن هذا القرار يهدّد ما بيننا من صداقة وتعاون»، قال سعادة السفير ميدو، مشيراً إلى الاتفاقات والمساعدات السرّية. «وإن حكومة صاحب الجلالة لتأمل بأن يكون هذا المرسوم مهندساً لمعالجة أمور داخلية بحتة»، أضاف السير آرثر.

لم يتلقّ السفيران من المارشال الرئيس أية إجابة شافية. «إن عمريت وسلطنة ناعوس عليها، لا تختلفان كثيراً عن المخاة وسلطنة النغولة البيضاء الفاسدة عليها»، قالت الصحف. «لقد آوت النغولة البيضاء الفاسدة في المخاة، والسلطان الغجري في عمريت، شتات الدراويش الذين راحوا يحيكون المؤامرات والدسائس على الحكم التقدّميّ في بعليتا»، قالت أيضاً.

بعد أسبوعين حطّت طائرة ضخمة في مطار المدينة، وهبط منها ثلاثة ركاب وصندوقان. وباسم جلالة السلطان ناعوس، وبلباس الغجر التقليدي، قدم الركاب الثلاثة صندوقي السبائك الذهبية «هدية لتعزيز الروابط الأخوية بين الشعبين ولدفع عجلة الاصلاحات الاقتصادية في البلد الشقيق إلى الأمام».

لكن الحملة الصحفيّة اشتدت في اليوم التالي. إن شعب بعليتا لا يمكن شراؤه بهديّة، وإن تكن الهدية مقبولة على أي حال. «ولكي لا نُطعن من الظهر لا بدّ من الإطاحة أولاً بحكم الباشوات الفاسد في باب إيل ـ» أضافت إحدى الصحف. وقالت صحيفة أخرى:

«إنه لم تمضِ سوى أشهرٍ قليلة على آنتخاب الرئيس حتى انجلتْ سياسته التحريرية».
وبصوتٍ رخيم عميق أعلن زيدان مصطفى في المذياع عن سعادته بالعودة إلى الجهاد وانتظاره إشارة الانطلاق بفارغ الصبر. كان بسيطاً ومؤثّراً في ترحيبه بمغاوري الليل «الذين هم مجرّد تسمية ثانية للمجاهدين».

بدأ وصول صحفيي العالم ومندوبي وكالات أنبائه قبل أن يعرف المارشال الرئيس كيف ينّسق هذا الركام الضخم المفاجيء من التصريحات والمراسيم، وماذا يعمل به. غير أنه جلس للمؤتمر الصحفي مشدود القبضة على صولجانه، قبل ثلاثة أيام من وصول قطع الأسطول السادس والبحرية البريطانية قبالة الساحل البعليتي وعبورها إلى المخاة وعمريت.

وهكذا صارت مدينتنا حديث العالم. قال المارشال الرئيس إنه سيأتي بالسلطان ناعوس إلى ساحة الشهداء ويخوزقه هناك، لأنه قاتل وعميل أمريكي. وقال إن سكان المخاة نفسهم هم الذين «سيطيحون بحكم الأقلية العنصري على شاطيء بلادهم. وسيساعدهم المجاهدون في ذلك وجوزيف ستالين. ومن هناك ستنطلق مسيرة الوحدة النيلوتية». وفي اليوم التالي استنفر الجيش وأعلنت حالة الطواريء في البلاد.

وعندها أيقن أن فيضة المتشوّقة إلى دحرجة رأس ناعوس ستكون في بعليتا بعد وقت قريب، لا محالة.

مرة أخرى دهش السير آرثر من مزاج هذا الشيوعيّ المستتر، الذي يزجّ بالشيوعيين في السجن ويعلن صداقته للاتحاد السوفييتي. وأعلن ناطق في البيت الأمريكي الأبيض أن بلاده لن تسمح بقيام حكومة شيوعيّة في بعليتا تهدّد مصالح العالم الحرّ في النهر الكبير. «إن مستودع ذهب العالم يجب أن يبقى في مأمن من عبث المغامرين العسكريين».

كلّ شيء إذن غدا مهيّأً لمجيء فيضي السعيد إلى مدينتنا. وفي ليلة ليلاء عبر ذلك الجسر. مشى بمفرده حاملاً اسماً آخر على هويّة وضعها في جيب سترته. قال مخبير سرحان إن «الشباب» راقبوه مغتبطين متشوّقين، بالكاد قادرين على لجم رغبة بالتحرّش، والمشاكسة. كان واحداً مثلهم، لا يفصله عنهم عمر المارشال المديد ولا مهابته الساحقة. بل إنه وسيجارته الواقدة في فمه بدا أقرب إلى قنّاص بنات منه إلى قنّاص حكومات.

عبر الجسر وعيناه منتشيتان بالليل أكثر منها واعيتين بهَوْله. وكان عبوره ومضة ساطعة غارت في ذاكرة مخبير سرحان واستقرّت في تلافيفها. لم يكن خائفاً: وهذا هو ما افتتن به الملازم الأول. أن تمشي هكذا، كأيّ واحد من السابلة، كأن آخر شيء تتوقّعه هو الخطر أو القدر أو الغيلة أو الخديعة، وأنت مطلوب بواحد منها، وأنت ماض لمقابلة رئيس الجمهورية، وفي ذهنك مشاريع عظمى، لكن وجهك وخطاك متعة صافية بالليل

والنجوم والنهر والبشر العابرين ـ هذه كلها سحرت مخيبر، قلّصته، شرّدت خياله وراء فيضة، رمته في أشداق وحش مكنون عتيق يسكن فقط في براري النفس الصامتة.

أشرق القمر من وراء الجبال الشرقيّة. كان قمراً هائج اللون رحب المحيا. التفت فيضي السعيد إليه برهة، وقبل أن يتابع مشيته التقت عيناه بعيني مخيبر سرحان الراعتين، وعرف أنه ملاحق، توقّف مخيبر وغمز لأحد المتسكعين عند إفريز الجسر. وفي هذه اللحظة هوى فيضي السعيد في النهر.

ركض مخيبر إلى الافريز الشمالي. كان الضوء الورديّ يتكسّر كشفرات حادّة على خطوط الموج، والنهر كما هو. ركض نحو بعليتا، والشتائم الدينية تنثال من بين أسنانه. لكنه أدرك ساعتها أنه أضاع طريدته فتحشرجت مشاعره.

وماذا عن لقاء علنيّ بين المارشال الرئيس وفيضي السعيد؟ إنه سيمنح لطوفان الجماهير المتظاهرة وقفة قيادة تاريخيه، مقابل اللقاء العلنيّ بين القطع البحرية في النهر الكبير وفنسنت جانسن في المخاة. لكن بابكر عبود، شخصياً وبلا إضافات، اضطر لمراجعة حسابات كثيرة أخرى. فها هو ذا انفجار اللغة على سطح لسانه يستحضر كأرواح شريرة آلات حرب تعرف فقط انفجار البارود. لم يخطر له أبداً أن الانكليز والأمريكيين سيكونون قليلي عقل إلى هذا الحدّ. لقد صدقوا كل كلمة قالها! وها هو السلطان ناعوس يحرد ويزعل من شتائم المارشال فيقرّر تأجيل إرسال شحنة الذهب الثانية شهراً كاملاً.

وها هو ذا الشارع يغصّ طوال أسابيع بعشرات آلاف الهاتفين للتحرير، للجهاد، لغاوري الليل، للاشتراكية، للتقدّم، لنيلوتيا الموحدة، لمقارعة الإنكليز والأمريكيين؛ ولكن ليس أكثر من هتاف واحد بالعشرة لبابكر عبود. فما العمل مع شعب يحبّ أموراً عديدة أكثر مما يحب رئيسه؟

وها هو ذا الدكتور مجيد رئيس الوزراء ينبّه إلى احتمال أن تتعفن مواسم البنّ والقطن والقمح والكروم إذا قرّر الأميركيون والأوروبيون عدم شرائها.

وها هو ذا أخيراً العسكريّ ذو الصولجان واللغة السفيهة يدرك أن للسياسة دهاليز كثيرة لا تعرفها طبيعته، وأن لها قواعد والتباسات أكثر أنّى له أن يتقنها الآن وهو يدرج وراء الخمسين على خطّ عمره المستقيم؟

شيء ما راقد في أعماقه، مطمور كالنقوش الغريبة في باطن التلال، جعله يحسّ وهو يستقبل فيضي السعيد في خلوة مكتومة أنه يستقبل في الحقيقة من هو جدير بأن يكون ولده ـ شيء مثل تلك الاندفاعة التي حملته للاصطدام مع الضابط الإنكليزي؛ مثل النبع

الذي شحن بالتوتّرات اللانهائية التي التقت فيها عيناه بعيني فيضة في أعماق عمريت.

فجأة انفتحت البوّابات الصلدة واندفعت منها سيول المشاعر التي عرفها في تلك الحقبة الشريدة المتأفّقة، ثم انحبست بعدئذ بالمكر والقهر. تقدّم من فيضي السعيد بخطى أسرع مما يليق بالمارشال الرئيس وأبطأ مما أراد بابكر عبود، ليعانق هذا المتشرّد المتأفق الجديد، ويعانقه، ويهديه مسدّساً.

لطالما تساءلنا ونحن نتذكّر ما حدث، كيف سلّم بابكر عبود هذا الشاب الأعجوبي إلى جلاّديه. كان فيضي السعيد الذراع الوحيدة القادرة على لطم الرثاثة والعفن في واحد من أوكارها، حيث تكرتنت في الدول النيلوتية الأخرى أنظمة حكم باشوية أو ملكية ستنفخ في الأبواق جذلاً إذا ما سقط نظام المارشال الرئيس في بعليتا. وفي الداخل نشطت القوى السياسية كلها ضد حكم ما زال يعبث بأهواء الجماهير حتى أمضى عامين تقريباً بلا برلمان.

كان ثمة داخلٌ آخر جعل كل ما عداه خارجاً ـ داخل تعبره أحياناً غمامة صغيرة سوداء فتذرو فيه مليون ذرة من غبار الخماسين، أو تطأ نعال سميكة بطيئة أرضه الرخوة فتغور فيها وتقطع أنفاسها. لقد نبّه العقيد نوفل المارشال الرئيس إلى صرامة مسرفة تفيض من تقاطيع وجهه وبدنه. وعندها أمسك وعيه المتنبّه فجأة، ليس بما في تقاطيع الوجه بل بما في شقوق ذلك الداخل من خوف ومواجع ـ هناك حيث ثوت قوارض رثّة تكشف عن أسنان صغيرة زنخة وتقطع ألياف النسيج اللحميّ الغضّ لطفل، لفتى، لمغامر متشرّد، اسمه بابكر عبود، تقطع ببطء، ليفاً بعد ليف، وبعضها وصل ذات يوم، أو يصل ذات يوم، وسيصل بالتأكيد، إلى العظام شبه النيئة التي قال الطبيب الإنكليزي قبل ربع قرن إنها لا تصمد أمام العلل لشدّة ما تعاني من نقص الكلس والتعظّم المتأخّر؛ هناك حيث تلاطمت رؤوس وأذرعة لغول مهول يلتهم الشهوة والعشق ويعيد إنتاجها؛ وحيث يطفح طفل، فتى، مغامر متشرّد، اسمه بابكر عبود، من انهدامات الذات التي لم تظفر قط بالرضاء، والعالم الذي لم يكن قط عادلاً، وما زال طيلة خمسين عاماً يطمح للقبول المعافي من أمّ ظلّت كلّ هذه المدّة تدكّ بسخريتها ورفضها صروح الجدارة والإنجاز التي أقامها، حتى إذا بلغ ذلك العمر قررت فجأة أن ابنها اليتيم، الطفل، الفتى، المغامر المتشرّد، قد أمسى يثير فيها من الرعب ما يطمس بالصمت الوحشيّ في داخلها كلام البشر.

هذه الأمّ الفانية تتقدّم منه كل صباح بصينية الإفطار، وكلّ ليل بفنجان القهوة (ولم

تكن لتفعل ذلك من قبل)، وفي الهواء الذي تتحرّك ضمنه خوف من المارشال الرئيس وخوف على بابكر عبود. إنها هي التي أوعزت إليه أنّه اثنان على واحد، ورسّبت في ضميره ما أمسى يقيناً ناخراً أن ناتج قسمة الصورة على الجذر سيبقى اثنين إلى الأبد، وأن التطابق لن يتحقّق يوماً. عشرين شهراً ظل يداري هذا السخف والبلاهة في تعابيرها المضمرة. عشرين شهراً وهو يستيقظ كل صباح فيخرج من بيجامة بابكر عبود إلى بدلة المارشال ومكتب الرئيس، وينظر في المرآة، في العمق الواقعي الحيادي لانعكاس صورته وجذره ويجد أنه المارشال الرئيس بابكر عبود. عشرين شهراً وهو يؤوب كل ليل من مكتب الرئيس فيخرج من بدلة المارشال ويدخل بيجامة بابكر عبود، بعد أن يكون قد استشار ذلك العمق الواقعيّ الحياديّ لانعكاس صورته وجذره، ويجد أنه بابكر عبود المارشال الرئيس. إلا صينية الإفطار تلك وفنجان القهوة، الطبيعة الصامتة التي أنطقها صمت أمّ الدولة الوحشيّ.

ليكن، قال أخيراً لنفسه. ليكن أنه بابكر عبود، وبعدئذ، بمسافة كبيرة أو بصدع كبير، المارشال الرئيس. ليكن. هناك قفزات نوعيّة في تطوّر الجنس البشري نقلته من حال إلى حال. ألم يثبت داروِن ذلك علمياً؟ ألم يقل إن الإنسان تطوّر عن القرود؟ أين نحن من القردة الآن؟ أين المارشال الرئيس من القردة الآن؟ من بابكر عبود؟

كان المارشال الرئيس يدخل قاعة الاجتماعات فيجد، أو يخشى أن يجد، بابكر عبود جالساً سلفاً على كرسيه الرئاسي. يجده هناك، صغير الحجم كطفل خائف، منكمشاً كفتى مضطرب، واضعاً مرفقيه النحيلين على ذراعي الكرسي كأنه يرفع بهما جسده الضئيل إلى الأعلى، وقد شغل من الكرسي مساحة أقل بكثير مما خلّى. يقترب المارشال الرئيس، واحداً يلتقي بواحد، واحداً لا يكون واحداً.. ثم يجلسان معاً على الكرسي اثنين على واحد.

ليكن. هذا التطابق لن يتحقّق على ما يبدو، الانقلاب، المراسيم والقرارات والأوامر، المرايا، كل شيء، بلا جدوى. لو كان ممكناً فقط أن يصدر مرسوماً يجعل ناتج القسمة واحداً. كل هذه الاقتلاعات للرثاثة والفساد والعفن والخوف والصغار والعجز والعقم والضياع. الباشوات انقشعوا. الدراويش انقشعوا، وهذه الغمامة لم تنقشع.

ليكن. لقد قال داروِن إنها قفزة نوعيّة. وماذا يهمّ إذا كان المارشال الرئيس قد اعتقل بابكر عبود في ركن معتم داخل التلّة الكبيرة التي صارها؟ داخل الجبل الذي سيصيره؟ لقد اعتقل الآلاف لأجل التقدّم والحريّة. المارشال الرئيس هو الذي سيبتعد

ببعليتا عن الوحشية والقردة، ويوصلها إلى بطاح سويسرة. وسيبدأ بنفسه.

شيءٌ من هذا القبيل كان حال المارشال الرئيس عندما التقى بفيضي السعيد. عندها وثب بابكر عبود خارج معتقله في التلة الكبيرة إلى الشمس والهواء، وعانق المارشال الرئيس. في تلك البرهة، في تلك الومضة الكونية الباهرة المنشطرة صار ناتج القسمة واحداً. أحسّ المارشال الرئيس بابكر عبود أنه يعانق ابناً تكوّن في أصلابه العمّاء ونزل منها إلى العالم شاباً مقاتلاً.

أحسّ أن هذا الابن غير الشرعيّ لكلّ ما هو شرعيّ في إنسانيته ووجوده، يحثّه على تأبيد تلك اللحظة. تأهّب كل ما في أعماقه المنقوشة بالرسوم والكتابات، المؤبّرة بالوشم والوسم، لتخليد هذا البرهان الرياضيّ على وحدته.

كان ذلك يعني أن ينطلق فيضي السعيد إلى باب إيل مزوّداً بالأسلحة اللازمة ليهجم على أوكار الباشوات ويطهّرها؛ أو ينطلق مع كتائبه المسلّحة إلى المخاة ليتغلغل في مسامّ الدولة العنكبوتية العنصرية فيقوّضها قبل أن تتمدّد غرباً وتبتلع المخاة كلها؛ أن يحارب الرجلان في المخاة حرباً لا تعرفها النغولة البيضاء الفاسدة.

عند صعيد أدنى، على قاع النهر البشريّ العريض، كان ذلك يعني أن يصرع سكان النهر الكبير الغول والتنّين. ويعني أن يصدر المارشال الرئيس مرسوماً بجعل الميناء ملكية للدولة (نهض فاتك السبئي وبضع عشرات من رفاقه وقاموا بانقلاب عمّاليّ صريح على حلمي السعدني) وقد أصدره. حتى ساكنات وعليتا رفضن استقبال أيّ من السوّاح الغربيين - الأمريكيين بشكل خاص - الذين شاقتهم هذه البيئة الألفليلية (حارة بأكملها مكرّسة للجنس، بنسائها وشوارعها وبيوتها وأشجارها ودكاكينها وخماراتها) وأحبّوا أن ينعموا على البلد بعملتهم الصعبة مقابل ليالي وصال سهلة. حتى سماء البلاد ألفت صوتاً صائحاً أعلى هو صوت الجماهير الهاتفة: نموت ونحيا بالرئيس! نموت ونحيا للرئيس!

كـان ذلك يعني أن يصبر بابكر عبود مارشالاً ورئيساً.

وكان الأمريكيون والإنكليـز والجيش المهلهـل ومـواسم البلاد المهـدّدة ضـدّ فيضي السعيد. وكانت حكومات باب إيل وبيت رع وعمريت ضد فيضي السعيد، ضدّ كل شيء يشبه فيضي السعيد، ضدّ ألف عام قادم من فيضي السعيد.

وكل صباح كان شملان باشا رئيس وزراء باب إيل يرسل مذكرة تطالب بتسليم الارهابي الطريد. وكانت طائرة السلطان ناعوس تحط في موعدها المحدد بركابها الثلاثة وصندوقيها، ومحمد علي باشا العبدالله يودع السنة الثالثة ضيفاً على عبد المنعم باشا

خفاجي، وصحف العالم وإذاعاته تحدّد موعداً متجدّداً لانفجار العنف.

فماذا بوسع المارشال الرئيس أن يفعل الآن؟

خلال أسابيع، وبالحجم الضئيل من الوعي الذاتي الذي يملكه، راقب بجزع متزايد تناقص افتتانه بفيضي السعيد، هذا الشابّ الذي سحره كأعجوبة بات مرهقاً لأنه كذلك. ومثل أب حقيقي يمتلىء بنشوة الوجود للمسة ابنه الوليد، تنامى فيه بالمقابل بغض أربد إزاء مزاحم عتيّ على هذا الوجود ذاته. كان شملان باشا يريده، وخفاجي باشا يحذر منه، وسعادتا السفيرين يطالبان بتسليمه، والسلطان ناعوس يدفع ثمنه.

وها هو ذا المارشال الرئيس يراه ضوءاً يسقط في الداخل: هناك حيث يجب أن يطمر الظلام الكثيف أسلاك الخوف والعجز المقرنصة في أعمق بابكر عبود. ها هو ذا يراه، في ومضات خاطفة لخاطر مرهق، وجهاً يسوعياً ينبثق من ثناياه حَمَلَ فتيّ سمين، وبمرسوم سرّيّ من الأب الرئيس يتقدّم إلى المذبح.

في أواخر السنة الرابعة للانقلاب، بعد مناوشات بارودية مع المخاة وباب إيل، وتدريب محموم لكتائب مقاتلة من مغاوري الليل، ومظاهرات شعبيّة كاسحة، وتطوّعات جماعية للقتال، وفوران للروح، وأخبار عن ولادة فيضة صبياً، اتخذ صاحب الدولة قراره: لقد سرحه الضابط البريطاني يوماً من الجيش، وهو لا يريد الآن أن يسرّحه الكولونيل ميدو من رئاسة الجمهورية.

كانت محاكمة فيضي السعيد أسرع محاكمة عرفها النهر الكبير. لقد تلقّفته عند نهاية الجسر الشرقية ثلّةٌ من شرطة شملان باشا ونقلته خلال ثلاث ساعات إلى باب إيل. وخلال ثلاث ساعات أخرى صدر عليه حكم بالموت، ونُفّذ في ثكنة عسكرية. وكان القمر غائباً والشمس لم تشرق بعد.

- ٥ -

في العتم جلس نذير وطاهر ومخيبر وبدر صامتين. كان الليل دامس الظلام والسَّكنة سارحة في السكون. النهار الذي مضى أقفل خواطرهم. بعيون جوّانيّة شاهدوا فضاء مسكوناً بالشظايا والحطام.

ومن شبّاك غرفة فيضة شاهد مصعب وحياة دِلاء تفيض دماً، نازلة مع المطر. كان المطر الصوت الوحيد والحركة الوحيدة. تزحلقت نظرته على القوس الضخم الذي صاره بطن حياة. فيما مضى رآه سماء مزرورقة لكنه الآن، يراه سقفاً له شكل المدخلة. وارتدّت إليه حيرته الملغومـة.

منذ وصول الخبر توقّفت المظاهرات. اختفت الصفوف أمام مكاتب التطوّع. اختفت الجماعات. عادت المدينة إلى ما يشبه الحصار في حياتها المعتادة.

قال نذير إنه لأول مرّة يحسّ بوقوع فاجعة. وقال بدر إن أفقاً أزهر قد انكسر. وفي المدينة جثت الوجوه على الرصيف. حتى «الشباب» بدوا متسكّعين أذلاّء. الآن لا شيء سوى ترقّب خاثر لمجهول رماديّ لا يستطيع أحد أن يعرف ما هو.

العقيد نوفل لا يغضب في العادة أبداً. ما أكثر ما قيل إن رخاوته تمتصّ أية شدّة. لكنه فاجأ المارشال الرئيس، ونفسه أيضاً. مشى في تلك الهاجرة بخطى متمهّلة، وكان وجهه عاصفاً. دخل مكتب رئيسه بلا تحيّة. وصبّ في أذنيه دِلاء حمراء مترعة من قاموس فحشائه اللغوية. بعد الشتائم، وضع يديه على الطاولة وقال: «أنت خنتنا كلنا. خنت بعليتا. ونيلوتيا. خنت نفسك».

ردّ المارشال الرئيس بصوت خافت: «ماذا أفعل؟ كلّهم ضدّه. كلّهم يريدونه. لو لم أسلّمه لَصـار استقلال البلاد في خطر».

«أعطه فرصة للهرب. كنت خلّه يركب الطائرة إلى الارجنتين. إلى اليابان. إلى جهنم. لكن لا تسلّمه».

«مستحيل. مستحيل. أنت تعرف». وأحس أنه كتلة بلا طرف ولا حافة. هجمت

على دماغه تلك الغمامة. تفشّى في جسده استرخاء ثقيل بارد. أحسّ أنه فقد جسده،أن هذا الجسد هوى منه وسقط على الأرض. وضربت عينيه حكّة مفاجئة شرسة. تناثرت شظايا كبريتية في مقلتيه. لكنه كان معطل الإرادة لحظة انهار على الطاولة وراح يهزّ رأسه يمين يسار، يبكي ويصرخ: «ماذا أفعل؟ ماذا بوسعي أن أفعل؟ ماذا؟» رسم ذراعيه إكليلاً حول رأسه، ثم انخبط على الطاولة، وراح يشهق. ثم راح يئنّ. ثم انقطع صوته. ثم نام.

في اليوم التالي أصدر مرسوماً جمهورياً بتحديث الميناء، وآخر بإقرار الضريبة التصاعدية على الأرباح المفرطة. ثم أمضى بقيّة اليوم وحيداً، جالساً بين مذياع تضجّ منه حناجر المعلّقين الإذاعيين، وصحيفة مسائية التهبت أعمدتها بالتحليل والتمجيد والتنبّؤات.

ثم لم نعلم بأيّة أمواج كهرطيسية وصلت إليه الأنباء المتزامنة عن ولادة ابن فيضة في الغابات الجنوبيّة وعودة السنجاري إلى كفرطيبا. لقد انشغلنا بها فنسيناه.

تساءلنا ونحن نجتمع المرّة تلو المرّة أين هي الآن التلال البحريّة الأمريكية التي عادت بهدوء فاتجهت شمالاً بعد مقتل فيضي السعيد؟ وأين المجاهد زيدان مصطفى ومغاورو الليل؟ أين الذاهبون إلى المخاة وعمريت، والحشود المتدفّقة في شوارع بعليتا؛ والرايات والأعلام والحناجر؛ والغبطة الصافية والاندفاع والفرح القديم؛ أين الأسماء السعيدة الطليقة التي هيّأناها لأولادنا؛ الخطوات التي مشيناها نحو الشمس؛ والدولة الجديدة التي خرجنا لتأسيسها؛ أين الحرّية، أين التقدّم؟

في الخريف جاء الجواب. أفاقت بعليتا ذات صباح لتجد في مداخل بيوتها وعلى جدران شوارعها خماسين كثيفة من منشورات مضادّة، تحمل دعوة صريحة لإسقاط المارشال الرئيس ويذيلها توقيع «لجنة تحرير بعليتا». ليس فقط الغدر بفيضي السعيد ـ قال المنشور ـ ولا التخاذل عن كلّ ما يعلنه المذياع وتكتبه الصحف حول مغاوري الليل وتحرير المخاة وعمريت، ولا العبث الرخيص بأشواق الشعب وأمانيه، بل وركل الديمقراطية في سلّة المهملات واستبدال الحياة السياسية بسلسلة هوجاء من المراسيم والقرارات والاصدارات، «والالتفاف على الجماهير المناضلة بجيش من المباحث راح يخرب الفطرة الديمقراطية للشعب».

كان مخيبر سرحان في التلّة الرابعة. رفض مرافقة الحملة المتوجّهة إلى كفرطيبا لاقتناص السنجاري والمجيء به إلى العاصمة، فزجّه المارشال الرئيس في زنزانة رطبة

أنشئت حديثاً هناك. لم نعرف بالتالي من هي «لجنة تحرير بعليتا» تلك. لقد اعتبرنا المنشور إعلاناً للحرب. وقرأناه بالسرعة التي أزاله فيها «الشباب». بسكاكينهم وسوائلهم.

إلا الميناء، عندما توجّه «الشباب» لإزالة المنشور وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام لجنة للدفاع عنه. رأوا فاتك السبئي يحوص هنا وهناك برخاوة خاسينيّة، والكلاّبة الحديدية تنوس بين كتفه وصدره. كان حوله شرذمة من أعضاء اتّحاد عمال الميناء، رخوة هي أيضاً، وأيـديها مشكولة بسلاسل الكلاّبات. حولهم سلحفت شراذم أخرى من العمال، أقرب إلى الجدران والمستودعات منها إلى الساحة وأرصفة التحميل.

ليس لأن «الشباب» خارقـو الذكاء، بل لكونهم أقوياء الحسّ بالخطر، تنبّهوا للعنف قبل وقوعه. عرفوا أن أصحاب الوجـوه المشمئنطة هـؤلاء مستعـدّون لتشطيـب اللحـم بكلاّباتهم. عرفوا أيضاً أن المارشال لن يبتسم لهم إذا قرّروا توفير جريان الدم بانسحابهم العاقل. وكان الحلّ الوسط بقاء عدد منهم لإثبات الوجود، وعودة عدد آخر ليخبر العقيد نوفل أبو الدهب.

حتى تلك الساعة كان الغبار راشحاً في الجوّ. لكن غيمة ضخمة أقبلت فجأة من الغرب وهطلت على المدينة بلا توانٍ. وفي الميناء الذي عمّقه الانكليز ذات يوم حتى غدا بحراً حقيقياً، استحمّ فاتك ورفاقه بالقطرات الضخمة الموحلة. انفـرجـت أسـاريـرهـم لمفاجآت الطبيعة.

عندما أقبل نذير النميري وبدر الهلالي كانت الأرصفة والمستودعات تلمع بنصاعة وصفاء. وأرسلت لذعة نسيم بارد رعشة منعشة في الأبدان، جعلت الأيدي تشدّ بقوّة أكبر وهي تتصافح، أيدي الجنود والعمّال الذين وقفوا هناك مبتسمين حائرين. ماذا يفعلون وأوّلهم يجب أن يعتقل ثانيهم؟

«تريدون أن نعتقلكم أم تهربوا قبل مجيئنا؟» سأل نذير.

«برأيي يجب أن نعتصم هنا معهم، ونكون الشرارة الأولى». هتف بدر.

«الشرارات تنطفيء بسرعة. إما النار وإما الصبر. ماذا قلت؟» سأل نذير فاتكاً.

«لا هذه ولا تلك» ردّ فاتك بسخرية وديعة متهدّجة. «يجب أن تقوم بيننا معركة».

«أنت مجنون» هتف نذير. وتفتف بدر: «أخ يرفع سلاحاً على أخيه!»

«أنتم سلطة، ونحن شعب، طبقة عاملة. الرابطة الشخصيّة يكفي أن تمنعنا عن القتل. يجب ألا يصطادنا بابكر عبود بالرابطة الشخصيّة. المعركة لازم أن تقوم. ويكون فيها هازم ومهزوم».

« فاتك! ماذا جرى لك؟ » هتف نذير ثانية.

« أظنّ معه حقّ »، تمتم بدر لنذير « المسألة أكبر من العلاقات الشخصيّة. أنا برأيي، نعتصم معهم هنا ».

استدار نذير إليه باستغراب تامّ ولكن هادىء: « والخبز والملح، وعشرة العمر؟ والشوط الذي قطعناه حتى الآن؟ هو ومركزه في الحركة العمالية ونحن ومركزنا كضمانة للمحافظة على آمال الشعب. يجب أن لا يخسر أيّ واحد منا ».

« الذي سيخسر هو الفاشية. سيعرف الشعب أننا لم نؤخذ بسهولة. إذا قامت معركة هنا، الآن، غداً يحتلّ الشوارع الطلاب وجوع الشعب ».

اقترب نذير من فاتك وهو يضع ذراعه على كتف بدر ويلصق الرؤوس الثلاثة أحدها بالآخر.

« هذا كلام سليم يا فاتك، لكن ثمنه غالٍ. في بابكر عبود جانب أنتم لا تعرفونه». وصمت قليلاً كمن يبحث عن التعبير المناسب، ثم غمغم: « من كان يخطر له أنه سيسلم فيضي السعيد؟ سلّمه وأرسله إلى الموت. وظلّ يماطل ويؤجلّ ويخترع الأسباب حتى همدت حركة الشعب لتحرير المخاة وعمريت. قصدي، المارشال يمكن أن ينقلب إلى وحش كاسر. الخيلاء، العظمة، يمكن أن تقلبه في أية لحظة إلى دكتاتور أحمر. يغرق البلاد بالدم. ماذا جرى لكم؟ تعرفون أن سرحان وطاهر في التلّة الرابعة ».

صاح فاتك: « يعني؟ تريد أخذنا هكذا؟ ونحن نبتسم لك؟ »

قال نذير بجدّية: « لا. هيّا إلى مباراة ملاكمة بيني وبينك، على طريقة الأفلام الأمريكية ».

وهكذا كان. اشتبك فاتك ونذير، والتفّ الآخرون حولهما. وانتهيا بكدمة حمراء زرقاء على عين نذير، كان سعيداً جداً بها كشاهد إثبات، وبفكّ يقطر دماً على شفتي فاتك وعثنونه. كانت الريح قد استنهضت برجاً حلزونياً من الغبار، راح يدوّم ويدوّم وينتقل من مكان حولهما إلى مكان، كأنّ لاعب سيرك مشعوذاً قد اختفى داخل أسلاكه الغبارية وراح يلمسها فتندفع.

قال فاتك أخيراً وهو يلهث: « الذين عندهم عيال ومسؤوليات، هؤلاء اتركوهم يهربوا سنرى إلى متى يبقى السجن الجواب الوحيد على مطالبنا الوطنيّة والطبقيّة ».

وقد علا عدد المعتقلين حتى لطم سقف الأرقام الأربعة. هذا التضخّم أصاب العقيد

نوفل أبو الدهب بنوبة غضب ثانية. لقد امتلأت المخافر والنظارات، وشكا وزير الداخلية من تعطّل أفراد شرطته عن واجباتهم داخل المدينة في هذه «الظروف الخاصة».

ضحك المارشال الرئيس بصفاء تام، واستغراب خفيف إزاء غفلة العقيد عما اقترحه بنفسه ذات يوم: «ولو يا نوفل! نسيت؟ ابعث رجالك ينظفوا تلّة ثانية، ويعملوها مستودعاً لهؤلاء البناديق الكلاب». وقد فوجيء العقيد فعلاً. هزّ رأسه هزّة خفيفة مبتسمة: «كأن هذه التلال مخلوقة فقط لسدّ حاجات كهذه».

صاح المارشال الرئيس بضيق: «لا يا نوفل. هذه المرّة وخلص. أنا أعرف التلال. دخلتها واحدة واحدة. هذه التلال يا نوفل كانت حتماً أماكن سعادة وأمجاد. فيها غرف واسعة وأبهاء. مثل قصور في أيام عزّ. يجب أن لا نعملها سجوناً. هذه المرّة وخلص».

قال العقيد نوفل بنبرة ملتبسة غريبة: «معك حقّ. هذه المرة، وخلص».

وبدا أن تدشين التلّة السابعة سجناً (كانت وطيئة لكنها عريضة فسيحة الأجواف) قد أراح المدينة حقاً من الأضطرابات ومسبّبيها. ومرت أسابيع من الهدوء استطاع خلالها المهندسون اليوغسلاف أن يمسحوا الميناء بدقة ويضعوا مخطّطاتهم لتوسيعه وتحديثه.

غير أن الأضطرابات بدأت في بؤرة لم يحسب المارشال الرئيس لها حساباً. فعلى مسرح شناتا المكشوف راح مهرّج معروف، هو بشارة فتاحي، يقدّم مسرحيّة لا علاقة لها بالتهريج إطلاقاً هي (ثمن الحرية). وكان تقديمه لهذا النصّ الجادّ دون أن يتخلّى عن مواهبه التهريجيّة أثار فضول الناس، وإعجابهم، فإقبالهم الشديد، وأخيراً تفاسيرهم القابحة التي سقطت من عقولهم مباشرة على رأس المارشال الرئيس. حتى الفتيان الذين دخلوا المسرح وفي نيّتهم، لا أن يصقلوا ذائقتهم الفنية بل أن يتسلّقوا جدار المسرح الطينيّ الأيمن إلى كرم حافل بالعنب الرجعيّ، وجدوا أنفسهم مستسلمين لأداء بشارةالفذّ،ومتقبّلين بارتياح تامّ تضحيتهم بالعنب كرمى لفشّة خلق سياسيّة. لقد أذلّت المسرحيّة المارشال الذي أذلّهم.

بالطبع أوقف عرض المسرحية، وسيق بشارة فتاحي إلى التلّة السابعة. لقد رُتّبت السراديب على عجل، وكان لبشارة وجاهة ما يشبه أن يكون قصاً للشريط الحريري في أحد الدهاليز وسط أعضاء فرقته المذعورة المتقلّصة.

لكن المدينة استمرّت تمدّ أصابعها إلى مزاج المارشال الرئيس وتعيث فيه فساداً. وصار عدد الذين يجب اعتقالهم يتزايد باطّراد. وكلّ مرة (مسرحيات أخرى على مسارح أخرى، حفلات زفاف، تعليقات صحفية ملغزة واخزة، إضرابات داخلية في المدارس،

«دروس» في الصفوف لا علاقة لها بالكتب المقرّرة، خطب جمعة، وأهمّ من هذا كله: مناشير ومناشير بات معروفاً أن السنجاري والأحزاب وراء إصدارها) كان ذلك المزاج يتشظّى بين غيمة صغيرة سوداء تعسكر في عينيه وانتفاض فجائيّ صاعق في دماغه، وبارود وحمىّ وجليد في أعصابه.

غير أنّه كان قد أتقن استيلاد لحظات الانتعاش واستحضارها. وما أكثر ما هنّأ نفسه على تمرّسه المتزايد بالطبابة الذاتية، دون أن يلقي بالاً إلى أن جرعات الدواء (الجلوس إلى المذياع لسماع نشرات الأخبار والتعليق السياسي، والجلوس إلى الصحف لقراءة تعليقاتها وتأمّل صوره على صفحاتها الأولى، تلقّي البرقيات والولاءات، الوقوف العميق السادر أمام قوامه الباسق داخل المرآة، موشّى بالأوسمة والبدلة والعبوس) صارت تأكل من قلبه ووقته أكثر مما فعلت اجتياحات الداء.

كان أول صوت أخده هو صوت أمّه بالطبع. فهذه المرأة التي وشّحها اختيارها الذاتي بصمت عنيد، أدركت في لحظة وعي وحيدة أن بابكر عبود قد طلع خارج جلد ابنها الذي نزل من رحمها فصار كائناً آخر لا علاقة له بالأرحام والأمّهات. لذلك أعطته الصورة الأولى التي احتاج إليها عن قبول الشعب المطلق بمارشاليّته ورئاسته. وشاء أخيراً أن يعتقد أن رعب أمه المتحكّم وصمتها الأبيد يعنيان توكيداً وحسب للطفرة النوعيّة التي حكى عنها دارون.

إنه الآن عالٍ وممتنع. إن شعباً بأكمله يقبل به. هذه الأمّ ممثلة له تماماً، وكذلك الأب المقيم عند الباشا خفاجي كمن يقيم وراء الموت. وقد هوى في مطاوي الردى ذلك الذي انبثق بغتة من باب إيل كوريث جامح لكلّ هذا المجد، واتخذ سماء ابنٍ طالما تاقت إليه الأعماق الخفيّة كديمومة ذاتية وذعرت منه كوارث قاتل. شعب بأكمله، تسعة وتسعون وتسعمئة وألف من كل عشرة آلاف يهتفون له. مستعدّون للموت دفاعاً عنه: نموت ونحيا بالرئيس! نموت ونحيا للرئيس!

وهكذا دخل المارشال الرئيس شرنقته وظلّ هناك. لاطم جدرانها التي انغلقت وثخنت إلى أن ثقبتها من الخارج نيازك انفجرت بدويّ صاعق أعظم ضغطاً بكثير من ضغط الأيدي والحناجر المتموّجة على الأرصفة، وبشظايا حارقة خارقة أكدت بما لا يقبل الشكّ أن سرعة العطب وقابلية الانشطار إلى ألف جزيء مخرّش ليستا صفتين ملازمتين لزجاج سيّارته وحسب، بل ولحياته أيضاً.

كان نهاراً فاجراً. لم يكتف بالمطر اليشع النازل من السماء بل تلوّث بالدم كامرأة حائض. لقد قتل الملازم الأول أحد، مرافقه الذي هبّ ورمى جسده عليه فتلقّى عنه

النار والشظايا، وصح القول: نموت ونحيا للرئيس!

لقد عُرف عن حكّام النهر الكبير ـ ولسنا ندري إن كان هكذا حكام العالم الآخرون ـ أنهم في زمن ما يلتحفون بنوع من الغيبوبة وهم على الدرجة الأعلى من سلّم حذرهم ووعيهم. لم يكن شريف العبد الله هو الذي أخبر المارشال الرئيس أن شيئاً ما ينهض في خفاء بعليتا ضده ويتفشى فيها. لكن الجواب الذي تلقّاه ذاك المخبر الجريء (بعد صراع داخليّ هاشمٍ بين رعبه من المارشال وولائه للرئيس) كان متطابقاً تطابقاً غريباً مع جواب نبس به الباشا الرئيس قبل أربع سنوات لشريف المذعور. «هذه هي بندقية مرعي السنجاري. أعرف. كله لأن شمداوي الكلب فلح في أخته. عندما نقبض عليه ونخوزقه تنتهي هذه الفوضى».

هذه الغيبوبة، الغمامة المؤتمرة بهبوب رياح ذهنية ملتبسة، التقطت أبخرتها الأولى من نبع غائر في السحر. إنه سحر يمارسه عقل ضدّ عقل في جمجمة واحدة، ثم ضد آلاف العقول في آلاف الجماجم. لقد كشف المارشال الرئيس عبره عن مقدرة خارقة في استعداء الناس. منذ البداية كان الباشوات ضدّه. وفي النهاية لُدغ صناعيّو البرجوازية المحلّية من قانون الأرباح المفرطة. وبين هؤلاء وأولئك انتفض الدراويش والفلاّحون والعمّال والطلاّب ونازحو الأرياف المحاصرون ببطالة مقنّعة ـ والسفير الأمريكي.

وجاء ذلك اليوم الذي بتنا نرى فيه وجه المارشال (واسمه ومراسيمه وصحفه وإذاعته وحضوره وغيابه) خيمة سوداء خانقة، ساطوراً عريضاً مشهراً على الحركات والأفكار والمشاعر. وكان هو نفسه اليوم الذي بتنا نرى أنفسنا فيه أخوة لفيضي السعيد.

لقد تكلّم سعدون كثيراً عن القوى الاجتماعية والاقتصادية التي هبّت لاسقاط بابكر عبود. وكان كلامه صحيحاً بالطبع. منذ خروجه من السجن تسنّم بيننا مركزاً خاصاً. وغدت شيوعيته نافذة مفتوحة بعد أن كانت حملاً متدلّياً. ورغم أن حياة دخلت السجن ثانيةً وبقي هو طليقاً، فقد اعتبرناه مناضلاً وكفى. لكنّ مداخلته هذه المرة ظفرت بأقل مما تستحقّ من استجابة. كان ثمة شيء آخر. لقد ترنّحنا تحت شعور بالخديعة، بخسارة فادحة،بتفاهة خيمة بابكر عبود وكل خيمة. كل هذه السنين، كل هذه الخطى، ونحن نرجع إلى الخلف؟ كل هذه الاندفاعات ونحن نتخذرف؟ كل هذا الإيمان بالحضارة، وتغدو التلال سجوناً؟ هذه الاكتشافات الحزينة كانت أفدح علينا من ضريبة الأرباح المفرطة على الصناعيين ومالكي الجرّارات.

وها هي ذي جدران المدن تتسربل مرة أخرى (وثالثة ورابعة) بثَوْب ورقيّ من مناشير الجبهة الوطنية (الأحزاب والسنجاري)؛ والسيارات العسكرية تفرغ حمولاتها في

الشوارع لإفناء الورق والقبض على موزّعيه؛ والمعارك اليدوية تنتقل إلى الأزقّة والشوارع الفرعيّة.

وها هم خمسة وثمانون ألف موظف يضربون طالبين زيادة أجورهم. ويوقفون آلة الدولة تماماً. ستة أيام كاملة انقطع المذياع عن ملامسة أذني المارشال الرئيس بأصواته المسبّحة الحانية.

وها هم المصلّون يخرجون جمعة بعد جمعة من المساجد إلى الشوارع لابسين أكفانهم ومنادين بسقوط الإلحاد والإباحيّة.

وها هم الطلاب يتسلّقون جدران مدارسهم ويجتاحون الشوارع أيضاً في أيام الأسبوع الأخرى. هناك، أمام الأبواب والنوافذ الخاصّة بالرؤوس المذعورة والقلوب المبتهلة، كانوا يصطدمون بأعقاب البنادق وهراوات الشرطة، ويتطوّحون على الإسفلت فتعرف أضلاعهم الرطبة وعظامهم الناتئة الآلام المتنوّعة للضرب والجلد والكسر.

ثم تلطخت المدن بالدم.

في الأسبوع الثالث كانت المصفّحات العسكرية تحاصر الجامعة وكلّ مدرسة تقريباً. وفي الرابع صدر قرار وزاريّ بإيقاف الدراسة في كلّ مكان.

وها هم المحامون يمتنعون عن الذّهاب إلى المحاكم ويُصدرون كلّ أسبوع بياناً يؤكّد للمارشال الرئيس أنهم انضمّوا إلى جوقة المخرّبين الذين تنظّمهم أمريكا وتموّلهم سلطنة عمريت.

وها هو زيدان مصطفى ينضمّ للجبهة الوطنية ويغدو رئيسها ويعلن «بدء الجهاد لإسقاط الدكتاتور والحشرات السامّة التي حوله».

وها هم الناس يخرقون قرار منع التجول ليلاً ويقبلون بشغف عظيم على المشاوير والكورنيش وأوكار الليل. إزاءهم يقف «الشباب» حيارى متوجّسين، يريدون أن يفعلوا شيئاً ويريدون أن لا يفعلوا أيّ شيء. إنهم يحبّون هذه الحرية التي يصرّ أهلهم عليها، ولن يقبلوا أن يكونوا قطّاعاً لطرقها.

وها هم الناس أنفسهم يطبّقون منع تجول لم يصدر به قرار، فيغلقون دكاكينهم ومحلاّتهم وأسواقهم، ويتركون الشوراع والساحات لصفير الريح الغربية. في النهار وليس في الليل، غدت المدينة لوحات تموّجت على قتامتها أشباح عملاقة تتمطّى بأصلابها وتعرق مطراً.

فماذا بوسع المارشال الرئيس أن يفعل؟

في ذلك اليوم وقف في شرفة قصر الرئاسة شارداً هادىء الوجه. أطلّ على الأفق المتداكن والبساتين الخضراء المغتسلة بالمطر، وعلى النهر الجسيم المتعطّف في مسيرته العظيمة

كواحد من مارشالات الطبيعة. وبعد إيماءتيْ رأس قصيرتين رفع السمّاعة عن الهاتف المركون في زاوية الشرفة الشمالية وأمر العقيد نوفل أن يجهّز حملة عسكرية إلى كفرطيبا. ثم رفع السماعة ثانية وأمر وزير الخارجية أن يستدعي له السفير الأمريكي فوراً.

هذه المرة لم تكن (نيوزويك) ما أثار غضبه. بل إن ما ثار فيه لم يكن غضباً ألبتة. ذلك البيان الشفهي قبل أيام لناطق رسمي أمريكي توغّل في دماغه بسيخ من الزمهرير وشقّ اللحمة الطرية الرجراجة لأشجان عتيقة عاتية. ولم تكن لدى بابكر عبود الجرأة على الغضب.

إنه ليس إنذاراً، قال سعادة السفير للمترجم. لكن الولايات المتحدة تريد للنهر الكبير عهداً من السلام وحسن الجوار، قطعاً لدابر الحرب والشيوعية، وبعيداً عن المشاريع الهدّامة والأفكار الهائجة.

«أين هي هذه الحرب؟» خرج السؤال من مركز ابتسامته الذي لا محيط له، «وأين الشيوعيون؟»

لم تكن ابتسامة سعادة السفير بمثل ذلك الاتساع. لكنها كانت. إن بلاده مرتاحة لابتعاد شبح الحرب وإخماد النشاطات الهدّامة، لكنها تحسّ أن هذه البلاد باتت مهدّدة بـ «فايروس» خطير منذ أن أطلق فيضي السعيد نداءه ومُخرّبيه.

لم يفهم بابكر عبود بالضبط المرمى الدقيق لكلام السفير. أحسّ بغموض أن ثمة سخطاً، وأن وجوده على رأس الحكم غير كافٍ للقضاء على الفيروس.

أحسّ أيضاً، والغسق يزداد كثافة في الفضاء وفي عينيه، أن بابكر عبود يجب أن يصفع هذا السفير الرقيع لتعريضه الملتبس ولإبهامه. غير أن المارشال الرئيس لم يكن في ذلك الشتاء الاستثنائيّ المطير متأكداً من أنه قادر على الغضب. استعاد في خاطره الطفرة الداروينية التي رفعته من متشرّد همجيّ إلى رئيس يصدر المراسيم على الطريقة السويسرية. إنه يعرف يقيناً، عبر طبابته الذاتيّة المستمرة، أن تلك الطفرة لم تعد تتسّع لهيجان بدائيّ كان ناجعاً أمام محمد علي باشا، لكنه الآن فاجع أمام سعادة السفير.

وغمغم السفير مزيداً من الكلام الملتبس المبهم أن الشخص قد مضى، ولكن من يضمن أن الفكرة لم تعد باقية؟ إن ثمة نزوعاً إلى السحر في هذه البلاد. وهو يجعلها تمضي ضد قوانين الحياة وضرورات التاريخ. وإلا فكيف تفسّر تلقّف القبائل في عمريت والمخاة لطفل قد يكون أباه فيضي السعيد أو أحد رجاله الكامنين تحت الأرض، طفل ولد لامرأة داشرة مجنونة فصار مثل يسوع منتظر، صار رمزاً وراية يغذّيان الغلّ الكبريتيّ في

صدورهم ضدّ رجال عاقلين مثل السلطان ناعوس وفنسنت جانسن؟

لم يستطع الكلام الأمريكي المتموّج أن يلج التعاريج الضيّقة المواربة في عقل بابكر عبود. لكن زوايا انفتحت هناك ودخل منها السنجاري الذي كان سبّاقاً على الدوام، والمرأة التي كانت المحرّض البيولوجي للطفرة الداروينية، والطفل الذي لا بدّ أنه يحبو الآن بين جذوع الشجر وخشخشة ماء السماء.

هذا الطفل، ما اسمه؟ ما اسم الأطفال الذين ولدوا خلال سنوات حكمه؟ كم عددهم؟ لم يعد يسأل أحداً عن أطفاله. فيما مضى كانت سلسلة ظهره تشتدّ كلما سأل. أما الآن فليس سوى تيار صقيعي يندفع في نخاعه الشوكيّ كلما تذكّر طفلاً، أيّ طفل، ذلك الطفل.

كان أهالي كفرطيبا يتوقّعون نوعاً من المجزرة وهم يشاهدون مدينتهم مطوّقة بالمجنزرات والدبّابات. وكان المارشال الرئيس يعبر قناة انفغرت في دماغه فجأة نحو أعماق مائرة من الاستبداد وشهوة الدم، عندما خرج السنجاري من مخبئه التاسع والأخير في كفرطيبا منطلقاً نحو سور الدبّابات ليسلّم نفسه. كانت شوارع البلدة فضاءات موحشة وريحاً شمالية تصفر كعزيف الجنّ. وفي واحد منها مشى هو متدثّراً بمعطف سميك قديم ليقي جسمه من لسعة البرد.

هو يعرف جيداً بابكر عبود. منذ أن التقاه في المقهى وهذا الرجل يوحي بأنه سفّاح مع وقف التنفيذ. شيء في لبلاب نفسه الصفيق، شيء من التفكّك، أو الخور، أو الحلم الطفولي بنومة قريرة في رحم الغابات، شيء لا بدّ وأنه كان وراء امتناعه عن الزواج، كان أيضاً وراء امتناعه عن القتل.

لكنه الآن يبدو بلا التباس مصمّماً على حرق كفرطيبا كلها إذا لم تسلّمه رجلاً واحداً.

فوجىء المقدّم طلحة، قائد الحملة العسكرية، بالرجل الذي قدّم نفسه له وقال إنه مرعي السنجاري. طبعاً! ألم يجلس معه عدة مرات في مقهى سانتياغو؟ «احترامي، سيدّي» هتف المقدّم. وبعد برهة من الحديث هتف ثانية: «سيقتلك يا أستاذ. نحن معنا أوامر بقتلك».

«المهمّ الآن، لا داعي لقصف المدينة»، قال المحامي المتقرمد برداً.

«لن نقتلك يا سيدي، لكن لا ندري ماذا نعمل».

«الأمر واضح، انضمّوا إلينا». تمتم السنجاري بصوت هادىء مشحون. «اتصلوا من

مبنى الهاتف بزملائكم في بقيّة المحافظات. الشعب كله يدعم عصيانكم. ستبقى العاصمة منقطعة عن العالم حتى يستسلم عبود».

رغم هذا لم تنج كفرطيبا من سفك الدماء. علم العقيد مأمون بانقلاب المقدّم طلحة، فدوت طلقات المدافع وانفجارات القنابل. وبعد أن نهضت تلال صغيرة من الأبنية وأشجار الشوارع والجثث، ابتسم العقيد وغادر مجنزرته إلى المقدّم رافعاً راية بيضاء. «كان لا بدّ من هذه المعركة»، قال للمقدم. «إذا لم تنجح سنقول إنها كانت حركة تمرّد لضبّاط صغار، وتمّت تصفيتها».

لكن المارشال الرئيس، وقد سمع نداءات إذاعة كفرطيبا، ازداد وداعة وإلحاحاً في طلب الصحبة والنكتة والولائم. وقد فعل الشيء نفسه إذ جاءته الأنباء غير المنبئة من بندرة والمدن الأخرى. لقد أرسل إلى كل منها حملة واحدة سرعان ما كانت تنضمّ إلى الحامية وتنفصل بالمدينة عن العاصمة. لم يرسل حملتين قطّ إلى مدينة واحدة.

لكنه شتم الأمريكيين ومعهم السلطان ناعوس آلاف المرات. وراح يتكلم كما لو أن أحداً في غابر الزمان، منذ عصور سحيقة، أقام اتفاق شرف مع كائنات وسيمة غريبة ليست من محيط جسده وعقله لكنها تحثّ فيه نشاطاً غريباً تلقّفه وهو تائه مشرّد (وحالم وسعيد) في طول بلاد النهر الكبير وعرضها. وبعدها صار ذاك النشاط ملايين الخلايا، ملايين الأمنيات والأشواق والاندفاعات. كأن جسداً آخر كان ينمو داخل جسده وعقلاً آخر داخل عقله. وبين حين وآخر كانت تلك الكائنات تطلّ من فرجة في غيهب السماء، أو ميسة من صفحة النهر الكبير، أو خفقة من تلك الغابات، وقد تلقّفت شخصية بابكر عبود الركيكة المتّضعة الخائفة، التي هزّت دول النهر الكبير.

وكان ذهنه قد أصبح ينظر إلى بابكر عبود باعتباره سياقاً تاريخياً مضى، يتّصف بالتلكّؤ والانفراط والسخسخة، وإلى ما قبل بابكر عبود باعتباره ما قبل تاريخ مفعماً بالصرخات الوحشيّة والخضوع الأبله للقمر النعسان. أما المارشال الرئيس فهو الحضارة. هو الانجازات والتقدّم. الطفرة الداروينية.

ها هم جاءوا. وبينهم الأمريكيون اللابسون طاقية الاخفاء، لتوجيه تلك الصفعة إليه. لإقالته ونزع أوسمته.

لقد اختلط ذلك التاريخ كلّه بالهول. ويومها هتف نذير النميري: «أيها الشعب العظيم ما أروعك!» والتفت إلى بدر الهلالي المتشرّب أخبار الجموع الهاجة بجوارح خافقة، وهمهم: «هذه أمّة تمتلك كلّ شيء، ولا ينقصها سوى دولة تحقّق لها طموحاتها».

أجّل الصدامَ الدامي خوفٌ جميل بارد من فظاعة سقوط الضحايا بين تقاطع النيران. أختفى سكان بعليتا. تواروا كما يتوارى النمل في الشتاء. وبدت بعليتا مدينة أسدلت على ذاتها ستائر سميكة كاتمة للصوت، وأطلقت بدلاً من البشر أشباحاً داشرة.

خرج المارشال الرئيس بنفسه ليقود حرسه الجمهوري ودبّاباته. ولأن هؤلاء ظلّوا على نحو ليس جديراً إلا بالإعجاب والثناء مخلصين لمارشالهم، فقد ائتمروا احرفياً بأوامر بابكر عبود الذي كان يناضل باستماتة رصينة باردة للبقاء مارشالاً ورئيساً ـ وللبقاء.

كانت أوامره تصدر من تلك المرآة التي انتقلت إلى داخله بتموّجاتها النهريّة وأشرطتها المتهزهزة. وشيئاً فشيئاً أخذت الشوارع تختنق بالتلال الصغيرة التي سهّل نشوؤها على مفيد العبدالله أن يعرف لماذا همّت فيضة قبل سنوات بضربه يوم شاهدته يحمل عظمة فخذ إنسان. لقد كان الذين قتلوا يحبّون الصباح والعمل والطعام والجنس، ويقولون كلاماً في التقدّم والحداثة والاشتراكية والديمقراطية.

وها هي ذي ثلاثة أيام أخرى تمضي فيها انفجارات النار تتقاطع داخل بيوتهم ولحمهم. «ما أبهظه ثمناً، ذلك الذي تدفعه الشعوب للخلاص من طغاتها»، قال نذير النميري.

في اليوم الرابع غضب العقيد نوفل أبو الدهب، وأيضاً أستطاع أن يعتقل بابكر عبود. قال له إن القصة انتهت، فأطرق ذلك الرأس الذي لم يعد في تلك اللحظة قادراً على تصنيف نفسه. وإذن فالعقيد نوفل هو المكلّف بتوجيه الصفعة.

بعد أن انسحب الحرس الجمهوريّ إلى مواقعه العسكرية اندفع البشر والجنود فوق تلال الشوارع، وفاضت البيوت بسكانها. ثم حدث ما كان لازماً أن يحدث، ما كان طبيعياً (وإن بشعاً) أن يحدث. لقد اهتدوا إلى معتقل بابكر عبود. كانت غرفة خلفيّة من القصر الجمهوري أوصدت عليه انتظاراً لنقله إلى التلّة السابعة.

لا يمكنك بالطبع أن تقدّر عدد الهاجمين، ولا حتى عدد الرصاصات التي انطلقت لتخردق جسداً بدا الآن منتفخاً مسترسلاً كريهاً. لكن الذين أقسموا على خوزقته طرحوه أرضاً وظلوا يطلقون النار على ورائه حتى فرغت مسدساتهم.

وأخيراً أقبل ذلك المساء الذي لفّ بعليتا بظلمة نجيعية. وفي منتصف الليل صدر من إذاعة البلاد بلاغ رقم واحد.

- ٦ -

« يجب ألاّ يحكم عسكريّ هذه البلاد مرة أخرى »، هتف نذير النميري وهو يعانق طاهر العطا الخارج حديثاً من التلّة السابعة.

زفر طاهر ممسكاً بيد نذير ويد بدر الهلالي، ثم يد مخيبر فعبد العليم فاسماعيل فمفيد.. « هذه البلاد أروع البلدان. لا يحدث كثيراً في التاريخ أن تطوّق مئات الألاف قصر الطاغية لتأخذ بيدها حقّها منه ».

وصاح بدير بسخط: « شيء فظيع! ثلاث سنوات وأكثر أضاع هذا المجنون من عمرنا ».

في ذلك اللقاء ولد تعبير (الحرّية الثانية)، ليصف مرحلة ما بعد بابكر عبود. وقد طلب مفيد منا كلّنا أن نقسم يميناً بالمحافظة عليها مهما كان الثمن.

مصعب فقط لم يكن موجوداً. أمضى الأيام الأولى من الحرية الثانية وهو يمخر عباب نشوة لزجة بأنه يلقى حياة من جديد لقاءها الأول. يوم ساقها جنود المارشال الرئيس إلى السجن، كانت السنتمترات المراوغة التي بقيت بينهما منذ اللقاء الأول قد أمست مسافة تعجّ بالأسئلة والمخاوف. رغم سنوات العشرة الطيبة والحب المطلق، بقيت هناك. أن تكون عاشقاً، وأن تفصلك مسافة عمّن تحبّ، تفصلك لحظة يندغم جسدك في جسدها، كان شعوراً مضنياً غير مفهوم. ولكن ها هو ذا يلمحها وتلمحه في ساحة الشهداء، حيث قوافل المعتقلين تلغي المكان وهي تهبط من سيارات الدولة لتستأنف حرّيتها ومواطنتها. هكذا بلا مقدمات ولا موعد سابق. هجما، كل منهما نحو الآخر، ممدودي الأيدي، مليئي الحنجرتين بالصوت، والعيون بالماء. وراح حشد البشر المتلاطم الكثيف يقربهما ويبعدهما حتى التقيا أخيراً، واستطاعا أن يجدا مواطىء لأقدامهما.

شيئان وسط ذلك العباب وقفا بلا هوادة حاجزاً بين الجسدين الهادرين: عاصف، الذي صرخ محتجاً على هرس عظامه الطريّة، والكائن الرحمي العنيد الذي صنع لنفسه

مكاناً ومظلة بأن دفع بطن حياة في جميع الاتجاهات ونفخه.

وشيء ثالث غائب، هو تلك المسافة. قبل سنوات، انسلّ مصعب إلى روح فيضة وانسلّت إلى روحه، وكانت عيناه مغمضتين. وعندما عاد من أمد المطلق ذاك، من رحلة المليون سنة ضوئية، بعد ثوان من انفتاح عينيه، أحسّ أن فيضة قد غادرته حقاً، وأن عليه أن يسعى إليها كما لو أنه فقدها. ظلّت تهيم على أرضه الروحيه منذ ذلك اليوم، لكنها لم تدخل منزله الروحي قطّ. وإذ التقى بحياة، ثم تطوّب ذلك اللقاء في غرفة فيضة، امتشقت روحه مطلقها من جديد. كان واثقاً منأن تلك المسافة ستندثر.

غير أن حياة البشر لم تسمح - لا تسمح، على ما يبدو. (ولكن أليست فيضة بشرية؟) لا بدّ للمسافة من أن تبقى، وخاصة إذا كنت ديمقراطيّاً. الحبّ سيل مجتاح، لا يقبل من أحد أن يشعر بنفسه، وحياة تشعر بنفسها، تشعر بقوة.

«إحدى حسنات اعتقالك يا حياة، أنه أذاب الجليد عن حوافي الطريق».

«عدت إلى استفزازاتك؟»

كانا في البيت الآن. أحسّت حياة أنها فهمت كلاماً بريئاً فهماً سيّء النية. وأحسّ مصعب أن كلماته ربما كانت أقل شفافية من واقع اللقاء. التفتت هي دون أن تفلت يدها مغلاة القهوة، وكان هو يقترب وعيناه تبتسمان لبطنها المتكور، وتبادلت أعينهما ابتسامة.

حسناً. من قال إن مصعب السبئي يرفض الديمقراطية. لخير لك أن تحبّ من مسافة امرأة واقفة ملموسة كحياة من أن تحب امرأة تصل إليها لتجد أنها سديم.

بعليتا. بعد شهور من التشرنق الأسيان المندحر، من الاضراب شبه المطلق عن الدولة، خرجت من أغوارها. لم يكن غريباً إذن أن ينبثق من مصعب وحياة ذلك الشيء الجوّاني الأعمق ويتخّذ شكل الفرح والحيوية. قبيل اعتقالها الثاني، كانت الانفجارات الصغيرة قد تركت بينهما عكراً متناوباً. لكن المحبّين يرفضون الأعتراف بأهمية خلافاتهما وخطورتها. كانا واثقين أن الشرارات التي تطايرت من احتكاكات عنيفة مباغتة لن يسعها يوماً أن تضرم حريقاً في غابة مشاعرهما العميقة.

انبثقت الصحف أيضاً. أربع جرائد دفعة واحدة، تنطق باسم الأحزاب الجديدة. واسبوعيّة من أربع وستين صفحة تحوم حول مرعي السنجاري، وتجتذب مصعب وبرعي بدران وعدداً ممن يرفد الأدب والسياسة أقلامهم الصحفية.

وانبثق زيدان مصطفى رئيساً لحكومة انتقالية تعيد النظر في تلال المراسيم والقوانين التي

خلّفها بابكر عبود، وتهيء البلاد لجمعية وطنيّة جديدة». كان أول قرار اتخذته هو تعيين العميد نوفل أبو الدهب رئيساً لأركان الجيش. «نصيحة أخوية»، قال العميد للسياسيين المتجمهرين حوله عشيّة البطش ببابكر عبود .كان يبتسم موكئاً جسده على ساق واحدة. «نصيحة سيأتي يوم وتقدرونها. الانقلابات غواية ممتعة لكثير من الضباط. الفرق بين إعطاء الأوامر للعساكر والقيام بالانقلاب، فرق مثل الشعرة. ضعوني على خازوق رئاسة الأركان. بهذا تكون الديمقراطية آمنة ـ من ناحية الجيش طبعاً. طالما أنا هناك، العبوا لعبتكم أنتم على كيفكم».

خلال سنة انتقالية، وسنتين من رئاسة سعد الله شمداوي للوزارة، فتحت أبنية بعليتا الجديدة هلالين حول التلّتين الأولى والعاشرة. أخيراً، حملنا بيوتنا إلى تلك الديرة العتيقة ونصبناها هناك، بعد أن كنّا نجتاز مسافات ومسافات لنصل إليها بأقدامنا فقط. وصار فوج جديد من الأطفال والشباب، أفواج، تنتقل إلى التلال بيسر وتعانق أسرارها الجوفيّة، متلقّية النشوة نفسها والانذهال اللذين تلقّيناهما من قبل. وكان لهم أن يفرحوا، زيادة على فرحنا، بالولوج إلى التلّتين الرابعة والسابعة (التلال المحرّرة)، وقد خلصتا أخيراً من السجون وزوايا المباحث.

كثُـرت البيوت الجديدة، وكثرت الأقدام الجديدة، الأطفال الذين راحوا يولدون بغزارة وبلا توقّف. كأن تلك الشوارع قد شُقّت فقط لتفسح المجال أمام مجتمع معافى يتكوّن من الأغصان والبراعم. (وحده الاستاذ فاضل رفض أن يسميه مجتمعاً جديداً: هذه عملية إنجاب أفراد، قال، وليست عملية إنتاج مجتمع. المجتمع ليس مجموع أفراده، قال، وخاصة إذا كان هؤلاء الأفراد جيلاً مثلكم تستحيل موضعته في طبقة محدّدة، وتستحيل موضعة كتلته في بنية مجتمعية معطاة. من يدري؟ ربما استطاع سعد الله شمداوي إعطاءكم شكلاً، مجتمعياً وطبقياً، إذا اكتملت مشروعاته الاقتصادية الطموحة).

بالمقابل راحت المقبرة تقترب من المدينة. أكان ثمة تضادّ خفيّ، أو تسابق بينهما على المسافات في فضاء متنافر؟ إن مزيداً من التذكار ومزيداً من التفصيل يجعلان الأمر برمّته يبدو رمزياً: اقتراب المدينة من التلال، واقتراب المقبرة من المدينة.

وهذه الهلالات؟ كانت عجيبة حقاً. وقد توّجـت عجب نشوئها باكتمالها الحتميّ، صارت بدوراً مراكزها ساحات خضراء ووشماتها جنائن. فهاذا لنا أن نفهم من هذه الدورة النجية، نحن ورثة أرض كان أوّل ما عرف عشاقها هو عبادة القمر؟

هذه تساؤلات متأخّرة. الآن فقط، ونحن نتطوّح تحت ضربات الشمس ونمتشق في

أعيننا انتصابات الأصنام، نجسّ وجوه قتلانا ونفتح الصدور لعاشوراء، الآن نترك حبل الخيال على غاربه ونشتقّ رموزاً من دورتي الزمان والقمر.

يومها كانت الحياة أبهر من أن يمتلكها العقل المستنبط للرموز. انفتحت للعيش، انساحت، توالدت. خلال أسابيع قليلة من الجلاء الكابوس اكتشفنا أننا صرنا عائلات صغيرة ولم نعد أفراداً وحسب ينتقون دروب حياتهم. صار لكل منا بيت بالأجرة، يضمّ غرفة استقبال فيها كنبات ومناضد. فصار بيننا زيارات عائلية، وولائم (كلّ شيء كان رخيصاً وفيراً)، ومشاوير، وأطفال يلعبون معاً. وبعضنا اشترى «بوتاغاز»!

ثم انجلى ذلك الشيء الغريب المخاتل الذي رشرشنا بأسئلة كثيرة وتركنا في أوج تجلّيه بلا جواب.

كانت جلساتنا ومشاويرنا العائلية تتّخذ مساراً مغنطيسياً ما لبث أن تحدّد وانحفر في فضاء أريجيّ مزوح. كنا نلتقي، وبعد دقائق من اكتمال الحضور نصنع قمراً واحداً ذا هلالين واضحين بينهما بحيرة سوداء: هلال للنساء وآخر للرجال.

طاهر العطا، الذي أربكه دائماً حضوره مفرداً، انتبه إلى هذه الظاهرة الفلكية في حياة مجتمعنا الصغير. وكان بدر الهلالي، ضيفاً أو مضيفاً، هو الذي ينهض بأسلوبه المقدام النبيل ويَفرض إعادة التوزّع شفعاً فوتراً. خلال ثوانٍ من الإلحاح الودود كان الهلالان يتداخلان فيعطيان البدر الذي أراده بدر. وإلا فأين التقدّم؟ أين التحرّر؟ وماذا يعني المجتمع الجديد؟ «يجب ألا يفصل فاصل أبداً بين الرجل والمرأة».

لكن الشكل ظل شكلاً. النشاط الوحيد الذي آلف بين القلوب لم يكن الرقص، مثلاً، أو الغناء، أو الإنشاد (رغم وجود مصعب)، أو الموسيقى، بل الطعام والكلام. كان شطر كبير من الطمأنينة الاجتماعية يدخل النفوس منطلقاً من واحة الطعام الناشرة على الطاولة. أما المشاركة العقلية فقد فشلت إلا في أن تكون مدعاة للفزع والارتباك. بالنسبة للنساء، كان لتحرير المخاة (قلعة الاستعمار والامبريالية!) وعمريت (قلعة الرثاثة والعمالة!) تعابير غلساء مبهمة، ولكن مألوفة للأذن وممكنة السماع ـ ولو أن الامبريالية لفظة أشبه بأجمة شوكيّة. أما التحرّر فقد اتخذ على الفور صوراً جنسية خالعة، ليست أقل من الوقوف العاري في ساحة الشهداء، وصولاً إلى تعدّد العشّاق. والشيء الفادح المرهق حقاً هو اقتران هذه الصورة اقتراناً راعداً بالاشتراكية (التي يبدو أنها بساط أحديّ يجلس عليه الجميع، أو شيء مثل هذه الوليمة) وبالتقدّم (الذي يبدو خطوة لذيذة نحو مجهول مقلق وأحياناً تحرّري). حتى زوجة عبد العليم الغزال، الأبسط جمالاً ولكن الأكثر دراية، كانت

حيوية ذهنها تجد مكان راحتها الطبيعية بين البقالية والمطبخ.

أكان كثيراً والحال هي هذه أن يفوز الباشوات بعد عام بأغلبية مقاعد الجمعية الوطنية؟ أم أن الدولارات التي توغلت في السياسة البعليتية كانت وصلاً أعطي لاستمرار ذلك الشيء الراسخ العنيد، المتأبّي على التقدم والتحرر؟

وحدها حياة نجت من التقسيم. دخلت عالم الرجال بلا عناء. كانت سياسية مناضلة ومفكرة، ومنطلقة بجدّية مغيظة على درب التقدّم والتحرّر. هي وحدها استطاعت أن تقلب الموائد (الذهنية لا الطعامية) بمجرد حضورها أو غيابها. إذا حضرت استقطبت. وإذا غابت فلشت. ولأنها لم تكترث، تركت لدى الأخريات حسّاً عكراً بالضآلة وترقّباً مستتراً للهفوات - هفوات حياة بالطبع، التي كانت كغيرها سهلة الوقوع، وبعكس غيرها سهلة الالتقاط. كانت امرأة حرّة من الداخل، تنطلق بعيداً عن الكوابح البعليتية العريقة، وقد آمنت حقاً بأنها ستنجز يوتوبيا الكتب.

في تلك السنين النبيلة كنا نختلف فلا نضطرّ إلى ابتلاع ذلك القذى. لطالما أعلنّا الخلاف في علاقاتنا دون أن نخشى تصدُّعها. لإيلافنا كان ثمة رحلتا الحلم والتوق، وقد كانتا زاداً كافياً وحركة لا تنقطع.

العلّ ذلك الزاد كان شحيحاً لدى زميلات حياة الاجتماعيات. لعلّ الحركة كانت أبطأ مما هو مطلوب للابتعاد عن الرتابة. لكنهما كانا التوكيد الخارجيّ الأول لمشاعر متسدّمة لم يجرؤ أصحابها على تلسينها أو تجسيدها؛ مشاعر أثارت الاضطراب والحيرة في نفوس الطرفين المتعاقدين على الحياة. صحيح أن سمحة بالكاد ملأت ذراعي نذير الهلاليتين وروت بتلك القلّة عطش حاجته لامتلاكها كلّها. لكنها كانت قليلة أيضاً في جعبة عقله وشعاب اندفاعه. كذلك اكتشف بدر أن أميرته لم تخبئْ داخل اسمها سوى القليل من تلك الطاقة، وذلك الاندفاع. لقد أضنى روحه، هو السريع إلى اكتشاف العطب، السريع إلى تلافيه، أن يلمس فيها مرة بعد مرة كسلاً في العمق وانكماشاً في المدى، وأن يفشل مرة بعد مرة في أن يجعلها تهتزّ ضحكاً لنكتة، دعك من أن تصنعها بنفسها.

كانت سمحة وأميرة أوسع مع ذلك من «عقيلة» مخبير سرحان. إن أحداً لايعي كيف تزوّج بغتة هذا الذي ظنناه مكرّساً إلى الأبد لذلك الحبّ المستحيل، وربما لتلك الشهوة المستحيلة، التي طيّرت عقله وراء فيضة. باديء الأمر تعاطفنا وبشيء من الرثاء مع فشله الزوجيّ السريع والمعلن. ثم سرعان ما بات معظمنا يبحث بطريقة أقل افتضاحاً عن أفق ينشر عليه شقوق روحه الداهم اللجوج، متطلّعاً بين الحين والحين بعين الحسد والغيظ إلى

المسافة المريحة الآمنة التي اجتازها مخيبر بعيداً عن الوفاء الزوجيّ.

لقد جاءت حياة من السجن إلى ذلك المجتمع بعد عامين أو ثلاثة من الزواج، وجعلته يرى الفرق بين امرأة وامرأة، ورجل ورجل أيضاً. لكنها، لا هي ولا عام كامل من التفرغ المعيشي بعيداً عن السياسة وهموم الوطن والتقدّم، جعلتنا نلمس أن الزواج كان ذلك المعماريّ الرائع الذي شيّد للمتزوّجين جسراً يعبرونه إلى الشرق الجديد.

عشر سنوات على الأقل مضت قبل أن يدرك أوّل ذكيّ بيننا أن الزواج مسألة اخْرى تماماً غير الحب، وأنه قد وصل إلينا كشكل غير معلن من أشكال الرثاثة، أنه يَسَعه رعاية أيّ شأن من شؤون الحياة إلا تلك المتعلقّة بصبوات القلب.

ولكن من كان يقدر أن يستوقف اندفاعته يومها كي يتحقّق من شرخ أو خطأ؟ لقد تقدّمنا بيقين مطلق أنه لا بدّ أن يستجيب القدر، أن إرادة الحياة والتقدّم لا سبيل إلى ردّها. لم يكن ذلك الشيء القديم العتيق، الذي أحلّ شمس الرجال اللاهبة محلّ قمر النساء الشاحب، ليرفع رأسه على أفق عيشنا بأي قلق أو خوف. أن يظهر البدر المكتمل من الشرق في اللحظة نفسها التي تشهد اختفاء الشمس العندميّة في الغرب، كان بالنسبة لنا أحد توازنات الطبيعة العظمى، وليس حالة استقطاب مستحيلة اللقاء كالتي رفض بدر الهلالي الإقرار بها. إن هذين الهلالين - قلنا لأنفسنا - سيكبران داخل الدائرة نفسها (وهي دائرة كونيّة) حيث تكبر بعليتا ونيلوتيا وطفل فيضة، وسيلتحمان كما التحمت البيوت والبشر بالتلال.

مصعب وحياة (ربما وحدهما) تعلّما باكراً هذه الإشكالية الجارحة. وباكراً أيضاً قرّرا أن يهزماها.

رأينا كيف اصطدمت ليبراليته التي لم تستهوها بشيوعيتها التي أخافته. وكان الصدام تلاقحياً فولّد الحب. كانا تيارين يتدفّقان من أعماق الجبال المجهولة نحو السهول الموجاء. وفي مكان ما تقاطعا بزاوية حادّة فتطاير رذاذ شرريّ ثم انعطفا في مجرى واحد جديد. عاشا تلك السنوات الجميلة سعيدين باندفاعتها المشتركة، بالفعل الذي ينجزه كلّ منهما، وبقبول الاختلاف. لقد التقيا في نقطة ما بين التضارب الفكري والتماثل العقلي، وضربا هناك مظلّة للديمقراطية. وكانا لنا مثالين جميلين.

حقيقة الأمر أن مظلاّت عديدة انفتحت هنا وهناك وفي كل مكان. لقد عصف ديوان مصعب الأول بالعقول القارئة، وأقام بين القصور السلفيّة الدكناء خيمة غجرية زاهية، متخفّفة من عبء الجلال والأردية والتطاريز.

وها هو ذا بشارة فتاحي يصل إلى مسرحه وسط فسطاط شاسع من الأكتاف التي حملته فصنعت من جسمه الضخم قبّة لها. لقد أعطانا يومها درساً رفضه سعدون فوراً ونسيناه نحن فيما بعد. فكرمى لهذه الأكتاف أعاد عرض مسرحيّة (ثمن الحرية). كان الاقبال شديداً في الأيام القليلة الأولى. لكن عدد الحضور راح يهبط هبوطاً سحيقاً غير معقول. وجاء يوم سريع أوشك المسرح فيه أن يخوي. يومها جلس بشارة في أحد الكواليس صافناً مهموماً. هذه المسرحية التي صنعت منه بطلاً صغيراً، لا أحد يريدها الآن.

ثم ما لبثت الفكرة أن خرجت من العتم وضاعت في رأسه: لقد سقط المارشال الرئيس فسقطت معه مسرحية بدا أن صراخها السياسي هو تزكيتها الوحيدة.

قال سعدون إن إيقاف عرض المسرحية مؤشر على انكسار المدّ الشعبي التقدميّ الذي أطاح بالدكتاتور الأسود. هذه المسرحية المناضلة يجب أن تستمرّ وتشاهد شهوراً. إذا كانت الثقافة الملتزمة نيزكية التأثير وقصيرة الأجل على هذا النحو فلا شك في أن الجماهير قد عادت إلى مواقعها المرزغية السابقة خارج سيرورة التاريخ. إن لعبةً قد لُعبت بنجاح، وحملت الجماهير على الاستسلام لأوهام الديمقراطية البرلمانية التي تطبّل أمريكا لها وتزمّر.

وحقاً فإن أمريكا كانت تحيّرنا في تلك الأيام. فبعد أن استبدلناها بهتلر في بؤرة عواطفنا المقهورة من الانكليز، رأيناها تشفط عمريت اقتصادياً واستشارياً، وتنصب فوق مخاة مظلّة عسكرية. وإذا كان كلام كثير قد سرى بشأن تحريضها بابكر عبود على الإطاحه بحكم الباشوات، فقد انتقل إلى الأفواه الآن كلام أكثر عن نشاطها السرّي المحموم الذي بذلته لإسقاطه. فكيف تهرول وراء الديمقراطية في بعليتا ثم تضربها على قفاها في عمريت والمخاة!

وفيما زيدان مصطفى يمسح بابتسامته الساجية آثار الدماء والأشلاء عن الجسد البعليتي، وينصب المظلّة البهيجة لحاكم يعرف أنه سيودّع قريباً، ازدانت المدينة بكلّ ما يدلّ حقاً على الديمقراطية. لقد تزركشت المعارض (والشوارع فيما بعد) بأنواع باهرة من السيارات الرّحيبة والدّراجات النارية. ونشأت بغمضة عين نواد تعلّم الجيل الجديد الرقص بأنواعه العديدة الرنّانة الأسماء. وفي الدكاكين لمعت زجاجات الكوكاكولا ذات الخصر النسويّ الرشيق، والوسكي الاستكتلندي ذات الطلعة البهية. وجعلت الروكفور كل صانع جبنة محلّية عندنا يحسّ بالتخلّف والقهر، فمثل هذا العطن الزاكي كان مستحيل الصنع في بعليتا.

وفوق هذا، مضى ما يقرب من عام وحياتنا مرتاحة تماماً من تنغيصات الجمعية

الوطنية للروح والأدمغة. إن أسعد فترة يمكن أن يعيشها شعب ما هي فترة التهيّؤ لانتخابات نيابية. إنها زمن يرفل بتوقّعاته البيضاء لبشر من صنف الملائكة يمكن أن ينبثقوا عن ضمير الشعب ووعيه ليرفرفوا على تلك المقاعد القدسية.

وقد انبثقت، بفضل الجرائد والدوريّات، ذكريات انتفاضة الشعب الظافرة على أول تزوير لأوّل انتخابات استقلالية. وراحت الكتلة التقدميّة (كما سمّت الأحزاب الاربعة تحالفها الانتخابي) تستعيد تلك التفاصيل في صحفها وتمجّد «الأيام الثلاثمئة» من الرفض والنضال التي تُوّجت» بظفر كاسح للإرادة الشعبية». وحذّرت من هسيس الدولار ولمعان الذهب اللذين قد «يُضرمان صراعاً اجتماعياً نحن في غنى عنه خلال هذه المرحلة الترميمية من عهد الحرّية الثانية»، لأن الإرادة الشعبيّة لن تسمح «بالسمسرة الانتخابية، المدنّسة لأقدس مكوّنات المجتمع المدنيّ الحديث».

كان مرعي السنجاري، الرئيس غير الرسمي للكتلة التقدميّة، قد دخل بعليتا مع مئات آلاف الداخلين بعد مصرع بابكر عبود. وسرعان ما تحوّل مقهى سانتياغو إلى مرسح انتخابي له ـ ليس بالضيافات التي قدّمها بل بمجرّد وجوده مرّة كل أسبوع. وقد تخضّبت وجوه الناس في ذلك الخريف بحرارة إيمان لا يتزعزع أنه والكتلة الديمقراطية فائزان لا محالة بالأغلبية النيابيّة على حزبي الباشوات. أليس هؤلاء هم الذين أسقطوا الدكتاتور الأسود؟ أليسوا هم الذين استنهضوا كل همّة في البلاد ليستردّ الشعب الديمقراطية ويتقدّم على طريقها؟ أليسوا هم الذين سجّلوا مرة أخرى في دفتر النهر الكبير استجابة القدر لإرادة الحياة عند الشعب؟ ألم ينجل الليل وينكسر القيد؟

بعدئذ انبثقت فيضة والدراويش. كان جمهور مثير للفزع من الدراويش الفارّين إلى عمريت قد عاد خلال الأسابيع الأولى من الحرية الثانية. ثم جاء فوج جديد يوم خرج من رئاسة الأركان في بيت رع جنرال آخر فقتل أواخر الصيف أمير البلاد ورئيس وزرائها، وأعلن نهاية العهد الباشوي وبداية رئاسته للجمهوريّة. لقد صارت بعليتا ملجأ لدراويش بيت رع بعد أن كانت تطارد دراويشها هي. وفي مناخ الحرّية العارم المستعاد تسلّل هؤلاء إلى الزوايا والتكايا من جديد. كأن أيام زمان لم تنصرم، ومراسيم بابكر عبود لم تصدر.

لم نعبأ بظهورهم. فهؤلاء سيبقون رموزاً للرثاثة أكثر منهم قوة سياسية يمكنها أن تتصدّى لإرادة التقدّم. غير أننا وقد حدّد أخيراً يوم الاقتراع العامّ على الدستور الجديد والجمعيّة الوطنيّة الجديدة، بدأنا نلمس تجلّيات مثيرة لذلك الظهور. هنا وهناك راح الدراويش الرعويون (بيت رع) يجمعون حولهم أنفاراً من المواطنين ويسلبون عقولهم

بممارسات غريبة. وازداد عدد هؤلاء بانتشار الأخبار عن تلك الممارسات. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى بات القاع الشعبيّ للمدينة ينتفض بالإثارة التي طغت على نشاطاتهم. وراحت الأقدام الفضوليّـة تخبّ نحو أقـرب تكيّـة أو زاويـة كـأنها ذاهبـة إلى مسرح أو سينما.

ثم غدا واضحاً أن الأمر برمّته مرتّب ترتيباً دقيقاً. كانت البداية عند شاطىء النهر. كان عادياً فيما مضى أن نشاهدهم متربّعين هناك ممسكين بصنّاراتهم، هامدين في فضاء مطلق من السكون والهيمان، دون أن يسحبوا صنّارة أو يخرجوا سمكة. غير أنّهم هذه المرّة أخرجوا السمك. بالطبع لم يخفّفوا شيئاً من همودهم وهيمانهم. بل ربما ازدادت هذه الحالة شدّة وتملّكاً. وكانت الدقائق التي تمرّ بين انبثاق سمكة وأخرى من جوف النهر توحي بتوقّف نهائي لِحركة الكون. وفجأة ينشقّ الماء وتعلـو منه سمكة هادئة علواً نيزكياً. وفي نقطة ما من الفضاء تتوقّف السمكة كأن اندفاعتها العلويّة قد نفقت، ثـم تنعطف هاوية نحو سلّة القصب الجاثمة عند رضفة الدرويش.

هذا وصـف موجز ملطّف لعشرات العبارات التي تلاطمت في فمي أمّ مصعب وأم إسماعيل وهما تلهثان أمام جاراتهما نبأ الأعجوبة التي شاهدتاها بأمّ أعينهما، وجاءتا بدليل حاسم عليها: هذه السمكة الضخمة وهذه السمكات الستّ الصغيرات.

منذ القديم وللسمك في الوعي النيلوتي الغافي منزلة الصنم الخفيّ. وها هم الدراويش يطلقون عبارة «افتح يا سمسم» العالمية، فتندفع نساء المدينة وراء ما لم ينبلج في خـاطـر الدراويش أنفسهم. أليست معجزة رجال الله هؤلاء إيذاناً بمجيء عهد الأسماك من ألف ليلة وليلة؟ مؤكّد أن أمّ مصعب، أو أمّ نذير، ستجد ذلك الخاتم العريق وهي تشقّ بطن السمكة لتنظيفها. ولسوف يهبط المارد المروّع العتيق أمامها كزوبعة من نار، وهي تمسح على الخاتم لتنشيفه ليلبّي كل طلباتها.

لكن أياماً سريعة متزايدة مرّت دونما خاتم. وعندها اكتشف الناس الخطأ. لقد كان في الأمر نوع من المغالاة. فالخاتم قصّة خرافيّة قديمة، غير مقبولة للعقل، في هذا العصر الذي لم يعد يقبل سوى الحقيقة العلميّة. يمكن للسمكة أن تبتلع لؤلؤة مثلاً، جوهرة ألماسة، أما أن تبتلع ذلك الخاتم ففكرة سحرية صرف.

وهكذا صار الرجال يأتون إلى منازلهم في وقت أبكر، حاملين ما استطاعوا انتزاعه من السمك. لقد تردّد أن إحدى النساء في الحارة الأخرى عثرت فعلاً على لؤلؤة. ولم يكن زوجها ليخفي عن أحد حقيقة ذهابه إلى الجواهري ذلك المساء، واستبداله اللؤلؤة بمبلغ ثقيل من القروش. وإلا كيف يفسر شراءه بيتاً وارتداءه بدلة من طراز كريستيان ديـور، هو الذي لم يكن يحلم بالبيت ولا يسمع بكريستيان ديور؟

ثم أصابت اللقيا نفسها امرأة أخرى في حارة أخرى. لقد اتّصلت الحارات الآن، ولم تعد تنفصل بمساحات تملأها الآجام والأرانب والطيور. لذلك انتشرت الأخبار المتواترة وملأتها، وصارت المدينة في غمضة عين تنغل بأثرياء المصادفات السمكية.

فقط، لم تعثر أمّ مصعب على تلك اللؤلؤة. وكذلك أمّ بدر، وأمّ نذير، وأم إسماعيل، وأم مخيبر. دائماً كان العثور يحدث لغيرهنّ. دائماً كانت امرأة أخرى هي صاحبة الحظ السعيد.

تلك النعم السماوية ألهبت ليس فقط الخيال بل ألهبتْ حسّاً عتيقاً مشرّشاً بالخفايا الحيّة للطبيعة، بقدرة العناصر على الخوارق. أليس حديث الإرادة فوق كل حديث هذه الأيام؟ هاكم إذن إرادة من نوع تستجيب له تلك العناصر دون أن تعبأ بقوانين أرخميدس.

وكان سهلاً بعد ذلك أن يهرع الناس إلى «فرقة» صغيرة جاءت بلا سبب معلوم من بلدة نائيه عند حدود المخاة، وحلّت في تكيّة جنوبيّة قرب المقبرة. كانت (درباس) مشهورة بفرقها الصغيرة هذه، واحتفالاتها الموسميّة السحريّة الحافلة بالخوارق. وها هي تأتينا لأول مرة بدل أن نذهب إليها.

مساء كلّ خميس كان الناس يتوافدون ليشهدوا حركات تعيث بالألباب وتخبّلها. لقد كان أفدح ما في هذا (المولد) الأسبوعي الغريب وأكثره إخماداً للعقل تلك الرماح القصيرة المدبّبة التي يولجها ثلاثة من الدراويش في حلوقهم، يمرّرونها بين اللّهاة واللّوزتين إلى جدار الحلق، ويغرزونها هناك، يغرزونها وسبابة كل واحد منهم تدفعها بأناة ويسر وسط أفواههم المفتوحة، وتحت نظراتهم الساهمة الخائرة، ووسط حلقة مذعورة من أفواه المتفرّجين الفاغرة وأعينهم الجاحظة، والسبابات تدفعها كأنها قطعة شوكولاته يريدون إنزالها في المريء. حتى إذا برز رأس الرمح من الرقبة، امتدّت أيديهم إلى الخلف، وأمسكت بسبابتها وإبهامها ذلك الرأس، وسحبته، بأناة ويسر، سحبته من الرقبة كما تسحب خيطاً نيئاً من سم إبرة.

«ودون أن تنزل قطرة دم واحدة!» هتف سعدون المصعوق بهياج واشمئزاز. «هذا شيء يتحدّى العقل، يتحدّى العلم، يتحدّى المخابر! لو حكى عنه واحد منكم لهزئت به».

تمتم عبد العليم برخاوة: «كأنّ لهم صلة بدراويش الهند يا ترى؟ هناك يروّضون البدن

ترويضاً شديداً إلى أن يخضع للإرادة. يفعل ما تأمره به الإرادة».

«إرادة! إرادة!» صاح سعدون. «أخذتم كلام شاعر قانوناً للحياة! الحياة تمشي بقوانين أخرى غير الإرادة، يا سادة. قوانين التاريخ، قوانين الانتاج وعلاقات الإنتاج. ليس السحر والشعوذة».

تقبّل الناس نعمة السمك ورعب السمك بالنوع نفسه من الاندهاش والتسليم. وأيضاً صراخ فيضة المهين بالدراويش وبصاقها على سمكهم ثم ما لبثوا أن ضاقوا ذرعاً بفيضة. هذه المرة بدت خالية تماماً من الطرافة والجاذبية. كانت تصرخ بينما الحالة تتطلّب الهتاف.. تصرخ بغلظة وهستيريا، دون أن تخاطب شيئاً في النفوس، كما اعتادت من قبل. تصرخ فتبدو مختلّة العقل فعلاً، بل وموتورة الجنون. لقد أثارت الاشمئزاز ونفاد الصبر. عافتها جماهير غفيرة تعبر كل يوم بالزوايا والتكايا التي استعادت ديمقراطيتها هي الأخرى. وراح دراويشها يوزّعون على الناس الحروز، والتمائم، والتنبّؤات، وكشوف أسرار العشق والسرقة والقتل والنوايا والسفر. أحسّ الوافدون أنهم خلعوا عن أنفسهم لباس غربة جلببهم به عهد بابكر عبود، واستعادوا ألفة حنونة مع حسّ قديم آمن بالتواصل الرغيد مع الطبيعة الخطرة الغامضة.

كان السنجاري (والصحف بالطبع) سريعاً في التقاط «اللعبة الرخيصة» التي رتبّها «تجار الكوكاكولا وسماسرة الغيوب والمشعوذون» للتأثير في المزاج الانتخابي للشعب الواعي. لكن البلاغة والتحليلات السياسية البارعة، والمقولات التقدّمية المضيئة، واستبسال سعدون وحياة ومصعب في مخاطبة عقول الجماهير عبر الصحف، وكذلك المظاهرات العمّالية والطلاّبية والفلاّحية الكاسحة، لم تستطع ردّ القدر المحتوم الذي كشف عنه الدراويش لنصف نساء المدينة وربع رجالها. لقد فاز حزبا الباشوات بستّين بالمئة من المقاعد، وخسروا فقط ألقابهم. وخلال الأيام القارسة الأولى من الشهر الثالث انتخبت الجمعية الوطنية الجديدة زيدان مصطفى رئيساً للجمهورية والدكتور سعد الله شمداوي رئيساً للوزراء.

يومئذ عاش ما اصطلح على تسميته «الشارع» ذهولاً أخرس. أربع سنوات مضت ونحن نستيقظ كلّ صباح لنقول لأنفسنا إن عهد الباشوات صار وراء التاريخ، إن عزيمة التقدّم أمست جزءاً عضويّاً من كيان الشعب والحياة اليومية النيلوتية.

وها هو العكس تماماً يحدث. ها هو حزب الأمة وحليفة الحزب الوطني الليبرالي يقتنصان ستين بالمئة من مقاعد الجمعية. ولم يكن لدى المعارضة ـ صرنا الآن معارضة ـ

أيّ مطعن ملموس بنزاهة الانتخابات. كأن أربع سنوات من تاريخنا لم تفعل شيئاً سوى إزالة كلمة واحدة: الباشا.

لماذا الاستعجال؟ سأل سعدون. إننا فعلاً قوم لاتاريخيون. أولئك الذين فقدوا ألقابهم - قال هو نقلاً عن خاله الذي نجح رغم كل شيء في الانتخابات - ما زالوا يملكون القاعدة الاقتصادية الأساسية، وهم سيبقون كذلك لأنّهم بدأوا الآن تصنيع البلاد. ما هي أربع سنوات بالنسبة لسيرورة بالكاد بدأت؟ أمامنا مشوار طويل. يجب أن ننتظر قيام صناعة بعليتيّة على أيديهم. صناعة تنشىء طبقة عاملة. وطبقة عاملة تتحوّل بقيادة حزبها الثوريّ إلى طبقة ثائرة. وبعدها تقوم دولة البروليتاريا الاشتراكية.

« نريد أن تتمّ هذه التحوّلات على أيّامنا »، قال عبد العليم مستبسلاً.

« لا. في الوقت المحدّد. في الوقت المحددّ. المسألة ليست مسألة إرادة بل قوانين تاريخيّة ».

« يعني الجمعية الوطنية والانتخابات، لعبة موقتة، أستاذ؟ سيبقى الباشوات يلعبونها حتى تظهر العضلات المفتولة لشغّيلة فاتك السبئي؟ » سأل مفيد غامزاً.

« البرجوازية الصناعيّة أولاً. لا تقدم بلا برجوازية صناعية. ثم البروليتاريا، ثم دكتاتوريّة البروليتاريا. هذه ظهورات تاريخيه حتميّة، ظهورات! ألا تفهمون؟ » قال سعدون موضحاً. « النظام البرلماني مرحلة فقط. حتى أمريكا ستعمل على إسقاطه.. خارج أمريكا طبعاً. وها جاء العسكر وحكموا أربع سنين. ماذا فعلوا للباشوات؟ لا شيء. إذا حكمت البروليتاريا ثلاث سنين، لن يبقى من طبقة الباشوات إلا الذكرى ».

لم يعن فوز الباشوات هزيمة لنا، رغم صدمته الموجعة. لقد أخذوا الجمعيّة الوطنية وبقي لنا الشارع كلّه - القوى البشريّة الضاغطة الهائلة ووحدة الأحزاب الجديدة. « لكن أن ننتظر الظهورات التاريخيّة التي يتكلّم عنها الرفيق سعدون، فهذا كلام فارغ »، دمدمت حياة.

« غريب تفكيرك يا رفيقة حياة! أنت تنكرين الحتميّة التاريخية! سعد الله شمداوي بدأ بتصنيع البلاد! »

« أمريكا لن تسمح له بتصنيع البلاد! يا رفيق سعدون. هذا كلام فارغ »، قالت وهي تقدّم القهوة.

« ما هو الكلام الملآن، إذن؟ »

« هو الكلام الفارغ، الذي هو ظاهرة تجتاح بعليتيا بأربعة أركانها. إنهم يغسلون

الأدمغة تحت سمع الجميع وبصرهم. يريدون تحطيم فكرة التقدّم. درويش يستوقف أمّاً أمام زاويته. ينكبّ على الرضيع بالقبل والابتهالات والدعوات. كان الأذان قد بدأ وقتئذ. هل تصدّق؟ هل تصدّق أن الدرويش أقنع الأمّ في أقلّ من دقيقة أن نبرات بكاء ابنها هي تكرار لنغمات الأذان؟ الولد مبارك. وسيأتيها على وجهه رزق كثير. مؤكد أنّ اسمه مبارك، قال لها. ووقتها جثت على ركبتيها وأجهشت وراحت تقبّل يده وتضعها على جبينها..»

توقفت حياة عن الكلام بفعل الدهشة التي اكتسحت وجه مصعب وجعلته يهتف: «مبارك! هذا ابن عبد العليم الغزال! تلك المرأة، زوجة عبد العليم؟»

«نعم. وكانت معها زوجة النقيب نذير.. أنا عارفة كيف اختار هؤلاء زوجاتهم؟»

«ماذا حدث لهؤلاء النساء؟ معقول أن تركن الاندفاعة التي أنشأت قصص الحب الجميلة؟ معقول هذا الحسّ بأن الدراويش وحدهم يملكون خطاب العالم؟»

«كان يمكن للحال أن تكون أسوأ لو طال حكم المارشال أكثر».

«وماذا قال الدرويش لسمحة؟»

لقد تلقّت سمحة كلمات معاكسة تماماً، كلمات مريرة مروّعة ضخّت من نفسها العافية وفيها الاعتلال. إن البنت التي قاربت الثالثة من عمرها، والتي حملتها على ذراعها في تلك الظهيرة الصيفيّة القائظة، لم تظفر بغير الدمدمة الغامضة والاكفهرار اللذين قطعا نياط قلب الأمّ.

«والصبيّ، والصبيّ؟» سألت سمحة بلهفة ذليلة، كأنها قررّت لحظتها إعلان اليأس من البنت وتحويل نشدانها إلى صبيّ منتظر.

لكن الدرويش لم يهدىء من عبوسه ودمدمته. إنه يرى قافلة من البنات في صحراء شاسعة، وعند كل كثيب بنتاً موؤدة.

«والصبيّ؟ أما من صبيّ؟» وقد باتت تستعطي أية كذبة تضعها على قدم المساواة مع زميلتها.

«لكان خيراً لك ولأبيه لو لم ينقش اسمه في لوح القدر، يا أختي المسكينة. نعم. في آخر الزمان سيولد لكما صنم».

«صنم!» صاح مصعب وهو يحاول تهدئة ابنته على حضنه ليسمع تتمّة الحديث الخرافي. لكن مزيداً من القصص راح يتدفّق عليه اليوم بعد اليوم. قصص عن الذين أمضوا فترة

حكم المارشال وهم يجرون حساباً عسيراً مع النفس ويسابقون دراويش الهند في التحكّم بأجسامهم وحواسّهم. وقصّة عن طفلة في حوالي العاشرة، ترتفع بالتدريج عن منصّة وطيئة، وتعلو غير عالقة بشيء، مسبلة اليدين مضمومة الساقين، تعلو حتى يوازي كتفها الذروة المرئية لنصب الشهداء، ثم تهبط بالهدوء نفسه إلى المساحة الصغيرة التي غادرتها. لقد أقسمت الطفلة فيما بعد أنها شاهدت بروقاً لها شكل عيون بيضاء وأن العيون خرجت مع محاجرها من تلك الوجوه الاسمنتية للدراويش الثلاثة وصارت مخفّة، بساط ريح انزلق تحتها ورفعها بحنان وتؤدة إلى حيث ترقّبت جائزة ما أو لعبة زاهية تعطى لها بوصفها الفتاة الرضيّة الأولى في العالم، وأنها عندما حاذت ذروة النصب أحسّت أن الشهداء راضون عنها ومتفائلون بانضمامها إليهم. ومن هناك نزلت على البساط إلى المنصّة وعيناها تمسحان على الأعين المتعريشة الممغنطة التي تابعت الهبوط الوئيد وقد أوشكت أن تصير قلوباً.

وقصّة عن مسرح الدراويش. لقد تشجّع بشارة فتاحي وتجرأ على شيكسبير وموليير وتشيخوف. وشجّع نجاحه فرقاً مسرحية جديدة على ترميم عدد من دور السينما المتداعية وتحويلها إلى مسارح. غير أن مسرح الدراويش ظلّ مكاناً خاصاً وممارسة تختلف بالنوع. وقد اختلف في ثمن بطاقة الدخول أيضاً: أربعة فلسات للشخص الواحد (بدل عشرين في مسارح أخرى) مقابل عشرين بنداً من بنود التسلية. بالطبع لم تكن ثمة مسرحية وإنما ركان من الإيماءات البدائية ومشاهد وعظيّة ضاحكة وألعاب سحر، ثم تلك الممارسات التي تتوّج ثلاث ساعات من التسمّر الغيبوبي على كراسي الخيزران: ذاك الدرويش الذي لم يخرج من بعليتا قط إلاّ إلى بلدة أكثر تخلّفاً، وقف على منصّة المسرح وقرأت شفتاه كلاماً مبهماً، ثم قال لجالس وسط الصالة إنه طالب في قسم اللغة الفرنسية، وأمره أن يفتح كتابه، ثم راح فمه ينطق كلمات فرنسية بلكنة بعليتية فيما الطالب المسمّر يتابعها على صفحة الكتاب المفتوحة - كلمات من النص الموليبري الذي كان بشارة فتاحي يقدّمه مترجماً على مسرحه ذلك المساء.

ردّت الصحف التقدّمية بهجومات مضادة على «الاستثمارات الرخيصة للنزعات الغيبية وتحويل الروحانيّات إلى بضاعة».

«إن أدعياء التقدّم» ردّت صحف اليمين، «عاجزون عن أن يستوعبوا مقدرات الروح، أو أن يفهموا أن الله يضع سرّه في أضعف خلقه. لا عجب. فقد جرفتهم الأفكار المادّية المستوردة وتركتهم بلا روح».

«إذا كانت هذه الممارسات»، كتب مصعب السبئيّ في أسبوعية (النيلوتي الجديد)،

« هي أرقى ما بوسع حكومة سعد الله شمداوي أن تفرّخه لأجل التقدّم والارتقاء، فإن ملايين الناس على امتداد النهر الكبير تريد شيئاً أقل زناخة واستنقاعاً ».

غير أن شيئاً حاسماً لم يحدث ليشفي غليل حياة ويمحو خزي تلك الردّة البدائية. بل إن الجماهير استطابت تلك المشاهد بعد أن عزفت عن (ثمن الحرية)! ليسوا كثيرين أولئك الذي يزعمون أن بوسعهم أن يفهموا شعباً. وقد أصابنا ذلك الموقف الشعبي بالاضطراب التامّ. نحن أيضاً التفتنا لمشاهدة درويش يوقف قلبه عن العمل عشر دقائق متوالية. وإذا جئنا في المساء التالي، وقبعنا ننتظر بند توقّف القلب هذا حتى حلّ، تقدّم الدكتور عيسى الهلالي بسمّاعته وتأكد بالدليل القاطع أنّ الدرويش ميت بحسب التعريف العلمي للحياة الفيزيولوجية: لا نبض ولا تنفّس. لقد آمنّا أنه إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر، لكننا لم نحسب حساباً لما يمكن أن يفعله القدر كرمى لشعب يريد أن يموت. ثلاث دقائق من الفحص الطبيّ: جسّ النبض، الإنصات للقلب، مشاهدة القفص الصدري، رفع اليد وتركها لتسقط كتفاحة نيوتن... والنتيجة هي الموت. ولم يكن بيننا وبين الجنون سوى ذلك الترقّب الخافت، الانتظار الإذعاني، لعودة الميت من العالم الآخر. وكان المسرحيّون الدراويش من الديمقراطية بحيث سمحوا لنا أيضاً بكل هذا الانتظار. وحقاً فعندما انتهت الثانية الستمئة تحرّكت يداه وأجفانه وصدره، كأن جهازاً موقوتاً قد بدأ يعمل. اتكأ الرجل على مرفقه ثم وثب متهللاً.

لقد تقبّل الناس هذه الظواهر لمجرّد أنها حدثت في جوّ من الحرية. كأنهم رفعوا شعاراً لاواعياً هو « التفريط بالعقل ولا التفريط بالحرية ». بعد طغيان بابكر عبود ولاعقلانيته السويسرية المقدسة صار كل شيء مسموحاً ما دام بوسعهم أن ينتقدوه ويخرقوا قدسيّته.

تلفّتنا حولنا باحثين عن تفسير لهذا الهوس. بحنين مستبدّ إلى عهد ذهبي مضى، سألنا أنفسنا: أين الاندفاعات العظيمة؟ أين أيام فيضة، ترفع عصاها بوجه الدراويش فيُولّون هاربين أو يُحنون القامات والهامات؟

فيضة. ياللعجب! يا للهول ويا للعجب! ها نحن غفلنا عن أنها في المدينة منذ سقوط بابكر عبود. نسينا عصاها ورايتها ورياح بدنها الصافرة. حتى مصعب لم يعد يتحدّث عنها. كلّ ما عرفناه عنها أنها عادت إلى بعليتا نشداناً لخصوبة ثانية.

ثم بدأنا نتذكّر. إنها في المدينة منذ عهد بعيد، خرجت معنا في المسيرات الانتخابية زمجرت بوجه الدراويش. حملت روثاً فألقته عليهم. وبالت وتغوّطت هناك. ونتذكر أيضاً أنها الآن لا تهزّ رايتها بوجه أحد، ولا لسانها؛ أنها انكمشت ضمن شكلها الضامر الذي

رأيناه أول مرة ونحن عائدون من التلال. لقد نحل جسدها البهيّ. غابت منه الغابات، وراحت الروائح.

تذكّرنا زيارة مصعب وطاهر لغرفتها قبل فترة. لقد أرادا، ليس رؤيتها، فذلك أمل مستحيل، بل إنعاش عافية قديمة في روحيها كانت تتأبّى على الاعتلال. إلا أنهما وجداها، ويالَلمفاجأة!

كانت واقفة أمام المرآة وقفتها الأولى دون قمر هذه المرة. ولكن من هو ذلك الشاب الذي انسلّ من الباب في غبش العتم، مكملاً تزرير قميصه من الزنقة القصيرة؟ لقد انطلق في الشارع بتصفيرة ذكر فرغ لتوّه من ممارسة الجنس، لاطماً بهواء مشيته وجهي طاهر ومصعب، عابراً بهما دونما أي وعي بشكليهما اللذين تحرّكا ببطء ليتابعا مشيته النشوانة الطافرة. ومن هناك غاب في المدينة.

هناك وقفا: ناسيين تماماً أن لهما جسماً ووزناً نوعياً، محلقين في الفراغ الحزين الذي أناخ في أعينهما رواسم الجدران والشوارع. كأنهما غريبان التقيا صدفة على ذلك المفرق ونسيا فجأة إلى أين هما ذاهبان.

ظلاّ واقفين، غريبين ملغيين، حتى وصلت فيضة فانتشلت بحضورها البدنيّ غياب وعيهما عن الأشياء والمحسوسات. نظرت إليهما وابتسمت. ابتسامة خاوية كالشهد المستقطر دخلت بينهما وخرجت إلى مكان بعيد وراءهما.

غابت فيضة في منعطف النهر. تنبّه الصديقان إلى الليل الأدهم أولاً، ثم نبس مصعب: «بشرفك ألا تحبّها؟» ونبس طاهر: «شيء ما تفكّك وهوى». وكان المكان ما يزال معموراً بالهواء الذي اخترقته وحرّكته، بترجيعات متقاطعة من الأحاسيس والتذكّرات.

أواسط الخريف التقينا في شبه وقت واحد أمام منزل مفيد العبدالله في حي البرلمان الجديد. كان البيت يطلّ على ساحة صغيرة من خلف جنينة أصغر. هناك توقّفنا نتبادل التحيات الصاخبة والابتسامات السعيدة. وبعدها تبادلنا نظرة صامتة إلى مكان صامت وقفت عليه فيضة: هكذا فجأة، بين نذير وطاهر.

هتف بدر الهلالي بأريحية قلبه المزمنة: «كيف حال ابنك يا فيضة؟».

«ترضعه ذئبة، لكن لا يطعمه كلب».

ازدادت وقفتنا وجوماً. ابتسم بدر بصفراوية: «أراهن أن لون عينيه أخضر، مثل رايتك ومثل الغابات».

« لون عينيه أبيض ».
قال طاهر: « تعالي... كلي معنا لقمة... أراك نحفت ».
« لم تأت الكلاب بعد. إذا جاءت ارموا لها العظمات الكبيرة ».
قال طاهر برجاء قانط: « تعاليْ معنا ».

« حبسته في بطني تسعة شهور. ويقولون هو ابنهم. يتسلق الشجر ولا أخ له. سوى الوحش والطير. سيعطونه اسماً ».

همهم عبد العليم: « قالت ذات يوم إن عندها مطبخها الخاص بها. اتركوها، خلّونا ندخل ».

كانت قد انصرفت، ليس كالزوبعة، كما هي عادتها القديمة، وإنما كأنثى وخيمة. تقدّم عبد العليم فرنّ الجرس الكهربائي، ثم عاد يستقدم رفاقه. كنّا نتابعها بخثر حزين. وقبل أن تنعطف، فتحت خادم صغيرة الباب: « تفضّلوا ». وهكذا خرجت من وعينا الذي دخل منزل مفيد.

في البهو غمغم عبد العليم وعيناه سبعة وأربعة على الأبّهة البيّنة: « والله نقشت معك يا مفيد! صحيح المرأة أكبر منه سناً. لكنها دافعة له ثمناً خيالياً ».

لحظة بدأنا نمتعض من تأخّر مفيد عن استقبالنا، برز هو من أحد الممرات. كان يصلّي ركعتين، قال لنا وهو يمسح وجهه بيديه.

« تصلّي ركعتين! » هتف بدر الهلالي مستغرباً. « والمعنى؟ ».
« لماذا، أستاذ؟ ما بها، الصلاة؟ »
« لا أتكلم عن الصلاة.أتكلم عنك أنت. أنت. أنت صرت تقياً فجأة ».
« وخاصّة قبل دخولنا بيتك بلحظات »، هتف عبد العليم.
« أخي، حياة جديدة، واستقرار، وركانة. الزواج يقرّب القلب من الله. وبالحمد تدوم النعم ».
قال نذير: « أم لعلّك انضبعت بالدراويش ».
« وهذه أيضاً. ألم تؤثّر فيك معجزاتهم؟ ».
« معجزاتهم! دفعة واحدة؟ » صاح مخيبر.

« أبداً »، قال نذير: « لو أردت تدريب نفسي كما فعلوا لنجحت أكثر منهم، لكننا نحن نريد التقدّم لا التأخّر. ما فائدة تعويد الجسم أو العقل أو النفس على شيء ليس فيه تقدّم؟ ».

« هناك شيء أهمّ من التقدم، أستاذ. سلام الروح. ألا تريد أن تلاقي ربّك وصفحتك بيضاء؟ كلّ صلاة تغفر لك خمسة ذنوب. فلماذا تلاقي ربك خاسراً؟ ».

دمدم بدر بمرح ساخط: « شغلة محتاجة لدفتر حسابات. إنما قل لي ما مفيد. من أين هبطت عليك هذه التقوى، يعني؟ ».

أجاب مفيد بجديّة، غير عابىء بالوخزة البارقة: « من ثلاثة مصادر. أولاً من زوجتي رقيّة. الحقيقة، إيمان رقيّة إيمان صافٍ مثل ماء النبع. والذي يعاشرها يستحيل أن يظلّ بعيداً عن إيمانها ».

« هل اتفقتما على ذلك قبل الزواج، يا مفيد؟ » سأل إسماعيل.

« ثانياً. ألا ترون بأعينكم معجزات الدراويش؟ ثالثاً... ثالثاً... خلّني أكمل يا نقيب مخيبر. ثالثاً، وهذا أهمّ... من دراستي للتاريخ ».

صاح مخيبر: « يبدو أن الحديث اشتدّ والسهرة طابت. هات لنا شيئاً نشربه يا مفيد، وكمّل حديثك عن التاريخ ».

« حلمك علينا بشأن الشرب، والأكل. دقيقتين فقط. بالنسبة للتاريخ، أستاذ: طبعاً أنا أحضّر للماجستير الآن في جامعة شوباد. وموضوعي هو الثورات الفلاّحيّة في الصين ».

« أف! » هتف عبد العليم. « اكتب عن ثورة الفلاّحين في بعليتا بقيادة السنجاري ».

« اطلبوا العلم ولو في الصين » قال برعي بدران.

تابع مفيد: « نحن والصين شيء واحد. وأنا مسرور من محامينا العظيم عبد العليم لأنه ذكر السنجاري. يا جماعة، كلنا استغربنا كيف رجع الباشوات وفازوا في الانتخابات، بعد أربع سنين قضوها ورؤوسهم في التراب. اسمعوا هذه المعلومات عن الصين. المجتمع الإقطاعي هناك، يعني الباشوات عندنا، استمرّ ثلاثة آلاف سنة. وكانت ثورات فلاّحية خلال هذه المدة تجتاح الحكم الإقطاعي. تطيح بالحكم والسلطة والنظام وملكيّة الأراضي. ولكن ـ دائماً ـ كان ـ التاريخ ـ يعيد نفسه. يعيد إنتاج الحالة السابقة. يعود الاقطاعيّون، وكأننا يا بدر... ».

نبر سعدون متقاطعاً: « والسبب في استمرار هذا التاريخ الدائريّ، وفشل الثورات، هو عدم تنظيم الانتاج وعلاقاته، وعدم وجود قوى طبقية يقودها حزب طليعيّ تقدّمي مسلّح بنظرية ثوريّة متكاملة ».

« معناها راحت على النيولتيين حضارياً. استح، هات لنا شيئاً نشربه »، صاح مخيبر.

قال نذير: «لكن يا مفيد، عندنا لم تقم ثورة. قام انقلاب عكسريّ. الثورة لم تقم بعد».

«ولن تقوم»، أكّد مفيد، «لن تقوم. أكبر كذبة في التاريخ، أستاذ، أن التاريخ لا يعيد نفسه. خذها مني: التاريخ لا يفعل شيئاً سوى أن يعيد نفسه...».

قال سعدون: «الآن أنت تخرّف. هذه رؤية أرسطيّة سكونيّة تافهة. تتكلّم كأن هيغل وماركس لم يخلقا بعد، والثورتين الفرنسية والسوفيتية لم تقوما بعد. كلّ هذا التقدّم من الهمجيّة إلى الإنسانية، والتاريخ يعيد نفسه؟».

«أنا أخرّف. وأنا سأسكت وآتيكم بالشرب والأكل. لكن قل لي وأنت تتكلم عن الإنسانية، كيف تخلّصنا من بابكر عبود؟ عشرون مسدساً أفرغوا في جسده. وبلا محاكمة، أستاذ».

واتجه إلى أحد الممرات. قال نذير: «وهذا الاندفاع الجبّار عند الناس نحو حياة جديدة، ماذا تسمّيه يا مفيد؟ هو نوع من التاريخ يعيد نفسه يا ترى؟»

هتف عبد العليم: «يكفي دليلاً على خطأ آراء مفيد، ظهور القانون والتزام الدول المتمدّنة الحديثة به».

قبل أن يغيب في الممّر، قال مفيد: «حمورابي كان عنده قانون، أستاذ. كان عنده دستور. ومنذ ٤٠٠٠ سنة. ولكن بقي الظالم والمظلوم».

قال بدر الهلالي بفتور مفاجيء «أظن مقصد مفيد هو أن قوى الرجعيّة أقوى دائماً من قوى التقدّم. القوى الرجعيّة سرعان ما تهبّ وتعيد الأمور إلى نصابها القديم. لا خلاف إلا في التسميات. العبوديّة. الإقطاعيّة. الأمبراطورية. كلّها تعيد إنتاج العلاقات نفسها بين ظالم ومظلوم».

هتف سعدون: «تتكلّم كأنك توافقه الرأي يا حضرة النقيب. يعني البشريّة لا تتقدّم!».

«لا. البشرية تتقدّم. كلّ وضع جديد يترك نسبة تقدّم، عشرة بالمئة. وهذه تدوم. والباقي يعود إلى ما كان عليه في الوضع السابق».

صاح عبد العليم: «وكيف تقول يا نذير، عندنا لم تقم ثورة؟ السنجاري قام بثورة. ثورة جزئية، أنا معك. لكنها أعطت للوضع الجديد أربعين بالمئة من مقاعد الجمعية».

زجره نذير باسماً: «لأنك تدرّبت في مكتبه كمحامٍ، تدافع عنه».

صاح مخير: «إذا استمرّت المعجزات حتى الانتخابات القادمة، سيخسر السنجاري حتى مقعده هو».

قال نذير: «حتى تنتصر الثورة لا بدّ لها من تأسيس دولة قويّة. الدولة القويّة هي التي تصنع التقدّم. أنا خائف على السنجاري من الديمقراطية».

همهم سعدون ساخراً: «السنجاري! فلاّح، وبلا حزب طليعيّ، يصنع ثورة؟ يا أخي أنتم أمّيون. لا أحد منكم يقرأ كتاباً. وبعدئذ، من قال إن الثورة بالضرورة تصنع التقدّم»؟

أجاب نذير: «أنا قلت، الدولة القويّة التي تدعم الثورة. مثل الاتحاد السوفييتي. ولم أقل مجرّد الثورة. ثورة السنجاري كانت بحاجة إلى استلام الحكم وتأسيس دولة».

قال سعدون: «وهذا ما لن يحدث. لا أحد يستلم الحكم ويبقى فيه إذا لم تكن القاعدة الاقتصاديّة للبلد معه. تدعمه. هذا قانون تاريخيّ. الذي عنده اقتصاد البلد، عنده دولتها. وغير ذلك مستحيل. كلام غير علميّ».

دخل مفيد وخادمه حاملين صينية ضخمة ترنّح من ثقلها رغم قامته العتليتيّة المديدة. صمتنا. راقبنا. استقرّت الصينيّة على طاولة الطعام الفاخرة. والتفت مفيد إلى نذير لاهثاً: «أنا أقول لك، وعلّم على كلامي: هذا الاندفاع نحو التقدّم، إذا لم يُسحق، سيكون أداة لصنع باشوات جدد. لأن التاريخ يعيد نفسه، أستاذ. وفي النهاية يبقى فقط وجه ربّك ذو الجلال والإكرام».

صاح برعي بدران: «يعني لا تقدّم، في رأيك يا مفيد بك؟» وصاح بدر: «ألغيت التقدّم يا مفيد». صاح مخير: «إذا لم يحقّق جيلنا ثورة كاملة، وليس فقط تقدّماً وعشرة بالمئة، فستحلّ عليه لعنة الشعب والأجيال القادمة». صاح ابراهيم مقداد: «التقدّم والثورة، ليس فقط في بعليتا، بل في الدولة النيلوتية الشاملة».

كان واضحاً لنا أن مفيداً يحاول تبرير زواجه ليس إلا. غير أننا رأينا أخيراً طاولة الطعام الآبنوسية وقد غاصت تحت أرتال من الأطعمة فأيقنّا أن ليس ثمة داعٍ لإضاعة مزيد من الوقت في مناقشة غير طاعمة.

وفي نهاية السنة الثانية من حكم سعد الله شمداوي، اكتشفنا أن الباب الذي أوصد وراء الجندي البريطاني المغادر منذ أحد عشر عاماً قد انفتح الآن أمام رجل الأعمال الأمريكي القادم، وأن الدراويش والديمقراطية قد سلبانا يَقَظَةً ما، أعيناً اعتادت فيما مضى أن تتغلغل في الضباب ويمكنها أن ترى سهول بعليتا الغنّاء وقد صارت مزارع يانكية.

- ٧ -

قبل حوالى ثلاثين عاماً ذبح حميد السنجاري ابنته في ساحة كفر طيبا، فسمعت البلاد باسم سعدالله شمداوي. ابن الباشا اغتصب ابنة الفلاح في المزود الملحق بقصر أبيه. حصرها على فراش متناوب من التبن والروث و(بعـد قليل) الدم المسفوح من عذارها وبدنه. ولكي يتفادى الباشا موت ابنه غيلة (فكلّ ظلم يمكن لهذه الدهماء الفلاّحيّة أن تتحمّله باعتباره قضاء من الله سوى اغتصاب البكارات التافهة لبناتهم)، امتطى سعد الله متن النهر الكبير على سفينة فرنسية ودخل باريس طالباً في كلية الحقوق.

قيل إن باريس هي التي بثّت فيه شيئاً آخر غير الركود والرتابة اللذين بثّتهما سهولنا الرسوبية في شخصيات النيلوتيين، شيئاً غير الرثاثة الأليفة التي شاخ تحت عدساتها البشر والشجر.، لكن سعد الله شمداوي كان جيلاً جديداً. منذ خشونة أظفاره بدا واضحاً أن ذلك الفيروس مستوطن فيه ولكن بنوعية خاصة. إن السنجاري المثلوم الكرامة لم يكن ليختلف كثيراً عنه هو الثالم لها. لكن ابن الباشا الذي صار محامياً، يمشي في طريق؛ وابن الفلاح الذي تمكن بمعجزة.من أن يصير محامياً هو الآخر يمشي في طريق آخر.

مهما يكن، فالأكيد هو أن تلك الحركة الداخليّة في عمق نهر سعد الله شمداوي الكبير هي التي رسمت أمامه أفقاً مزداناً بلون رماديّ تنثّه مداخن المصانع وتوتياء سقوفها. لقد شاطرنا ـ وربما قبل زمن طويل ـ حبّنا للعمّ سام وثقتنا به. غير أنه، وبطريقته الخاصة أيضاً، استمرّ مخلصاً لحبّه، أو رأى أبعد من رأينا. هذا «السيستيم» (كان يحب الفرنسية كثيراً)، ويعني به نظام الباشوات، آيل إلى الفناء. وإذا لم يحلّ محلّه في الوقت المناسب، بل العاجل، «سيستيم» عصريّ فسيسقط الباشـوات، وبعليتـا، تحت النعال الهمجيّة للثورة وللشيوعيّة الدولية. على الأقل، لن يتشكّل في بعليتا مجتمع جديد تكون له دولته العصريّة الديمقراطية.

لم يكن غريباً اذن أن يكون الدكتور القوّة المحركة التي أبرزت إلى الوجود العاشور الصناعي، وتقدّمت خطوات حاسمة في ميدان مكننة الزراعة. لقد ساهم في المشروعين بكلا أرضه وثروته، وبمجهوده الشخصي أيضاً.

لم ينزعج عندما خلع عنه بابكر عبود لقب الباشا المستحقّ له من أبيه. ولولا اللياقات

الطبقيّة لأعلن عن فرح صغير اختلج على شفتيه لخلاصه من تلك الرثاثة. (أين هذا اللقب المهترىء من ألقاب البارون والكونت والفيكونت والدوق الفرنسية، وأين الفخامة والجلال والعمران من هذه الشوارب المقيتة والطرابيش الشمبانزية؟) لكنه انزعج لأن المارشال اكتفى دون اعتقاله بشتائم زريّة. لقد بدا الأمر كلّه نكتة خرقاء بدل أن يكون عملاً بطولياً يمجّده الشعب. الحقيقة أن كل شيء كان جاهزاً لدخول الدكتور معمعان الحكم والسياسة خلفاً «لسستيم» الباشا المتداعي. ثم دخل هذا الضابط عبود مثل وحش هائج واقتحم الطريق فشرذم مسيرة البلد كلها وتطوّرها.

في تلك الحقبة ـ وقد بدت حقبة إذا أحصيت شهورها وأسابيعها ـ أهدى العم سام للسلطان ناعوس سكّة حديد كاملة، تخترق أوصال عمريت من جنوب غرب المخاة الذي ضمّ إليها حتى العاصمة. كان هذا الإنجاز الخارق الذي جُنّدت له ورشات عالمية أكملته في ثلاث سنوات، توطئة وحسب ـ أو هكذا رأى السلطان ـ لهديّة أخرى من (يونايتد فروت كومباني) التي عرضت تسويق الموز والمنجة في عمريت والمخاة إلى سائر البطون المشتاقة في العالم.

كانت غابات الموز والمنجة في الجنوب النيلوتي غواية للعين واللعاب، ووجعاً وحسرة. لطالما تهنه الدكتور سعد الله سخرية من هذه الكتل البشرية التي تتفرّج كلّ عام على ملايين الأطنان من البروتينات والفيتامينات وهي تنبثق كل ربيع بالبهاء والخصب والريوع المالية الجزيلة، ثم تذوي وتندثر أواخر العام بعد أن تطعم مئات السعادين السعيدة التي حافظ الاستعمار البريطاني على بيئتها وحياتها. لقد جعله ذلك الهدر يحسّ بلهيب حامض يحرق جوفه.

عندما راح الأمريكيون يوسّعون ميناء تباء في عمريت، ويعمقونه بالجرافات الهائلة والجدران الإسمنية الغائصة، صار ذلك اللهيب في جوفه ضراماً. إن أحداً من البعليتيين لم ينجُ من هذا الإحساس الرازح، لكن الدكتور عزم على أن يفعل شيئاً.

هذه المعجزة الأمريكية ـ الميناء وسكة الحديد ـ يجب أن تعرّج على بعليتا، لا أن تكتفي بعبور نهرها الكبير ـ هكذا قال الدكتور وزير الاقتصاد لبابكر عبود. وفيما المارشال الرئيس يفكّر، مغتبطاً بالاقتصاد ولكن خائفاً من السياسة، جاءه الحلّ على طبق من ذهب. لقد تقدّمت شركة (يونايتد انفستمنت) العالمية لفخامته بهديّة صداقة هي توسيع ميناء بعليتا وتعميقه. كان الأصدقاء اليوغسلاف، رجالاً وآلات ونوايا طيبة، متهيّئين للبدء، منتظرين الإشارة المالية من يد المارشال الرئيس. وآنئذ رفع فخامته كفّه المفتوحة ومدّها إلى الأمام.

كان الدكتور سعدالله قد وقّع مع الشركة العالمية العقد الذي رآه أعمق ثورية من سفك الدماء في كفرطيبا. تلك السهول الوسطى كانت مخزناً هائلاً لما هو أكثر بكثير من الشمس والمطر اللذين يتناوبانها على مدار السنة. إنها أرض نموذجية لزراعة قصب السكّر ـ قال له خبراء الشركة العالمية. وريثما تتمّ تهيئتها يكون المعمل اللازم لصناعة السكّر قد صار جاهزاً. وستكون طاقته الإنتاجية الأولية خمسة عشر ألف طن شهرياً.

بعدئذ لم يكن سعد الله شمداوي محتاجاً لمزيد من التفاصيل. راح عقله يدفع خياله نحو أمداء من التصورات، لانهائيّة مثل تلك السهول. وكل مرة كانت الاحتمالات السعيدة الهائلة تلطم بسقف العالم.

« ولكن من أين لديكم هذه الأجوبة السريعة والاستعدادات الجاهزة؟ ».

« نحن في هذه البلاد منذ سنوات يا باشا. نحن لا نضيع وقتنا، وكلنا رغبة في أن نخدم». كان ذلك في السنة الاخيرة لحكم الباشا الرئيس. ومنذ ذلك اليوم حتى يوم وقف السنجاري تحت قبّة البرلمان ليعلن أن تراب بعليتا قد بيع للأمريكيين، لم يكفّ الدكتور عن تصوّر عالم بعليتي، بل ونيلوتي أيضاً، يزدهر بالصناعة في الجنوب والأطراف ـ وبالزراعة حول النهر الكبير، وبالحرّية المطلقة من غول الشيوعية البغيض. أن تقوم دول عديدة حول النهر صورة لم تزعج الدكتور شمداوي. كان واثقاً أن الوحدة الاقتصادية (التعاون، التخطيط، التكامل) والأنظمة الديمقراطية (برلمانات منبثقة عن إرادة الشعب تنتخب حكومات منبثقة عن إرادة النواب) ستخلق العالم النيلوتي الجديد الذي سيخلف في المآل السديم الطافش الذي يبثّه السنجاري وقادة الأحزاب الثلاثة (باستثناء حزب العمل) عن وحدة نيلوتية مستحيلة ذات دولة واحدة تحكم النهر كله. وإذا ما أُبقِيَ الجيش بعيداً عن السياسة (وسيبقى بازدياد الخطى نحو الصناعة والتصنيع الزراعي)، فستهبط شعبية مشعوذي الطبقة المتوسّطة من أمثال السنجاري، ولن يجد حزب العمل من يشتري جريدته الإرهابية.

لقد هدأ الشارع في السنة الانتقالية. وشاهد الناس كم هي جميلة ابتسامة زيدان مصطفى التي حلّت محلّ الجهامة المارشالية. ويومها استطاعت آراء سعدالله شمداوي أن تقنع الحكومة بالموافقة على إنشاء مكتب للمعلومات الأمريكي. الاتّحاد من أجل التقدّم، كان هو الشعار الذي رفعه المكتب. وكان الدكتور، الذي تسلّم رئاسة الوزارة بعد وقت قصير، سعيداً بشعار إنساني من هذا النوع، منسجم مع صورة العَمّ سام في خياله. لقد رأى فيه تعبيراً وجيزاً بليغاً عن مسيرة البشرّية بعد الحرب العالمية الثانية. إنه عالم ينفتح أمام الفرد يوماً بعد يوم، ويدنو، ويتشاكل، ويتوحّد.

لم ينزعج الدكتور للأغلبية البرلمانية التي حصل عليها، لكنه انزعج لفضل الدراويش فيها. لقد ظلّ هؤلاء خلال عام كامل يصبّون الماء على الجذور الراسخة في عقول البعليتيّين، الجذور التي أظمأها بابكر عبود حتى تشقّقت. وبعدئذ حصد هو، سعد الله شمداوي، موسم سقايتهم. كرجل عمل يجب ألا يعبأ إلا بالنتائج: لقد أخذ سحرُهم سحر السنجاري وأحزابه.

من أين كان لهم كل ذاك؟ إن أحداً في طول البلاد وعرضها لم يتوقّع هذه الفورة المذهلة ولم يتصدّق عليهم بقرش واحد. والدكتور يكره أن يكون لذهب السلطان ناعوس مداخل إلى بعليتا. إنه لا يريد أن يفقد سحره هو الآخر.

هو يعرف حقّ المعرفة ذمم البرلمانيين ذات المسارب العديدة، بل وهشاشة النظام البرلماني نفسه. ألم يخرج الناس إلى الشوارع احتفالا بسلب بابكر عبود لحريّتهم؟ ألم يندفع جيل كامل إلى التنظيمات الفاشية الفرانكوية التي أنشأها فيضي السعيد؟ إن حبّ الاستبداد من شِيَم النفوس في هذه البلاد. وهو الدكتور سعد الله شمداوي عازم على استئصال شأفته وزرع الديمقراطية في تربته.

عندما تسلّم الدكتور رئاسة الوزراء أحسّ بِحَميّة رسوليّة للعمل. «الآن فقط بدأ الاستقلال» قال للصحفيّ مصعب السبئيّ الذي جاء يحاوره. «الآن بدأت الديمقراطيّة. وبعيداً عن الفساد والذهب. وسنبدأ فوراً بتكوين سيستم اقتصادي جديد يدعمها».

وقال السنجاري لمصعب: «أنت لا تستطيع أن تنظم مظاهرة ضدّ رجل يقول هذا الكلام. يجب أن ننتظر لنرى العمل».

وهكذا هدأ الشارع بين شمداوي والسنجاري، وخلا إلا من الدراويش. كان مصعب متأثراً بالرجلين وكلامهما. لكن ما نفذ إلى شغاف حساسيّته هو موقف السنجاري نفسه. لقد تكلّم وكأن ذكرى أخته قد امّحت تماماً. كأنها كانت أجمة متداغلة من العوسج ناهضة بين الرجلين، وتمّ قطعها.

قال سعدون: «السنجاري! هه. عزيزي، شمداوي هو رجل الساعة. مشاريعه ستنشىء في البلاد بروليتاريا قويّة مناضلة، وعندها تكتمل لوحة الصراع الاجتماعيّ بين قوى التقدّم وقوى الإمبريالية في المنطقة».

كانت البروليتاريا قد بدأت تتشكل في السهول الوسطى ولكن بطريقة وجدها سعدون مخالفة للحتمية التاريخية. لقد حرصت الشركة العالمية على إبرام عقود عمل موسميّة لزراعة شتول القصب، ولقطعها عند اكتمال نموّها. وعندما جاءت أخيراً دورة كاملة لموسم السهول الوسطى، من زراعة وقطاف وصناعة، ونسي الناس أخيراً السكّر الأحمر الذي

لوّن أمعاءهم في الحرب العالمية الثانية، اضطر زيدان مصطفى لأن يواجه مشكلتين.

كانت المشكلة الأولى هي هذه البروليتاريا الناشزة التي روّعت عقل سعدون. ثمة بروليتاريا في الميناء، وهذه مفهومة ومسمّاة. وثمة بروليتاريا في معامل العاشور الصناعي والزراعة المصنّعة، وهي أيضاً مفهومة ومسمّاة. ولكن ماذا تسمي جماهير غفيرة تكون تارة عمالاً زراعيين وتارة عمال صناعة، وطوراً (وهذا أطول أمداً) متبطّلين؟ لقد اجتذبت الشركة العالمية عمالها من الأرياف، ثم أرسلتهم ليتبختروا في المدن. لم تعدهم إلى قراهم بعد انتهاء موسم القصب. أعطتهم أجوراً عالية عن فترات عملهم المتقطّعة، وجعلتهم يرون أنفسهم أفندية صغاراً أكثر مما رآهم سعدون بروليتاريا أرثوذكسية. ويوم شاهدهم يتسكّعون في شوارع بعليتا - متأنّفين على قراهم وباحثين عن عمل مجزٍ آخر ولكن غير موجود - ضرب حالتهم على لوح التسميات المحفوظ في عقله فلم يعثر لهم على تسمية. إنهم نصف بروليتاريا، وليسوا بروليتاريا رثّة. وهم نصف بطالة مقنعة وليسوا في أسفل السلّم الاجتماعي.

السلّم الاجتماعي. أجل. قالت حياة لمصعب إن هؤلاء موجودون، وموجودون كمشكلة، وإن ماركس لم يصدر فرماناً بمنع ظهور تشكّلات بشرية جديدة غير الطبقة العاملة. وقال سعدون إن هؤلاء لا يقبلون الإندراج تحت أيّة تسمية. إنهم فقط يضيفون تفككاً آخر إلى مجتمع مفكّك أساساً، ليس فيه جماعة ممكنة التسمية سوى الباشوات والدراويش (وقد انهارت الجماعة الأولى وأصيبت الثانية بالجنون).

المشكلة الثانية هي تلك اللّطمة التي وجّهها السكّر إلى القطن. بالطبع كبرت الشتول بلا عقلانية، وعلت إلى ارتفاعات أكثر عالمية مما توقّعته تفاؤلات اليونايتد انفستمنت. وصارت السهول الوسطى محجّة لأفواج جديدة من الفتيان، للرحلات المدرسية، للنزهات العائلية في نهاية الأسبوع.. إن شيئاً آخر ما كان له أن يكشف بهذه البهجة عن العالم المتفتّح الذي وصلت إليه النفوس البعليتية. مروج القصب غدت تلالاً جديدة أضيفت إلى القديمة، وانبسطت في العراء ليغزوها المراهقون والمحبّون وعشاق الطبيعة. أكان ذلك يا ترى فعل القصب، وهو دائماً يهيّج أشواقاً ليبيدية عتيقة، أم الفيض الباطني الذي انتظر مخرجاً أكثر عصريّة من التلال؟ لقد اكتشف الناس في عهد الدكتور أنهم أضافوا إلى أعيادهم الطبيعية العريقة عيداً طبيعياً حديثاً (ولم يفاجئهم أن يكتشفوا) ابتدأ مع قطاف القصب واكتمل بشحنه إلى معملين ضخمين آخرين أقيما في بندرة ودرباس. إن ربع مليون طن من السكّر السنويّ جعلنا نحسّ أننا نمتلك شيئاً ثميناً لا يقلّ خطورة عن النفط والذهب، وأنّ رؤوسنا تجوس في الفلك.

كانت السلطة الفعلية في يدي رئيس الوزراء. ولم يكن الدكتور بطيئاً في حل المشكلة القطنية. لقد انقضّ عليها مثلما انقضّ على السنجارية التي علّمته الانقضاض على الباريسيّات. ها هو ذا ميدان ينفتح أمام المدينة ويدعو لاجتثات بدائيّته. لطالما كانت أسعار قطننا أرخص من غيرها وهو طويل التيلة، بسبب قذارة الأيدي القاطفة وركاكتها. وها هي تلك الأيدي تغادر المكان إلى السهول الوسطى، حيث الرحيق الأبيض محروز داخل قشرة عندميّة سميكة تقيه القذارة والركاكة. وها هي آلات للقطاف والفصم (وللحلج فيما بعد) تندفع إلى كفر طيبا وغيرها حاملة شارة الشركة العالمية وعقداً موقّعاً من الدكتور شمداوي والباشوات السابقين ـ ومتّجهة إلى حقول القطن.

في تلك الفترة الرخيّة الخالية من الشغب والفوضى صار حتى إسماعيل سرحان ضجراً. كان قد قرّر من قبل الحصول على التوجيهيّة. وبعد شهرين من الدراسة وشهر من الانتظار حصل عليها. وها هو ذا يجتاز سنته الثالثة في الجامعة دونما عناء، وبالرخاوة نفسها التي لصقت به منذ فارقته تفيدة. غير أن ضجره لم يفارقه. كل الذين حوله يتقدّمون إلى مكان أفضل. حتى الدراويش استعادوا سلطتهم الروحيّة وبالتالي الاجتماعية. لذلك قرّر أن يتزوّج. وكان الأب سريعاً في تلبية رغبة ابنه سرعته في جرع الخمرة. غادر البيت ذات صباح، وفي الضحى الثالث عاد وبيده عروس جميلة نحيلة تفوق إسماعيل طولاً، وزفّها إليه كما لو أنه يقدّم له سيجارة.

وقد أمضى إسماعيل ثلاثة أشهر وثلاثة أسابيع قبل أن يستطيع اختراق حصن عروسه الدفاعيّ. كان يعاين جمالها فينبهر، ولكن دونما ناغر شبقيّ يستفزّ دمه وذكره. كانت فترة من العذاب والذعر. فعلى نحو غامض مستعصٍ على فهمه، أحسّ بأنه فاقد شيئاً في النفس يشبه البكارة، ولهفة في القلب تشبه الحبّ، وأنّهما ـ البكارة والحب ـ قد اغتربا عن سلمى إلى امرأة أخرى لم يعد الآن قادراً على رؤية اسمها.

غير أنّ سلمى بادرته في ذلك اليوم كنهر كبير عريق من الحبّ والخصب. رأت كيف راعى مشاعرها الهاجعة وخوفها المشرئبّ أطول مما يفعله أيّ عريس نيلوتيّ، فأيقظ عطفه وصبره المشاعر وأنام الخوف. حملته إليها. وبلمسة حنان هنا ولمسة شغف هنا، صدّعت للدماك المتدوّر حول دمه وعروقه. ثم هبّت ريحها عليه فاحتقنت فيه تلك العروق. وقد حملت في ذلك اللقاء، وراحت تكرّر دورة الخصب المربك هذا عاماً بعد عام، حتى اضطر أبو رشيد ـ هكذا صار اسمه رغم أن رشيداً لم يولد إلا في العام السابع ـ للتفكير ببناء زريبة من نوع ما تؤوي هذه المرأة الودود الولود.

إذن فالبلاد تتوضّع أخيراً ـ هتف الدكتور لنفسه. الناس يتزوّجون ويتناسلون بوتيرة عالية. كما أشار مكتب الإحصاء المنشأ حديثاً، ويجب ألا يسبق تموهم الديمغرافي نموّهم الإنتاجي. وهؤلاء الدراويش الزّنخون يسحبون فتيل البارود من عروق الغوغاء فيقدمّون للبلاد وتمدّنها خدمة لا يعرفون كم هي عظيمة. منذ الآن وحتى تجد الدهماء عملاً يملأ بطونها خبزاً وجيوبها نقوداً، وحتى تقوم الصناعة، لا بد من نزع ذلك الفتيل كي لا ينفجر في الشارع قلقهم الشبيه بجائحة وافدة. إنه سرعان ما يومض كالبرق ويرعد لأيّ نداء سياسيّ، ويمكن لهذه المعارضة البرلمانيّة الهزيلة أن تقوى به وتشهره في وجه بناة الوطن الصامتين الخالين من البارود والمفرقعات. باستطاعة السنجاري أن يستخدم هيجان الغوغاء سنة أخرى وحسب. بعدها لن يكون في طول البلاد وعرضها وفضائها سبب يحمل أحداً على التظاهر. سنة أخرى فقط ويسقط إلى الأبد ذلك التهديد البشع بثورة همجيّة لا تبقي ولا تذر، ثورة ما فتىء السنجاري (ووراءه حزب العمل والشيوعيّة الدولية) يزكي كابوسها ويخرج الدهماء إلى الشوارع فيكشف عن إيمانه الشيطاني بها.

لكن التهديد الأخطر، النافذة التي يمكن أن تهبّ منها العاصفة وليس فقط الريح، التي لا تكتفي مثل زوابع الغوغاء بهدر الوقت والجهد وإنما تطيح بالبنية الأساسية للدولة ـ هذه يجب أن يوضع لها مشروع لتنفيثها وضمان ولائها: يجب أن لا يصل وباء أمريكا اللاتينية إلى النهر الكبير.

وذات صباح من شتاء رئاسته الثالث أبرم وزير دفاعه عدّة اتفاقيات مع وزير الدفاع الأميركـيّ، كان أهمّها بالنسبة له الدورات التدريبية في القواعد العسكرية الأمريكية، حيث سيلتقي ضباط جيش بعليتا بضباط متحضّرين، لا شأن لهم بالسياسة، ممنَّعين ضد الشيوعية، ملتزمين بقانون البلاد والقسم العسكري.

إن بلاداً تنتج القصب الحلو وتصدّره سكراً إلى كافة أنحاء العالم (الولايات المتحدة على الأخص)، والقطن الطويل التيلة وتصدّره إلى كافة أنحاء العالم (الولايات المتحدة بشكل خاص)، والبنّ البرّي ذا النكهة الفريدة وتصدّره إلى كافة أنحاء العالم (الولايات المتحدة..)، وإن بلاداً محصّنة ضد الوباء اللاتيني متمتعة بالحرية الاقتصادية ـ هذه البلاد لن تكون بعيدة جداً عن ألمانيا التي نهضت من القبر كالعنقاء في ظل البروفسور لودفيغ إرهارد.

المهمّ نزع الفتيل الصاعق من الرؤوس الحامية. وكان رسل الاتحاد من أجل التقدّم قد أكّدوا له أن تجاربهم مع ضباط أمريكا اللاتينية، الذين تدرّبوا في القواعد الأمريكية،

تسمح باليقين المطلق من أن أحداً لا يخرج من تلك الدورات وفي دماغه ذرة واحدة من الديمقراطية تجاه الشيوعية.

فرك الدكتور كفاً بكف وهويبتسم لابنته التي تعزف له منغومة شهرزاد لموريس رافيل بِدأب ونبوغ. سيعود هؤلاء إلى ثكناتهم بتلك الأدمغة البيضاء ليجدوا رواتب مغرية وامتيازات لا بأس بها. وسيجدون حكماً خالياً من الفساد والرشوة والمناحرات الرخيصة التي غذّت في دماغ بابكر عبود جنونه. سيجدون ثقافة تحتذي بباريس واقتصاداً يطاول واشنطن. فما الذي يمكن أن يدفعهم إلى صياغة البلاغ رقم واحد؟.

«ربما خطر للبعض أنني لا أريد ضباطاً حقيقيين في الجيش». قال للرئيس زيدان مصطفى ذات مساء. «هذا خطأ. نحن بحاجة إلى جيش قويّ يحمي اقتصادنا من أطماع المخوييّن البيض. هؤلاء لن يقبلوا بأن تزدهر أية دولة غيرهم على النهر. لأن هزيمتهم لن تأتي من الحرب العسكرية بل من الحرب الاقتصادية. ونحن يلزمنا جيش قويّ لحماية اقتصادنا ولردعهم. ولكن جيش لا يتدخل في السياسة. العسكري إذا حكم بلاداً» قال للرئيس زيدان «فإما أن يحوّلها إلى ثكنة وإما أن يحول نفسه إلى طرطور. شف آيزنهاور الآن. لولا جون فوستر دالس لاستطاع خروشوف أن يبيعه الكوكاكولا».

وقد أتبع قوله بإبرام عدة اتفاقات لشراء أسلحة وطائرات، وتدريب ضبّاطه عليها. وكانت النتيجة الأولى، السريعة والبهيجة حقاً، كلمات لم يستغربها الدكتور ولخّصت بُغية نفسه العميقة، رغم صدورها عن ضابط. لقد هتف العميد مأمون ملحم قائد سلاح المدفعيّة: «لا جدال! أمريكا هي ضمانة الحرّية والتقدّم في العالم. يستحيل على المرء هناك أن يصير شيوعياً ولا سياسياً. ناهيك بالضابط. والشيوعية هي الخطر الوحيد على السلام والتقدّم».

لقد سعى الدكتور شمداوي بلاكلل إلى اقتناص هذه الضمانة. بوسع الشيوعيين أن يقلقوا النظام إذا استطاعوا تهييج الطبقة المتوسّطة بشعاراتهم وأراجيفهم. وبوسع العسكر أن يقلبوه إذا ترأسه باشا أو ترأّسهم مجنون. ولكن عندما تهتمّ أمريكا ببلد ما، فلن يستطيع العسكر ولا الشيوعيون أن ينالوا من نظامه الديمقراطي. إنّ التحالف من أجل التقدم كفيل بالشيوعيين، والدورات التدريبية كفيلة بالرؤوس الحامية. وساعة تعلو في البلاد تلال من الخطوط البيانية الراصدة للتقدّم الاقتصادي سيستحيل على الغوغاء والطبقة المتوسطة سوى أن يلحقوا بالركب البرجوازي المظفّر أو يتدحرجوا عليه.

بهذه البيانات، وبالضمانة الأمريكيـة، وبإذن الله وجهد الدراويش، سيقضي سعد الله

شمداوي على الهمجيّة. الصناعة ستجعل البلاد تمشي مثل الساعة. وهاهم الشباب والرجال ينشبكون في ذلك النسيج الهائل الفسيح من صناعة السكّر والقطن والبنّ ومعلّبات الخضار والفواكه. ستكون بعليتا خلال عشر سنوات في مستوى الألمان والفرنسيين. (لم يكن الدكتور شغوفاً بالإنكليز، وقد قادته عشرته معهم إلى اعتقاد رياضيّ راسخ بأنهم ليسوا « سامبتيك ». وأنهم فقط روّضوا وحشيّتهم. وسوّروها بسبعة أسوار من البرود والانطباط والتكنولوجيا والتعالي والدعابة السوداء والقمع الجنسي والبندقة).

وها هي أعظم الأسماء في السوق المالية الدولية تدعم اتفاقيات اليوناتيد انفستمنت مع الحكومة البعليتيّة. تشيزمانهاتن وفيرست ناشنل سيتي ـ المصرفان الأعظم، يموّلان استثمارات الشركة العالمية في الوطن النيلوتي تسعة وتسعين عاماً.

لكن الوثبة الكبرى إلى أمام، الحدث الأجلّ في تاريخ النهر الكبير، سيكون بلا جدال المزارع النموذجية لقصب السكّر والقطن، التي تمّ الاتفاق عليها بين المالكين البعليتيّين والشركة العالميّة. فحول مساحات شاسعة وشبه عذراء من الأرض (من الشمال إلى أرض المخاة التي ألحقت ببعليتا) أقيمت أسوار من السرو والأسلاك الشائكة لتضمن عزلة تامّة آمنة لمكنات الشركة العالمية وكيميائها وهي تعالج الأرض منذ البذرة الأولى وحتى إقلاع السفن من الميناء.

وفي تقرير قدّمه لهيئة حزب الشعب العليا، احتفالاً بمرور ثلاثة أعوام على توحيد حزبي (الأمة) و (الوطني) برئاسته، قدّم الدكتور شمداوي صورة عن « وحدة عضويّة » لبلاد متقدّمة، يكون هيكلها العظمي وقلبها ،ودماغها ورئتاها أصحاب الملكيّات الصناعية والزراعية، وتكتسي لحمها وعروقها وأعصابها وحواسّها من « الجماهير التي تحاول الأحزاب الأخرى الآن قيادتها لكنها ستنضوي حتماً تحت لواء البرجوازية البلدية ».

ابتسم إذ لاحظ على وجوه مستمعيه الانشراح والضحك المهذّب اللذين توقّعهما وهو يدبّج تقريره. لقد أعجبهم تعبير « البرجوازية البلدية ». حزب العمل يعلّم الناس النفور والكراهية تجاه كلمة « برجوازية ». لكنّ حزب العمل لن ينال من الحياة السياسية أكثر من جريدة أسبوعية لا يقرأها غير محرّريها. « من ناحيتنا، نحن سنجعل كلمة (برجوازية)، وخاصة (البرجوازية البلدية)، توحي بالفرح والسموّ، لأنها ستعني التقدّم. تقدّم الإنتاج والإنتاجية. تقدّم إنتاج المجتمع، الذي يتحوّل الآن ـ متأخراً عن مجتمعات أوروباولكنّه يتحوّل ـ من الإقطاع إلى... البرجوازية! أيها السادة، يدلّ استطلاع للرأي العام أجراه مكتب المعلومات الأمريكي قبل أيام أن العمال في سائر قطاعات اليونايتد انفستمنت يرون

أنه ليس لدى حزب العمل ولا السنجاري ما يقدّمانه لهم. وأنا أضيف إلى هذا أنه إذا نجح السنجاري في توليف الأحزاب الثلاثة، مثلما نجحنا نحن في توحيد البرجوازية وفئات الشعب العاملة، فهذه خطوة تقدّمية، تعجّل ببلورة التركيب الاجتماعي، وبتكوين أحزاب حقيقية، وليس مجرد تجمعات عشوائيّة أو اتفاقية تسمّى نفسها أحزاباً. سنصل إلى وضع سياسي شبيه بالذي في فرنسا. في فرنسا، وظيفة الحزب الاشتراكي - ونرجو أن يتمكّن مرعي السنجاري من الارتفاع إلى هذا المستوى - هي إقالة الرأسمالية الفرنسية من عثراتها وتصحيح مسيرتها وأخطائها، ريثما تعود إلى استلام الحكم باندفاعة اقتصادية جديدة. لكن بيني وبينكم، لن يستطيع السنجاري يوماً أن يستلم الحكم. لأن القاعدة الاقتصادية التي ترسي مداميكها الآن، وستقوى يوماً بعد يوم، ستأتي بالطبقة المتوسّطة لتملأ فراغات نظامنا الاقتصادي المحتاج إلى خدماتها وتعمل في مؤسساته».

في تلك الأيام كانت عبارة «وحدة عضوية» تنطوي على قيمة جمالية رفيعة، وعلى رؤية مثلى للوجود والوطن والفن. لقد سرت في الأذهان وعلى الألس سريان النهر الخالد في الوطن النيلوتي. حتى عبد العليم الغزال وجدها لازمة وطبيعية لمرافعته ضد عصابة سرقت فرع تشيزمانهاتن في بعليتا: «فهؤلاء الحاملون لأول مرة في حياتنا فيروس تلوّث أخلاقي، سببه بالتأكيد تدفّق الأنماط الأمريكية على البلاد، كانوا يبرهنون على وحدة عضوية في تنسيق عملهم الإجرامي تنسيقاً بلغ حدّ الكمال...»

لقد وجدنا بالدرجة الأولى تعبيراً مكثّفاً عن نوع الوحدة التي أرادتها أجيال متتالية من النيلوتيين. وكان فاتك السبئيّ يراها الوصف الوحيد المعقول لتماسك العمّال في الميناء ولعلاقاتهم. أما القصيدة الجديدة فلن تستحقّ اسمها ما لم تحقّق هذه الكينونة العليا. كانت الحركة الأدبيّة كلها تطلب الوحدة العضويّة للنصّ، لتحابك الشكل والمضمون بحيث لا يتمايز واحد عن الآخر.

شيء ما في هذا التصوّر الأدبيّ للحياة والعالم حمل مصعب السبئي على الذهول وهو يقترب ذات نهار من سياج غريب صنعته أشجار السرو والأسلاك الشائكة. كان قد ركب الباص السياحيّ مع حياة وولديها إلى مزارع القصب. وبصورة عفويّة وجد نفسه يتغلغل في الآجام السكّريّة غير المطروقة، هو الذي دأب على التغلغل في كل شيء.

لم تكن المزارع النموذجية كلها مسوّرة بهذا الشكل. ولم تكن أيضاً قابلة للاكتشاف بهذه السهولة؛ لقد ترامت وراء غابات القصب التي أنيط بها اصطياد المتنزّهين، وظلّت هي خافية على العيون. لكن مصعب وصل إليها كما يصل الشعراء عادة إلى سرّ مكنون.

وبالطبع فقد منع من الدخول. لم يُجْدِهِ أنّه صحفيّ أو ربّ عائلة متنزّه، أو شاعر، أو مواطن: هذه الأماكن ليست لدخول أحد. وهي ليست لدخول البعليتيين بصورة خاصة. الآلات فقط وسائقوها والمهندسون والكيميائيون ـ وهؤلاء كلّهم تابعون لجهاز الشركة العالمية ـ هم المسموح لهم بعبور البوّابة الحديديّة السلمقة.

طول الطريق إلى البيت ظلّ وجه مصعب مكفهراً. وقالت حياة إن ما شاهدته ليس استعماراً وحسب، بل استعمار استيطانيّ. بعيداً عن الأقوال، والكركبات الذهنية التي يحملها مثل نياب دائمة، أحسّا باستلاب مبهم. برمح لاهب خفيّ يخترق حجرة من القلب أودعت فيها المحبّات والتعلّقات والمطلقات.

لقد صار ما كتبه للجريدة ذلك المساء وظهر فيها الصباح التالي بصيغة تحقيق صحفي معلماً في تاريخ صحافتنا وحياتنا البرلمانية. لم يبق أحد إلا وجاءه مهنّئاً. بل إن نذير النميري أتى بصندوق ضخم من موز المخاة، يحمل عشرين كيلو غراماً، ومع طاهر وبدر التهم نصفه فرحاً وابتهاجاً. حتى سعدون جاء بخمس ورود حمراء، وشكلها في علبة كوكا كولا فارغة قبل أن يضعها على المنضدة: إنّ بلاغة مصعب جديرة بهذا الاعجاب. فالوحدة العضويّة في التحقيق كله تهزّ القلب هزاً. ولكن مع الأسف: هذا الشعور القومجيّ مجرّد علامة من علامات التخلّف العقلي. بدون صناعة لن يقوم التقدّم. وبدون شمداوي لن تقوم صناعة.

« حسبنا أن حزب العمل هو الذي سيصنع التقدّم »، قال عبد العليم ساخراً.

« حزب العمل يتقيّد بقوانين التاريخ، وأنت خير من يفهم القانون يا جناب المحامي »، ردّ سعدون بتعالٍ ثقافيّ.

لم تتقيّد الصحافة بقوانين التاريخ، التي أشار إليها سعدون. إن أحداً لا يمكنه الجزم حتى الآن بأن الانفجار الذي أحدثه تحقيق مصعب كان خطوة أخرى نحو المدنيّة، أو العكس. هل الذي حدث واحد من قوانين التاريخ المكتوبة بحبرٍ خفيّ، أم واحد من احتمالاته المفتوحة؟

والذي حدث هو أن الصحافة بقضّها وقضيضها هرعت إلى المزارع النموذجيّة، وخلال يومين أو ثلاثة كانت تحقيقات أخرى قد رفعت ضغط الدم على أدمغة الناس، وبصورة خاصّة على دماغ الدكتور شمداوي، رئيس الوزراء. لقدوجد من كتب مقرظاً تلك المزارع، ومدافعاً بحميّة مستبسلة عن « النهضة الشمداوية ». لكن الرجل الأنيق، الواضع في عروة سترته باستمرار فلّة ضخمة يحار الناس كيف تأتيه على مدار السنة، وجد

نفسه بعد أسبوع مدعواً إما إلى الاستقالة وإما إلى تقديم بيان دفاعيّ أمام الجمعية الوطنيّة. وبالطبع، آثر الخيار الثاني.

حتى ذلك اليوم، لم يكن السنجاري قد أثار شيئاً. لقد ترك السحب تتكاثف. أغلب الظن أنه قام بتحرّياته الخاصّة. وربما كان وراء «الحملة الصحفيّة المسعورة»، كما قال الدكتور في بيانه، «التي قام بها صحفيّون لا تأتيهم مبالغ كافية إلى بيوتهم». فالصحف كلّها تحدّثت عن زيارته لبيت مصعب برفقة عبد العليم الغزال، ودعوته الصحفيين من هناك إلى المشاركة في إعلان الحرب على «عملاء أمريكا».

كان بياناً يمكن لأيّة صحافة أن تسميـه تاريخياً دون أن تُتهَم بتعهير اللغة. لقد هطل من بصيرة نافذة باردة (رغم كره صاحبها للإنكليز) على أصابع ترتجف خوفاً من كارثة مقبلة. وإذن فقد حدث ما أمضى رئيس الوزراء سنوات وهو يسعى للحؤول دون حدوثه. والصحافة! هي التي بدأت بالهجوم. ليس السنجاري. السنجاري ذكيّ، وليس جاهلاً. لو تكلم في الجمعيّة لأحبط نفسه وكلامه بتذكّر النواب ـ والناس ـ لقصّة أخته. لقد لعب اللعبة بالأسلوب الصحّ. حرّك الغرائز الهمجيّة لشعب لا يعرف مصلحته. خلال الأسبوع الثاني الذي استغرقته كتابة البيان خرج الطلاّب إلى الشوارع لأوّل مرة منذ سنوات. وخرج عمّال الميناء يتقدّمهم موتور شيوعيّ اسمه فاتك السبئي. (يا للمفارقة العجيبة: ابن شهيد يصير شيوعيّاً!) وخرج الجميع، الناس كلّهم، إلا الدراويش. طبعاً. لقد مضت تلك السنة التي حسبها نهائيّة في عمر المظاهرات. ومع بداية عام الانضباط الاجتماعيّ، عام الالتفاف الشعبيّ المؤكّد المحتّم حول التصنيع والإنتاج انفجر هذا السعار الغريب. كأن في هؤلاء الناس جنوحاً إلى تدمير ذاتهم، إلى التشبّث بهمجيّتهم لأنهم لا يستطيعون مفارقتها، أو بأن فيهم خوفاً من المدنيّة المقبلة مع المصنع والمشغل وتراكم المال.

«هذه هي الأرقام على مدى ثلاث سنوات ماليّة. نموّ في الانتاج بمعدل ٧,٥٪ زيادة في الدخل القومي بمعدل ١٣,٤٪ تشغيل مئة وسبعة آلاف عامل في زراعة القصب والقطن. زيادة في تصدير الخضار والفواكه بمعدل ١٧٪ هذا هو التقدّم أيها السادة ممثّلي الشعب، وليس العمالة لأمريكا...»

عندها وثب السنجاري عن مقعده وبلمح البصر حلّت قدماه على المقعد. وفيما يلتفت النواب إليه مستغربين مستطرفين، صاح في مجهر الصوت الذي رفعته يده: «إن زميلي المبجّل السيّد رئيس الوزراء كذّاب ومضلّل».

أربع طرقات من مطرقة رئيس المجلس على الطاولة الخشبيّة لم يعط السنجاري لها بالاً.

«ونحن شبعنا من هذه الأضاليل. أيها الزملاء المبجلّون، إليكم الأرقام الحقيقية. النموّ في الإنتاجية...» أربع طرقات صمت السنجاري لهاكي يتناول من ملفّه ورقة. «بلغ ٢٢٪ منها ٧٪لبعليتا والباقي للشركة العالمية. زميلي المبجّل يُغفل عامداً متعمداً حصّة الشركة. الآن. زيادة الدخل الوطنيّ ـ وليس القوميّ لأن بعليتا ليست قوميّة ـ بلغت في السنوات الثلاث الأخيرة ٤٩٪ كل سنة بفضل عطاء الأرض من القصب والقطن. منها ١٥٪ لبعليتا و٣٤٪للشركة العالمية. زميلي المبجّل يُغفل حصّة الشركة العالمية. لكن هناك ما هو أدهى من التواطؤ مع الشركة، أيها الزملاء المبجّلون. هذا التضليل في ذكر الأرقام ليس كل شيء..».

وجد الدكتور نفسه مضطراً لمقاطعة السنجاري وبالتالي للتهاتر معه: «ليس تضليلاً. هذا حقّ الشركة بموجب عقود قانونية..».

مضى السنجاري إلى القول: «الزيادة في تصدير الخضار والفواكه أيها السادة المبجّلون، سمسرة وقوادة هدفها مزدوج. إغراق العيون والبطون بالموز والمنجه لتغفل العقول عن الشركة العالميّة..»

انبرى وزير الاقتصاد منفعلاً صائحاً: «مزايدات رخيصة من زميلنا المبجّل، هدفها تشويه صورة التقدّم الذي أحرزناه..».

لم يبال السنجاري بالمقاطعة. كان واقفاً كموجة عاتية، مدركاً أنه إذا ما أنصت لحظة واحدة وكفّ عن تقديم الكلام والأرقام والوخزات والشتائم فستنهار وقفته كلها وترتمي أمام قدمي شمداوي زبداً أجوف. «لكن هناك ما هو أدهى وأدهى من السمسرة، أيها الزملاء المبجّلون. هناك ١٨٪من أراضي بعليتا المرويّة بالقنوات النهرية والمطر، ١٨٪ من أرض بلادنا محرّم دخولها على البعليتيين. ١٨٪ مرسومة للشركة العالميةطوال ٩٩ سنة كمزارع نموذجيّة. ٩٩ سنة أيها السادة المحترمون، ونحن، ممثلي الشعب، ممنوعون من دخول ١٨٪من أراضي بلادنا. هذه محّاة جديدة أيها السادة. داخل بعليتا. محّاة جديدة سمسر لها زميليالمبجّل السيد رئيس الوزراء ليبقى رئيساً للوزراء. نحن نريد رئيس وزراء وليس سمساراً للشركة العالمية في بلادنا، ومن ورائها الولايات المتحدة. إن زميلي المبجّل يقايض خيرات الأرض وثرواتها، وهي ملك للشعب، ويقبض منها نواباً وسلطة..».

طرقات جديدة من المطرقة الخشبية. كان وزراء كثيرون يصيحون ويصرخون، ونواب أكثر يزعقون ويزجرون. انفجرت لغة المحرّمات الجنسيّة والأخلاقية، فذكّرت الجمهور بعبقرية بابكر عبود الآفلة. وكان مدرّج الوطنيّة مسرحاً برشتياً نهض روّاده

مشاركين في التمثيل أو متأهّبين للمشاركة. وفي المقاصير تقاطرت وتقاطعت انطباعات الجمهور ولغته، بين منذهل من شتائم لا تتقنها حتى ساكنات وعليتا، ومشارك في هذه الشتائم، ومرتاع من همجيّة تعنقدت وانفجرت، ومبتهج بهذا الحجم الهائل من الديمقراطية بعد زوال الدكتاتور الأسود؛ وبصورة رئيسية بين مؤيد لشمداوي ومؤيد للسنجاري.

انسحب عدد كبير من النواب إلى الكواليس والردهات. جلس السنجاري في مقعده صامتاً. وإذ ذاك طفا السكوت على الضجيج. واتّخذ النوّاب الحاضرون طريقهم إلى مقاعدهم. ثم عاد مَنْ خرج.

كان الدكتور شمداوي ما يزال واقفاً أمام مجهر الصوت، مصرّاً على حقّه في تلاوة بيانه. وفيما يعود النواب إلى مقاعدهم هَيْمَنَ على الجميع ترقّب هادىء لدفاع شمداوي ضد الاتهامات والشتائم.

لقد انتظر الدكتور التئام شمل الجمعية، مندهشاً ولكن بلا مرارة أو جلاء من هجوم السنجاري المباغت الرهيب. كان مفاجأة حقيقيّة أنه بعد ثلاث سنوات من الإحباط والأفول، من ازدهار البلاد وتقدّمها، يتمكّن من تهييج الرأي العام، ثم يقف في الجمعية كأنه ناطق باسم ذلك الشعب وليس باسم كرامة شخصية طعينة. لن يستطيع الدكتور القول: لقد كان مرعي مدفوعاً بضغائن شخصية مكبوتة. على أن المفاجأة الصرف كانت أن يقف رجل كالسنجاري ليهاجم رجلاً كشمداوي. لقد شاهد الدكتور جلسات مثل هذه في الجمعية الوطنية الفرنسية. كانت طبيعية تماماً، وممتعة تماماً. ولكن أولئك كانوا الفرنسيين. أما هنا! في بعليتا! ومن قبل مرعي السنجاري هذا!

وهكذا كان. بدأ الدكتور كلامه المستأنف بحمد الله والثناء عليه. ثم حمده بصورة خاصّة على أنه لا المؤرخون ولا الشعراء والأدباء يهتموّن بكتابة الترّهات والبذاءات، وإنما ينصرفون.. المؤرخون إلى تسجيل الإنجازات والتقدّم، وهذا وحده هو المهمّ، والشعراء والأدباء إلى التغنّي بالمشاعر والدراما في الحياة الإنسانية للفرد.. وإلا لكانت انعدمت الثقافة الحقيقية وحلّ محلّها روايات ومسرحيّات لا يهمّها سوى السياسة.

ثم حمد الله مرة ثالثة على أن الثقافة في بعليتا لم تتأثر إلا قليلاً بالسياسة، وظلّت متتبعة المصائر الفرديّة وقصص القلب البشريّ فحافظت على النبل والجمال، اللذين يهربان أحياناً من تحت هذه القبّة بسبب المستوى المتدني لبعض من انتخبهم الشعب في غفلة من الوعي. وإن اتجاه الكتّاب والأدباء السويّ والمعافى هذا، حريّ بأن يعلّم بعض من انتخبهم الشعب

شيئاً من الأدب. فالانحطاط بالسياسة ليس من الثقافة في شيء.

كان السنجاري جالساً على فقراته العجزيّة، مسنداً ركبتيه على دُرج مكتبه. لقد توجّهت إليه العيون، وكان مدركاً مطالبها. لكنّ ارتواءً جوّانياً لروحه جعله يدرك أن الكثافة التي ميّزت كلماته (وخاصة الشتائم منها) يجب أن لا تتمدّد بمزيد من الكلام.

«إن الملكية الفردية مقدّسة أيها الزملاء المبجّلون، في جميع أديان العالم ودساتيره. وحقّ المالك في أن يتصرّف بملكه، مصون في جميع أديان العالم ودساتيره. وإذا كانت بلدان الستار الحديدي لا تعترف بهذا الحقّ فلأنها ببساطة معدومة الدين ولا تنتمي إلى هذا العالم. لكن صيانة هذه الملكية وهذا الحق تعني أن لا نراوح في أماكننا كما كان الباشوات يفعلون فيما مضى..

«سقط الاسم وبقي المسمّى»، هتف السنجاري في مجهر صوته دون أن يغيّر من جلسته.

«وإنه لمن الغريب حقاً أن نسمع الاتّهامات والتشكيكات الموجّهة إلى دولة كلُّ ذنبها أن مدّت يد العون إلى شعبنا لتساعده في إقامة صناعته الخاصّة به وتطوير اقتصاده. إن الولايات المتحدة أيها السادة هي الضمانة الوحيدة للحرية السياسية والاقتصادية: في العالم، في النهر الكبير، في بعليتا. ولولاها لالتهمنا الغول الشيوعيّ..»

«الغول الشيوعيّ ما يزال وراء الستار الحديديّ المزعوم. لكن الغول الأمريكي صار بيننا».

«إن مصارفها تُقرضنا الملايين لأجل اقتصاد بعليتا. وشركاتها تضع خبرتها العلميّة والتكنولوجيّة في خدمة اقتصاد بعليتا. ومؤسّساتها تدرّب ضبّاطنا وتجهّز جيشنا بالسلاح والعتاد، ويسعدني جداً أن أرى هذه الوحدة العضويّة بين طموحاتنا الاقتصادية في التنمية والتقدّم واستعداد الولايات المتحدّة لدرء الخطر الشيوعيّ. وإن هذا لهو هدف الولايات المتحدة الوحيد من التعاون معنا..».

«وهدف شركاتها أيضاً».

«أفتريدون منها أن تقدّم لنا كل هذا بلا مقابل؟».

«لا طبعاً. لا بدّ من استعمارنا اقتصادياً لمدة ٩٩ سنة».

«هل يمكن لأحد منكم أن يتناول حاجته من أيّ دكّان ويمضي دون أن يدفع ثمنها؟»

«بالنسبة لنا، لا. الشركة العالمية، نعم».

خرج شمداوي أخيراً عن النصّ. قرّر أن يجابه السفالة بالسفالة! «إن تخفيف الدم كرد

على المسائل الاقتصادية الكبرى هو نوع من تخفيف العقل. أيّها السادة المبجّلون، وقد بلغ تخفيف العقل حداً أن بعضاً ممن انتخبهم الشعب في غفلة منه قد هبط إلى درك لم يصل إليه برلمانيّ في العالم. إنه يرسل عشيقته السابقة، امرأة ملتاثة العقل، رخيصة الجسد، لا تستطيع نوماً إذا لم ترتكب الفاحشة» إنه يرسل هذه الداعرة المجنونة لتشهّر بنا على طريقتها الخاصة. تقف في ساحة الشهداء. لاحظوا: الشهداء. حتى يمرّ سائح أمريكيّ أو جنديّ أمريكي، أو رجل أعمال أمريكيّ، وتقتنصه. تتأبّط ذراعه بابتسامتها المسكونة، فيظنّ أنه في باريس وليس في بعليتا بلد الشرق والتقاليد العريقة. إن هذه الأساليب السافلة في التشهير سحر يرتدّ على الساحر..».

كانت أصوات الهسيس والتشحيط والصفير تعلو وتموج في فضاء القاعة، وتتشرنق حول صوت رئيس الوزراء. وبدا واضحاً أن اللغة لم تعد تقدّم لروّاد المقاصير السائلين ذهنيّاً في فضاء المجلس المعاني نفسها التي اعتادوا ألا يختلفوا بشأنها. هل تعني الحرية ـ وهي كلمة مفهومة تماماً ـ مرفقاً أمريكياً تتكيء عليه بعليتا؟ أم أنها غير ممكنة بلا أمريكا بسبب الشيوعيّين؟ هل تقوم الوحدة العضويّة بين بعليتا وأمريكا، أم بين بعليتا وشقيقاتها النيلوتيات؟ هل التقدّم ـ وهو كلمة مفهومة تماماً ـ هو ٩٩ سنة من المزارع النموذجيّة وقصب السكر والقطن، أم حركة تصنع مجتمعاً ودولة؟

الكلمة الأكثر إرباكاً ـ وكانت الأبسط والأسهل فهماً ـ هي السمسار. كيف يكون رئيس وزراء سمساراً؟ كيف يعقل أن يكون أيّ حاكم سمساراً؟ «ماذا يقصد السنجاري بهذا الوصف؟» سألت حياة مصعباً في مقصورة غصّت بالصحفيين. «أظنّه يستعمل تعبيراً أدبياً»، همس مصعب. «مستحيل»، نبس سعدون، «السمسار ظاهرة اقتصادية عريقة، وطبيعيّ أن تصير بالتالي ظاهرة سياسية في العصر الامبريالي».

«لأوّل مرة منذ زمان بعيد يا سعدون تتكلّم كلاماً صحيحاً وعميقاً»، غمغمت حياة بغبطة.

«هذا يعني أنني أعتبر الدكتور شمداوي سمساراً. العكس تماماً هو الصحيح. الدكتور شمداوي قد يكون بطل الثورة البرجوازية الاقتصادية السلمية في بلادنا. قارنوه بالسلطان ناعوس، تعرفوا ماذا أعني».

«أظنّك عدت إلى تخبيصاتك. هل نسيت مصدّق وآربينز؟ لا شمداوي ولا غيره يمكن أن يقود ثورة بورجوازية دون أن يسقط بين قدمي أمريكا».

« عجيب كم غدت هذه الدولة كريهة! وقبل سنوات كنّا نهيم بها أملاً وتطلّعاً »، قال مصعب بنصف إصغاء.

سوى أن مشكلة اللغة لم تنفرد وحدها بالالتباسات. وجدنا أنفسنا في زمن ملتبس أيضاً. بالنسبة للسنجاري كان أيّ مكسب يأتي عن طريق أمريكا مرفوضاً. « درجة انحراف واحدة في أول المشوار، تصير مئة وثمانين درجة في آخره »، قال لجلسائه في مقهى سانتياغو؛ ومعهم عبد العليم الذي نقل إلينا الجملة وهو بالغ الانفعال: « الشعوب أيضاً، وليس الأفراد فقط، يجب أن تتحرّك بسلطة المُثُل والمبادىء ».

بالنسبة لحزب العمل كان توجّه شمداوي هو الصحّ أساساً. إنما كان يجب توزيع أكثر عدالة للدخل الوطني، وإصدار تشريعات برلمانيّة لحماية حقوق العمال. وكان نشاطه السياسيّ بينهم قد منح الدكتور غبطة متجدّدة ويقيناً أعظم بأن البروليتاريا يمكن أن تنضوي تحت لواء البراجوزية البلدية فلا تكون بالضرورة عدوّتها. لقد صار جديراً بهذه التسمية - البروليتاريا - ما يزيد عن مئة ألف عامل جديد خلال ثلاث سنوات من عهد شمداوي، وكان هؤلاء أودع فئات الشعب.

سعد الله شمداوي. كان يعرف أنه لا يحبّ الانكليز. أترى كان يعرف أنه يتشبّه بهم في برنامجه لتحويل باشوات بعليتا إلى ملوك صناعة؟ وتحويل بعليتا نفسها من مجتمع إقطاعي إلى آخر مدينيّ؟ لقد قرأ ابن خلدون جيّداً، وأصرّ على أن أيّ تغيير في أحوال البعليتيّين السائبة، أيّ تحويل لهم إلى مجتمع ودولة، يتحصّل فقط عن منهجه الاقتصاديّ في ظلّ الديمقراطية البرلمانية. أما أن اليوناتيد انفستمنت تلتهم الوجبة الرئيسية وتبقي لبعليتا الفتات، أو أن القرش البعليتي مربوط إلى عجلة الدولار، فهذه مشكلات موقتة، ستزول من تلقاء نفسها مثلما زالت في اليابان وألمانية الغربية. لسوف يصلب عود الاقتصاد البعليتي ويغدو قادراً على الاستغناء عن أمريكا.

شيء واحد فقط أقلقه هو السديم الأعظم من الرأي العام السياسيّ الشعبي. أولئك الذين لم تتفصّل أذهانهم بعد على برامج سياسيّة اقتصاديّة تقدّمها أحزاب، هي الأخرى ليست مفصّلة بعد على قدّ التشكلاّت والاضطرامات المجتمعيّة في بعليتا. إن الشعب بطبيعته أرعن، محكوم دائماً بالأهواء، والأهواء دائماً متقلّبة وهوجاء، وها هو الآن، بفضل لغة السنجاري الاستفزازيّة المخاتلة، يغدو « الجماهير »! كلمة بصيغة الجمع، مديدة كثيفة، توحي برعب فيضان النهر الكبير، وتلفح العقل بزمجرات وحشية كاسرة. إن صيغة الجمع هذه تناسب فقط ذلك الوباء الوافد مع الحرب العالمية الثانية، الذي

استوطن النفوس منذ مؤتمر يالطا، فكيف يجد السنجاري فيها أيّ شيء إيجابي وجيل؟ إنها ملايين الفيروسات الوبائيّة، الصائلة، الخفيّة، التي تحكّ العقول والأعصاب، فتندفع عندها «الجماهير» كما تندفع الأبقار إذ تلتصق بين أفخاذها حشرات لاسعة يسميّها الفلاّحون «دبدابة الراعي». وها هم الآن يندفعون أخيراً مع لغة السنجاري ويطالبون بإخراج أمريكا نهائياً وكليّة من التراب البعليتي، بعد أن مضى العام الثالث من ولاية الدكتور ومزاجهم يتقلّب بين الولع بالمنفعة الشمداوية والهلع من النفير السنجاري.

غير أن هذا لم يكن كلّ شيء.

في العام الرابع تضاءل عدد الدراويش الممارسين وانكمش وجودهم. وقد رأى الدكتور أنّ هذا حسن فابتسم له: اللغة الوحيدة التي تستطيع محاربتهم هي الحرّية وهذا البرنامج الاقتصاديّ، وليس لغة حزب العمل الشمطاء أو راية فيضة المنكّسة. لقد بدأ العمران يفعل فعله في العقول، كما كتب ابن خلدون.

لقد انصرف الناس منذ أواسط السنة الثانية عن الدراويش وغيبوباتهم إلى الكوكا كولا والبيرة والوسيكي وبقية المشروبات، وإلى خمسين أو ستين نوعاً من معلّبات الجبنة والعسل والربّ التي جعلت الجبنة البلدية العريقة والعسل والربّ عندنا رموزاً للتخلّف والوسخ والغثيان، وإلى ثلاثين أو أربعين نوعاً من الخضار والفواكه المعلّبة، وإلى الأقمشة الفرنسية والموديلات الإيطاليّة والألمانيّة والسيارات الأمريكيّة والمعدّات الصّناعيّة اليدوية الإنكليزية، وإلى ما لا حصر له ولا عدد، مما يدفع المواطن الصالح إلى مدّ يد مسحورة لتُخرج من جيبه المال وتشتري.

غير أن هذا لم يكن كل شيء.

لقد عرفت ساكنات وعليتا أنواعاً جديدة من التعاملات. كان الدكتور يعتقد أن كل بلد متحضّر يلزمه مبغى مرخّص تتمتّع ساكناته بصحّة تشرف عليها لجنة طبيّة متخصّصة. ولطالما أخبر زوجته أن هذا هو الأسلوب الوحيد الذي يحول دون أن تصير بعليتا كلها مبغى كبيراً. وعندما بدأ السّواح ورجال الأعمال يتدفّقون على المدينة في عهد الدكتور، كان حيّ المهدية النظيف المعافى قد زها بديكورات سندباديّة وليال شهرزادية. هناك كانت بناية قرميدية اللون، مثلّثة الطوابق، يحرسها شريف العبد الله وتسكنها اثنتا عشرة امرأة مضمّخة بالطيب والجنس. وسرعان ما تحوّلت من حجرات منفصلة تقفل أبوابها دون الاستباحة الوحشيّة المدهمّة لينابيع ألرضى القمريّ، إلى عالم مفتوح تصدح فيه الزجاجات والآلات والحناجر والأفئدة، والدولارات. ويومها تسارعت وتائر العمل على إقامة منتديات ليليّة مماثلة تشيع عالماً مماثلاً بسندباديّته وشهرزاديّته. لقد آن للمدينة

وهي تعدو نحو التلال والأفق أن تعرف أخيراً فن الديكور. وقد ابتدأت المعرفة في وعليتا.

وجاء حين من الدهر فتحت الدنيا فيه صندوقها، وجعلت شريف العبدالله يعلّق لافتة صغيرة على مدخل البناء، تحظر تحت طائلة تدخّل الشرطة كلّ مواطن من الدخول أيام الخميس والسبت والأحد من كل أسبوع. فتلك كانت أياماً «مخصّصة لضيوف بعليتا» الأعزّاء.

ولم تكن على الدوام أياماً خالية من الكدر والمشاحنات. صحيح أن الرثاثة قد ولّت إلى غير رجعة، أن مدينة جديدة أوشكت أن تحل محل القديمة وتطوّق ما بقي من حارات النهر. لكن القصب والقطن والمزارع، ومعامل أقيمت وراء معامل، وهذه الآلاف المؤلفة من المنتجات الجذابة السهلة - كل هذا زعزع في المدينة الرسوبية حسّها العريق الناغر بزمن سرمديّ وبشر سارحين مستمتعين بوهنهم.

فهذا الزمن لم يعد ذلك الزمن. كان زمناً للمشاوير والنراجيل وعربات الخيل، فصار زمناً للركض والسيجارة والسيارات الشاخرة. كان زمناً للمطر والقمر والنهر والزهر والمواسم، فصار زمناً لميزان الحرارة والشمس والطرقات المسفلتة والأحماض والسفن.

وكانوا بشراً يمضون نهارهم قبل أن يبتاعوا حاجيات المطبخ، فصاروا بشراً يضيقون ذرعاً بالطعام المتوفّر. هؤلاء يستحيل أن يكونوا قد ولدوا ثانية من أرحام أمّهاتهم. غير أنهم وقد خلعتهم مزارع القصب من أرحام الحقول القديمة صاروا يميّزون بين زمن وزمن. وكان الزمن الذي عانت فيه بعليتا منهم هو الزمن نفسه الذي حملهم إلى بعليتا بنشوة طافرة، لقد جاءوا إليها وجيوبهم مليئة بالمال، وقلوبهم بالتوق والحلم، وعقولهم نافرة ضيقاً بالحقول القديمة.

هؤلاء لم يحسب الدكتور شمداوي حسابهم. لم يخطر له أن مدينة تحفل بالخمر والويسكي، بألف شهرزاد، وبالمشاعر المتناسلة من شهور البطالة المقنّعة، وبعشرات آلاف الهابطين إلى أرصفتها - سوف تبتكر لنفسها زوايا جديدة مختلفة يعشّش فيها بدلاً من الدراويش سكّيرون غير سعداء، وقوّادون لا يعرفون الحبّ، وجائعون لا يعرفون الشبع، ومحشّشون لا يستطيعون أن ينسوا حزنهم وانخلاعهم.

هؤلاء لم يكونوا برداً وسلاماً على «ضيوف بعليتا الأعزّاء». لم تكن أيام الاسبوع هي المهمّة عندهم، بل الأسابيع نفسها التي لا بدّ من تمضيتها بعيداً عن الشجارات العائليّة والفراغ المضني، ريثما تجيء أسابيع أخرى من العمل في المزارع. ولم يكونوا قد اعتادوا على

الامتناع عن نسائهم (وساكنات وعليتا بعليتيّات على كل حال) كي يستمتع بهن دافعو العملة الصعبة. وهكذا نال شريف العبدالله ذات مساء خريفي رضوضاً عديدة وثلاث كدمات وجرحين، مدشّناً بهذه الإصابات الرحيمة فشله في اقناع نفر من مخموري الأجساد ومتنبهي الذكور، أن يوم السبت الذي جاءوا فيه إلى المبنى القرميدي مخصّص لضيوف بعليتا الأعزّاء.

وقد وعى الدكتور شمداوي هذا الشرّ المستفحل يوم طلب إليه سعادة السفير الأمريكي أن يفعل شيئاً لحماية الأمريكيين وزملائهم الغربيّين، الذين لا ذنب لهم سوى حبّهم لهذه البلاد واستمتاعهم بتقاليدها العريقة.

« حمايتهم ممن؟ » سأله الدكتور مندهشاً. وساعتها قدّم له سعادة السفير الموجزات والأرقام التي أعدّها مكتب المعلومات الأمريكي عما يجري في ذلك الحضيض البشري الجميل من المدينة.

بلا إبطاء رأى الدكتور بأم بصيرته ما سيحدث. لسوف تغدو حفنة من العاهرات قضيّة وطنية على أيدي السنجاري وزبانيته. فهؤلاء اللواتي سقطن إلا من السجلاّت المدنية والصحّية للمجتمع، كنّ ذات يوم يبثثن الرعب في قلب الباشا والجنون في قلب المارشال. والآن سينقلبن فجأة في أعين « الجماهير » إلى حرمات مقدّسات، كسالفاتهنّ في العصور القديمة، وسيهيّجن تلك الفيروسات الجائحة في النفوس، فتندفع المظاهرات الصاخبة مطالبة بوقف تحويل بعليتا إلى مبغى للأمريكيين.

وعندها مَنْ سيعيد الدكتور سعد الله شمداوي رئيساً للوزراء خلال فترة برلمانية ثانية! إن في هذه البلاد شعباً يمكن أن يهدر بسهولة خمسمئة مزرعة نموذجية ولا يمكن أن يتسامح بثلمة امرأة مومس.

وهكذا وجد مخيبر سرحان أخيراً عملاً يقيه الضجر والبطالة. لقد طلب اللواء نوفل، رئيس الأركان، أن تسيّر دوريّات مستترة من « الشباب » تعزّز دوريّات الشرطة (التي يهمّها أساساً « الفلاحة » مع ساكنات وعليتا أكثر مما تهمّها حمايتهنّ) وتمنع الصدامات المحتملة بين المعربدين المحلّيين وضيوف بعليتا الأعزّاء. وكان الرائد مخيبر سعيداً للغاية بتلك المهمّة.

لكن سعدون وحياة كانا يتوجّسان خيفة، الأول من نجاح السنجاري في الانتخابات، والثانية من نجاح شمداوي. في تلك الآونة كان منزل مصعب في حيّ الصنّاع المنافس الوحيد بمستواه الفكري والنقاشي لمنزل مفيد العبدالله بمستواه الطعامي والالتهامي في حيّ

العمران. ولطالما نطقنا جهاراً بالحاجة إلى أن يسكن الصديقان في عمارة واحدة، فنخرج من وجبة ثقافية سياسية شهيّة إلى وجبة غذائية أشهى. غير أن هذا لم يتحقّق. ولقد آثرنا وجبة مصعب، الذي غدا الآن علماً صحفياً يرفرف قرب العلم الشعريّ، الذي صاره، لأن بعليتا بدت لنا في تلك الشهور الرماديّة الأخيرة من ولايـة شمداوي وكأنها تتمطّى بصلبها كالنهر الكبير، تنهض وتمتدّ وتفتح لنفسها أبواباً كانت من قبل مسحورة أو محرّمة.

«إنه مدّ نهضوي مشؤوم»، قال سعدون بوجه أكثر رمادية يوم قرأ بيان الحزب الاشتراكيّ التقدميّ الذي نجح السنجاري في الخروج به من حمأة الأحزاب الثلاثة. «هؤلاء يعيشون ذهنيّة جبهة ثوريّة، بينما هم بورجوازية صغيرة لا تستطيع أن تقوم بثورة».

لكن حياة التي اعتادت مؤخراً أن تلطم تفكير سعدون على قفاه بلا تأدّب هبّت في وجهه هذه المرّة صارخة: «تريد إذن هؤلاء السكارى البناديق أن يقوموا لك بثورة؟ هؤلاء تلزمهم عشرون سنة من الثورة الجنسيّة قبل أن ينتبهوا للثورة الطبقيّة».

«أكون سعيداً إذا لم يحتاجوا إلى أكثر من عشرين سنة. ماذا تظنّين؟ نحن عالم متخلّف، غير مهيّـأ الآن لأي نوع من أنواع الثورة».

«السنجاري سيَرْفعهم إلى مستوى الثورة. طالما حزب العمل لا يريدهم».

«أنت تعرفين أن الذين يتحرّكون الآن اجتماعيّاً وسياسيّاً ليسوا الأكثر مركزيّة في الحياة الاقتصاديّة. هؤلاء هم البرجوازيّة الصغيرة التي تبعبع بحثاً عن دور لها ومكان تحتلّه. بالتالي، ومع احترامي الكبير لشخصيّة السنجاري ومساعيه الطبقيّة، هم فقاقيع ستنفجر. السنجاري، يستحيل أن ينجح في الانتخابات».

«وأنا سأغتال شمداوي إذا نجح في هذه الانتخاب. وسأغتال الحزب إذا وقف مع شمداوي. أنا مع فيدل كاسترو».

«ليست هذه أول مخالفة منك لبرنامج الحزب. ولكن أرجو أن تكون الأخيرة».

لحسن الحظ لم تضطر حياة إلى اغتيال شمداوي. كان ثمة انفصام بين الأدوار الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة أقلق الدكتور رئيس الوزراء في بداية عهده ـ خليط من الوعي الطبقي، والإرداة الشعبيّة، والنهوض التقـدّمـي، والكـراهـيـة الرافضـة لـوجـود الأمريكيين في النهر الكبير. منذ عهد بعيد خرج من قوقعته الإقطاعية، وصار بوسعه أن يرى العالم ويحلم في بعليتا بعالم جديد. لقد أسعده أن يرى هذا التنوّع اللامحدود للحياة

البشرية. ثم أسعده أكثر أن يرى، وهو في فرنسا طالب يدرس الحقوق، مركزاً لهذا التنوّع واحداً لا يتزعزع وذا أسماء كثيرة: الصناعة، الرأسمالية، البورجوازية...

سوى أن التنوّع شيء وهذه الفوضى العضوية في شعب بعليتا شيء آخر. إن شعباً يفضّل القيام بالمظاهرات على بناء قاعدة حياته الاقتصادية، لن يستطيع اللحاق باليابان وألمانيا. اثنتا عشرة سنة مضت على الاستقلال والبعليتيون لم يصيروا مجتمعاً بعد. وها هو ذا في السنة الرابعة لحكمه، وما يزال ثمة شغل كثير يجب إنجازه قبل أن يصير لكل بعليتيّ عمل يُغنيه عن المظاهرات.

لقد جلس الدكتور في ذلك المساء وهو يسمع شريط الفصول الأربعة لفيفالدي ويراجع تقارير المظاهرات التي اكتسحت بعليتا طيلة النهار. وشيئاً فشيئاً بدأ ينتبه إلى أن قلقه المشرئبّ ليس في الحقيقة بسبب المظاهرات وإنما هو كتلة رسّبتها التجربة عاماً بعد عام. منذ بداية حكمه أحسّ بهذا القلق. في العامين الأوّلين كانت سعادته الغامرة بالمداميك الاقتصادية، التي يرسيها في البلاد، تنشطر بين الحين والحين بضربة هلع من أن تغدو بعليتا بسبب الصرح الاقتصادي الذي سيبنيه كياناً سياسياً متأبّياً على الوحدة النيلوتيـة. إنه ـ الدكتور سعد الله شمداوي ـ لن يقبل أن يكتب في تاريخ البلاد أن برنامجه الاقتصاديّ قد فصل بعليتا عن باقي دول النهر الكبير وجعل منها قوميّة جديدة.

خلال السنتين الأوليين تعيّن على الدكتور، وهو الذي لم يحجم يوماً عن إدراك الحقائق القاسية، أن يسلّم باستحالة المضيّ في تنفيذ برنامجه الاقتصادي دون أن تنعزل بعليتا في المآل عن الجسد النيلوتي. إن ستّ الدول النهرية الأخرى ما زالت تتخبط بين الباشوات والجنرالات. بعدكم سنة ضوئية سيخطر للسلطان ناعوس يا ترى، وهو الذي يستطيع أن يرصف شوارع المدن النيلوتية ذهباً، أن يقيم صناعة في بلاده أو في غيرها؟ والدكتور شمداوي لا يستطيع انتظار أحد. اللحظة التاريخية قانون مطلق مستبدّ، وهو لا يحبّ الخروج عن الزمن.

في بداية السنة الثالثة لعهده توصّل إلى اقتناع مضمر بأن على بعليتا أن تكون بروسيا النهر الكبير. وكان على وشك أن يتسنّم كرسيّ بسمارك في لا شعوره عندما فاجأته المظاهرات، كان أقرب ما يكون إلى الاقتناع بأن بعليتا مصنّعة ستكون قطب كومونولث نيلوتي على الطريقة البريطانية (رغم أنه لا يحب الانكليز)، وبعدها ستنجز الوحدة النيلوتية (ربما حتى بزعامته هو) بالقوة الاقتصادية الغاشمة وتنقل النيلوتيين إلى العالم الجديد.

وهكذا استراح من القلق الصغير وبقي لديه القلق الكبير.

عندما فاجأه مصعب السبئي بذلك المقال، والسنجاري بتلك الجلسة، لم يكن هو نفسه خالي الذهن من مضمون الهجومين. الحقيقة التي أربكته دائماً وأضنته غالباً هي أن الولايات المتحدة، التي أراحته دائماً وطمأنته غالباً، قد أقحمت في ذهنه صورة لا تتطابق ألبتة مع تلك التي أطلّت على وعيه أثناء الحرب العالمية الثانية. بالطبع هو لم يطمع بشيء مثل مشروع مارشال تخصّصه الولايات المتحدة لحوض النهر الكبير. لم يكن مغفّلاً ليفترض أنها يمكن أن تأتي إلى النهر الكبير وفي نيّتها مشروع نهضويّ مماثل. كان ضرورياً أن تنهض أوروبا من ركام الهمجيّة. أما الوطن النيلوتي فليس محتاجاً إلى هذه النجدة. إنه كفيل بذاته ـ فقط عبر مناخ معتدل من الأخوّة الرأسمالية، أخوّة عالمية تهيمن على هذا الكوكب بالديمقراطيّة وتبعد عنه الشيوعيّة والفقر.

تسنّم الدكتور سعدالله شمداوي رئاسة الوزراء بعد سقوط مصدّق في إيران وأثناء سقوط آربينز في غواتيمالا. لم يكن مغفّلاً فيضيع على نفسه الدرس البليغ ويسلك في تصنيع بعليتا مسلك التحدّي الاستقلاليّ الأجوف الذي أودى بمصدّق وآربينز إلى الهاوية. الحمقى فقط هم الذين يناطحون أمريكا. الرومنتيكيون، والثوريون، والمغامرون بمصير بلادهم، هؤلاء فقط يتعاملون مع أمريكا وكأن لاحقّ لعبقرتيها وتقدّمها في ثروات العالم. كأنها ليست الحلم والتوق في العالم الجديد. أما هو، سعدالله شمداوي فون بسمارك، فلن يرتكب هذا الخطأ المميت.

كان تفكيراً صائباً ذلك الذي أملى على الدكتور تقديم شروط سخيّة للاستثمارات الزراعية المصنّعة في بعليتا، والمشاركة في بعضها أيضاً بقسم وافر من أرضه. يجب أن يبادل أمريكا راحة براحة واطمئناناً باطمئنان. هو لم يكن غافلاً عن حجم الغبن الذي لحق بالملاّكين البعليتيّين ولا حجم التضحية التي يتحمّلها الدخل الوطنيّ البعليتيّ. لكنّ حسن النيّة يجب أن تمدّه يد صديقة إلى واشنطن مسافة تسعة وتسعين عاماً، لتحصل بعده، وبالمقابل، على «نو ـ هاو»، الخبرة والمعرفة في انطلاقة بعليتا نحو الثورة الصناعية.

سوى أن هذه الانطلاقة لم تتكوّن قطّ. منذ أيام الباشا الرئيس وحتى السنة الرابعة من عهده، والطلاّب النابغون في ميادين العلم يذهبون إلى الولايات المتحدة (بصورة رئيسية، وبعضهم إلى أوروبا) ليجدوا أنفسهم على أحد طريقين لا ثالث لها: فإما طريق معرفة وخبرة حقيقيّ يوصلهم إلى الجنسيّة الأمريكية، وإما طريق تلمذة وتمرين وحسب يعود بها إلى بعليتا. عشر سنوات، ولم يعد إلى بعليتا عالم واحد. عشر سنوات ولم يقم في بعليتا

حتى مصنع للإبر والدبابيس، ناهيك بمصنع جرّارات، أو سفن، أو سمك، أو كيمياء بترولية، أو راديوات، أو سيارات، أو أدوية، أو أيّ شيء. أيّ شيء.

وها هي ذي المظاهرات تقوم فتثبت للأمريكيين أنهم كانوا على حقّ. كيف يمكن لأمريكا أن تعطي أسرارها الصناعية إلى الغوغاء؟ إلى سديم بشري يمكن في أية لحظة أن يتخضّب بحمرة الشيوعيّة. هؤلاء الحمقى، بل المجانين، عصابة السنجاري وفاضل شرف ـ نزعوا من يده أداة ضغط وإحراج كان يمكن أن تستجيب لها أمريكا ذات يوم وتبدأ معها عصر الصناعة في النهر الكبير.

كان كلما فكّر في السنجاري يحتقن بكراهية صمّاء لهذا المشعوذ السمسار الذي أحبط في اللحظة الأخيرة خطط سنوات. إن سعد الله شمداوي رجل لم يعرف العشق الحقيقيّ. حتى زوجته كانت نوعاً من المصنع الاجتماعي. حتى حبّه لابنته خضع لجدول زمنيّ. لكن لحظات قليلة كانت تَفِد إليه بين حين وحين ويفد معها نوع من العشق الخاصّ أحس به تجاه أمريكا. إن قطعته الموسيقية المفضلة هي بلا منازع السمفونية التاسعة لدفورجاك. ولطالما أحسّ أنه وحده من بين جميع مستمعي العالم يستطيع بشعوره أن يصل إلى قرارة الوجد الذي أملى على الموسيقي التشيكيّ هذا العمل الخالد العظيم.

وعندما كانت روحه تفلت من حسابات عقله الاقتصاديّة والتاريخيّة، عندما كانت تنتشي بدفورجاك، بالتوق والحلم، وأربع سنوات من المجد في بعليتا، كانت ينابيع داخلية تنهض من وجدانه وتفيض إلى الخارج، صافية بالحبّ باديء ذي بدء ومعتكرة بالعتاب والخيبة والخذلان والمرارة، فيما بعد، إزاء الأحفاد العاقّين لتوماس جفرسون وبنجامين فرانكلين وابراهام لنكولن. شيء ما في مضمر في سياق تعاملهم معه يقول له إنهم لم يعودوا يريدونه، إنهم ربما فضّلوا عليه السنجاري الذي لن يطالبهم بتصنيع بعليتا.

ولكن كيف سيتعاملون يا ترى مع راعي الغنم هذا الذي رضع حليب الذئبة الشيوعيّة؟ في تلك اللحظات فقط، اللحظات المتلصّصة، المستترة بعتمة وهن آني في رقابة عقله الصارمة، كان سعد الله شمداوي يحسّ، كما يحسّ أي عاشق حقيقي، أن الولايات المتحدة لن تسمح له أبداً، ولا في أيّ يوم مقبل، بامتلاك «نو ـ هاو» ليبدأ به تاريخاً جديداً في النهر الكبير كان سيسميه «التاريخ الأمريكي خارج أمريكا». لا السنجاري ولا غيره قادر على أن يمنع أمريكا من فعل شيء تريد أن تفعله. وعندها كان يحسّ بدوار صغير يلفّ جمجمته، كأن خذروفاً بحجم حبة الفول راح يدور هنا ويطلق ريحاً وزوابع، ويكاثف في دماغه غيمة صغيرة سوداء ما تلبث أن تقتّم سماء عقله وتشطرها برعودها.

إنه ليس محمد مصدق، باكوبو آربينز غوسمان، فلماذا لم تمنحه الولايات المتحدة ثقتها؟ لماذا أخذت، ولمدة تسعة وتسعين عاماً، ولم تعط لمدة أربعة أعوام؟ ما الخطأ الذي وقع فيه عاشق سمفونية (العالم الجديد)؟.

إن أي وصف للمدينة، ناهيك بالبلاد كلها، خلال تلك الأشهر الثلاثة الأخيرة من ولاية شمداوي مستحيل تماماً. تلك كانت انتخابات حقيقية. وإذا كان تشرشل قد قال يوماً إن الديمقراطية (البرلمانية) هي أسوأ نظام للحكم ما عدا الأنظمة الأخرى كلّها، فقد تأكّد لشمداوي أنّ هذا صحيح.

أجل. كانت للحرية تلك الانتصابة البدائية، تلك الرائحة التي تنثّها الأرض أول ما يهمي عليها المطر. والذين تعلّموا شيئاً من مسيرة البشرية التي أراد فولتير أن يعرفها، كانوا مترعي الأفئدة بسعادة شعور يعرفه النهر وهو يشقّ مجراه. لقد خرجنا كل يوم لنفعل شيئاً ما بأسم الحرية، لها، بها، معها. تحوّلت أماكننا إلى مهرجانات، وهناك رقصنا مع فيضة. حملنا الرايات واللافتات والبيارق. كتبنا المناشير. وطرنا على ذلك الصراط الرهيف الفاصل بين الحرّية والجنون، الواصل بين الحرّية والجنون، واحتفينا بهما.

كذلك احتفينا بالدولار الأمريكي والدينار العمريتي. خلال الأسبوع الأخير قبل الانتخابات أوشك سعر الدولار أن يصير قرشاً. مفيد العبدالله، ولكي «يتصرّف» عندما يعلو سعر الدولار فيما بعد، باع حلي زوجته واشترى بقروشها دولارات أصدقائه ومعارفه ومعارف معارفه. هؤلاء أعطوا بحرّية عهوداً أن ينتخبوا مرشّحي شمداوي، ودخلوا القاعات السرّية فانتشلوا من جراباتهم ورقة بالأسماء التي يريدونها، ورموها في الصناديق بحرّية.

وهكذا حصل السنجاري على أربعة وثمانين مقعداً من مئة وأربعة وأربعين.

واحد فقط كان غائباً عن بعليتا في ذلك المعمعان: الرائد طاهر العطا الذي ذهب إلى الجبال الواصلة عمريت بالمخاة ليتنسّم أخبار ابن فيضة. بعد الانتخابات عاد والتقى الأمّ الوالهة، الأمّ التي زادتها الأمومة جمالاً وشباباً، وأبرأت وجهها وجسدها من مياسم الزمن، وقصّ عليها أخبار الولد الذي سمّوه فادي وصار عمره الآن سبع سنوات. ورأى، هو الغجريّ الأدهم بملابس عسكرية، ومضة في عيني الأمّ وهي تسمع أخبار الذي عيناه بلون النهر. ورأى من جديد الفتاة التي لم تفقد بكارتها بعد، التي لم تتقطع أعنّة عقلها بعد، التي لم يخذلها أحد بعد. ورأى أيضاً، بمحض الصدفة، عصاها الملفوفة برايتها الخضراء ترتفع وتهوي كالشرر على ذراع أمريكي عابر امتدّت لتتأبط ذراعها.

- ٨ -

بعليتا الآن مدينة واسعة. عانقت المزيد من شاطىء النهر وتمطّت حتى عانقت التلال. أحياؤها يبتعدون بها عن المركز، وأمواتها يقتربون بقبورهم منها. حاراتها الشعبيّة ظلّت كما هي وحيث هي، وإن كان العديد منا يحسّون بحنين مستبدّ إليها كأنها غدت مكاناً بعيداً. ظلّت وراء خط متعرّج من الحدائق العامّة الخضيلة تتلفلف بوشاح من الغموض القديم. كأنها هي التي ابتعدت إلى مكان قدسيّ، وليس نحن إلى مكان مباح.

وراء المقبرة، وعلى خط واصل بينها وبين التلال، ثم حول الحدود الشمالية للأحياء القديمة، تنتشر مئات المصانع الصغيرة والمشاغل والمكاتب. وإذا كان ازدياد السكان وازدياد العمران شاهدين على التقدّم، فإن بعليتا تتقدّم حقاً. لقد غدت الآن أضعافاً مضاعفة، بيوتاً، وسكاناً، وصبايا، وشباباً.

بوسعنا أن نحكم للعمران الجديد بالحداثة. لقد حلّت النوافذ العريضة في جدرانه محلّ النوافذ الطويلة، والشرفات محلّ المشربيّات. لكن الأهمّ هو زوال تلك الفسحة الداخلية التي كانت تُغْني سكان الدور القديمة عن العالم الخارجيّ. كلّ الحواسّ الآن، والعقل والشعور، منفتح على الخارج.

ماذا نسمّي هذا الكم الهائل ممّن دعاهم السنجاري «الجماهير» وذُعر شمداوي من تسميتهم بصيغة الجمع هذه؟ جمعٌ هم بالتأكيد. لكنهم ليسوا شيئاً آخر خاضعاً لتحديد طبقيّ. إنهم يدورون على محيط المدينة، وقد يدخلون في فضاء دائرتها، يعملون وينتجون، ودائماً يعيشون على الهامش العريض لمدينة تكبر بلا وعي.

حتى العاملون منهم في صناعات صغيرة تحتكرها منذ القدم عائلات أخذت أسماءها من اختصاصاتها (دباغة، نسيج، زجاج، شمع، نشاء، طباعة، صياغة)، كانوا يلتقون مع عاملين في المؤسسات الاستشاريّة الحديثة التي أدخلها شمداوي ومع العاملين في مؤسّسات الدولة، وفي قطاعي البضائع الاستهلاكية والبناء، ليشكّلوا تيارات بشرية تخلخل بضيقها وقلقها المزاج السكوني العريق للمدينة.

هؤلاء، وأندادهم في المدن الأخرى، هم الذين قلبوا نسبة التمثيل في الجمعية الوطنية لصالح السنجاري؛ هم و«جماهير» قلقة ضائقة في الأرياف والجيش والأعمال الثانوية

الموقتة وصناعات التعليب، ممن كانوا أكثر استعصاء على تصنيفات سعدون الطبقيّة وأكثر يسارية منه.

شيء واحد لم يتغيّر طول هذه السنين: غرفة فيضة، ثم زيارات مصعب لها، كانا يلتقيان مرةً كلّ خمس زيارات خائبةأو ستّ. لقد بحث عنها هناك بنوع من العشق الخاصّ. كان يمضي إلى تلك الغرفة اللاامتميّزة، التي صارت في نسيج وعيه ومشاعره تلّة قدسيّة تَخُصّه وحده، وهو موقن غالباً أنه لن يرى المرأة الضلّيلة التي بُعثت في مملكة الأمومة. كانت المفاجأة أن يلتقي بها. وعندها تنظر إليه وتبتسم، كما لو أنها تقابل كائناً أليفاً أنيساً. وسواء نادته « مصعب » أو « طاهر » أو « شيبوب »، سواء عرفته أم لم تعرفه، فالألفة والأنس لم يغادراها قطّ. وراء عقلها وعملياته المنبترة ثوى حسّ عميق بالمعرفة، بتقاسم خبز الجسد وملحه. « مرعي السنجاري صار رئيساً »، قالت لمصعب وعلى وجهها ابتسامة سارحة، كانت قامتها حريقاً تحت مطر الشتاء، ووجهها منشوراً سرّياً يطفو على فيضان النهر. « ولم يتزوّج »، أضافت بحزن دفين، وساعتها انهمر جسدها على صدر مصعب، ويداها ورأسها على كتفيه. « وأنت تزوّجت »، قالت بحزن أعمق. وراح قلبها يدقّ على أضلاعه من وراء ثديها المدور الصغير. لطمة صغيرة إثر لطمة. « آه يا أخي، يا حبيبي ».

نهضت إلى ركن البريموس. جئت هناك وراحت تُعدّ مغليّ أعشاب عمريت، التي كانت تصلها بانتظام. بعد لحظات التفتت إليه وشاهدته، وعبرت إلى ركن آخر فيه صنبور الماء. عرف مصعب أنه ابتعد عن ذاكرتها وعينيها. ومنذ تلك اللحظة حتى خروجه إلى النهر مستثاراً ضيّق الرئتين، لم تتبادل معه نظرة معرفة واحدة. رفع يداً مودّعة فيما عيناه تلتقطان لجمالها النقي البديد صوراً على فيلم وعيه وذاكرته، وأدار ظهره.

عند الباب صاحت: « مصعب! » التفت متهلّل الوجه والروح، ثم جمّده الحداد المرمّد على وجهها: « لماذا بعليتا حزينة هذا الحزن؟ » ثم اخترقت نظرتها رأسه ومضت تخترق الباب والمدينة وفضاء البلاد. وأضافت كمن تفسّر سؤالها الأول: « بعد كل هذا المطر.. لم تنبت عشبة ثانية في أرضي ».

لم يكن يملك جواباً. بل ولم يخطر له السؤال، الآن وقد انتصرت بعليتا على نفسها. ولم يكن لدى حياة ما تقوله، هي التي نظرت إلى فيضة على الدوام كغريمة جنسيّة وعاطفية، وأبت عليها كبرياؤها أن تفصح عن ارتياباتها الدوريّة. وإذ غابت فيضة وتأبّت حياة، اقتحمت خاطره تلك الرؤى المختلطة المتنافرة التي تسبق في العادة هبوب القصيدة، لكنها باتت مؤخّراً تسبق أحاسيسه بالوحشة والاضطراب.

لقد قبل بسرعة الدعوة التي حملها عبد العليم الغـزال لعشاء جماعيّ يقيمه مفيد العبد الله في منزله توديعاً لنا قبل سفره إلى جامعة بيت رع لأجل الدكتوراه. وفي الطريق تمنّى أن تمسّ ضحكات عبد العليم شاغفاً من قلبه فقط ليرتاح من عناء خواطره. لقد أصرّ على أن يستأنف فرحه بما رآه الأصدق والأجمل في تاريخه الشخصيّ وتاريخ بعليتا: انتصار التوق والحلم.

وكان لدى عبد العليم ما فاجأ به مصعباً والذين حضروا منا إلى بيت مفيد، وعبّأ فينا حسّاً متوهّجاً بالمستقبل.

كان السنجاري قد عيّن عبد العليم سكرتيراً برلمانياً له قبل يومين فقط من تلك الزيارة الغريبة غير المتوقّعة، التي تمّت في غسق الأروقة المبهمة لمبنى الجمعية الوطنيّة. في فرنسا شاهد شمداوي رئيس الأقلّية في الجمعية الوطنية يهنىء رئيس الأغلبيّة بثقة الشعب. لم يكن مضطراً لهذه البادرة الشكليّة في بلد تذوّق منذ عهد قريب فقط طعم الديمقراطية المعتق، ومع رجل تربطه به جريمة وقتل وعداءات مريرة. غير أن شمداوي أصرّ على التمسّك بأهداب التقاليد البرلمانية. قصد في ذلك المساء غرفة السنجاري وراء الأروقة، ودقّ على بابها المغلق واعياً تماماً بالمفاجأة التي سيحدثها، ومتهيئاً، أيضاً تماماً، لاستثمار تأثيرها استثماراً أقصى. لقد أحسّ، وكان له الحق، بأنّ المسألة ليست مجرد شكليات، وإنما وصول إلى مفترق طرق تقف عليه ليس بعليتا وحدها بـل ودول نيلوتيا التي تتطلّع شعوبها قاطبة إلى النموذج البرلماني طلباً للخلاص من الطغموية الباشوية أو السلطانية أو العسكرية.

عبد العليم، الذي فتح الباب للطارق، سرعان ما وجد نفسه مذهولاً. لم يدر هو، ولم نفهم نحن، هل خرج من الباب ليدخل شمداوي انصياعاً لطلب الأخير المتعجرف: «خلّك خارج الغرفة»، أم لأن المفاجأة عقلت عقله فزيّنت له الخروج من مشهد كان مجرّد تصوّره يثير الفزع؟

«وقفت وراء الباب، لم ينتبه أحد منهما أني أمسكته دون إغلاقه. بقي سنتمترين تقريباً، مفتوحاً، ولم يكن أحد في الجمعيّة ساعتها».

يمكننا أن نتصوّر، إضـافـة إلى كلمات الحوار التي رُقّنت على ذاكرة عبد العليم، خطوات الدكتور السريعة البطيئة، وهو يقترب من راعي الغنم مبتسماً ومقطّباً، كما يليق بابن باشا سابق وإنسان حديث العقل. ويمكننا أن نتصوّر زعيم الأغلبيّة البرلمانية يراقبه بدهشة جامحة سرعان ما تمكّن، هو الجالس وراء مكتبه، من السيطرة عليها وتحويل توتّر

شحنتها العالي إلى استعداد مطلق لمجابهة جامحة غامضة، تنبأ بها متحفّزاً ملجوم الغضب.

قال الدكتور إنه لم يأت للتهنئة وحسب، بل لشيء أكثر أهميّة بكثير. «في الديمقراطيات الغربية تشترك الإدارة والمعارضة في بناء الوطن معاً. صحيح أن لكل منهما مصالح طبقيّة لا بدّ من مراعاتها،لكن الهدف الكبير العامّ هو خدمة البلد. وأرجو ألا يأتي ذلك اليوم الذي تقتصر فيه الإدارة على خدمة مصلحتها الطبقية وحسب، أو المعارضة على الدفاع عن مصلحتها الطبقية وحسب، لأن ذلك اليوم سيعني الاستبداد وتعطيل قوى الشعب الحيّة..».

كان مرعي السنجاري يصغي بجوارح متأجّجة ولكن رخوة الأهداب. ابتسم بوهن إذ صمت شمداوي قليلاً، وتمتم: «من يسمعك يا دكتور يؤمن فعلاً أنك زعيم وطنيّ مستنير.. وشريف».

«أرجو ألاّ تسيء فهمي. نحن الآن قطبان وطنيان، لا فردان لكل منهما اسم خاصّ به. بهذه الصفة جئت أدعوك إلى أن نجعل من نظامنا البرلماني دولة تحمي البرجوازية التي أمثّلها، والطبقات المتوسطة التي تمثلها أنت. تماماً مثل الأحزاب الديمقراطية المسيحيّة أو المحافظة، والأحزاب الاشتراكية أو العمّالية في أوروبا».

لم يكن مرعي السنجاري رجل نظرية. وكان هذا سبباً إضافياً لإصغائه المتربص إلى ما رآه دروس فرنسا التي وشمت دماغ غريمه. غير أنه أحسّ باستهزاء خفيف إزاء الكلمات السابقة التي صوّرته ممثلاً «للطبقات المتوسطة» فتمتم دونما نبرة: «أنا أمثّل الجماهير».

لا بد وأن الدكتور شمداوي ابتسم بمودّة بالغة الدماثة، محاولاً إخفاء اشمئزازه من التبجّح ورعدته الخاصة من الكلمة المعطاة بصيغة الجمع. قال: «أنا أرى أن شخصيات التاريخ الذي نعيشه ليست البرجوازيين ولا البروليتاريين. هناك شخصيتان فقط، واحدة كبيرة وهي الرأسمال العالمي، وواحدة صغيرة هي دولة مثل دولتنا، تتعاون مع رأس المال الأجنبي لتوسيع السوق الداخلية، وتوطيد الوحدة الوطنية، وإزاحة الباشوات..».

«أو للتصدّي لإرادة الجماهير، والمطالب الشعبيّة بعدالة توزيع الدخل القومي»، قال السنجاري مبتسماً هو الآخر بمودّة بالغة الدماثة.

لم يكترث شمداوي للمقاطعة المبتسمة: «نحن مجتمع أقرب إلى البدائية، كل مجتمع إقطاعي مجتمع بدائيّ. لكن عندنا حيويّة واندفاع يتحدّيان فهم ابن خلدون. عندنا، لا العصبيّة ولا الدين موجودان، لكنّ الحيوية والاندفاع موجودان..».

مرة أخرى قاطعه السنجاري ولكن بنصف تكشيرة: « الإرادة يا دكتور، الإرادة. إذا الشعب يوماً أراد الحياة.. هذه محفوظات طلاّبنا في المدارس ».

« كيفما سمّيته »، ردّ الدكتور. « نحن نستطيع أن نجعل بعليتا يابانا ثانية، خلال عشر سنوات. نجعل رأس المال المحلّي يتراكم، ويعود ليسهم في مزيد من الإنجازات الاقتصادية. وفي الوقت نفسه نحافظ على النظام البرلماني، فنحمي البرجوازية والطبقات المتوسطة من زخم الاندفاعة الشعبيّة ».

« هل جئت تملي عليّ بياني الوزاريّ يا سعد الله؟ »
« حاشا لله. بل جئت أعرض برنامجاً للتعاون ».

لا شك أن الصمت الذي تبع كلمات شمداوي كان برهة تأمّل فيها الرجلان أحدهما الآخر. وربما كان أيضاً لحظات من التهيّؤ، راح السنجاري يختار فيها كلماته التي سيقولها: « أنا يا زميلي ممثّل الأقلية في وادٍ آخر تماماً. أنا سأحدث قطيعة مع رأسماليّتك العالميّة هذه. قطيعة تامّة. سأبني قاعدة اقتصادية لا مصلحة لأحد فيها غير البعليتيين والنيلوتيين ».

« اسمح لي. أنت تعلن عن كارثة محتّمة. ستعرّض جميع مؤسّسات الدولة للخطر، لأن أمريكا في هذه الحالة ستكون ضدّنا. ونحن لا قبل لنا بأمريكا ».

« ضدنا؟ أنت وأنا؟ »
« أنت وأنا. نعم ».
« أمريكا ضدي أنا، هذه فهمناها، ضدك أنت، كيف؟ »
« نحن وجهان لعملة واحدة. نحن نمثّل النظام البرلماني ».
« أمريكا ضدي أنا، ليست ضد النظام البرلماني. إنه نظامها ».

« إذا لم تحسن إدارة اللعبة أيها الزميل زعيم الأغلبية، وعلى الطريقة الفرنسيّة أو الانكليزية، نهضت أمريكا ضد النظام نفسه. جاءت بالجنرالات ليحكموا بدلاً منا ».

انفسح صمت آخر بين الرجلين. لا ريب أن الدكتور كان أثناءه مبتسماً والسنجاري متأملاً بقلق طارىء هذه الابتسامة. « الجيش! » قال السنجاري أخيراً. ولا ريب أنه بعد برهة ابتسم واسترخى في جلسته: « يستحيل أن يقوم الجيش ضدّ حكم وطني. كلّ ضباطنا شرفاء ».

« مثل كلّ طبقة، هؤلاء لهم مصالحهم. لا تنس الجنرال زاهدي ».

« مستحيل. أنت جئت تلعب لعبة. الجيش، خلص، طلّق السياسة نهائياً، أنا أعرفهم واحداً واحداً. لعبت مع بعضهم النرد، وشربت مع بعضهم الآخر. لو كانوا كما تقول لقاموا ضدّك أنت بانقلاب ».

« لأول مرة أكتشف كم أنت مثاليّ، يا عزيزي زعيم الأغلبية. وهذه كارثة. أنا نفسي أشرفت على إيفاد ١٤٧٥ ضابطاً في دورات تدريبية إلى عمريت وفرنسا وتكساس. وبعضها دام ستة أشهر. خذها مني: إذا بقي بعد عشرين سنة من الآن نظام ديمقراطي واحد خارج العالم الحرّ، فابصق في وجهي. لا تنس الجنرال زاهدي! ».

« لماذا أنت متحالف مع أمريكا ورأيك فيها بهذه السلبيّة؟ ».

« اليد التي لا تستطيع قطعها قبّلها وادْعُ عليها بالقطع. أنا متحالف مع أمريكا لأجل النظام الديمقراطي. لكي لا تسود الفوضى والاستبداد والظلام والشيوعيّة، إذا وقفت ضدها ».

« تتكلم عنها وكأنها قدر ».

« نعم. هيمنة أمريكا حتمية تاريخية. ولتنجو منها أنت وبلادك، يجب أن تصير رأسمالياً مثلها ».

« أنا قرّرت إحداث قطيعة تامّة مع الرأسمالية. قرّرت ألاّ أترك لأمريكا موطىء قدم هنا إلا على جثّتي ».

قال الدكتور بغموض: « أظنّ أن هذا هو ما سيحدث في النهاية. يؤسفني أن أسمعك تتكلّم مثل الشيوعيين ».

« هه! » نبر السنجاري متحرّراً لأول مرة من كمدٍ ظلّ طيلة الوقت يتلبّسه. « الشيوعيون مثلك أنت. مغشوشون بفكرة أن أمريكا تسمح بقيام برجوازية صناعيّة محلّية ».

رانَ صمت موحش بين الرجلين، طال حتى حسب عبد العليم أن شمداوي قد نهض مودّعاً. ولحظة همّ بالابتعاد سمع الدكتور يسأل: « ماذا تنوي أن تفعل إذن؟ تنفّذ وعودك الانتخابية؟ »

« بالحرف. وهي ليست وعوداً. أنا طرحت برنامج عمل وطنيّ ».

« ستؤمّم، وتصادر، وتوزّع الأراضي، وكلّ شيء؟ ».

« وكلّ شيء ».

« إذن، من واجبي أن أحذّرك، بل أنذرك. أنا لا أقبل أن تضيع سنوات حكمي عبثاً. أنا سأحرّك جميع مؤسّسات الدولة ضدّك، وجميع المؤسسات الاقتصاديّة، وجميع أصحاب الأراضي والدّكاكين، إذا حاولت أن تمسّ الملكيّة الفرديّة، أو الاتفاقات الدوليّة.. ».

« الآن ظهر وجهك القديم يا سعد الله »، قال السنجاري باحتقار رخو. « كدت تخدعني أوّل ما بدأت حديثك. يد ممدودة للمحافظة على الديمقراطية؛ أفق واسع؛ آراء ضد أمريكا.. وفجأة، عندما تأكّد لك إصراري على برنامجي، تلاشت ديمقراطيتك، كما تلاشت ديمقراطية أمريكا في إيران وغواتيمالا وكوبا. انكشف وجهك البشع. وجه الذئب الذي بدأ حياته باغتصاب فلاّحة والتسبّب في قتلها، ووصل إلى أن يغتصب أرض بلاده ويتسبّب في قتلها... ».

« أنا لم أزرك بأية صفة شخصية يا زميلي زعيم الأغلبية. جئت مدفوعاً بإيماني أنه بدون الديمقراطية لا يمكن أن تقوم قائمة لهذا البلد. وأحذّرك من العبث بها ».

« أنا منتبه تماماً لتحذيرك. أنا أريد التقدّم، وإذا لم تحقق هذه الديمقراطية التقدّم المنشود، إذا أصررت أنت على المجابهة العنيفة التي تهدّد بها، فأنا عندي ديمقراطية بديلة. المهمّ هو التقدّم. أنا سأريك كيف أجعل اثني عشر مليون بعليتي في الجمعية الوطنيّة ».

هتف سعد الله بيأس منسحب: « أنت شيوعي. شيوعي. كنت أظنّ حزب العمل هو الخطر الداهم على البلاد.... إنها الحرب يا سنجاري ».

وثب عبد العليم الغزال من عند الباب وثبة جعلته جديراً حقاً بكنيته، وتوارى في رواق جانبيّ. وإذ تأكد من أن شمداوي غادر الكواليس، عاد إلى معلمه بابتسامة مظفّرة، وعانقه.

« كنت تتنصّت علينا يا عبد العليم؟ لماذا هذا العناق؟ ».

« أبداً، أبداً والله. كلمات قليلة فقط. وبعدها.. رحت.. لجلب القهوة! لم أجد أحداً. رجعت ».

« طيّب. اللواء نوفل سيزورني في منزلي بعد قليل. قل لمصعب أن ينشر خبر زيارته في الصفحة الأولى. ويقول كلاماً بأسلوبه عن موقف الجيش الوطنيّ، ودعمه للديمقراطيّة. وغداً اتّصلْ بالسفير السوفييتي وأعطه موعداً لزيارتي في أسرع وقت ممكن ».

ذلك المساء العصيب في حياة الدكتور والسنجاري، وبعليتا كلها، لم يكن حديث

سهرتنا وحدها حول وليمة مفيد الباذخة. وسواء انتشرت تفاصيله بين الجماهير أم لم تنتشر فقد عرف الناس أن حرباً قد أعلنت بين زعيمي البلاد اللذين أطلقتهما كفرطيبا من رحمها.

هذه الحرب لم تشغل بال أمّ مصعب طويلاً: إن حرباً تخلو من السيوف والبنادق والدم لن تشبه حروب أبي مصعب وبالتالي فهي تخلو من البطولة والمجد. استمرّت تطارد فاتكاً بصمتها الملحّ الموحي، وهي تتوقّعه كلّ يوم عائداً إلى البيت متأبّطاً ذراع بنت حلوة، قائلاً: هذه هي عروستي؛ فتراه عائداً كلّ يوم متأبطاً سبع جرائد.

هذه هي حربها. مساء بعد مساء كانت تقترب من ابنها المتلملم داخل الصحف المبعثرة حوله. لسوف تشنّ هجوماً على انشغالاته الجانحة المحزنة هذه. غير أن فاتكاً كان ينهمر عليها بسيل من المعلومات محتقن في ذاكرته مذ قرأ الصحف لأول مرة عند الظهر: الجمعيّة الوطنية أعطت شرعيّة مطلقة لتكوين الأحزاب والنقابات؛ أصدرت تشريعاً يمنع التسريح التعسفيّ للعامل؛ رفعت الحدّ الأدنى لأجور العمال بنسبة ٢٠ ٪؛ وضعت برنامجاً لتخفيض نسبة البطالة من ٨,٣ ٪ إلى ٣,٨ ٪ خلال عامين؛ أصدرت تشريعاً يمنع بيع الأرض أو تأجيرها للأجانب؛ وتشريعاً يجبر الحكومة على التفاوض مع اليونايتد انفستمنت لأجل شروط تعاقد أفضل بالنسبة للسكّر والقطن؛ وفسخت الاشراف المالي للمصرفين الأمريكيين على ميزانية البلد؛ حرّرت القرش من منطقة الدولار...

« وصرت تقرأ بالفرنجية ما شاء الله! » نبرت بما هو مزيج من الإعجاب والسخرية.

« ترين يا أمي! لو درست الانكليزية جيداً في المدرسة، كنت الآن قرأت ما قالته (نيوزويك) و (الايكونوميست) عن السنجاري ».

« وماذا قالت النيزك والاكميست؟ » سألت أمّ مصعب وفي نفسها أمل ضئيل ولكن عنيد بأن يحمل جواب فاتك مدخلاً ولو ضيّقاً إلى حديث الزواج. لكن خيبتها كانت كاملة.

« أمريكا تتهم السنجاري أنه في الأشهر الأخيرة كشف بوضوح عن كونه شيوعياً. تقول إنها تخاف خطره الأحمر على النهر الكبير ».

« ما هو الشيوعيّ يا ابني؟ نمرود؟ ».

رفع فاتك حاجبيه بدهشة وهو ينظر إلى أمه. ثم غمغم بضيق: « لا يا أمي، لا .. ».

« ما هو إذن؟ »

«واحد مثل سعدون».

«مثل سعدون ويخاف منه الأمريكان؟».

«قصدي مثل حياة زوجة أخي. لكن أمريكا تريد رأس السنجاري لا رأس سعدون».

«نشكر الله. سعدون صديقك، لأنّه..»

«أمي! رأس السنجاري أهمّ من رأس سعدون!».

«إخس! هكذا ربّيتك يا ولد! يا عاصي، يا أعزب! ماذا فعل السنجاري ليكون رأسه أهمّ من رأس سعدون؟ ها؟ تزوّج؟ صار عنده أولاد؟ قل لي!»

يومها لم يردّ. لكنه ذات مساء عاد ومعه تسع جرائد، وحاول أن يشرح لأمّه القرار العظيم الذي اتخذته الجمعية الوطنية ببناء مساكن للعمال في جميع أنحاء البلاد. «تصوّري! أينما ذهب العامل ليعمل، سيجد بيتاً جاهزاً ينتظره. إذا اشتغل في الميناء، له بيت. وإذا اشتغل في مزارع القصب، أو الشوندر، أو القطن، أو في أي مصنع... له بيت. بلا أجرة. ينتقل من بيت إلى بيت مثل العصفور..».

أحسّت أمّ مصعب أنّ فرصتها الذهبيّة قد جاءت. ما هي تلك البيوت، سألت ولدها المتألّق أملاً ونشوة، ثم أجابت بنفسها: «يعني ستأخذ بيتاً، وتتزوّج، وتترك هذا المكان الضيّق لإخوتك!».

صمت فاتك فجأة، وحلق إلى أمه: «أنا؟ طبعاً لا! البلاد فيها عمّال كثار لا بيوت عندهم على الإطلاق!»

مثل هذا الشعور الذي رأته أمّ مصعب فاتكاً بابنها فاتك، صار مناخاً نفسياً في السنة الأولى من رئاسة السنجاري. كان الناس يتوجّهون إلى أعمالهم بشعور من ينتظر جائزة ما، وأنه لأجل ذلك ذاهب لكي يفعل شيئاً. هذا الانضباط بحدود العمل وجدواه أسبغ على المدينة أشكالاً متتالية رسمها حضور البشر ـ وغيابهم. كانت ساعات الخروج إلى العمل أو العودة منه، أو استراحاته القصيرة، أو ذهاب الطلاّب وإيابهم، تنفر في المدينة بالحركة والحيوية، وتلهب الركود الرخيّ الذي كان قبل دقائق سديماً منثوثاً على وجهها الفاتر. كأن خلايا نحل قد انفتحت فجأة وانفلت عشرات الآلاف من ساكنيها في فضائها المزهر المديد.

حتى باصات النقل وسكّة القطار الوحيدة، الذاهبة أو الآيبة بالعمال، كانت توحي

بتتابع واستمرار هما نفسهما ما أوحت به جمعية السنجاري الوطنية. لكن الزينة الأجمل جاءت مع أشكال الفرح والبهاء والتفتح التي ظهرت بها أفواج من الطلاب والطالبات في غدوّهم ورواحهم. لا شكّ أنهم كانوا هناك منذ أمد بعيد - هذه القامات الباسقة والوجوه النضيرة والانفلات الطليق الآمن على سواقي الأرصفة والشوارع - وأن شيئاً قد حدث فمزّق عنهم قماقم درويشية وأطلقهم: لقد قدّم هؤلاء سحرهم البديل، ليس بممارسات السيطرة التحكّمية بالجسد، وإنما على العكس، بتركه لإيقاعات وجوده الداخلية. كانت هناك حريّة باطنية في أعضائه، تموّج نهريّ في الجذع وشموخ في الجيد ونظرات مقتحمة في العيون. لقد ضربت خطاهم على الأرض كأن الخليقة قد بدأت الآن، وبهم شخصياً، وأعطت لقاماتهم طولاً إضافياً جعلهم يعانقون الوجود من عل.

اعتادت شوارع بعليتا أن تخلو من أفواج المتسكّعين فيها على مدار اليوم، لتستقبل أناساً يظهرون فجأة ليشتروا جريدة ويغيبوا بين سطورها ويغيبوا من الشوارع أيضاً، أناساً ربما كانوا أولئك المتسكّعين أنفسهم وقد غدوا يهرعون الآن إلى أعمالهم بعد أن يستقرئوا الجريدة عن آخر مفاجأة طيّبة بعثتها إليهم الجمعية الوطنيّة. كان صيفاً بليلاً ذلك الذي أحسّ الناس فيه أن الدراويش، الذين انبثقوا في شوارع المدينة كالبثور الضخمة أوائل عهد شمداوي، قد أخلوا أماكنهم الآن لدراويش من نوع آخر أقاموا مساندهم وأكشاكهم عند الزوايا والتكايا وراحوا يبيعون الصحف.

كان للصحف نكهة ومذاق جديدان. بعيد الانتخابات اندلعت أخبار عن صحفيين تعرّضوا أيام شمداوي إلى رشاوى وتهديدات تشبه تيارات متناوبة عنيفة من البخار الحامي والهواء الثلجيّ. كان مطلوباً أن تمرّ الاتفاقات الاستثمارية بسلام، بتعليقات بسيطة، أو بصورة برّاقة إذا أمكن. وقد حصل على جوازات هذا المرور أناس غريبون غامضون، تكلّموا اللغة النيلوتية بنبرة جنوبية ولغة المسدس والمال بنبرة عالمية. وقد استمرّ الخوف الذي وزّعوه، ربما لأنها المرة الأولى التي يشاهد فيها الصحفيّون شيئاً مثل هذا خارج شاشة السينما، ربما لأن ذكريات المارشال الرئيس كانت ما تزال عالقة بالأفئدة. استمرّ الخوف المراوغ يحابلهم دون تلك الخطوة الحاسمة، إلى أن كتب مصعب تقريره الشهير ذاك ونقل الأزمة إلى الجمعية الوطنية.

ماذا نقول الآن عما بدا في ذلك الحين فظاعات لا يقبلها العقل؟ خمسون ألف كم² من حقول قصب السكّر والقطن انتقل إلى اليونايتد انفستمنت. مئة وسبعة وثلاثون فندقاً ونادياً في أنحاء البلاد، ومعها معمل «البيرة النيلوتية»، امتلكها تشيز مانهاتن وفيرست ناشنل سيتي. الصناعات الكيماوية، والصيدلانية، والكهربائية، والغذائية، ومنتجات صناعية

عديدة، صارت تحت السيطرة المباشرة الكليّة للشركات العالمية. لقد أمسى اقتصاد بعليتنا خلال نيف وأربع سنين أقرب إلى اقتصاد وحيد الجانب (السكّر والقطن)، حتى بتنا نستورد المنتجات الصناعية وأوشكنا أن نستورد الزراعية أيضاً.

وماذا نقول أيضاً عن تلك الروح المريدة، الصداميّة بلا عنف، التي أطلقتها الصحف والديمقراطية؟ من كان يصدق أن هؤلاء الذين بالأمس فقط انتفضوا من تحت الطرابيش، من داخل الجبب، أصبحوا الآن يقرأون ذات اليمين وذات اليسار أخباراً مثيرة عن فيدل كاسترو؟ أكان الشيخ السمنكي يحلم يوماً بأن يقرأ خواطره مجسّدة في مقالات من (نيوزويك) و (تايم) المترجمة عن السنجاري وملابسه المزدادة حمرة كل يوم؟ ألم يكن ترفاً ذهنياً وديمقراطياً يفوق التصوّر أن يغفل شريف العبد الله عن حراسته للمبنى القرميدي لأن رأسه سَلَتَ بين جرائد اليمين وجرائد اليسار، وعقله بين هاتين الكلمتين الشابّتين؟ لقد أمسى حديث المجتمعات والمعامل أن تنشر (الأيام) و (الصيحة) ترجمتين لمقال أجنبي واحد، فيبدو السنجاري في الأولى مجنوناً مسعوراً، مندفعاً ببلاده نحو الدمار، ويبدو في الثانية مناضلاً ضد السيطرة الاقتصادية التي يشتمه عملاؤها الإعلاميّون.

لم يكن غريباً إذن أن يجلس أبو إسماعيل سرحان على طاولته الأثيرة في مقهى (الروضة) الشعبيّ غير عابىء بالردّ على النداءات والتحدّيات النابقة حوله من لاعبي النرد، إلى أن يأتي على الأخضر واليابس في جريدته المفضلة، (الصيحة)، ليلتفت بعدها إلى غرمائه، وهو ما زال غير عابىء بنداءاتهم وتحدّياتهم، ويقول: «أنا لا أفهم هذه الديمقراطية النقابية. أية لغة يفبركها مصعب هذا؟» ثم يضيف وهو يتحرّك أخيراً نحو الطاولة المنتظرة، «لكني أحبّه مثل ابني إسماعيل لعنه الله».

«الدروع الحمراء» - هي التسمية التي أحلّتها الصحافة البيضاء محل «السياجات الخضراء» أو «الديمقراطيّة النقابيّة»، التي هي تسمية صحافتنا المحليّة لمشروع السنجاري في «الديمقراطية الرديفة» وما أعلن خال سعدون أنه «الديمقراطية الشعبية». وقد بدأ الأستاذ فاضل بتجييش الشباب من حزب العمل وأنصاره في ميليشيات مدنية أسماها هي الأخرى «المقاومة الشعبية»، وأناط رئاستها بالرفيقة حياة الملاح، فراح مصعب يطالب على صفحات (الصيحة)« بتعزيز الراية التي كانت فيضته وفيضي السعيد أول من حملها كي لا يطاح بها لمجرّد أنها حُملت على عصا وليس على بارودة».

ذلك كان أول جسر صلب تعبره حياة إلى نسائنا، ونساؤنا إليها، وهنّ كلهنّ إلى فضاء المدينة. تحوّلت المدارس إلى ميادين تدريب تقصدها النساء بعد انصراف الطلاّب.

وهناك كانت حياة (التي رأت وزارة الدفاع أن تقصر مهمتها على النساء) حاضرة على الدوام، خالية من عنجهيّتها، خائفة من أخطائها، وكذلك، وفيما وراء ذلك، أرهف تلقياً لخلجات مصعب وأرأم بها.

هناك أيضاً كان الرائد طاهر العطا ومساعده الرائد نذير النميري يشرفان على تدريب نقابيّ العاصمة وضواحيها في معسكرات أقيمت بين التلال. كان يجب أن تقوم ديمقراطية تحمي الديمقراطية. وكان السنجاري سعيداً بهؤلاء الضباط الأشاوس ومتدرّبيهم. إذ من يدري ماذا يبيّت الغد الأمريكيّ ضد الجمعيّة الوطنيّة؟

مرّ على البلاد حين من الدهر أوشكت الجمعيّة الوطنيّة فيه أن تصير طوطماً. قبل آلاف السنين، كانت خيمة هنا وخيمة هناك على امتداد النهر وسهوله وجباله، وكانت الناس تزدلف إلى شيخها أو رئيسها لتطمئنّ إلى حاضرها أو مستقبلها. وكان معبد هنا ومعبد هناك، وكانت الناس تزدلف إليه للهدف القلبيّ والعقليّ نفسه. إن حسّ التديّن عريق في النهر الكبير. وهذه القبّة البيضاء الصغيرة، التي سُمّي شارع رئيسي باسمها، صارت تمتصّ من الحواس والأذهان والمشاعر ما كساها بقوس قزح خفيّ من التقديس. كان المارشال الرئيس قد أودع في النفوس تلك الحميّا، يوم أغار على التلال وجعل اثنتين منها سجوناً، وبعد سقوطه تعالى في الناس وعي جذلان بما في التلال من كنوز للحضارة والكبرياء. لقد عرفوا أنها موجزات لكل تاريخ جميل عاشه أسلافهم وصانته الطبيعة. وها هي ذي القبّة تدوّم في مخيلاتهم لتتّخذ لنفسها هناك اسماً يشبه أن يكون «التلة الثالثة عشرة».

ذلك الشعور الذي فاجأ أمّ مصعب في بداياته، ثم صار مناخاً عاماً، ثم تغلغل في الحياة اليومية لما يقرب من مليون نقابيّ ونقابيّة، انفجر ذات مساء وتشظّى في نفوس جمهور من أعضاء نقابة المستخدمين. ومثل كل حادث من هذا النوع ـ ضاعت البدايات في زحمة النهايات. لكن بداية واحدة مؤكّدة كانت حضور الدكتور سعدالله شمداوي عرض (لعبة الحبّ والمصادفة) الذي قدّمته فرقة المسرح الحرّ. وعندها وثب السيد ماريفو من ضريح في القرن الثامن عشر إلى بعليتا وأضحى حديث مواطنيها.

ربما جاءت بداية أخرى من هجوم سعدون في صحيفة الحزب على «المسرحيّة التي تحتقر الخدم والمستخدمين والطبقة العاملة بأسرها». لكن أياماً تقلّ عن أسبوع كانت كافية لأن يلطّخ ماريفو وشمداوي معاً ويدمغا بالامبريالية، ويتحابك في النفوس ويغتلي حسٌّ نيلوتي عريق مع حسّ طبقي مفاجىء. في أواسط الأسبوع الثاني كان سيد صغير من النقابيّين والفتيان يحتقن كل مساء أمام المسرح، ويعاين اللامبالاة المطلقة لأصحابه

باحتجاجات « مواطنين شرفاء أعضاء في نقابة معترف بها قانوناً ».

في نهاية الأسبوع اقتحم هؤلاء المسرح. ووسط فوضى لا مثيل لها، أخرجوا المتفرّجين من الصالة، بينما فرّ الممثّلون عن المنصّة كأرانب مذعورة. ومنحهم ظفرهم الأولي قوة إضافية فراحوا يخلعون الكراسي ويحطّمون المسرح وينزعون لافتات المسرحية وستارتها، إلى أن جاءت الشرطة فاعتقلت بعضهم وطاردت البعض الآخر في الشوارع والأزقّة.

كانت نهاية واحدة مؤكدة أيضاً: الانفجار غير المنتظر الذي أذهل به مرعي السنجاري أعضاء السياجات الخضراء. للمرة الأولى منذ تولّيه السلطة يتوجّه إلى الإذاعة ويلقي خطاباً مزبداً أقرب ما يكون إلى بلاغ رقمه واحد. « إن بلاداً تحضّرت حتى بات مواطنوها يقرأون المقالات المقذعة عن رئيس وزرائهم فيتندّرون بها، لا يمكن أن تقبل باعتداء همجيّ على قدسيّة الفن وكرامة الفنّانين! لقد وجدت الديمقراطية الرديفة لتحمي وتصون ديمقراطية الجمعيّة الوطنيّة لا لتدمّرها ». « هذه الشحنة الضخمة من الحيويّة عند الأخوة النقابيين يجب أن توجّه إلى الإنتاج، إلى تحرير التراب النيلوتي من الاحتلالين العنصري والاقتصادي، لا إلى استبداد نقابيّ ».

بعد يومين رُمِّم خلالهما المسرح وأبدان فنّانيه، حضر السنجاري فجأة وجلس في الصالة مع وزير الثقافة والإعلام ليشاهد المسرحيّة. كان النبأ قد تسرَّب بطريقة ما، ربما عبر عبد العليم الغزال، فاحتشد جمهور كثيف تائب والتصق بالجدران والممرّات والنوافذ.

كان مخيبر سرحان مضاعف الحضور.

في ذلك المساء الاستثنائيّ الشاحب، خرج السنجاري أخيراً ووقف أمام المدخل. انتظر وصول سيارة الدولة في ضوء الشارع الشحيح ووسط حشد متزايد متداغم. ظهرت فيضة. كانت تتوكّأ على عصاها. كانت مضوّأة الوجه متقّدة العينين. تقدّمت عبر ما بدا هالة تفسح لها طريقاً في العتمة، فتسكت مع كل خطوة من خطواتها عشرات الأفواه وتلتفت عشرات العيون. ومع الصمت الذي جثا أخيراً في ذلك الفضاء الصغير التقت ابتسامتها الأموميّة الغافية في وجهها مع ابتسامة السنجاري العاشقة الطافرة من وجهه. « أرخيت لهم الحبل يا مرعي. سيلفّونه حول عنقه. أوزيري صغير. سيكون دمه في رقبتك ».

لم يفهم أحد شيئاً. وقبل أن يصل مصعب إلى السنجاري ليوضّح له كان رئيس الوزراء قد هتف للمرأة القابضة على رايتها: « طاهر ذهب إليه. هو عنده الآن ». ودخل سيارته.

ذلك كلّه كان مهرجان ألغاز. ولقد نعمنا به دون أن تدركنا معمياته. كل شيء كان

معروفاً عن مرعي السنجاري إلا مرعي السنجاري نفسه. أليس غريباً أن ينتخب شعب زعيماً له، يحمّله كل هذه الأشواق والأمنيات، وهو بالكاد يعرفه كشخص؟ إنه في أكثر حالاته وضوحاً لم يفعل أكثر من أن يذكّر الناس بالقمر. ذلك السطوع اللّزج الهلاميّ. الوجه التضاريسيّ الملثّم. ماذا قال لأبيه يوم قتل ذاك الابنة الملوّثة الشرف؟ ماذا فعل بالضبط يوم انتشلته فيضة من وهدة الموت؟ أليست له نفس؟ ما الألوان والأطعمة والألبسة والنكتات التي يحبها؟ والتي يكرهها؟ ما الموسيقا والنساء والأفلام؟ إنه أعصاب مشدودة، ولسان حامض، وعقل متاهيّ؛ ولكن فقط في الجمعية الوطنية والمقهى ورئاسة الوزراء. وهو ما إن يخرج من قصر رئاسة الوزراء في ساحة الدستور ليدخل بيته في حيّ الصنّاع، حتى يكون قد خرج. تلاشى أو غاب. لقد برز منذ البداية كاسم عام، كإشارة، أو تعبير، ونسي الناس أن يهتمّوا به كفرد.

وربما نسي ذلك هو أيضاً. كان بوسعه أن يعانق فيضة أمام الملأ، لو شاء. ولو فعل، لحملها الناس على الأكتاف وعيّدوا بها في شوارع المدينة. غير أنه غاب داخل السيارة. وظلّ غائباً يومين أو ثلاثة حتى ظهر على وزرائه وبيده جريدة فرنسية: لوموند ديبلوماتيك.

لقد قرأنا ترجمة حياة لذلك المقال الذي أزجت فيه الصحيفة الفرنسية المديح لرئيس الوزراء على «تصرّفه» الديمقراطي إزاء ماريفو وعشّاقه. وقد حذّرته الصحيفة بوضوح من «تهييج الجماهير» والعبث بمسألة «الاحتلال العنصري» هذه. وعندها لامس عقولنا شيء من الالتباس والرهبة. فالجريدة أشارت إلى أن «ضابطاً بعليتياً يتوغّل الآن في غابات المخاة وعمريت لإثارة القبائل هناك، مما يهدّد مستقبل المنطقة كلّها بحركة جهاديّة جديدة». وعرفنا هكذا أن طاهر العطا قد مضى إلى حيث يعيش ابن فيضة، وفهمنا لماذا حلّ محله بدر الهلالي في معسكرات التدريب عند التلال.

دون توقّع إذن تلبّدت في سماء بلادنا سحب سياسية سوداء قادمة من الغرب الأبيض. لم يكن السنجاري قد أقدم حتى ذلك الحين على تنفيذ أيّ من برامجه. لكنه كان قد كسب بسبب تسرّب الأنباء عنها لقب «الفلاح الأحمر» من الصحافة الغربيّة البيضاء.

فجأة أعادت لنا الإذاعة والصحف المحلية موعداً كنّا قد نسيناه، ونسينا التفكير في مضامينه ومضاميره. إن أحداً لا يستطيع تتبّع الفواعل الداخلية للسنجاري، ولا لذاكرة الشعب الذي انتخبه. بوسعه فقط أن يتعقّب انبثاقاتها.

كانت هذه الذاكرة قد نسيت تماماً المهلة الثالثة التي أعطتها وزارة السنجاري للشركة

العالمية أن تبعث وفداً لإعادة التفاوض حول شروط تعاقداتها مع الدولة والملاكين. تتابع الزمن. وبقي أسبوع واحد فقط قبل أن ينتهي إلى اللاجدوى ما كان يجب أن يبدأ منذ عام. عندها انتفضت كالعنقاء رغبة الناس في تأديب الشركة العالميّة. خلال ساعات قلائل توتّرت الشوارع، وحفلت الأندية والمقرات بالاجتماعات النقابيّة. المقاومة الشعبيّة تنبّهت أيضاً. وهنا وهناك، في المقاهي وحول أكشاك الصحف وعند المسارح، كانت دمدمة التجمّعات الشعبيّة الصغيرة تعلو بمساءلة واحدة: ماذا سيفعل السنجاري بالشركة العالميّة؟

بعض غرائب تلك الذاكرة (أم لعلها خوارق؟) أن أغنية كانت ترنيمة الناس يوم نجح السنجاري في الانتخابات، ثم غابت بعد شهور، عادت الآن بلا مقدّمات إلى حناجرهم. لم تكن الأغنية بعليتية، وإنما هي واحدة من أعظم ما غنّته (زمرّد)، التي هي أعظم مطربة في حوض النهر الكبير. لقد شاء حاكم بيت رع العسكري يومها أن يعلن تأييده للسنجاري بأسلوب مبتكر، فكانت هذه الأغنية الممجّدة لشعب بعليتا وزعيمها.

تحوّل ذلك الأسبوع الأخير، بغضب متعال ولكن بلا مشاعر عدائية، إلى نوع من الانذار الزمني المتحلّق ليس حول اليونايتد انفستمنت بل حول السنجاري نفسه. كانت الجماهير قد قطعت كامل صلاتها الذهنيّة بالشركة، الآن وقد استنفدت المهلة الثالثة كلّ تسامح في مخاطبتها. وخرجت المظاهرات الصغيرة إلى الشوارع، ولغتها هي تلك الأغنية فقط. كانت أغنية بسيطة المعاني (الوحدة النيلوتية، العدل، التقدّم) ولكن ساحرة الموسيقا والغناء. واتجهت العيون إلى السنجاري بنظرة أناس رأوا في صبره وحنكته تلكّؤاً ورخاوة، وعزموا معه على القسوة.

لم تكن بعليتا قد امتلكت بعد تلفزيونها الخاصّ. غير أن عدداً لا بأس به من الموسرين اقتنوا أجهزة لهذه البدعة الجديدة والتقطوا البثّ العجائبي من تلفزيوني بيت رع وعمريت. كان الجنرال الذي قاد انقلاباً عسكرياً في بيت رع قد أدرك قبل غيره، وبفطنة حسده عليها فيما بعد الدكتور شمداوي، أن عشرين ألف درويش لن يستطيعوا تهويم الناس في ذلك السحر الغيبوبي كما يفعل جهاز صغير اسمه التلفزيون، ولن يقدّموه «للجماهير» بالحياة والقوّة نفسها. وقد أراد جنرال بيت رع أن يثبت لجماهيره أنه ومرعي السنجاري يحملان راية واحدة هي راية النهر الكبير، فأوفد إلى بعليتا بعثة تلفزيونية ضخمة لتصوّر أحداث نهاية ذلك الأسبوع الأخير. كانت التوقّعات المثيرة تضطرم حتى في ذهن أغبر كذهن ذلك الجنرال.

وفي بعليتا غصّت الفنادق والمهدية، ونوادي القمار والاستراحات التي أنشأها

تشيز مانهاتن وفيرست ناشنل سيتي، ببعثات تلفزيونية أخرى، وصحفية وإذاعية، فألقت في روعنا يقيناً مندهشاً بأن العالم كله يعرف الكلام الذي لم يقله السنجاري بعد، وأننا صرنا محطّة اهتمامه الوحيدة.

كان سؤال كبير يثب في الأذهان والفنادق والشوارع: إلى أين سيمضي رئيس الوزراء؟

لطالما دمدم السنجاري فيما بعد، وهو محنق وعصبيّ، أنه لم يتخذ قراراً قط إلا ووجد نفسه واقفاً في المؤخرة، وراء حشود بشرية زاخرة اتّخذت القرار مسبقاً وأسرعت تطالبه بتنفيذه، أو جعلته يبدو متلكّئاً في ذلك التنفيذ.

كان يدرك تماماً أنه لا بدّ من توجيه صفعة مدوّية إلى ذلك الوجه الصفيق، وجه يونايتد انفستمنت الامبريالي، فقط لو أن الأمر يتعلّق به شخصياً. ولكن أن يهب بالجمعيّة الوطنيّة ضد سعدالله شمداوي شيء آخر غير أن يهب ببعليتا ضد الشركة العالمية ـ بهؤلاء الأطفال والشباب المتوقّعين مستقبلاً آمناً سعيداً. إن بعليتا قطعة من لحم صدره، قطعة طريّة من هذا العالم، طفلة تلعب، قبضة تتوجّع أكثر مما توجّع. لن يكون بوسعها دخول هذه المعركة، أو الخروج منها سالمة. وسيقال إن مرعي السنجاري قد قاد بلاده إلى التهلكة.

لكنه أخيراً وقف في تلك القاعة الصاخبة ومدّ يده بعفوية غافلة إلى مجهر الصوت. لم يكن شعوره الأعمق سوى أن ما سيقوله الآن، في أشدّ اللحظات المشبوبة فورة وترقّباً، سيشكّل فقط الجملة الختامية لبلاغ صدر منذ أسبوع، صدر من البيوت والصدور والسهول والنهر، وظلّ منتظراً توقيعه وحسب. كأن المطر قد هتن خلال أيام متتالية ولم يبق غير أن تمتصّه الجذور. مرة أخرى كان هو الشارة والعبارة وليس الفرد والشخص. على وجهه تواثب قلق غريب، حاولت عيناه أن تبدّداه. كان خائفاً.

غير أنه مع ذلك كان مصطهباً. بين ما يشبه عيداً للغجر، ولكن بكاميرات تلفزيون وصحف وأجهزة تسجيل بدل النيران الواقدة والأزاهير المرشوشة على صفحة النهر، وقف رابط الجأش. سبع دقائق. قال كل شيء بإيجاز. وعندها اختنق الصخب اللافح بالصمت الجائش المرتقب. امتدّت يده المسرعة إلى مجهر الصوت مثلما امتدّت عيناه إلى كل وجه في القاعة الكبرى. أحسسنا أنه سيثب في تلك البرهة خارج أبعاده كما يثب النهر الكبير خارج مهاده. قبل أن ينطق فمه بالكلمات بدأ جسده النحيل المنتصب يهزّ قليلاً إلى اليمين وقليلاً إلى اليسار كأنه هو أيضاً ينطق بها. ثم اندغم الايقاعان معاً، ايقاع الجسد وإيقاع

الصوت. وتسمّر الناس في الفضول. «باسم الشعب النيلوتي في بعليتا تؤمّم شركة الاستثمار العالمية شركة مساهمة بعليتية وتصير ملكية للشعب والدولة بموجب الحقّ القانوني...».

عندها لم يعد يرى غير سديم مخضوضر تتموّج فيه ذوائب ليلية أليفة وتلمع عينان وحشيّتان. وفي الغسق الخلفي للقاعة، حيث يتكدّس الصوت واللون والضوء والظلال، انشبحت نظرته وراء طيف أرضيّ يعبر فوق الرؤوس وينسلّ خارج القاعة.

- ٩ -

كان عام ونيّف قد مضى دون أن يتجسّد أيّ من تهديدات الدكتور شمداوي في واقع محسوس. لكن مرعي السنجاري، الذي بات حذره وتردّده علامة مشينة في مسيرة مندفعة، جعل من تلك التهديدات نبراساً، ميزان هزّات عصبيّة يقيس به درجة الانفعال المنتظرة من أعداء المسيرة، كان رجلاً لا يحبّ العداوات. غير أن شيئاً يشبه الهلع انتابه أيضاً كلما فارق يميناً أو يساراً تلك الإبرة المتذبذبة أصلاً في بوصلة حسّه بما يريد الناس. ولم يكن ليفرح بأن تنجرف قدماه وراء تلك الإرادة لمجرّد أنها لم تقتفيها في الوقت المناسب.

وحقّاً فقد احتاج إلى قدمين متينتين كي لا ينفلت في الأجواز مع تلك العصافير المغرّدة التي طارت من جوانح البعليتييّن بعد قرار التأميم. كان يعرف أنه أبطأ وتلكّأ وكان سياسياً أكثر من اللازم، وأنه فعل ذلك حتى باخ طعم القرار أو كاد. لم يتوقّع فرحاً كبيراً. على الأقلّ لم ينتظر أيّ إعجاب أو مديح. أحسّ أن الموت قد خطا خطوة أو اثنتين باتجاهه. فمثل هذا الوجل الثلجيّ الذي يسربله ليس هو الشعور المعاني لرجل انتزع لبلاده حقّها في الحياة. وأيقن أن تردّده وخوفه دليلان على شيخوخة مبكّرة، في الحدّ الأدنى. وهو رجل يخشى الموت. يخشاه مذ ذبح أبوه أخته، وشاهد هو نظرات الرضى في أعين الفلاّحين الصامتة للدم المتسرّب في الوحل وزرق الدجاج. لقد صمّم ألا تقوم بعد ذلك مذبحة أخرى أمام عينيه. كان شاباً مندفعاً يومها. لم يكن شيء ليثنيه عن عزمه، رغم أن ذبح الفلاّحين تكرّر وتكرّر. لكن تعلّم بسرعة أن القدر لا يستجيب بالضرورة لإرادة الشعب في الحياة. وكانت تلة القطن الوسيلة المثلى لهذا التعلّم.

لكن ردود الفعل اجتاحته. خوفه من أن يكون قد جاء ببعليتا إلى المذبح بدلاً من الشركة العالميّة، ظلّ يرغي ويزبد في أعصابه إلى أن شاهد في الصباح التالي جموع البعليتيّين تنتظر خروجه من بيته في حيّ الصناع إلى مكتبه في ساحة الدستور. بالطبع لم ينتبه لأحد باديء الأمر. وفقط بعد أن دخل السيارة وسمع صراخ حارسيه، التفت وشاهد ما يحدث. كان جمهور كبير قد انبثق فجأة وراحت أذرعته ترفع السيارة الصغيرة عن

الأرض. كان واضحاً أن هذه الآجام الكثيفة من الأذرعة سترفع السيّارة لا محالة. لكنه عندما فتح الباب، عازماً على أن يضع حداً لما رآه وثنية جديدة مثيرة للجنون، عبادة أصنام ليس إلا، رأى أن عليه أن يثب كي يصل إلى الأرض، وأنه إن فعل ذلك فسيسقط فوق أربعة أو خمسة من الأجساد المتلاحمة.

وقد وثب، بلا تردّد. بل وبغضب. تلقّفته الأذرع. تركت السيارة وظلّت تحمله إلى مدخل البناء في ساحة الدستور. ومثلما استسلّم لقرار الجمهور المسبّق بالتـأميم، استسلم الآن للهتاف والزغاريد. خلال وقت قصير نشأت حوله جزر صغيرة من البشر، كل واحدة منها تعلي مواطناً يهتف فتهتف له الحناجر أو يقرأ شعراً فتردّده وراءه. ومنذ منتصف الطريق إلى نهايته، وفيما الحشد يتعارم ويملأ الشوارع، راح هو أيضاً يطلق الهتافات والشعارات فوق ما أضحى الآن جزيرته الكبرى.

عند المدخل إلى جنينة البناء كان برعي بدران فقط محمولاً على الأيدي. وبهبرة عبقرية غافلة لخّص هذا العيد النيلوتي الجديد في بيت وداعيّ من الشعر القديم: تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد/ لنفسي حياة مثل أن أتقدّما. وعندها أحسّ السنجاري أن ربّ الرياح قد طامن خوفه.

ها هوذا، مثل عدّاء اقترب من نهاية السباق، يطوي المسافة الفاصلة بينه وبين سابقيه. خلال الأيام القليلة اللاحقة لقرار التأميم وضع أربعمئة مؤسسة ومنشأة بين يدي ما صارت اللغة تسميه الآن القطاع العام. وصار بوسع مصعب أن يكتب عن «حرب التحرير الاقتصاديّ» الظافرة، مثلما صار بوسع سعدون أن يطالب «بمعركة تحرير سياسيّ» أيضاً.

غير أن التأميم بقي الصخرة الأضخم التي ألقاها السنجاري في النهر الكبير. وكان مدركاً أن حدثاً من هذا النوع يعني ببساطة تحويل مجرى النهر إلى حيث الرعب والهول والحرب الخفيّة. إن بيان الشركة العالمية الذي صدر للتوّ لا يترك فسحة للشك: إنكار مطلق لأيّ حقّ في التأميم، مطالبة بإلغائـه دعوة للدول إلى عدم الاعتراف به وإلى مقاطعة بعلبتا اقتصادياً... في المساء التالي جلس وحيداً في مكتبه يقرأ بيان الشركة الفوري ويتمعّنه، ومعه كومة من تعليقات صحف العالم عليه. كان الوزراء قد انصرفوا بعد مناقشة البيان، ومعهم اللواء نوفل القائم بأشغال وزارة الدفاع. لقد قيل تقريباً كل شيء في الاجتماع. لكن الذي لم يقل، لأنه يختلج ولا ينبلج، ظل رازحاً على منكبي رئيس الوزراء وراح ينهمر في السكون الكثيف أسئلة مقلقة. إن على الذين لا يملكون غير ثقة رخوة بالنفس أن يتعايشوا مع التوتّرات المرهقة التي ترشح من تحسّسهم باحتمالات متضاربة ـ قال

مرعي السنجاري لنفسه. وبدا أنه متوصّل حقاً إلى هذا التعايش إذ تناول من درج مكتبه التقارير الصحفيّة التي جاءت إلى عبد العليم من دار (الصيحة) مع ترجمات مصعب وحياة.

«زعيم آخر لدولة نامية ينساق مع الغوايات الشيوعية»، كتبت (صنداي تايمز). «مصدّق جديد يخاطر بمستقبل بلاده»، كتبت (تايم). «السنجاري يهدم بجرّة قدم ما بناه شمداوي في أربع سنوات»، كتبت (الأيام). أما (الفيغارو) فأشارت إلى «مسيرة أوهام مدمّرة تبدأ في بعليتا». وتساءلت (مانشستر غارديان) عما «إذا كان بوسع مستر سنجاري أن يستمرّ في تحدّيه للعالم الحرّ».

ولم يكن لصحيفة واحدة بالطبع أن تغفل عن تقديم أرقام راهنة وأخرى مستقبليّة لتدلّل على الهبوط الحادّ الذي سيصيب انتاج السكّر في بعليتا، وموسم القطن أيضاً، وكلّ المواسم الأخرى في الحقيقة. وانفردت (نيوزويك) بين الصحف بتنبّؤ محدّد لا لبس فيه: «إذا استمرّ السنجاري في سياسته هذه فسيتناثر خلال عامين».

لم تكن الصحف المحليّة وحدها من دفن في بعليتا «الغضب الأبيض الحرّ» تحت تلال من السخرية والتصميمات. حتى السنجاري لم ير تلك التهديدات ممكنة التحقّق إلا على جثّته هو. وكان واثقاً أن أحداً لن يقتله، فأزاحها جانباً.

الردّ الأكبر، والأغرب بالتأكيد، على الصحف البيضاء والشركة العالمية، وجون فوستر دالس أيضاً (الذي لم يتقاعس عن نصح السنجاري بالعودة عن طريقه المسدود)، جاء من شوارع بعليتا. كان ردّاً غير مقصود، مثيراً من وجهة نظر معيّنة، وبعيداً بلا شكّ عن الحكمة والترّوي اللذين اتّصف بهما ردّ السنجاري. لقد خرج العشّاق إلى الشوارع بكثافة ملحوظة وغير مألوفة من قبل.

شهدت السنة الأخيرة من حكم شمداوي انحسار المدّ الدرويشي، وشهدت أيضاً انتشار المدّ العشقيّ. إن المرء ليقف متهيّباً أمام وصف الحبّ. لكن مواكب العشّاق التي راحت تشكّل يومها ظاهرة خاصّة في شوارع المدينة، ليست مشهداً قابلاً للنسيان. وخلال ما يقرب من أربعة أعوام كان المحبّون الشباب يتخيزلون على امتداد الشوارع، متخاصرين بلا حياء، متشابكي الأصابع أو السواعد. وكنت تراهم بسهولة مبثوثين بين المارّة والعابرين مثلما هي روائح المطر في الهواء. بعيد الغروب، في هذه الفترة الخلاسيّة القاسية التي يحسّ الناس فيها أن المكان انعطب بالعتم وصار غير أليف، يخرج البعليتيّون إلى الشوارع والحدائق فيأمنون بتجمّعهم هنا وهناك يردون غائلة الغربة الوافدة. في هذه الآونة كان مشهد العشّاق يبلغ ذروته. كان العتم الذي تعزّزه المصابيح الشحيحة يمنحهم

آخر شطبة على جبين الخوف. وبعدها ينتفي من المشهد المتحرّك المتبدّل كل التباس في هذا الحبّ المعلن.

بالطبع لم يقدّم التأميم ترخيصات عاطفيّة للشباب. لكنه أعطى الناس كلّهم إحساساً بالقوّة، بالمقدرة على الانتقال من حال إلى حال، بالخروج إلى الحريّة. ولقد بات شبه مألوف أيضاً أن تجد في الحدائق العامّة، أو الشوارع المقسومة بالشجر والعشب، شباباً راق لهم الاستلقاء تحت نخلة أو كينا ففضّلوها على أسرّتهم.

لم يكن الدكتور شمداوي واحداً من هؤلاء، رغم أنه لم يمنع ابنته من العشق. لقد شغله لقاء السنجاري بصحبة وفد من «الفعاليّات الاقتصادية». كان السنجاري ما يزال مهموماً حتى حافّة الخوف بتفاصيل الإعلام الغربي وتصريحات المسؤولين الغربيين الملتبسة المنذرة.

قبل أن يدخل الدكتور شمداوي مع وفده كان السنجاري مسبل الرأس على مقعده الجلديّ مرتاع العينين: ماذا يخبيء هذا السعار في لغة الصحف الغربية؟ كان السؤال يسيل تحت جلده ماء بارداً عندما دخل الوفد، وسرعان ما راح يسخن. لقد أوقدت كلماتهم تحته ناراً حامية. لم يتكلّم الدكتور كثيراً، بل الآخرون. وهؤلاء جعلوا رئيس الوزراء ينكمش داخل مقعده. أحسّ أنه يتوسّط حلقة من الضواري لا سبيل إلى كسرها والإفلات منها. إنهم يقدّمون إنذاراً يشدّد قبضة الانذارات الخارجية على عنقه. من الداخل نفر خوف الفلاح القديم من الموت واعتلى نبضات قلبه. إنهم سيطيحون بكلّ شيء لا محالة. وسيكون عاجزاً عن منع هجومهم المدمّر على القوى الحيّة في النهر الكبير.

«خلاصة القول»، غمغم الدكتور محمد اللماع، «أنت تعطي للدول الديمقراطية أكثر مما تحتاجه لتبرير وصفها لك بالفلاّح الأحمر. وربما دفعت استقلال بعليتا ثمناً لبضع أفكار طائرة. أتمنّى أن يعرف شيء من الخوف طريقه إلى قلبك. خوف على بلادك ومستقبلها، إن لم يكن على شخصك».

لقد قالوا له وهم جماعة الكلام نفسه الذي فاه به الدكتور قبل نيّف وعام. لكنهم يغادرونه الآن وهو يتمنّى لو أنه لم يخلق، لو يستطيع أن يخفي شيئاً ولو يسيراً من الاندحار الكلّيّ الذي استطاعوا بشراسة باردة أن يضربوه وتداً في قلبه. وها هوذا الدكتور شمداوي يلتفت عند باب الخروج ويجهر: «قل لي: أنا أعرفك تماماً. من أين واتتك هذه الشجاعة والشراسة على مناطحة أمريكا؟ هل يدعمك الروس إلى هذا الحدّ؟».

سمع السنجاري صوتاً يخرج من حلقه وشفتيه، بارداً بطيئاً نصف مرتعش (بالخوف أم بالغضب؟): «سأبقى على الحياد معكم طالما بقيتم على الحياد في معركة الجماهير». وإذ انصفق الباب وراءهم، وعاد هو إلى كرسيّه، أحسّ بوضوح أنه يرتعش، وأنه قريب جداً من الموت. كانت صدفة سعيدة أن تلك الكلمات خرجت من فمه. يجب ألاّ يخطر لهم أبداً أنّ بوسعهم العبث من جديد بمصير بعليتا. لكن بدنه كان يرتعش، ومسامه ترشح. ليس سهلاً أن يشعر رجل مثله بالخوف. وهو ليس بالذي يسلّم جسده للغضب. فما هي إذن هذه الأجمة المتشابكة من المشاعر التي تهزّه؟

قال له اللواء نوفل في اليوم التالي إن دورات تدريب الضباط في عمريت وتكساس قد «انتهت نهائياً. على أية حال، العميدان مأمون وطلحة تدرّبا هناك!» وكان برخاوته العريقة قد جسّ قلق رئيس الوزراء الخبيء، فأحبّ أن يطامنه.

«نحن لا نستطيع أن نناطح أمريكا. لكننا نستطيع أن نقاطعها تماماً. سنشتري سلاحاً من السوفييت، ونبعث ضباطنا يتدرّبون هناك»، قال السنجاري بنبرة تقريرية وعينين متسائلتين.

بعد لحظات ردّ اللواء نوفل وكأنه يجيب فعلاً عن سؤال: «أنا بنفسي سأشرف على هذا البرنامج. هل تتوقّع حرباً يا سيدي؟».

«هذا ما يحيّرني. إذا اتفقنا مع السوفييت لن يجرؤ المخويون البيض على مهاجمتنا. هذا هو التهديد الخطير الوحيد الذي يملكه الرأسماليّون ضدنا. تهديد لا يخيفني. ولكن، كل هذه الإنذارات والاجتماعات والتصريحات العدائية.. كيف سينفّذونها؟ من أين سينفذون إلينا؟ هل ترى خطراً آخر؟»

«من ناحية عسكرية، لا».

«بقيّة النواحي أنا كفيل بها».

وقد اتفق مع السوفييت. غير أنه لم يستطع أن يكون كفيلاً تماماً ببقية النواحي. ففي نهار صحو، والشمس تسطع بقوّتها العريضة النابرة، أُطلقت رشّات محكمة التسديد على اللواء نوفل أبو الذهب وهو يترجّل من سيارته أمام منزله، وأردته. كان الرصاص أسرع وصولاً من الصوت إليه. لكنه مع ذلك وجد وقتاً كافياً لأن يندهش، ويلتفت نحو مصدر الصوت بعينين مدوّرتين. وقد انتصب ثواني، فبَدا مثل من يُحيّي قاتليه قبل أن يسألهم لِمَ هذا العبث الخطر كله. وبعدها أحسّ بالألم الناريّ في سائر أنحاء جسده، وهوى. دفعة واحدة. تمدّدت جثته كأنها هاجعة في سريرها. حتى إذا رفعها العسكريّان

عن الارض، في محاولة سحرية لرفض فكرة موتها، تشرشرت الدماء خيوطاً ودفقات كغربال رفع لتوّه من الماء.

في النهار التالي شُيّع جسد هذا الإنسان الرخو الذي اكتملت رخاوته أخيراً. من ساحة الدستور انطلق الموكب يتقدّمه رئيسا الدولة والحكومة. يداً بيد. مشى الجميع يداً بيد. مضوا نحو تلة الشهداء، مضينا كلنا. وفيضة أيضاً، مستظلّة براياتها من وهج الشمس. نصف مليون إنسان. لم يندرجوا في موكب. نتحوا من المدينة. توافدوا. فقط توافدوا. دائرة متموّجة المحيط تغطّي الشوارع والحقول والمسافات، تمشي الهوينى نحو مركزها دون أن تتضاءل.

استمرّ استنفار الجيش شهراً، وكذلك المقاومة الشعبيّة المسلّحة. خلال وقت قصير ألف البعليتيون المحبّون للمسارح والأندية ووعليتا والعشق ومشاوير الليل، أن يشاهدوا المقاومين الشعبيّين ساهرين في الزوايا والتكايا والمنعطفات، هادئين بلا سمر ولا ممارسات سوى نظراتهم المتنبّهة الباحثة. لكن التحقيقات أسفرت فقط عن إشارات مبهمة إلى أناس غريبين غامضين، كانوا هناك ثم انطلقت بهم سيارة هي الأخرى غريبة وغامضة.

أدرك مرعي السنجاري أن زمان الشدّة قد جاء. ها واحد من تلك المداميك الضخمة التي هيأها لمسيرة التحرير الاقتصادي، يسقط. أدرك أيضاً، وبهلع غائر، أنه قد يلتفّ حول عنقه مصير المزيد من أناس تنبتر حياتهم على هذا النحو. لكن نصف مليون بشري شيّعوا هذا الشهيد العزيز إلى مثواه الأخير، أعطوا تفويضاً لاستمرار المسيرة. إذا كان هو مخطئاً، أيكون شعبٌ بأكمله مخطئاً؟

لكن الخطأ والصواب لم يكونا مما يمنح مرعي السنجاري عزاء قلبيًا في غياب نوفل أبو الذهب. لقد شاهد وجهه الشاحب المزرورق صحفيّون أجانب اعتادوا أن يلقّبوه بالفلاّح الأحمر، وأمضوا ليالي طويلة متندّرين بجمال خطئهم في انتقاء اللون. إن هؤلاء، وزملاءهم في الصحف البيضاء الشقيقة، هم الذين أفهموه أن حرباً مالية قد أعلنت على البلاد قبل أيام عديدة من إعلان المصارف إيقاف كلّ تعامل مالي لها (المساعدات والقروض والتمويلات) مع حكومة هذا الفلاّح.

خلال الأسابيع الأخيرة من ذلك الصيف تحوّلت بعليتا من جديد إلى منتديات للنقاش والجدل: من أين نجيء بالمال اللازم لشراء السلاح؟ كان القصب والشوندر يتحوّلان في تلك الآونة إلى تلال من الذراري البيضاء التي يحبّها أطفال العالم، والتي لم تجد من يشتريها، وتكدّس القطن في البالات العملاقة المعتادة ليلاقي الصدود نفسه. حتى الشركات القليلة

المتعاقدة سلفاً للشراء وجدت هذا العذر أو ذاك لفسخ عقودها، وأحياناً لم تعبأ حتى بالعذر نفسه.

شيئاً فشيئاً رحنا نأتلف مع الواقع الجديد: هذه التلال من السكّر والقطن ربما بقيت شهوراً، سنة، وربما أضيف إليها موسم العام القادم، قبل أن تجد من يشتريها. حتى الدول التي مثلنا، لم تجرؤ مشترياتها على أن ترتفع كثيراً على مشتريات الدول الاشتراكية، لتبلغ الاثنتان سدس المحصولين. لقد وجدت الدول كلّها أن بوسعها الحصول على السكّر والقطن بثلثي سعرها العالميّ، ومن أسواق غامضة غريبة، ولكن قريبة جداً.

وكان مسلّماً به أن الحكومة ستمضي في برنامجها الاقتصاديّ حتى النهاية، فإما الظفر، وإما العودة بالبلاد إلى مرحلة ما قبل السكّر والمزارع النموذجيّة. كان الإنتاج في عام التأميم ذلك أدنى كمية وجودة. وقد توقّعنا شيئاً أسوأ في العام التالي. لكن أحداً لم يكن ليبالي. عرضت الحكومة البيع بالسعر العالميّ الجديد، فهبط السعر في الخارج إلى النصف. وقد أدرك السنجاري ووزير اقتصاده أنهما لن يستطيعا الدخول في مسابقة خطّها النهائيّ هو الهلاك بعينه ما دامت نيويورك هي التي تقود الأسعار. في الأسابيع الوسطى من الخريف، كان الموسمان قد أودعا المخازن والشون.

في تلك الآونة ظهر السنجاري على النحو الذي أراده الناس أو تصوّروه. كان مزيجاً من الضبع والسبع. وكان واضحاً أن المحاصرة العالميّة شبه المطبّقة قد فتقت فيه حسّه الصدامي القديم، الذي ارتفعت على انفجاراته تلّة القطن. إنه القطن مرة أخرى، أو شيء مثله أبيض، ومثله تحتاجه البشريّة. ومرعي السنجاري يعرف أكثر من غيره أن مصير أخته ما كان ليرتسم على أفق الدم والفظاعة والهول بسيف الشهوة الجنسيّة وحسب. إن أخته الكبرى، أمّه، أو كائنةً حيةً من هذا النوع اسمها بعليتا، تواجه الآن هذا المصير الأسود، وبالسيف القاتل حقاً.

المسألة ليست مسألة شرف، قال لوفد الصحفيّين المحليّين الذين جاءوا يحاورونه. في هذه البلاد يحدث شيء لا يتكرّر كثيراً في حياة الأمم. إنها تستفيق على التاريخ. بعد فترة أوزيري بمئتي سنة أو ثلاثمئة، مات التاريخ في النهر الكبير، وعاش الزمن فقط. هذه اليقظة يجب أن تستمرّ، وتنتج، وتبدع، مثلما حدث لعصر النهضة الأوروبيّ. مع فارق واحد: لم يواجه ذلك العصر هيمنة عالمية كالتي نواجهها الآن من الولايات المتحدة. بالتالي، لم تكن قوى الموت يومها تتربّص بقوى الحياة وتبطش بها.

وبعدئذ رمى وراء ظهره بجميع العناوين المحتدمة في الصحف الأجنبيّة (الموجيك

الأحمر، الشوفيني الأول في العالم الثالث، مثلوم العرض الباحث عن انتقام لأخته..) وأعلن حملة شعبية لقطاف البنّ الطبيعي في الهضبة الغربيّة. هناك وسيلتان ناجعتان للتعويض عن خسارة البلاد لموسمي السكّر والقطن: البنّ الطبيعي في الهضبة، والمال الذي يمكن أن تقترضه الدولة من الإقطاعيين إذا ما استطاعوا بيع قطنهم ومواسمهم الأخرى. فهذه الأزمة لا يمكن أن تستمرّ إلى ما لا نهاية مع صمود البلاد وجماهيرها.

خلال أسبوع بدأت قوافل العمال والمتطوّعين عملها في الهضبة الغربيّة. تركت حياة أولادها الثلاثة، وقالت لمصعب أن يتدبّر أمره معهم، ثم التحقت بالقاطفين ولم تعد. وبعدها بأسبوع آخر لحقت بها عقيلة وسمحة وأميرة.. وجيش من النساء. لم يدر المتزوّجون منّا هل كانت تلك الحماسة النسوية للبنّ شعوراً وطنياً أم إجازة في الوقت المناسب للاستمتاع بألوان الخريف الجميلة بعيداً عن الحياة الزوجية؟.

كانت أشجار البنّ واحداً من عطاءات الطبيعة المجانية، مثل الموز والمنجة في عمريت. خلال مئات السنين أغنتنا عن استيراد هذا السمّ العذب البطيء. وها هي ذي الآن تغدو سلاحاً وطنياً. لقد ذهب السنجاري غير مرة إلى هناك ليشارك في القطاف. وشاهده العاملون يتسلّق الشجرة حاملاً سلّته المصنوعة من سنابل القمح، ويثب من غصن إلى غصن، فآمن المثقفون منهم أخيراً بصحّة نظرية داروين. وفي المآل لم تجد أمّ مصعب وأمّ اسماعيل مناصاً من الالتحاق به، وهما لا تعرفان أن تحرّكهما فوق الشجر سيبطل ذلك الإيمان.

خلال هذه الحميّا باع الملاّكون محاصيلهم. ذابت بالات قطنهم كأن الدراويش مارسوا عليها بعض مقدراتهم الخارقة ونزحوها من بعليتا كلها. لكن المال بقي في الخارج. لم يرفضوا مباشرة إقراض الدولة. لكن عقل السنجاري لم يتعب كثيراً ليفهم في النهاية أن هؤلاء المواطنين الصالحين لن يقرضوا «حكومة منهارة» مالاً لن يعود قط. لقد حجبوا عن البلاد رأس مال انتظره اللواء مأمون ملحم، رئيس الأركان الجديد، لتسليح جيشه، والسنجاري لإيقاف ميزانيته على قدميها؛ وأطلقوا في طول البلاد وعرضها توتّرات جديدة ومناقشات صاخبة. ولم تستطع المظاهرة العنيفة التي قادها فاتك السبئي أن تفعل شيئاً ضدهم.

عندما حاولت الجمعيّة الوطنيّة مناقشة هذا الموقف اللاوطنيّ انسحب الدكتور شمداوي ونوّاب حزبه من الجلسة. وبقي رئيس الوزراء ونوّاب حزبه عاجزين إلا عن شتمهم وتحقيرهم. وفيما المظاهرات تعصف في البلاد ضد «الخونة الاقتصاديّين»،

والصحف تطالب صباح مساء بالإصلاح الزراعي وتقديم المالكين للمحاكمة، تبيّن أن الدكتور ونوابه غادروا الجمعيّة الوطنيّة نهائياً. مرة بعد مرة انعقدت الجمعية، واقتصر الحضور على نواب الحزب الاشتراكي التقدّمي.

صيحات الفرح التي أطلقتها الصحافة والنوادي والمسرحيات المرتجلة للمناسبة، لم تجد مكاناً في قلب مرعي السنجاري. نحن لم نكن نفهم الضرورات الديمقراطية العريقة. وكان سهلاً علينا أن نرى في انسحاب شمداوي وحزبه خلاصاً للبلاد من ازدواجية مرهقة. ها هوذا حزب البلاد الحقيقيّ، حزب عمّالها وفلاّحيها وطلاّبها وكَسَبتها، يرتاح من مناوئه الذي حاول أن ينهض بها فأوقعها بين الأقدام الامبريالية.

لكن قلب السنجاري كان مليئاً بمشاعر أخرى: الحزن، الدهشة، الوجع، الخوف، الغضب. لقد أعلنه سعدالله شمداوي بهذا الانسحاب حاكماً فرداً لبعليتا. وهو لا يريد ذلك. ها هي ذي آخر صلة لشمداوي بمبادئه البرلمانية تنقطع. لقد نسف رؤياه لبعليتا الجديدة نسفاً صاعقاً. ركلت قدمه الجمعيّة الوطنيّة برمّتها، جعلتها قاعاً صفصفاً، لكي يؤكّد من الداخل صورة رسمتها الصحافة البيضاء في الخارج عن «حكم شبه عسكري يتستّر ببرلمانية كسيحة». وهذه الجمعيّة لن يمكنها أن تلتئم بعداليوم، مادام حزب شمداوي يقاطعها، إلا إذا شاءت أن تغدو أضحوكة العالم.

لقد أمكن لتلك الحبيبات البرّية السمراء، أن تصير أواخر الخريف تلالاً من البنّ الطحين. وأمكنها أن تفضفض طيلة أشهر قادمة ميزانية الدولة التي اعتادت على السعة والتوسّع منذ أيام شمداوي. لكن الأزمة السياسية استعصت. وفي أوائل الشتاء استفحلت.

كان شمداوي واضحاً هذه المرة وهو يناقش طلب رئيس الوزراء المحافظة على النظام البرلماني. مبدئياً لا بد من إلغاء «الديمقراطية الرديفة» وسحب أسلحتها، قبل أن يصير ممكناً الحديث في النقطة الثانية. النقطة الثانية هي رسم سياسة شاملة للبلد على أساس الحقّ المقدس للملكية الفردية. لا، هو لا يريد من السنجاري أن يكون طرطوراً رأسمالياً بملابس اشتراكية. لكن العالم كلّه منقسم الآن إلى معسكرين: معسكر الملكيّة الفرديّة ومعسكر الشيوعيّة، والذي لا يعرف أين يقف منهما يضيع، بل ويتمزّق. وهو يرجو أن لا يجعل السنجاري بلاده تنقسم هذا الانقسام. كلا، ليس هناك كلام آخر. إن شمداوي يفضل الملكيّة الفردية ومعها آفات أمريكا، على الشيوعيّة الفاشستية. «بون!» حسناً. إذن هو سيرفع دعوى على الحكومة غداً لخرقها الدستور في تسليح «الديمقراطية السخيفة» هذه. طبعاً، في هذا الوضع، لا سبيل إلى إقراض الحكومة قرشاً واحداً.

ربما كان هذا هو السبب في البلبلة التي ناخت على السنجاري أسبوعاً قبل أن يفلت مشروع مرسوم الإصلاح الزراعيّ من يده ويرفعه إلى الرئيس زيدان مصطفى لتوقيعه. أغلب الظن أن ما حسم الأمر في ذهنه لم يكن الحسابات الدقيقة أو التفكير العميق (وخاصّة تجريد الاقطاعيّين الصناعيّين من قوّتهم الاقتصادية)، بل تلك الحقيقة البسيطة التي طالما أربكته وأخافته، والتي ليست بالضرورة هي الصحيحة دائماً؛ إن الشعب الذي أوصله إلى السلطة قبل عامين قد فاجأه مرة أخرى بأن سبقه إلى اتخاذ قرار كبير بدل أن يحدث العكس. ليس فقط المظاهرات، ولا الصحافة، بل منهاج عام، عزم عام، لغة عامة، اتفاق عام..

في اليوم التالي، وقبل أي إنسان في بعليتا، اتخذ قراراً آخر ما كان ليسبق أحداً إليه لو أن أحداً قبل به: خلال أسبوع كان المقدّم طاهر العطا وضبّاط عاملون معه قد غادروا مناجم الذهب إلى بعليتا.

الصورة الشعبيّة للسنجاري مضادّة في العادة للسمعة التي صنعتها الصحافة البيضاء لهذا «الموجيك الأحمر». إنها لرجل متردّد متخوّف، كثير الحسابات قليل الإنجازات. وحقاً فقد كان القرار بإيقاف نشاط مغاوري الليل صاعقاً لجماهير زاخرة أصاخت لأخبار اقتراب فيدل كاسترو من مشارف هافانا كأنها أخبار نيلوتية صرف.

وقد شرح لنا عبد العليم مشاعر السنجاري الحزينة: «أنا رجل فعل»، قال له: «إذا لم أتحرّك، أحسّ أن الموت يقترب مني. وأنا أوقفت حركة. حركة حيّة وتاريخيّة. بسبب تعنّت شمداوي. مصيبتي أن رجل السياسة الذي في رأسي يجب أن يحبط أحياناً رجل الحركة الذي في دمي».

وكان غريباً أن يدافع حزب العمل عن قرار السنجاري الأخير، ويمجّده كخطوة حكيمة في الاتجاه الصحيح. وكان غريباً أيضاً أن يدافع عنه طاهر العطا نفسه: «المعركة الاقتصاديّة أولاً وقبل كل شيء. ماذا تريدون؟ عندنا طبقة شعبيّة تصير الآن طبقة حاكمة. وأمّة تابعة تنهض ضد أمّة مهيمنة. ونظام مجتمعيّ حديث يحلّ محلّ نظام تقليديّ راكد. تريدون فوق هذا حرب مغاوري الليل؟ يجب أن ننزع الألغام من حقولنا أولاً. والألغام هي شمداوي واليونايتد انفستمنت. يكفي أن ننتزع عملية التغيير من البرجوازيّة الأجنبيّة والمحليّة. يكفي وبعدها، يكون لكل حادث حديث».

«معارك الحريّة لا تتجزأ»، نبر بدر الهلالي. «ألم تكن خطة السنجاري إشغال القوى

الامبريالية بحرب عصابات في مناجم الذهب، لنكون هنا مرتاحين في جهدنا التقدّمي التحديثيّ؟».

«لم يتوافق حساب البيدر مع حساب الحقل»، قال سعدون، متضايقاً من اضطراره الدائم لشرح المقدّمات النظرية لحركة التحرر الوطني. «العيب الأكبر، الخطأ التاريخي، في ظاهرة السنجاري، وهي ظاهرة تتكرّر كثيراً في العالم الثالث، هو نفسه مصدر قوتها واندفاعتها التاريخية: الإرادية، الإرادوية» أنا متأكّد أنه ستلزمنا لغة جديدة عما قريب.. المهمّ. الإرادية هذه تنجح نجاحاً باهراً في تنشيط حركة شعبيّة كاسحة، لكنها، وهنا الخطأ المدمّر، تفشل في التعامل مع التاريخ كقوانين علمية، وصراعات جدلية».

«أنا متأكدة أن هذا الكلام للأستاذ فاضل شرف. وهو كلام صحيح وأنا معه» قالت حياة. «لكن، قل لي بالله عليك، لماذا لا يسدّ الحزب هذا النقص؟ لماذا لا يقدّم برنامج عمل وطني شاملاً ومتكاملاً؟ لماذا السنجاري وليس نحن؟».

بين القهقهات والتعليقات المدوية، انكمشت رغبة سعدون في الردّ. إنها ليست المرّة الأولى التي يسمع فيها حياة وهي تتكلم «خارج» الحزب.

أخيراً قال نذير: «أنا مع بدر. لو كنت مكان السنجاري لما أوقفت نشاط مغاوري الليل. واحد معه سلاح يقارع به أعداءه! ورقة رابحة، في الميدان السياسي على الأقل، وحتى الاقتصاديّ، وعند اللزوم في العسكري أيضاً. يجب أن نظلّ نهدّد بها حتى ولو لم نستعملها. المشكلة هي أننا شعب قويّ ولكن دولته ضعيفة».

قال طاهر: «بالعكس. هناك وحدة عضويّة بين الشعب والدولة. أنا أرى السنجاري على حقّ. يجب أن نحصر بؤر الصراع ضد التبعيّة والامبريالية لكي نتمكّن من الانتصار فيها. نحن نريد أن ننتصر، لا أن نلعب لعبة. ننتصر في معركة محددة واضحة، لا أن نخوض عشرين معركة غامضة بلا نتيجة مؤكدة».

قال بدر: «وهذا ممكن فقط بقيادة جماعيّة مؤسّساتية، يعزّزها النضال الطبقيّ وتدعمها حركة شعبيّة قاعديّة».

أضاف عبد العليم: «نحن مجتمع تابع. شمداوي، وقبله محمد علي العبد الله، جعلنا تابعين. ومادمنا هكذا يستحيل على القوى الشعبية أن تتولّى عمليّة التقدّم الاجتماعيّ. الآن قاعدة النضال ليست حرب مغاوري الليل. القاعدة هي الحزب الواحد. الحركات الوطنيّة والطبقيّة والشعبيّة تزداد قوة بالحزب الواحد...».

نبر سعدون بسخرية: «أين هو؟ أين هو هذا الحزب؟ هل تسمّي اللملمة التي لفّها السنجاري حوله عن مختلف الطبقات حزباً؟ شيء من القوميّة. على شيء من الليبراليّة. على شيء من الإرادويّة. هه. مصيبتي فيكم أنكم لا تقرأون. الحزب الثوريّ له مواصفات وشروط، حبيبي. وهي لا تنطبق على الحزب الاشتراكيّ التقدميّ» يقول لينين يا عبد العليم...».

«سعدون!» توسّلت حياة. «كرمى للينين يا سعدون. كرمى له، لا تستشهد به. أنت تحوّله إلى حواريّ. أو وليّ. وتحوّلنا إلى مريدين. قل ما تفهم أنت يا أخي. ولا تنتحل فهم لينين».

«كرمى لك يا ست حياة. سأقول ما أفهمه أنا. عبد العليم يا عزيزي. أنا معك، يجب أن ننطلق في تفكيرنا من صيغة التبعيّة. وفي هذه الحالة لا بدّ من إقامة نوع من جبهة وطنية، وإعطاء البرجوازية البلدية أهمّيتها ودورها، لأنها هي التي يمكن أن تبني قاعدة اقتصادية تقف ضدّ التغلغل..»

«لا يا سعدون»، هتف طاهر مبتسماً، «هذا تحليل مدرسيّ أبطله الواقع. أبطله تماماً يا أخي. أنت تغمض أعيننا عن واقع أنّ البرجوازية البلدية تسوّي أمورها جيّداً مع البرجوازية العالميّة. كانوا سعداء جداً بمرابحهم وخسارات شعبنا. هم في واد والشعب في واد».

انفجرت الصيحات والتعليقات من جديد. وبدأ حديث آخر، فآخر، تكلّم مخيبر وبرعي بدران وعماد ومقداد وإسماعيل.. وكانوا كلهم متأكّدين أن الإصلاح الزراعيّ سيدعم التأميم.

مرعي السنجاري لم يكن من هذا الرأي. «نحن في وضع شبيه بالحرب. والإصلاح الزراعي محتاج إلى حالة سلم. حالة ليست البلاد فيها مهدّدة من الخارج».

«توقيف مغاوري الليل، ثم توقيف الإصلاح الزراعي.. هذا كثير يا مرعي»، قال أحمد منصف وزير الداخلية.

كان يعرف أن هذا كثير. ولم يجب بشيء. وكان يعرف أن كسب المعركة الإعلامية ليس أهم كسب، كما قال أيضاً غالب الغالب وزير الدفاع. وراء صمته وانتقال عينيه بين أفواه المتكلّمين، فاض خوف قديم، هو خوف الفلاّح العريق ولا شكّ، لكنه أيضاً خوف الفتى الذي صارت بلاده أختاً بديلة. الدكتور أمجد، وزير الخارجية، يقول حقاً أيضاً: حملة الإعلام الأبيض تعني أن أصحاب القرار الأبيض سيستثمرون تردّده وإحجامه.

« هل نستفتي الشعب على هذه الأمور كلّها ؟ » سألهم بحماسة رخوة، وأضاف: « لا تنسوا، مصير النهر الكبير كله مرهون بنجاحنا ».

هتف الدكتور أمجد حمود: « أنت أول حاكم أعرفه، يعطيه الشعب تفويضين، واحداً من البرلمان، والثاني من النقابات. وتريد استفتاء ؟ ».

« ماشي »، قال السنجاري. ثم صمت قليلاً وغيّم وجهه: « لكن الإصلاح الزراعي لن يتجاوز تمليك الأرض للفلاّحين وتقاسم المحصول أو الأرباح معهم. كنت أتمنّى، مع تفكيك هيكل الاقتصاد القديم، أن نبدأ ببناء اقتصاد تعاونيّ جديد، مصنّع ومتخصّص ».

« هذا ما سنبدأ به فور انتصارنا في معركة التأميم »، قال الدكتور العيادي وزير الاقتصاد. « وعلى كل حال، تلزمنا شهور طويلة لتهيئة الدراسات وبعدها الخطط ».

عندها اتّزنت الأمور وارتصفت في ذهن مرعي السنجاري. أحسّ أنه يفتح عينيه أخيراً ويرى كل شيء يتمّ بعقل وحسبان. تهديدات شمداوي القديمة لن تجد منفذاً تعبره إلى بعليتا. سوف تتقدّم البلاد الآن بلا خوف ولا عقبات. سيمضي بلا رجوع الزمن الذي أعطى لأسلاف شمداوي الطبقيّين المقدرة على تكليس تلّة من أجساد الفلاّحين في قمقم من الإسمنت والحجارة.

ما الذي ذكّره بذلك. العهد القديم ؟

إحساس مندفع إلى الخلايا عبر عينين انفتحتا على أفق. يومها شاهد فيضة بضفائرها السماوية وعينيها اللألاءتين وصدرها الأموي. كانت تخيم فوق عينيه وتطلق لها ذلك الأفق من عقاله. سبعة أيام وهي تمارس كيمياءها الترابيّة عليها، تعجن أعشاباً برضابها البلوريّ، وتحنو فوق جسده المشطوب المخضّب مثل كاهنة عريقة، فتبلسم جروحه بخبزها الأخضر. سبعة أيام، دون أن تقول كلمة واحدة. أسابيع، دون أن تقول كلمة واحدة. حتى اكتشف أنها وهي المجنونة تتكلم لغة أخرى ليست أصواتاً، بل حركات جسد ونفس وعقل، وأنها بذلك الكلام صاغت شكل روحه. يومها جاءه ذلك الإحساس لأوّل مرة بأنه يستطيع أن ينهض ثانية وإلى أفق فسيح، أن يفعل شيئاً.

ذلك الليل تذكّرها أكثر من أيّ ليل مضى أو نهار. تذكّرها وهو يتذكّر أيضاً ناعتيه بالتردّد والإبطاء. وساعتها فهم جليّة نفسه وأمكنه لأوّل مرّة أن يدافع عنها. ليس تردّداً ولا إبطاء ما يدخل فيه ويخرج منه بلا قرار. إنه ببساطة انتفاء التطابق بين شكل الأزمة المطروحة والشكل الروحيّ الجديد الذي سكبته فيه. وها هو ذا الآن، ساكن أمام المرآة، متأمّل شعره الإبري الواقف وأنفه الطويل والأثلام الزمنيّة في وجهه، مدرك أن الوقت قد

فات ليختلج شكل الروح مع صنوه في امرأة أخرى فيبعثر سكون هذا البيت المهيب. أليس غريباً أن لا ينفتح مع الآفاق الرحيبة هذا الأفق الصغير؟.

كان مطيراً ذلك الشتاء. غير أنه لم يمنع أحداً عن فرح أو فعل. من جديد عادت المسارح إلى منافساتها الحادّة، وكان آرثر ميللر وأنطون تشيخوف ملكي نصوصها المتوّجين. ورغم أن نجماً سطع منذ أول قصة قصيرة كتبها، هو يحي الماجد، وأنّ الشعر الجديد وطّد نداءه في النفوس وأزاح الشعر القديم مثلما السنجاري أزاح شمداوي، فقد بقي المسرح سيّد الحياة الثقافية. كان الناس توّاقين إلى اللقاء، إلى نشاط أدبيّ يجمعهم لتبادل الرأي والرأي الآخر. إن فناً هو أساساً جماعيّ يجسّد أمامهم ما يختلج من أشواق وأحلام فيشاهدونه على مسافة، ويحكمون عليه ويختلفون بشأنه.

وقد أثبت بشارة فتاحي مرة أخرى عبقريّته في تحسّسه التلقائي لرغبتي الجمهور في الاجتماع والتجسيد. كان مثله الأعلى نجنسكي وبه خلب عقول الناس. غير أنه لم يستطع أن يفهم، وظلّ طوال حياته النشيطة والكسيحة متحيّراً من ظاهرة إقبال الجمهور نفسه على مسرحيّات كاتب مغمور اسمه برتولت برشت مات قبل أن يسمع به أحد. إن هذا المؤلّف المخرج، الذي يأمر ممثّليه بمقاطعة أنفسهم لتبريد حماس النظارة وفضّ اندماجهم قد لاقى من يقدّمه على خشبة مسرح بعليتي!.

مسرحية من نوع مختلف، حافلة بدراما مأساويّة حقيقيّة، أوقفت كلّ ذاك النشاط، وكان مسرحها مدخل المنزل الذي يقطنه اللواء طلحة السايح، معاون رئيس الأركان العامّة.

هذه المرّة كان القتيل أكثر انتباهاً من سلفه اللواء نوفل. انبطح على الأرض منتضياً مسدّسه التشيكيّ، وراح يطلق النار. واندفع مرافقاه وراء رجال غامضين غريبين، نفرت رؤوسهم من سيارات رابضة في الاتّجاهين، وأيديهم ترشّ الرصاص من بواريد ذات نظارات مكبّرة.

لكن ما كان مرسوماً نفّذ بالدقّة المطلوبة. عناء التخلّص من مفاجأة المرافقين لم يكلّف المهاجمين سوى التفاتة صغيرة ورشّتين. وبعدها التفتوا ثانية إلى اللواء المتدحرج نحو بيته فخردقوا جسده بالرصاص، كانوا متمرّسين جيداً بإطلاق النار.

نزف دم اللواء طلحة عن آخره وتجمّع في الركن المقوّس من الرصيف قبل أن يجرؤ العابرون على العودة إلى المكان، أو الساكنون على الهبوط إليه. ومن الركن سال الدم قرابة متر ونصف قبل أن يتجمّع ثانية في حفرة إسمنتية حالت دون انصبابه في فتحة المياه.

أصرّ السنجاري بقسوة وحشيّة على أن يبقى المثلّث الدموي كما هو. «دع الصحافة العالمية كلها ترى هذا اللون الأحمر». قال لوزير الثقافة والإعلام.

هذه المرّة تذكّر الناس التفاصيل كلّها. انتبهوا إلى وافد جديد يدخل حياتهم وهم لم يألفوه. فيضان النهر وأساطيره القديمة؟ شراسة الأعاصير الغربيّة؟ السلطان؟ الاستعمار البريطاني؟ المارشال الرئيس؟ ما الذي في تاريخ حياتهم روّعهم بهذا العنف البشع؟ بعد نيّف وعشر سنين من الاستقلال والديمقراطية يصير سفك الدم عشر مرات أفظع!

لقد عاد الخوف فقبع في خاطر السنجاري. ليس فقط أن هذه الأزمة الدمويّة لطمت كيانه الروحي، بل وفجعته أيضاً. وها هي ذي صحف اليمين تحمّله المسؤولية وتنذره بمزيد من العنف. وها هي ذي صحف وإذاعات من كل مكان تطرح في السوق بيوض أفكار لم تخطر له عن خططه في تأميم الأطبّاء والساعات والملابس والعطور والأحذية والمواصلات.

إذن كان شمداوي يعرف ماذا يقول. قبل شهور قصم ظهر الجمعيّة الوطنيّة بانسحابه منها. وها هو الآن ينضمّ إلى متّهمي الحكومة ومحمّليها مسؤولية الدم. في تلفزيون عمريت ظهر السبت الفائت ليخاطب «الجماهير» مدة ثلاث دقائق، ليقول لهم إن لا أحد يؤيّد المعتدين في بعليتا على حق الملكيّة الفرديّة المقدّس سوى النظامين العسكريين في بيت رع وشوباد.

فاتك السبئي أعاد للسنجاري شيئاً من ذلك الاتزان. عبر شوارع العاصمة ضرب مثلاً لبقيّة النقابيين عن حماية الديمقراطية الرديفة للديمقراطية الأساسيّة. فما إن استوى ذلك الشتاء حتى كانت (خلايا العمّال) قد حلّت محلّ دوريات الليل في حماية المدن. كانت التدريبات على المقاومة الشعبية قد اكتملت، وها هوذا طاهر العطا يوزّع البواريد والطلقات على أعضائها.

لكن غزواً غير متوقّع تمّ أوائل الربيع بلا مبالاة مطلقة وفي وضح النهار. فوق المدينة ـ وفوق المدن الأخرى، كما علمنا فيما بعد ـ حلّقت من ناحية النهر طائرات مروحيّة لا يمكن لأحد غير مخاة البيض أن يملكها. بادىء الأمر شرعت المروحيّات في ألعاب فضائية باهرة. طلاّب المدارس على الأقلّ ظنّوا أن الدراويش استطاعوا أخيراً غزو الفضاء، وأنهم فعلوا ذلك نكاية بالسوفييت وغاغارين. ولم يكونوا الوحيدين الذين تركوا أماكنهم إلى الشارع ليراقبوا هذا الاستعراض الجدّي البديع. لقد خرج أصحاب الدكاكين أيضاً، والموظّفون، وربّات البيوت، وحتى عمال فاتك السبئي.

عندها شاهد الناس رزماً صغيرة عديدة تترنّح في الجوّ، ثم تنفلش بسرعة لتخرج منها أوراق لا تحصى. وشاهدوا الأوراق وهي تتمايل وتتخايل في خطوط هبوطها العرجاء.

قبل أن يلتقط أوّل متفرج أوّل ورقة، كانت المروحيّات قد جنحت باتّجاه النهر واختفت. وفي تعطّل شبه كامل للمواصلات والمرور والأعمال، في فوضى لم يسبق لها مثيل حتى أيام المظاهرات الكبرى، أخذت الجماهير تقرأ ما اتضح الآن أنه منشور علنيّ مضادّ للحكومة.

الشيء الوحيد الغامض في المنشور كان خلوّه مما يشير إلى مصدره. لهذا راح مرعي السنجاري يقرأه منذهلاً تماماً وغير مصدّق. كان أفدح ما فيه نبرة الحسم والوثوقية عبر جمله القصيرة القليلة. لقد بدأت كلّها، ويا للغرابة، بسؤال استفهامي: هل تعلم؟

« هل تعلم أن حكومة الموجيك الأحمر تفكّر بحلّ الجيش؟ هل تعلم أن القوّات النظامية المسلّحة ستستبدل بميليشيات مدنيّة عمّالية يسيطر عليها الشيوعيّون؟... أن هناك خطّة تصفيات جسديّة لكبار الضبّاط الوطنيين؟... أن التصفيات ستنال الألوية والعمداء والعقداء بحيث يتفكّك الجيش في النهاية؟... ».

كان عملاً سخيفاً بالطبع، قال السنجاري لنفسه. وتساءل الذين حوله: على من يضحك موزّعو المنشور هؤلاء. غير أن السخرية والاستهزاء لم يمنعا ظهور المروحيّات ثانية ولا هطول المناشير. وبعد وقت قصير تواتر في النفوس حسّ غامض بالخطر. ثم تعزّز يوم انفجر بالديناميت جسر عمره خمسمئة عام فوق ترعة (مياسة الشمال) فأوحى بأن الشرّ صار متعة لازبة.

تتابع العمل الوطني على ما يرام وكما هو مخطّط له. لكنّ الساعات التي أمضاها السنجاري وهو يعيد تقليب الأمور بعد اتزانها في مجلس الوزراء، صارت أطول. إن ما حدث حتى الآن هو سَواءٍ وحسب، وإن الدواهي الحقيقية لم تتكشّف بعد. ويومها جلس في مكتبه حتى هزيع من الليل ممسكاً بالقلم فوق الورقة، في نهاية المطاف كتب ثلاثة سطور أقرب إلى البرقية منها إلى الرسالة: « في البلاد قوة ثالثة تبيّت لها الشر. خلافاتنا السياسية تهدّد كيان الدولة، زيادة عن التهديد الجديد له. النظام البرلماني أمانة في عنقينا، فلا تعط القوة الثالثة فرصة تحطيمه بحجّة وقوفه على ساق واحدة ».

في الصباح انطلق عبد العليم الغزال، وقد صار مرة أخرى اسماً على مسمّى، حاملاً الرسالة إلى شمداوي في عمريت. وعندما عاد بعد أربعة أيام كان حقاً أن نتقبّل ونحن ساكتون، بل ومبتسمون أيضاً، ما نسبه إلى مقدرته الاقناعية الخارقة من استجابة الدكتور

« للنداء الوطنيّ الذي حملته الرسالة ».

لقد وافق السياسيّ اللاجىء طوعاً إلى عمريت على اثنتين من رغبات السنجاري: أوقف بثّه التلفزيونيّ المضادّ، وألغى قرار حزب الأمّة بمقاطعة الجمعيّة الوطنيّة. لكنه بقي في عمريت. وأرسل للسنجاري كلمات لا يستطيع غيره أن يرسل أقوى منها، مطالباً بحلّ الميليشيات شبه العسكرية « لكي يطمئنّ الجيش » وبحلّ الديمقراطية الرديفة كشرط مطلق لعودته إلى بعليتا.

بدأ السنجاري يقلّب الأمور ليجد سبيلاً للعمل بشروط شمداوي. لقد التأمت الجمعيّة الوطنيّة. وكانت جلستها الأولى ـ والجلسات التاليات أيضاً ـ صاخبة على نحو ما اشتهى قلب رئيس الوزراء. إذ كيف للمطالبة بحلّ خلايا العمّال والمقاومة الشعبيّة أن لا تكون ساخنة؟ لكنه وهو يسعى للإبقاء على صورة شكلية وحسب للمقاومة الشعبيّة هتف له اللواء مأمون ليخبره باغتيال قائد سلاح المشاة ورئيس أركانه.

من الذي يهمّه إفناء هؤلاء الضبّاط؟ هذه المرّة لم يحسّ بالموت مقترباً منه فقط وإنما من بعليتا كلها. لماذا الجيش؟ لا بدّ وأن شيئاً خاصاً يُدبّر لوحدة الجيش وتماسكه.

لكنه تأكّد بعد أيام أن تفكيره لم يستوعب الوضع كلّه. الجيش؟ كان الوقت ضحى عندما وقف الناس في أول شارع نابليون وفي نهايته يتفرّجون بفضول عارم وابتسامات مكشرة على مجموعتين من المقاومين الشعبيين وضعتا عُدّتي رشّاشات عند التقاء الشارع والرصيف، وراحتا تهيّئانها فوق المساند. لم يكن المتحلّقون لرؤية الأولى يدرون بالمتحلّقين لرؤية الثانية. ولم يكن أحد يدري هدف التدرّب العجيب الذي سيمارسه هؤلاء في واحد من أشدّ شوارع المدينة اكتظاظاً.

دقائق قليلة وبعدئذ طاروا رعباً في الأزقّة والشوارع الفرعيّة. أطلقوا سيقانهم للريح وهم لم يعرفوا بعد غاية هذا النوع الرهيب من التمرينات العنيفة. لم يكونوا يتوقّعون أن المستقبل سيحمل للمدينة هذا الحجم من الهول. لكن المشهد أوحى لهم. وصدّقوا الوحي. ووقفوا يتابعون إطلاق النار الجهنميّ برعب متفاقم. ولكن بابتسامة ما زالت تعني أن المشهد كلّه تدريب، ممارسة للعبة وليس حصد أرواح. وقد هوى الجسد الأول، ثم الثاني، فالخامس، قبل أن يدركوا أن هذا التقاطع الشيطاني للنيران بين المجموعتين يجب الفرار منه حتى ولو لم يفهموا ضرورته الوطنيّة ومغزاه الكفاحي.

الذين أبقتهم الشجاعة ـ أو الجبن ـ حتى اللحظات الأخيرة شاهدوا بأرحام أعينهم كيف اتّجهت الرشّاشات بعدئذ من الفضاء الخفيض إلى النوافذ والأبواب والأطفال

والحافلات والسيارات. وفي رشّة شاملة أخيرة استغرقت حوالي دقيقة تحوّل الشارع إلى جحيم حقيقيّ فاق ما عرفه الخيال في السينما، قبل أن تهوي الرشاشات على الأرض ويندفع المقاومون الغريبون الغامضون إلى سيّارات منتظرة، فيكونوا آخر الهاربين.

«بعليتا على أبواب حرب أهليّة»، قالت الصحف البيضاء. «بداية انهيار المجتمع البعليتي ـ المقاومة الشعبية تحصد أرواح خمسين مواطناً وطفلاً». «انفجار الصراع بين الشيوعيّين والرأسماليين في بعليتا». «متى يعود الدكتور الأبيض ليخلّص بلاده من التمزّق الأحمر؟»

«البلاد مستهدفة يا شباب»، قال السنجاري بعد ثلاثة أيام من الصمت والحزن.

«هل هو الدكتور شمداوي؟» سأل سعدون، مندوباً عن جريدة (السبيل).

«لا. ولو أنه.. يظن أنه يستفيد. الصراعات داخل المجتمع الواحد أخفّ وطأة على البلاد بكثير من الطرف الثالث».

«من هو الطرف الثالث؟».

«مقدّمته، مخاة البيض. ومكتب المعلومات..طابوره الأخير.. لا أعرف».

وكان لا بدّ أن يشقّ المقدّم طاهر العطا طريقه من جديد إلى الجبال الذهبيّة. قاد سيارته بصمت. إلى يمينه جلس مصعب السبئي أبكم شارداً، وعلى المقعد الخلفي ركنت فيضة متوسّدة حزنها.

مساء يوم المجزرة جاء مع مصعب ليطمئنّ عليها. وجداها جاثمة على السرير، مقفلة العينين. «هل كنت غلطانة؟» سألت إذ أحسّت بدخولهما. «ما زال القمر يشرق ومعه ألف روح!» شاهدا بوضوح أن وعيها مسكون في تلك الآونة برؤى بعيدة أخرى. وفقط عندما تمتم طاهر: «تروحين معنا لتري فادي؟» ذاب ذلك الشمع من عينيها فأفرج عن لمعة التعرّف. «قلبي ينطق بالدم. خذوني من هنا». وانتفضت عن السرير إلى الأرض.

وقف مصعب وطاهر يتأمّلان قامتها المشرئبّة كعنق الفرس. هذه هي المرأة التي علّمتها الحب، كلاً بطريقة خاصة. لم يعد أحد يسأل عن خصوبتها الشهريّة، فلقد تكرّست وانتهى الأمر. ولكن ألن يأتيها غير ذلك الولد؟

كانت الآن تلملم بعض ثيابها في حقيبة من قصب. تقدّم طاهر مرتبكاً وغمغم: «ليس الآن. بعد يومين». اقترب مصعب على غير هدى. وقفت هي. وعاد الشمع فجمد في عينيها. مشت خطوتين نائمتين. تحوّل بؤبؤاها الغائمان في محجريها كأنهما يعاينان في الخارج

رعباً داخلياً. مدّت ذراعين نائمتين، ثم أرختهمـا على كتفي طاهر ومصعب وشدّتهما إلى صدرها. «قلبي ينطق بالدم. قلبي». جعلت تتنفّس بصعوبة. وراح كلّ من الرجلين يصعد مع كل نبضة لطمت صدره الملامس لنهدها.

عندما ذاعت أنباء الانفجارات في مناجم الذهب اتّسع الأفق في عين السنجاري والناس على حدّ سواء. كان شعوراً بالرهبة أساساً ما أحسّ به وهو يسمع الإذاعات، لكنها رهبة مظفّرة، يحسّها الواثب من عل إلى خضمّ يعرف أنه لن يغرقه. «ألم تقل لي إننا يجب أن نتفادى توسيع العداوة؟» سأل وزير الدفاع بعد ساعات.

«القرار ليس بيدنا يا غالب. ليس بيدنا. نستطيع فقط أن لا نموت جبناء».

«والنتائج؟»

«لا أحد يعلم. لكن أظنّ أننا يجب أن نستنفر الجيش ونعلن حالة الطوارىء».

رنّ جرس الهاتف. تناول السنجاري السمّاعـة. خلال ثـوان تلبّـدت ملامـح وجهـه بالعبوس.

«ماذا يجري؟» سأل الوزير بقلق.

«هيّا بنا إلى ساحة طاغور»، هتف السنجاري وهو يضع السمّاعة ويغادر كرسيّه.

كان قد بقي في الساحة ثلاثة جرحى في حالة أذى طفيف. أما الموتى والمصابون الآخرون فقد نقلوا إلى المشافي. في الشوارع الستة المنبثقة عن الساحة شاهد السنجاري مسيلات من الدماء تلوّت هنا وتضخّمت هناك. وعلى مسافات متفاوتة من الساحة تمدّدت قطع صماء هي الرشاشات التي خلّفها المهاجمون وراءهم.

«هربوا منا يا سيدي مثل الأشباح. مثل الأشباح»، قال مقاوم شعبيّ.

«رشّاشات المرة السابقة. النوع نفسه»، قال وزير الدفاع.

«هيّا بنا قبل أن ينتبه الصحفيّون إلينا. لا أريد الكلام الآن».

الاستنفار وحالة الطوارىء لم يفعلا الكثير مما أراده رئيس الوزراء. وكذلك إلغاء مكتب المعلومات الأمريكي. بل وربما رفعت هذه الإجراءات ضغط القلق والمشاعر العنيفة في النفوس. لقد تتابعت دون تقطّع حلقات المسلسل الذي تنبّأ به. وتتابعت صيحات المقدّم مخيبر سرحان الراعدة المحنقة: «ألن أمسك يوماً بواحد منهم؟!».

يجب أن نسأل عن هذه المشاعر الفلاّحين الذين أحسّوا لأول مرة منذ نصف ألف من

السنين بملكيتهم للأرض. هؤلاء الذين حدبوا على شجيرات القطن الطويل التيلة حتى انبثقت وعلت وأينعت، ثم شاهدوها في هذه الحقول أو تلك ألسنة حمراء تندلع من أفواه النار. وسط هذا الهول الرحيب المعلن لم يكن بوسع أحد منهم أن يفعل شيئاً. الآلاف منهم وقفوا أمام المشهد وهم متيبّسون تماماً، كأن النار تأكلهم أيضاً مع السيقان النحيلة القصيرة التي تيبّست هي الأخرى وتفحّمت. لقد طارت رؤوس الشجيرات شظايا ملتهبة ونقلتها الريح قبل أن تنطفىء وتترمّد. وبقيت الجذوع مثل هياكل عظميّة لأطفال سلخت لحومهم. وكان البكاء ردّ الفعل الأعظم، وجديراً بآباء فقدوا أبناءهم في مجاعة أو وباء.

يجب أن نسأل تفيدة التي استقبلت في المنزل القرميديّ ذات ليل «ضيفاً» سرعان ما رابها أمره. كان دمثاً ومتلملماً، رغم أمارات القوّة والثقة والجبروت التي غافلته وندّت عنه. وبحركة محسوبة ضغطت سبابتها على زرّ صغير أسفل السرير فضاءت شمعة حمراء على لوحة أمام عيني شريف العبد الله المتربّصتين. بوثبة نهض الديدبان الليلي إلى الهاتف واتّصل بمكتب المقدّم مخير. وبوثبات كان أربعة من رجال المقدّم المتخفّين يدخلون غرفة تفيدة دون أن يقرعوا الباب.

أدهشهم ارتياب تفيدة بهذا الرجل الخرنوبيّ البشرة، السليم النطق. لكن المغطس الساخن الذي قذفوا الرجل عارياً إليه سرعان ما قذفهم هم أيضاً بدهشة مضادّة. فبعد ثوانٍ تحلّل الخرنوب في الماء وانجلى عن بشرة بلون سنابل الصيف. بعد ساعات انجلى صمت الرجل عن ستة أسماء أخرى رافقته من مخاة البيض.

تلك كانت أول عملية مظفّرة لمخير سرحان ـ هذا العاشق القديم، الذي يطفىء لظى أعماقه الروحية بجمرة يصبّها في أحشائه البدنية. غير أنه لم يستطع أن يظفر بحدوثة أخرى. تتابعت أعمال العنف والحرائق مثل مياه تفور فجأة من الأرض ثم تغور فيها. تتابعت مناشير المروحيّات، ونسف الجسور والمنشآت، وبصورة أكثر إثارة. فمع كل اغتيال لضابط تهبط مئات آلاف المناشير لتتّهم حكومة السنجاري بقتله، وتنذر بحلّ الجيش وتحويله إلى الأعمال الزراعية. وبعدها تلعلع إذاعة غامضة غريبة تشرح الجريمة بألف تفصيل ينغرز كالمسامير في الآذان المصغية.

تتابعت أيضاً عمليات العمريتيين في مناجم الذهب. وكان حواراً أصم، داوياً، فاجعاً ذلك الذي تبادله رجال طاهر العطا وغجره مع الرجال الغريبين الغامضين وحرس المناجم. عمريت ومخاة البيض أعلنتا حالة الطوارىء أيضاً. وبعد أيام أعلنتها أيضاً بيت رع وشوباد وباب إيل، وحتى نيلوتيا الشمالية. وقبع السنجاري منتظراً بيقين حرباوي إشارة

السلام الأولى ليردّ عليها بأحسن منها، فيا تتالت تصريحاته بالتعويض على الشركة العالمية والمالكين الزراعيّين.

ماذا كانت مشاعر التالي في تلك الوهلة الوامضة من توتّرات الأمل؟ خلال عشرة أيام توقّفت أعمال العنف. بفرح أطفال صغار اندفع البحليتيون إلى ممارساتهم النهارية والليلية. وأحيا الأخوان طيفور عرضين متتالين لأوبريت (جبال المخاة)، فغسلت بترائها الفولكلوري العتيق شدّة والحباساً كانا حتى البارحة يُكَوْبِسان على صدر المدينة.

ثم عادت من جديد تلك المشاعر العنيفة. في الضحى أيضاً، أمام علانية السماء، انفجرت قنبلتان على مبنى السفارة البولونية. وفي السهول، أيضاً أمام علانية السماء، تهاوت جسور أخرى، انفجر خزّانان في مصفاة النفط، احترقت ثلاث من شونات القطن، وأحبطت ست وثلاثون محاولة لتخريب حقول القصب.

وفي المدينة مرة أخرى، لعلع الرصاص، وانفجرت مطبعة (الصيحة)، وصارت المعارك المفتعلة مسلسلاً ليلياً. خلال أسبوعين صارت بعليتا ساحة يستبيحها العنف والهول.

يجب أن نسأل أمّ إسماعيل التي دفعها «كبر معلاقها» وعنادها إلى تقصّي الحقائق بنفسها، بعد أن ضاقت ذرعاً برعب تسمع به ولا تراه. وهناك، في شارع الاستقلال، حيث وقعت آخر الانفجارات، كان أول ما شاهدته رأساً ممعوساً بين كتلتي حجر، فاغر الفم، محطّم الوجنتين.

أو كان عليها أن ترى منظراً يفتّت الأكباد فتكبر عشر سنوات دفعة واحدة، هي التي لم يبق لها الكثير؟

يجب أن نسأل المظاهرة الحاشدة التي انبثقت فجأة من متسوّقين وفنّانين متجوّلين وعابري طريق، انضمّ إليهم حشد دراويش انشقّت عنه الأرض، وسار الجميع لابسين أكفاناً بيضاء (كأن خوارق الدراويش قد استحضرتها) وملوّحين بكتيّبات صغيرة، وعلى أفواههم نداءان لا يتغيّران: الحفاظ على الجيش واستقالة السنجاري. بالقياس لحجم المظاهرات المعهود، كانوا حجماً صغيراً، لكن حكمة السنجاري فقط وأوامره حالتا دون الانفجار البدائي لمشاعر الناس ضدّ المتظاهرين.

يجب أن نسأل عاصف السبتي العائد من مدرسته إلى البيت، إذ انضمّ في ساحة الشهداء إلى جمهرة من الناس تراوحت ردود أفعالها بين الاقياء والاغماء والهستريا، وهي تشهق لرؤية سلال قصبيّة عريضة ملأى برؤوس مقطوعة ذات أعين حاسرة خائرة.

إلى أيّ عمق أو مدى من الهياج والوحشية وصلت تلك المشاعر وقد مرّت على أعين أصحابها (وأعصابها وأدمغتهم) مشاهد السلال المليئة بالأحشاء والأعضاء، أو الطفل المطروح وفي صدره فجوة يسرح منها وفيها الذباب والنمل والشقاريف، أو المرأة المتفحّمة الجلد المتنفخة كبرميل، أو السقف الاسمنتي الممدّد على تسع جثث ظهرت رؤوس بعضها؟

ظهرت مناشير جديدة، ولم تكن هابطة من السماء. آلاف، واحدها يتلو الآخر، ملتصقة على جدران المدينة. مرعي السنجاري يجب أن يستقيل. انعقدت الجمعيّة الوطنيّة بكامل أعضائها سوى الدكتور شمداوي وثلاثة من قيادة حزب الأمة. وقرّرت بالإجماع العودة إلى الشعب في انتخابات مبكّرة بعد واحد وعشرين يوماً.

هدوء. خمسة أيام من الهدوء. تفاؤل. تنفّس الناس الصعداء وعاد العشاق يملأون الأرصفة والمنتزهات.

وبعدها عادت الفظائع مرة أخرى. الانفجارات والمعارك الليلية تجدّدت فأوقفت مشاريع بشارة فتاحي المسرحيّة. ثم اغتيل رئيس المحكمة العليا وأحد القادة النقابيّين.

كان مرعي السنجاري يحسّ بهشاشة الوضع كله. لقد بدت الأشياء جميعها ذلك الخريف معلّقة متأرجحة. إنه يجتمع بوزرائه وزملائه وهو لا يجرؤ على التحدّث عن مستقبل يبعد أكثر من أسبوع. لقد بات العنف يولد من ذاته. أن تشتم الامبريالية ومخابراتها لا يعني أنك فعلت شيئاً ضدّها. أن تكشف الجماهير والدنيا مخطّطات الإرهاب والعنف، لا يعني أنك أنقذت بعليتا ونيلوتيا منها. أن تتقدّم باستقالة نهائيّة للرئيس زيدان مصطفى، لا يعني أن البلاد ستنجو من احتمالات الدمار. لقد وقف ذلك الرجل البسيط القلب مذعوراً بعد أن قرأ عزم السنجاري على تقديم حياته السياسية فدية لاسترداد السلام في البلاد ولانقاذ اقتصادها. «تستقيل؟» هتف المجاهد العتيق. وبعد صمت مشبوب حائر هتف ثانية: «أكون خائناً لو أقبل استقالتك». ثم أضاف: «ستنهار البلد».

في الصباح التالي أجرى السنجاري مقابلة صحفيّة مع حياة الملاح. أعلن أن القيادة السياسيّة الحالية صامدة بوجه العاصفة، أن برنامج عملها الوطني لن يتغيّر، وأن الانتخابات ستجري في موعدها المحدّد. ولكن هل ستجري الانتخابات في هذا الإرهاب الذي غدا ديدناً؟ إن أحداً لم يكن يملك أيّ جواب قطعي. حتى رقصات هزّ البطن التي كان يؤدّيها اللواء مأمون ملحم أمامه، ليؤكد في الجلسات الخاصة أن العنف سينتهي، لم تستطع أن تخفّف من عناء قلبه. وكان لديه من الشجاعة ما يكفيه للاعتراف بأن حكمة شمداوي ربما بدت أصحّ من إيمانه هو. ولكن من أين ستأتي الضربة؟ ومتى؟ لا يستطيع

أن يجزم. لا يستطيع أن يحدّد حجم العنف والفوضى والدمار والحصر الذي يريدون صنعه قبل أن تهجم طائراتهم ودبّاباتهم وصواريخهم.

ولكن هل نسمّي شجاعة أيضاً ذلك الهدوء الحرون الذي قابل به صراخ أعماقه المرتعدة جزعاً من حمّامات الدم المقبلة؟ وحده عبد العليم استطاع أن يرى قلق السنجاري في تلك الأيام الأخيرة. وأدرك يومها أن الرجل الشجاع حقاً هو الذي يخاف أكثر من غيره، الذي يندفع إلى الخطر لأنه بالضبط يعرفه ويخافه لا لأنه يجهله أو يتجاهله. كان السنجاري يتحرّك بنوع من اليأس، وإن يكن غامضاً. وذات صباح قال إنه حاول خلال هذه السنوات أن يجنّب بعليتا الصدام الدامي ويكسب لها استقلالاً اقتصادياً أبيض؛ لكنه يعرف الآن أن هذا مستحيل، أن للقطيعة مع الامبريالية ثمناً، ويبدو أن وقت سداده قد حان.

في صباح اليوم الأخير من الشهر العاشر سار شعب بعليتا إلى قصر رئيس الوزراء في ساحة الدستور. وكانت فيضة هناك. منذ أمد بعيد لم تقم مظاهرات ولا مسيرات. كان العنف وتوقّع العنف يمليان على الناس حكمة الخوف والجبن والترقّب، ويلفّانهم أيضاً بأسلاك يشحنها التوتّر، الجهل العصبيّ بما سيحدث ومن سيقوم به ومتى وأين. لكنهم خرجوا الآن، ربما لأن خوفهم وتوتّرهم أجبراهم على تحرّك هو دفاع عن النفس، ليس إلا. وقد خرجوا عن بكرة أبيهم. لم يستطع السنجاري، الممتنع عن الظهور خوف الاغتيال،إلا أن يسلم نفسه لذلك الطوفان من المشاعر ويخرج إلى الشرفة ليلوّح بذراعيه النحيلتين فوق أفق شاسع من العيون المحبّة والحناجر الحادية. لقد استعاد في تلك الساعات الشجيّة الخارقة شعوره بأنه يعيش تاريخ بلاده السياسيّ وليس مصيرها.

في الصباح التالي كان ثمة حشد من نوع معاكس يتّجه نحو قصر رئيس الوزراء. استيقظ السنجاري في الرابعة إلا الربع ليلتقط سمّاعة الهاتف الصارخة. وفي غبشة استيقاظه المباغت جاءه صوت المقدّم مخيبر سرحان المحرور: «الدبّابات تتّجه نحو العاصمة يا سيدي».

«أيّ دبّابات؟» هتف السنجاري وقد استيقظ تماماً.

«الدّبابات، سيدي. دبّاباتنا». دمدم مخيبر. وبعد قليل أضاف «نحن مطلوبون سيدي. قصدي أنا ونذير وبدر وعماد ... والشباب. قرّرنا أن نلتحق بطاهر في الجبال».

«قصدك لا فائدة من المقاومة؟».

«إلا إذا أثبتت المقاومة الشعبيّة موجوديّتها. القطعات المحيطة بالعاصمة كلّها ضدّنا.

ورأينا أن نأتي إليك ونهرّبك حتى لا يؤذوك ».

« انتظروا نتيجة المقاومة قبل أن تلتحقوا بطاهر ».

« يعني لن تجيء معنا، سيدي؟ »

« أنا ذاهب إلى مكتبي ».

« حاضر سيدي. سيدي! المقدّم بدر يقول إنه متّجه إلى ساحة الدستور مع أربعين عنصراً، إذا كنتم ذاهبين إلى هناك ».

« أنا ذاهب إلى هناك. لكن قل لبدر أن يوفّر حياته وحياة جنوده. وداعاً ».

أعاد السمّاعة، ثم رفعها. اتصل بالقصر وأخبر النقيب بندر طلال أن يستنفر الحرس. حلق لحيته وسرّح شعره. لبس ثيابه. غادر المنزل بلا اضطراب ودون أن يقفل الباب.

تراءت له المدينة مثل حبيبة نائمة في النهر، وماء الفجر يترقرق فوق وجهها وعنقها. انعطفت به السيارة المسرعة عند زاوية سيدي بو سعيد فأمسك بمقبض الباب وهو يحسّ أن دفقة من ذلك الماء طفت على وجهه وأنفه. أين هي فيضة الآن يا ترى؟ نهار البارحة خيّل إليه أنه رآها. ما زال متحيّراً. كيف أحبّته طيلة تلك الأسابيع الثلاثة الخارقة، وبعدئذ... وبعدئذ ماذا؟

عند إحدى الساحات الصغيرة خبطت السيارة في ما تبين أنه بركة ماء حقيقيّة خادعة، وبعد ثوانٍ وصلت إلى ساحة الدستور.

كل شيء كان هناك هادئاً. استقبله الحرس ومعهم النقيب بندر. صافحهم. أعاد توزيعهم في جوانب البناء. دخل مكتبه مع بندر. تناول العلم الملفوف على ساريته عند الكرسي. ابتسم. تناول السماعة: وإذن فقد قطعوا الاتصالات.

وصل بدر الهلالي بجنوده وذخيرته وأسلحته. وزّع الجنود والأسلحة في طابقي البناء وقبوه. ومضى إلى مكتب رئيس الوزراء. « نحن على استعداد كامل، سيدي »، قال بدر وهو يتفرّس في وجه مرؤوسه المتكتّم القرير.

رنّ جرس الهاتف. التفت السنجاري بفرح. تناول السماعة وأنصت. انقلبت ملامح وجهه. « هذا أنت يا مأمون؟.. ماذا؟ أنت!.. أنت جُننت.. طبعاً لا .. أنا أعطيك كلمة الشرف أن لا أحاكمك إذا تراجعت عن هذه الخيانة المجنونة ».

أعاد السمّاعة. نهض وبدر إلى ساحة البناء. استعاد وجهه الابتسامة والهدوء. قال للجنود إن نهاية كل واحد منهم هي الموت حتماً إذا أصرّ على البقاء هنا. قال إنه سيودّع

بابتسامة كلّ من يودّ الالتحاق بأولاده وأسرته، ولكن ليكن هذا الآن. فوراً.

لم يتحرّك أحد. مرّت دقيقة صمت مطبق. كانت حداداً مسبّقاً يقيمونه على أنفسهم. «طيّب» هتف المقدّم بدر. «إلى أماكنكم يا رجال بعليتا».

اخترقت الجوّ صليات مباغتة عنيفة من رشّاشات خفيّة. دخل السنجاري البناء بسرعة. هرع الجنود إلى أماكنهم وتربّصوا بها. ردّوا على النار بالنار. كان العتم قد انقشع الآن نهائياً عن تقاطيع المدينة. خمسة شوارع من ستة تصل إلى ساحة الدستور أرسلت نيازك غزيرة من الرصاص وصواعق مقنبلة.

تقاطعت النيران حول القصر والساحة والشوارع. مئات من مشاة الجيش تقدّمت عبر الشوارع إلى الساحة. لكن شيئاً فعالاً لم يتحقّق. بعد نصف ساعة توقّفت النيران واختفت أشباح مطلقيها.

في صمت استمرّ أربعين دقيقة تالية سمع السنجاري وبدر وبندر أصوات القتال في الأماكن الأخرى. كانت أصواتاً أضخم وأخشن وأوسع جحيمية. «هذه هي الدبّابات والمقاومة الشعبية يا سيدي»، قال بدر الهلالي. «عدم وصول الدبّابات إلينا حتى الآن يعني أن المقاومة فعّالة»، قال بندر طلال.

رنّ جرس الهاتف. تناول السنجاري السمّاعة. نظر إلى السمّاعة باستغراب شرس. قبل أن يعيدها سمع صوتاً. نبر: «من أنت؟.. الإذاعة، نعم، نعم. إليك صوتي.. اللواء مأمون ملحم خائن. هو وكل متعاون معه. عليهم مغادرة البلاد فوراً. كلّ مواطن خفير. المواطنون والجنود: قوموا ضد الطغمة الخائنة.. انتهى. قل للمهندس حلم أن يفتح خط الإذاعة في مكتبي على الخط العام. سأوجّه نداء آخر فيما بعد. تحوّلوا إلى الاذاعة السرّية وكرّروا ندائي الحالي. مع السلامة».

وضع السمّاعة. من الشباك تراءت له المدينة مثل حبيبة نائمة في النهر، والماء يترقرق فوق وجهها وعنقها. «عليكم بالنزول إلى القبو. مأمون يهدّدنا بالطائرات. المقاومة الشعبيّة قويّة. لذلك سيضرب من السماء».

توقّف عن الكلام إذ هدر في الجوّ أزيز الطائرات. للتوّ أعقبته أربعة انفجارات متتالية. بعد ثوان تكرّرت الغارة، وغارة ثالثة. تقاطعت الانفجارات والهدير خلال أبد من الزمن طوله خمس عشرة دقيقة.

كان الجميع منبطحين الآن. لكنهم استطاعوا رؤية النيران المندلعة في الطابق العلوي.

أثناء انحسار نسبيّ لرعود السماء الوحشيّة هرعوا إلى مخارج الطابق الأول، أبوابه ونوافذه. «افتحوا صنابير الماء!» صرخ السنجاري. «افتحوها على آخرها وخلّوا الماء ينزل في الغرف». لكن القذائف راحت تندفع داخل الطابق الأول. «الدبّابات!» صرخ بدر.

خرج الجميع إلى باحة القصر، كلّ يحمل البازوكا. كانت الساحة تعجّ بالدبّابات. بلا إبطاء أفرغوا حمولتهم الناريّة. تلاطمت الدبّابات وتضاربت. بعضها انفجر. أزّت الطائرات من جديد وهدرت. ثم قصفت.

إحدى الشظايا قطعت اللحم من زند السنجاري. كان الجناح الأيسر من الطابق الأول يحترق أيضاً. هبطوا إلى القبو. هناك تفادوا مؤقتاً دوائر الجحيم الناري. كان الدم ينزلق على أصابع السنجاري. نبّهه النقيب بندر إليه. «العناصر المعادية تدخل الباحة، سيدي»، قال جنديّ دخل للتوّ لاهثاً.

وضع السنجاري يده الجريحة في جيبه واتّجه خارج القبو. صرخ بدر وبندر به مستغيثين. أشار لهما بيده الأخرى أن يبقيا حيث هما. خرج. التقت أعينهما في نظرة متسائلة. «خلّنا ننزع الرتبة يا سيّدي»، قال بندر.

لحقا به. كان إطلاق النار المتبادل في الباحة عنيفاً وسيليّاً. وقد غطّت الجثث معظم مساحتها. توقّفت النار إذ أطلّ رئيس الوزراء. نظر الجميع إليه، إلى وجهه العاصف ويده الجريحة وقامته النحيلة. «اخفضوا أسلحتكم!» وفعلوا. تقدّم باتجاه مكتبه. صعد الدرجات الستّ نحو الباب الحديدي المزجّج.

صلية رشّاش من ساحة الدستور اخترقت ظهره. دخل الباب متعثّراً. انفجر جحيم النار مرّة أخرى. اندفع بدر وبندر وراء السنجاري. حملاه إلى مقعده في المكتب. ابتسم بوهن. أحسّ بما يشبه الماء يترقرق بارداً فوق عينيه وعنقه، وساخناً فوق ظهره. مدّ يده وأمسك سمّاعة خاصّة. ومثل من استمدّ قوة استثنائيّة من آخر عمل يمكن أن يقوم به هتف في السماعة: «يا أبناء وطني.. هذه آخر فرصة أخاطبكم فيها.. استوعبوا الدرس جيداً.. هناك في الجيش من خرجوا على تقاليد الديمقراطية.. استوعبوا الدرس جيداً.. أوجّه كلامي.. إلى المرأة البسيطة، الفلاّحة.. والعاملة والأمّ.. وإلى الشباب.. أخاطب شعب بعليتا، فلاّحيه وعمّاله ومثقّفيه.. أناس غيري.. سيتجاوزون هذه الساعة الكئيبة المريرة.. الخيانة تهبّ.. للاستيلاء على السلطة.. لكن ليس بعيداً اليوم الذي ينفتح فيه مجدّداً، الطريق العريض... أمام الإنسان الحرّ... ليمشي، نحو.. السلام... والمدنيّة... وداعاً».

بعدها همد مرعي السنجاري بلا حراك. سقط على مكتبه. ركض بدر ورفاقه إليه. دونما وعي مسحت يدا بدر الدم عن ظهر الكرسي ودائرته. أجلسوا السنجاري من جديد. أغمضوا عينيه. ثم وشّحوا وجهه وصدره بالعلم.

- ١٠ -

في ذلك الغلس استيقظت فيضة، ربما لحظة رنّ الهاتف الذي أيقظ السنجاري. وبعدها لم تستطع نوماً. غسلت وجهها وخرجت إلى النهر. هذا العتم مألوف لديها، فلماذا الانقباض؟ كان ماء النهر يترقرق على الكورنيش، ينحسر عن مكان لينساب على مكان. هناك سارت. التفت إليها أحد العابرين باستغراب متفرّس وقح: «صحيح أنها مجنونة»، غمغم، واقترب منها: «يا فيضة! وأنت بهذا الجمال، يمكن أن يعتدي عليك واحدٌ من الناس».

«الباب مقفل، وأنا وحدي معي المفتاح»، قالت، ولطمت العابر على وجهه بأصابعها. اتّجهت إلى المدينة. «لم أحبب النهر هذا الصباح»، قالت. وكانت المدينة ما تزال مقفلة.

حوالي السابعة كان مصعب السبئي يقود أولاده الثلاثة إلى مدرستهم. منذ أن تتابع الظهور الغولي للرؤوس والأطراف المقطوعة في ساحات المدينة، لم يعد بوسعه أن يترك مخلوقات كبده فرائس عزلاء لتلك الهمجيّة. كالعادة، أصرّ عاصف على أن يمشي بمفرده تاركاً لأختيه الأصغر يدي أبيها الضخمتين. مشوا شارعاً فرعياً، ثم آخر عريضاً، وبعدها صبّوا في ساحة الاستقلال.

أطلّ قصر رئيس الجمهورية في طرف الساحة الغربي، وبعدئذ لم يصدق مصعب ما رأى. هذا المنظر هو نفسه الذي شاهده في ذلك الليل البهيم قبل اثني عشر عاماً. تذكّر أنه يومها لم يفهم شيئاً. وها هو ذا الآن يجد فهمه قاصراً مرة أخرى. الدبّابات حول قصر رئيس الجمهورية تعني انقلاباً. ولكن لماذا الانقلاب؟

جرّ أولاده إلى أوّل دبابة: «لماذا أنتم هنا يا أخي؟».

فوجىء الملازم بالسؤال. كان رابضاً وراء مدفع الدبابة الموجّه إلى القصر. التفت. «ألا ترى أنه انقلاب يا ذكي؟» وقبل أن يلتفت إلى مدفعه نهر محدّثه: «هيّا إلى بيوتكم. يجب أن تكون الشوارع فارغة تماماً».

تراجع مصعب وأولاده خطوتين. «أيّها المواطنون الشرفاء»، صاح صوت إذاعـيّ من مكان ما قرب الملازم. توقّف مصعب. «الأزمة مستفحلة في البلاد. الحكومة عاجزة عن حماية أرواح المواطنين والضبّاط الشرفاء. المراهقون والعابثون والعملاء الحمر يحملون السلاح. حرصاً على تجنيب الوطن الغالي المفدّى مخاطر حرب أهليّة، فقد هبّت القيادة العامّة للجيش والقوّات المسلّحة، مضطرّة، لاستلام السلطة وإيقاف انهيار البلاد. تحذّر الأخوة المواطنين من أن كل عمل معادٍ للقيادة العسكريّة عقوبته الإعدام الفوري رمياً بالرصاص».

بسرعة، عاد وأولاده إلى البيت. «انقلاب عسكري!» قال لحياة المندهشة.

«اللواء مأمون ملحم! لكنه والسنجاري مثل الأخوة!».

نهضت وارتدت ملابسها التدريبيّة. «لا تقل لي يجب أن تبقي في البيت، وأنك خائف على حياتي»، قالت وهي تخرج البندقيّة من مخبئها.

«أنا خائف على حياتك. لكن لن أقول لك لا تخرجي».

تعالى هدير الطائرات، ثم أصوات القصف والانفجار. شهق الأطفال والتصقوا بأمّهم. «إنما رأيي، بارودتك لن تفيد شيئاً. أكيد، الدبّابات تطوق مجلس الوزراء أيضاً، وبيت السنجاري، حتماً».

أنزلت أخمص البارودة على الأرض ونظرت إلى مصعب بعينين فارغتين.

«توافقين على أن أخرج أنا؟» سألها، وهو واعٍ بالكلمات التي لم يتضمّنها سؤاله.

هزّت رأسها بالموافقة. «أنت خارج على كل حال. لا تتصنّع الديمقراطية. لكن خذ حذرك».

«الحقيقة أنا خائف. ومحتاج إلى شجاعتك».

«يجب أن تخرج. لكن لا تطل الغياب. أنا سأسمع البلاغات العسكريّة وأسجلها».

كانت الأصوات قد بدأت ترعد في سماء المدينة. أصوات وحشيّة كاسرة، تتحشرج في حلوق الضواري المعدنيّة قبل أن تنفجر في الشوارع وتدوي في الأسماع المتقلّصة.

«من كان يصدق أن تظاهرة الميليشيات ستفرخ كل هذه المقاومة؟»

«ظننتها مجرّد نشاط إعلامي».

[بلاغ رقم ٢: على المواطنين الكرام البقاء في منازلهم حتى إشعار آخر. وكلّ من

يخالف هذا الأمر يعدم فوراً رمياً بالرصاص].

أسرع باتجاه ساحة الدستور. سمع البلاغ الثاني من دكان بائع الفول والسحلب. صار مستحيلاً المشي في الشوارع الرئيسيّة، قال لنفسه. لم يطل به الوقت حتى أدرك أن المدينة قد انشطرت إلى قسمين: الساحات والشوارع الرئيسيّة التي تحتلّها المجنزرات والمصفّحات، ثم الأزقّة والشوارع الفرعيّة التي يتكاثف فيها البشر والمقاومون الشعبيّون. أما السماء فكانت ميداناً أطرافه الرعشة وقبّته الرعب.

راح الناس يفرّون مذعورين. كانت الأبنية تهتزّ إثر القصف المدفعيّ، فيهرع «المواطنون الكرام» إلى ملجأ لا يعرفون أين هو. لقد لمسوا يومها كيف صارت ذخراً أمنياً أشجار الشوارع المزروعة أيام الاستقلال الأولى. كلما ترنّح في أعينهم بناء، التقطت أيديهم جذوع الشجر.

عند إحدى التكايا شاهد مصعب امرأة جاثية ترفع راحتيها إلى السماء. تذكّر فيضة، وانعصف قلبه. لا شكّ أنها تهيم في الشوارع الآن كأمّ ثكلى، أو تناجز الجنود في ساحة الدستور مثلما ناجزت مفيد العبد الله ذات مساء.

انعطف إلى اليمين فأوشكت قدمه أن تعثر بامرأة يسحبها اثنان من رجال المقاومة الشعبيّة. كان عنقها يشخب دماً من رصاصة ثقبته.

وقف ينظر إلى المرأة، ولكن دون أن يراها حقاً. كان يرى ما بداخله من حيرة وهو ينتبه إلى أنّ المرأة نصف الصريعة قد ذكرته بحياة القابعة في البيت، وليس بفيضة الهائمة حتماً في الشوارع.

[أعلن البلاغ الثالث أن حقوق العمّال لن تمسّ، وأعلمهم أن الموت رمياً بالرصاص سيكون جزاء أيّ تخريب في المصانع المؤمّمة].

كان شطرا المدينة ما يزالان مستعصيين، أحدهما على الآخر. لكن مصعب، ورغم لحظة وعي حادّة بانشطاره بين المرأتين، رأى أن عليه الخروج من ذاته ليتابع بأمان مشيته على الخط الفاصل بين الموت والحياة. من هنا وهناك كان المقاومون الشعبيّون يندفعون نحو المجنزرات ببازوكاتهم. ومن الشارع العريض كانت القذائف المدفعيّة تدكّ البيوت التي لاح بينها شبح مقاوم شعبي أو نبق من بينها صوت النار.

ثم راحت التقاطعات تتزرّر بالجثث. هناك على الخطّ الوهميّ الملتهب، مرّت الآليات جيئة وذهاباً لتقتنص مقتنصيها.

[طلب البلاغ الرابع من سبعة وثلاثين زعيماً مدنياً تسليم أنفسهم كي يُحاكموا، وإلا أعدموا بالرصاص دونما محاكمة].

عند تقاطع شارع النصر مع ساحة الدستور كانت فيضة لاطئة وراء شجرة كينا ضخمة. مرّتين سمعت من مذياع في الدبّابة أن السنجاري قُتل. لكنها في تلك اللحظة، ومصعب السبئي يقترب وئيداً منها، سمعت نداء السنجاري المتحشرج الأخير. أغلب الظنّ أنها سمعت الصوت ولم تسمع اللغة. اندفعت كأنها تلبّي نداء، واندفع مصعب وراءها. «فيضة!» «أخي! ولدي!» «فيضة!» «أخي! حبيبي!» وسقط وراء أقدامها الحذر.

«أليست هذه عشيقة السنجاري؟» سأل أحد الجنود الذين أمسكوا بها. وردّ آخر بكسل مبتسم: «هذه فيضة المصروعة». كانت هي ما تزال تنادي: «كلكم تعرفون فيضة!» قال مصعب اللاهث الواصل لتوّه. «هاتوها! نحن أيضاً نستحقّ أن تكون لنا عشيقة». «اتركها يا رجل. هذه امرأة مخلوعة». «لا. سنأخذها إلى التلال».

انطلق جحيم ناريّ من القصر. بانذهال مذعور التقطت عينا مصعب وجه بدر الهلالي. كان بين مجموعة من الجنود انتشرت وراحت تطلق القذائف على الدبّابات والمهاجمين.

احترقت أربع دبّابات وانعطبت أربع. طلب ضابط نجدة سريعة، باللاسلكي. لكن الطائرات سرعان ما ظهرت. ترك المهاجمون الساحة إلى الشوارع. انطلقت فيضة إلى الساحة. كانت تطلق أصواتاً وحشيّة متحشرجة. انطلق وراءها مصعب. صرخ الضابط بهمجية: «ارجعي يا موطوءة!» اندفع وراءها. أمسك شعرها السابل وجذبه. سقطت.

كان سقوطاً غير معقول ومروّعاً. فالرصاصة القادمة من القصر، التي كان يجب أن تخترق رأس فيضة، ارتطمت برأس الضابط وثقبته. وفيما هو يتهاوى تحت وطأة مزيد من الرصاص، انتفضت فيضة إليه. التقطته، وأطلقت ما لعلّه الصرخة الأكثر وحشية التي سمعها الناس قط. هجم مصعب نحوها، وقد ظنّ صرختها إصابة نارية استقرّت في رئتها. كانت ما تزال تصرخ: «أخي! ولدي!» عندما أدركها، وسقط الثلاثة على الأرض.

«خذوها إلى التلال». قال ضابط آخر وهو يصل إليهم. راح صوتها يئنّ، وهي توسّد الرأس الميت على صدرها، وخدّها على شعره. «أخي! ولدي!».

«سيادة اللواء يريدها في مكتبه بالتلال». التفت. شاهد مصعباً يهمّ بالكلام وعلى وجهه ابتسامة مستجدية. «وخذا هذا الخرى معها. بهذه السيارة».

كان قصر رئاسة الوزراء يغرق. أو يضمحلّ. وكلما اختفى منه جزء احتلّت مكانه النيران وعلت فوقه. توارت الطائرات، وسيارة فيضة ومصعب. أخذ المهاجمون يقتربون من سور القصر بحذر وبواريد مهيّأة.

لكن هذا لم يكن ضرورياً. لقد صمت الرصاص نهائياً هناك. وكذلك البشر. وفيما اعتلى المهاجمون السور، أو ولجوا البوابة إلى الحديقة ببطء تسلّي، كان التساؤل الوحيد الباقي هو: هل تطفأ النار أم تترك لتأتي على بقية القصر؟

[أمر البلاغ الخامس ثلاثة وستين ضابطاً التوجّه إلى التلال وتسليم أنفسهم فوراً. وأمر البلاغ السادس خمسة وسبعين قائداً عمالياً التوجّه إلى التلال وتسليم أنفسهم فوراً. وأمر البلاغ السابع حياة الملاّح تسليم نفسها فوراً إلى أقرب تجمّع عسكري في المدينة. وكانت عقوبة عصيان الأوامر الإعدام بالرصاص دونما محاكمة. وأعطى البلاغ الثامن أربعاً وعشرين ساعة للمقاومين الشعبيين لوقف عملياتهم وتسليم أسلحتهم، وأكد أن الأسرى سيُعدمون].

عند الغروب أقفرت المدينة. كل من لم يغلق باب بيته دون جسده أخذته السيارات إلى التلال. في المساء نشطت بين الناس حركة خفيفة مستترة، حين سرى كالنار في الهشيم نبأ ظهور مرتقب للواء مأمون في تلفزيون عمريت ليلقي بياناً إلى الشعب. هرعوا هنا وهناك، في هذه البناية أو تلك، بحثاً عن محظوظ سماوي يملك جهازاً. وكما قالت حياة الملاح فيما بعد، فقد أرادوا أن يروا هذا الذي اضطرّ إلى ذبح مدينة كي يقتل رجلاً.

بدأ اللواء مأمون ملحم بيانه باسم الله والشعب. كان واضحاً أن ذهنه يجد مشقّة في العثور على كلمات خارج النصّ الذي حملته يده اليسرى. قال إن ما قامت به القوّات المسلّحة اليوم ثورة وليس مجرّد انتفاضة، وإن هدفها الأوّل تحرير بعليتا من الفوضى والاستبداد وإيقاف انهيارها الاقتصاديّ، وأن هدفها الثاني التصدّي للهجوم المحتمل الذي يفكر العنصريّون في المخاة بشنّه على البلاد، وأن هدفها الثالث تحقيق الوحدة النيلوتية. أما الهدف المباشر الفوري فهو القضاء المبرم على اليسار واليمين. «نحن أمة توفيقية. لا شرقيّة ولا غربيّة. خلقنا في الوسط، وسنبقى في الوسط. جرّبنا سعدالله شمداوي فأوقعنا في حبائل أمريكا. جرّبنا مرعي السنجاري فأوقعنا تحت البوط الروسي. الآن سنقطع دابر الاثنين. لكننا سنركّز جهودنا على محو اللون الأحمر أولاً. لأن هذا اللون لا شأن له سوى سفك الدماء وتمزيق وحدة نيلوتيا وضرب الوفاق النيلوتيّ. والآن أرجو من إخوتي وأبنائي، جماهير الشعب النيلوتي العظيم، أن يستريحوا في بيوتهم ثلاثة أيام

متوالية، إجازة لهم ممنوحة من الدولة، وخاصّة العمال، وألاّ يخرجوا على الاطلاق لكي لا يُقتلوا، ريثما نقضي نهائياً على أوكار التمرّد والعصيان والإجرام. كان الله في عون بعليتا، والله يوفّقكم، والسلام عليكم».

في ذلك المساء الشتويّ الكئيب، المرصّعة سماؤه بنجوم خرقاء، أنقذت ظاهرة التلفزيونات حياة الملاّح من الموت. بعد انتهاء البثّ في الطابق الثاني من العمارة الثالثة إلى يمين بيتها، انفضّ الحشد البشري المذهول ببطء مديد مرهق. اقتربت حياة من ربّة البيت وطلبت الحماية، «مصعب لم يعد، وأظن أنه اعتقل».

كان الجميع يعرفون البيان السابع. وهكذا أجيرت حياة. وذهب ربّ البيت وأحد الزائرين إلى بيتها، فأركبوا الأطفال الثلاثة سيارة ومضوا بهم إلى بيت أمّ مصعب.

كان فاتك مطلوباً أيضاً، وإسماعيل سرحان، وعبد العليم الغزال... وبالطبع: نذير النميري ونخير سرحان وطاهر العطا وبدر الهلالي، وعشرات آخرون من رفاق الصبا والمقاعد المدرسيّة. اختفى الثلاثة الأوائل، ومعهم سعدون، عاماً كاملاً. ومضى الآخرون إلى طاهر العطا، كما تبيّن فيما بعد، وقادوا حربهم الخاصّة على ناعوس ومأمون والمخويين البيض.

لكن المدينة لم تكن قد اجتازت محنتها بعد. تلك الأيام الثلاثة التي طلب اللواء مأمون من الناس أن يناموها على آذانهم، كانت عزفاً وحشياً على آلات الموت. لم يسبق لبعليتا أن عاشت بهذا الرعب. لقد التزم الجنرال الجديد بكلماته نصّاً وروحاً. في البداية لم يصدّق الناس أن هذا الجنرال الذي يجيد رقصة هزّ البطن، الممسوح بطلاء من الدعابة، يمكن أن يتبع القول بالفعل. لذلك خرجوا في اليوم الأوّل ليروا حرب المقاومين الشعبيين. غير أن نزهتهم الفضولية لم تطل. حصرهم اللواء مأمون وحصدهم. حزمهم في قائمتين لا ثالث لهما، فإما قتيل تشخب دماؤه في الشارع، وإما هارب يخبر عمّن قُتل.

في اليومين التاليين انفرد قنّاصة مأمون ملحم بمن عرفنا فيما بعد أنهم أيضاً نقابيّون وصحفيّون وعمّال ورؤساء مصانع وفلاّحون وأساتذة جامعيّون ومدرسون... كان باستطاعة الجنرال المازح أن يتقفّى أبسط أثر للون الأحمر خاصّة أو الأبيض في أيّ من هؤلاء، فعيناه لم تكونا تشكوان من أية آفة تصيب البصر. لقد زركش لون الدم الساحات والشوارع والجدران والأسوار والشجر. وبقي هناك ليراه العائدون من جحيم مأمون ملحم. كان قرباناً أضحوياً جماعياً يقدّم لآلهة قديمة لا ترتوي قط، تطهّراً أملته ضرورة الاغتسال من رجس الشرق والغرب.

مساء اليوم الثالث، أعطى البلاغ ذو الرقم ٤٩ يومي عطلة آخرين للمواطنين «الكرام». حتى ذلك الحين لم يكن أحد قد فكّر في مصير الجثث: كانت هذه خطيرة وهي على قيد الحياة، أما وهي على قيد الموت فقد أضحت قمامة ثقيلة مزعجة. كان المرئيّ منها، الذي بقي فلم يحترق أو يدفنه أهله، مستلقياً بالمئات فوق دمائه الخاثرة، في الشوارع والجادّات والحارات والأزقّة والبيوت المهدّمة. وكان آخر ما فعله هؤلاء بعد موتهم هو أنّهم حوّلوا بعليتا من مدينة للعشاق والمشاوير إلى مدينة للأشباح والجثث.

لقد اعتاد الأهالي، والنيلوتيون كلهم طبعاً، أن يدفنوا موتاهم في قبور محفورة، ويهيلوا على التوابيت التراب. وكان محتملاً أن تغدو المدينة بصورة عفوية مثل هذه المقبرة، لو استطاع المقاومون الشعبيّون أن يقاوموا. لكنهم، لحسن الحظّ، توقّفوا أواخر اليوم السادس؛ ليس لأن اللواء مأمون تعب بل لأنهم ماتوا، معظمهم، وفرّ الباقي. وهكذا استطاعت حياة الملاح أن تبقى حيّة. لأنها في اليوم السابع قرأت اسمها في الجريدة بين من عفا الجنرال الجديد «عنهن» لأنهن: نساء. وقد أثبت بهذه البادرة المفاجئة أنه يمتلك قدراً لا بأس به من الشهامة: إنه يربأ بنفسه من النزول إلى مستوى مقاصصة النساء.

ولكن، الجثث. بعضها بدأ يتعفّن. وبعض الشوارع فاحت رائحته. وقد حذّر الأطبّاء الجنرال الجديد من انتشار الأوبئة. «ستعود بعليتا إلى أيام زمان، أيام التيفوس والكوليرا». غير أن الجنرال كان مهتماً بشيء آخر: عندما لا يعود ممكناً فرض منع التجوّل، سيهرع الأهالي بجنون، كل يحاول التعرّف على ميته، ويطمسون المدينة بالفوضى والعويل وربما بالمؤامرات الرخيصة. وكانت البؤرة الأشنع هي ساحة الدستور. رغم الفضول الشديد، لم يجرؤ أحد على دخولها. انغلقت على أربعين أو خمسين جثة، تراكم معظمها في الباحة، وبدا كأنها تأبّدت على شكل تلة صغيرة. وفي اليوم السابع صنعت لنفسها خيمة من روائح الجيف.

ثم جاء الحلّ. في اليوم السابع كانت الشاحنات المدنيّة والعسكريّة تمشّط الشوارع والبيوت المهدّمة، فتملأ صناديقها الضخمة بالجثث وتحملها إلى جسر مصعب السبئي. أوقفت المواصلات بين بعليتا وباب إيل لتتمكّن الشاحنات مُن الالتفاف وإدارة مؤخراتها نحو إفريز الجسر، لتفرغ في النهر الكتل البشرية المتخمّرة المتفسّخة. وكان النهر كبيراً حقاً.

وهكذا صار بوسع الجنرال الجديد (وهو لقب مجهول المصدر، صار خلال نصف نهار على كل شفة في بعليتا ولسان) أن يلتفت إلى أمور أخرى لا تقل خطراً: الكتب. بالطبع

أوقفت الصحف والدوريّات برمّتها في أحد بلاغات اليوم الأولى. وعندما حاول جابر شاهين تحدّي البلاغ ومتابعة إصدار (الصيحة)، قيّده رجال الأمن وسكبوا عليه البنزين فأشعلوه، ثم رموه في ساحة طاغور. وبالطبع مُنعت (نيوزويك) وصويحباتها من الصحافة البيضاء، والصحفيون كلهم، من دخول البلاد، ريثما تتمّ إعادتها من ضلالةاليساروالبمين إلى الصراط المستقيم. ومرة أخرى لاقى الاستخفاف بإرادة الجنرال جزاءه العادل في شخص كاراسكو تابيا. فهذا الصحفيّ القادم من أمريكا اللاتينية، الذي شاقه وأطربه ظهور النموذج العسكريّ اللاتيني في نيلوتيا، حسب أن بوسعه مراوغة الجنرال والدخول إلى الأتون البعليتي دون أن يحترق. وكانت النتيجة أن ثلاث عشرة رصاصة أطلقت على رأسه الحليق.

لكن الكتب كانت الينبوع الأكبر للخطر. فهي بلا استثناء تتكلّم ذات اليمين وذات اليسار. ألم تكن الكتب هي السبب في ظهور شمداوي والسنجاري؟

لم تكن الكتب مشكلة. إنها بطبيعتها جثث. كل ما تتطلّبه هو شيء من البنزين ورصاصة، أو عود ثقاب إذا شئنا التوفير. الإحراق وليس الإغراق. فالكتب قد تطفو وتحملها المياه إلى الكورنيش، بعكس الجثث، التي إما أن تجد مثواها الأخير في القاع أو تنجرف نحو نيلوتيا الشمالية إلى البحر.

بعد عرس الدم أقبل عرس النار. جيء بجميع ما في المكتبات الجامعيّة والمدرسيّة والحكوميّة والحزبيّة، وما في دكاكين الورّاقين، وأحرق في الساحات، أو على أطراف المدينة. كان الإحراق يتمّ نهاراً بالطبع، درءاً لاستغلاله في الليل. لكن كميات الكتب، وحجوم النيران التي أيقظت فينا نزوعات جاهلية غابرة، جعلا الحرائق تستمرّ حتى انبلاج الليل لترسل ألسنتها الثعبانية العابثة في هباب غيهبه السخيم.

ثم هوجمت بيوت الأساتذة والمثقّفين والمقاومين الشعبيّين ـ بحثاً عن الكتب. لقد أراد الجنرال الجديد أن يُفني حتى الورق، ليسوّر بعليتا بعدئذ بحزام أمني كتيم يقيها شرّ الكتب طوال أربعين عاماً (وهي الفترة التي قدّر أنه سيعيشها بعد استلامه السلطة)، وقدوته في ذلك ما فعله النبي موسى لبني إسرائيل في صحراء سيناء. ليست أربعون عاماً زمناً طويلاً، وخاصّة بالنسبة إلى شعب يريد جنّة الوسطيّة بعد أن حاول اليسار واليمين إفساده بتلال من الكتب الصـفراء منذ عهد الباشا الرئيس والحرب العالمية الثانية.

مرة أخرى لم تكن ثمة حاجة إلى مقبرة. مع بداية الأسبوع الثالث «للثورة» صار بوسع الجنرال الجديد أن يتفرّغ لهمّ قلبه الحقيقيّ الخاصّ. لقد تم القضاء على «كل شيء»

تقريباً. الذين فاتتهم شفرة الموت (لأمر ما أو لخطأ في الحسابات أو تراخٍ في العزم) غدوا المصدر الرئيسي لعبارة سرعان ما علقت أيضاً على كلّ شفة ولسان: «خذوهم إلى التلال». حتى الأمّ المرعوبة من انفلات ولدها في الشارع أضحت تخيفه للتوّ: «يأخذونك إلى التلال!».

إن أحداً لم يحص عدد المرميين هناك. أجل، كانوا بالآلاف. رقم مذهل ـ ليس بسبب قدرة الجنرال الجديد على الاعتقال، بل بسبب قدرة التلال على الاستيعاب. من كان يظن أن تلك الأعماق الرحميّة لحضارتنا الخالدة يمكن أن تتّسع لهذا العدد الهائل من المعتقلين؟

انقضى الشتاء كئيباً وجافاً ذلك العام. ولحق به الربيع دون أن تختلج بعليتا بأية نبضة تخالف مشيئة الجنرال الجديد. دخلت كلمة «الثورة» في مفردات حديثنا اليومي. كانت تعني النظام والاستقرار والانضباط، وإلغاء الديمقراطيّتين البرلمانيّة والنقابيّة، ورفع حصّة الدولة من أرباح مزارع القصب والقطن، وإلغاء سندات تمليك الأرض التي أعطاها السنجاري للفلاّحين، وإنشاء تلفزيون محلّي يعرض على «الجماهير» نشاطات «الثورة».

غير أن الكلمة بدأت تعني لدى هذه الجماهير أخباراً غامضة حيناً، متقطّعة حيناً آخر، عن الهمّ الحقيقي لقلب مأمون ملحم. كان طبيعياً أن يعشق محافظ كفرطيبا السابق المرأة التي عشقها جميع الرجال وعشقت الكثيرين منهم. لقد سمع تفاصيل أخبارها وسيرتها من فم السنجاري نفسه، عندما التقاه في كفرطيبا خلال عهد المارشال الرئيس، وصارا صديقين حميمين. هناك، داخل معتكفات عابقة بالأخوّة والأمل والإرادة، حيث انتقل السنجاري من مخبأ إلى مخبأ ليضلّل عسس المارشال الرئيس، كان ذهن مأمون ملحم ينتقل من أفق إلى أفق وساحة إلى ساحة، مع بلاغة السنجاري الفكريّة وبساطته اللغوية. بعليتـا، ونيلوتيا، وتلال الحضارة الجديدة التي ستتسامق على امتداد النهر الكبير في النصف الثاني من القرن العشرين، والشوارع التي ستخلو من العنف والتسوّل والغربة خلوّ شوارع الغرب من السلام والمساواة والإخاء. صحيح أنه كان أحياناً يحسّ بشيء من تعب مفاجىء يحمله بعيداً عن السنجاري، لكنه كان دائماً يعود إليه في الفرصة التالية حاملاً الزاد للسياسيّ المتواري وشوقاً متجدّداً إلى حكايات فيضة والتقدّم والحضارة. كان طبيعياً أن يندهش من ذلك الجمال وينشبق لرؤية ذلك الجسد، وطبيعياً أن يتابع فيضة ليرى كيف يزداد جسدها عنفواناً وعقلها تشتّتاً، فيغدو غير طبيعيّ الهوى الذي اجتاحه إليها وتلبّسه وشرّش في عروقه. لقد أحسّ أن مرضاً سكنه.

لذلك كان لا بدّ من أمريكا. هناك حيث تلاشى التعب، وأقبل وعي بأن سبب التعب أفكار لوثاء عن اليمين واليسار لم يكن ليلتقي بها لدى زملائه الأمريكيين في الثكنة والشارع. لقد شاهد أناساً سعداء يعيشون بلا أفكار، ولكنهم يعيشون. وكان ذلك النمط من الحياة هو ما جعله يكره شمداوي والسنجاري معاً، وبصورة خاصة السنجاري، الذي جعله بطريقة ما يعتقد أنه لن يظفر بفيضة قطّ.

لقد أعدّ العدّة لذلك اليوم الأغرّ من حياته بسرّية وإتقان وحزم. وفيما يعيد مع الشركة العالميّة صياغة العقود القديمة لتتقاسم بعليتا معها الأرباح مناصفة، كانت أعماق قلبه تنتظر اللحظة التي يرى فيضة فيها ماثلة أمامه بين قوس إشبيليّ من الجنود. هذا القلب تحوّل إلى جعبة لدنة متموّجة انعقدت فيها الأهواء حتى غدت كعقدة الأفاعي. وراقب، بفزع حيناً وبهمجيّة شبقة حيناً آخر، الاندفاعات البركانيّة العنيفة لأهواء توشك أن تحمل كيانه برمّته على كفّها الناريّ. ليس فقط هواه الأسود القطرانيّ نحو فيضة، بل ونحو أشياء كثيرة: قدرة بابكر عبود على احتقار الرجال، الديمقراطيّة التي أوصلت شمداوي إلى الحكم، قدرة السنجاري على سحر الرجال بحيث أوصلوه إلى الحكم، فيضة نفسها التي شاءت ألاّ تختاره هو رغم عشرات الرجال الذين اختارت، وفوق هذا كلّه الهوى الفاسق ضدّ ما يوشك أن يزلزل العالم في عينيه. إذ يتكلّم في اليسار تارة واليمين أخرى. لقد أمضى في الولايات المتحدة ستة أشهر، لم يجد فيها يميناً هناك ولا يساراً. لم يجد أياً من هذه الأهواء السّكينية لتقطع نياط قلبه بشفرات صراخها. فلماذا تحلّ اللعنة فقط على بعليتا. لماذا تُبتلى باليمين واليسار وهي منذ بدء الخليقة أمّة وفيقة؟

وقد اقتادوا فيضة إليه. أدخلوها قاعة رئاسة الأركان وأجلسوها حيث أشار لهم. نظر إليها من تحت سقف سدارته بعينين لبنيّتين، وأطلق العنان لذلك الهوى فسمع من سكاكينه صوت الخفافيش الهائجة وهي تشطب على عروقه وأعصابه. في البدء كان الخوف، ومن هذه المرأة بالذات. لقد نظر إليها ذات يوم ورأى أن وجهها حسن، ثم خاف من أن يقول: ليكن عشق. وها هو ذا يرى، والعشق الذي نما رغم إرادته بات يفترسه، أن خير وسيلة لطرد الخوف منها هي أن يمتلكها. ومن هو المارشال الرئيس، ومن هو شمداوي، ومن هو السنجاري! لقد مات الأوّل بحسرته إليها، ومات الثالث ممسوساً بها. أما الثاني؟ لا يهمّ. المهمّ أن مأمون ملحم سيمتلكها.

« هذه هي فيضة »، قال لقادة الأسلحة الذين حضروا إليه لأجل المناسبة. وأضاف: « هذه هي كل ما بقي من السنجاري. ماذا تقترحون؟ ».

استداروا إليها بأحناك متهدّلة وابتسامات رخوة. ونظرت هي إليهم دون أن تراهم، فابتهجوا: كانوا جماعة تكره أن تتفحّصها العيون، وتضطرب من الرؤية المتبادلة. جلست على السجادة، مضمومة الراحتين في الحضن، مثل كلبة تنتظر أمراً أو إشارة ولا تعرف من الذي سيعطي الأمر أو الإشارة. وبدا من وجوه ناظريها أن لديهم اقتراحاً جماعياً واحداً، غير أنهم التفتوا إلى رئيسهم منتظرين إعلانه لذلك الاقتراح.

نهض اللواء مأمون ووضع راحتيه في زنّاره الخلفي. منذ سنوات قديمة، قال هو لجلسائه، صنعت فيضة للسنجاري أسطورة. الآن يجب تحطيم تلك الأسطورة. «وإذا لم نحطّمها، حطّمتنا. تذكرون ما حلّ ببابكر عبود، لأنّ فيضة امتنعت عنه؟» عندما يعرف الغادي والبادي أن فيضة صارت محظّية رجال العهد الجديد، فسيدفن مع السنجاري شرفه وأسطورته. «فيضة ستسكن في شقّة، دي لوكس، ونحن... سنكون قريبين منها».

عادت الابتسامة الرخوة إلى وجوه الرجال. وعادوا يتأمّلون جسد فيضة اللافح وشعرها المجدليّ. كيفما تحرّكت، برز لقوامها شكل جديد، وبرز على جباههم تأثيره الضراميّ. لم تتكلم، وهكذا أراحت أذهانهم من اللغة. لم تنظر إلى أحد في وجهه. كانت خاضعة، جاهزة. وكانوا سادتها المؤكّدين. لم تر منهم وجهاً فيمكن وصفه، أو أمارة فيمكن استقراؤها. وكيف كان لأحد منهم أن يعرف، في ذلك المساء المشعشع بالأنوار والشهوات، ماذا سرح وجرح وراء وجهها الأهبل الفاتن الذي تمنّوا علك شفتيه بأسنانهم؟

لم نعرف ماذا حدث بالضبط. لقد تمّت المحاولات في تلك الشقّة المجهولة الموقع والدروب. ولولا زيارات مصعب المروّعة الثلاث إلى المسكن الخرافيّ جمالاً وأثاثاً، لما عرفنا أية تفاصيل. ولكن أنّى لمصعب أن يتذكّر. الساعاتِ الأولى الغافلة، التي أنسته المكان بسعادتها، ثم الساعات التالية التي جعلت المكان كلّه، والزمان أيضاً، مقترنين بالهول - تلك الساعات، كيف لأحد أن يدخل فيها؟

لكننا سنبدأ بالترتيب.

بعد أيام من نقل فيضة إلى الشقّة زارها مأمون ملحم. كانت النساء المتخصّصات في التزيين والتضفير والتبريج قد لفّقن سيّدة القصر العصري في ملابس شفقيّة فأحلْنَها إلى مهرجان صبابة وشهوة. رآها مصعب، ولم يطق متابعة النظر إليها. أحسّ بقلبه ينفجر. لكن الجنرال، الذي كان رجاله ذلك اليوم يعدمون بأمره الناس ويحرقون الكتب، أحسّ بقلبه يغور ويضمحلّ، وهو يتملّى جمالها السافع وعينيها الكهرمانيّتين. لقد ألبسها نمطها

الأنثويّ العريق كي يراها شهرزاد لائقة به، فأحسّ إزاء صمتها وغيابها أن عليه أن يروي لها الحكايات.

أمضى معها خمس دقائق فقط، ثم لم يستطع الاستمرار .وجد نفسه محكوماً بهذه التي بدت كاهنة قدسيّة تنظر في الفضاء المطلق فتحيله إلى ذرة طائرة، هو الحاكم بأمره في بلاد مساحتها نصف مليون كم² وعدد سكانها خمسة عشر مليوناً. سألها أسئلة قصيرة قليلة عن راحتها، فلم يتلقّ جواباً، وعاد.

كان «شباب» العقيد المنجي قد بثّوا في بعليتا إشاعة نصف قويّة، نصف مفصّلة، غموضها أقوى ما يدفع الأهلين إلى تصديقها: لقد غدت فيضة عشيقة الجنرال الجديد. وكان على بعض التفاصيل أن تظهر لكي يتأكد للخيال أن ما ينسجه ثوب فعلي للحقيقة.

بعد أسبوع مضى الجنرال إلى فيضة عازماً على صنع تلك التفاصيل، وتزويد رئيس مخابراته بها. كان حليقاً، معطّراً تماماً، كامل الأناقة. وعندما بدأ ينضو ثيابه، راحت هي تخرج من غلائلها. لكنه، مرة أخرى، لم يتجاوز خمس دقائق. استسلمت فيضة كجثّة. سوى أن واديها السحريّ ظلّ مقفلاً. وقد حقن انغلاقه عروق الجنرال الجديد، لخبط خلايا عقله: كيف يمكنه أن يبثّ شيئاً من الحياة في هذا الجسد المتجثّث؟

في تلك اللحظة، من بين اللحظات كلّها، هتف له وزير الداخلية من غرفة أخرى في المعبد السرّي وأعلن أنه قادم إليه ولو كلّفه ذلك القدوم رأسه. خلال ثوانٍ، وفي الغرفة الأماميّة، دخل إليه هذا الضابط الأشعث الأحرن ممتقعاً لاهثاً:

«الجثث، سيدي، الجثث. عشرات الجثث».

«أيها البندوق! جثث مَنْ يا مجنون؟ والديك؟ أهلك؟»

«لا، لا، سيدي. جثث، جثث بالعشرات. على شط النهر».

«أنت متأكد أنك مستيقظ، ولست واقعاً في مغنطيس درويش من الداراويش؟ عن أيّ شيء تتكلّم يا مجنون؟»

«سيدّي، عن الجثث عن الجثث. التي رميناها في النهر».

«ما لها؟»

«خرجت إلى الشاطىء، سيّدي. خـرجت من النهر. بالعشرات».

«خرجت من النهر بكامل ملابسها وأناقتها، أم بمايوهات سباحة، يا ترى؟»

«لا يا سيدي، لا. خرجت بملابسها. مثلما رميناها».

ضحك الجنرال الجديد، رغم قتامة الموقف. وبإشارة من يده قال لأحمقه الوزير:

«أعيدوا رميها في الماء». لكن مزاجه كان قد اعتكر. وفكّر أنه لن يكون بوسعه أبداً أن يمدّ أصبعاً إلى فيضة وهو بهذا التشوّش. إن ذهنه يوشك أن يماثل ذهن أحد اليساريين.

مرة بعد مرة، كان السبب نفسه يضع نهاية لمحاولات الجنرال الشبقيّة. ومرة بعد مرة كان يقتلعه غضب ماحق. غير أن الغضب كان ينفث في الوقت المناسب ويترك لمأمون ملحم ذلك الشعور الغريب بالرضى والراحة، بالخلاص، بأن حبه للتوسّط، بين أقصيين هما الشهوة والواجب، قد انتصر مرة أخرى.

لكن سبباً طارئاً آخر جاءه الآن يحمل أخباراً غامضة عن نشاطات تفجيريّة متكرّرة يقوم بها ضبّاط هاربون من جيوش بعليتا وعمريت وبيت رع، في مناجم الذهب. كان الخبر عنيفاً. ولأنـه كذلك، آثر الجنرال الجديد أن يرميه وراء ظهره. لقد جاء إلى الحكم ليوقف العنف، لا لكي ينجذب إليه ويغرق في دوّامته، ليرميه وراء أفق بعليتا ويستبدله بمحطة تلفزيون جديدة تبثّ الأغاني والمهرجانات والأناشيد الوطنية. «هذه مشكلة عمريت والمخاة. خارج حدودنا، نحن لا علاقة لنا بهم. المهمّ ألا تتعطّل طرود الذهب والدولارات من السلطان ناعوس».

«لكن نيلوتيا وطن واحد سيدي»، قال أحد وزرائه البلداء.

«لكننا لسنا الدولة الوحيدة فيها»، أجاب سيادته.

ومضى إلى فيضة. هذه المرة لن يتراجع، قال لأعصابه. وبذل جهداً قاسياً ليبدو ذلك الرجل التوفيقيّ الذي بثّ التلفزيون صوته وصورته. كان لون الأحمر الشفّاف على جسدها القمحيّ عنيفاً هو الآخر، فاستنهض في خلاياه زخمها الجنسيّ الأقصى. ولبّت المرأة جميع مقارباته. فهمت منذ اللحظة الأولى. تخلّصت من ثيابها القليلة قطعة قطعة، مثلما تفعل راقصات البطن في الحفلات المستعرة. ثم همد جسدها. تمدّد على السرير الدائري كلبن خاثر. ترك لجسد مأمون ملحم أن يسرح ويرمح على امتداد المساحات والجوانب، والنهود والوهاد.

لكن مأمون ملحم لم يكن سعيداً. بلغ سيله زباه وهو لما يزل يبرعط في الفضاء. أحسّ بعصارة جسده تتقطّر على القماش، فشخر قليلاً وحمحـم. ثم أقبل بعزم متجدّد شكس. هجم. أحسّ أنه ما يزال يبرعط، ولكن ليس في الفضاء بـل في لـزوجة بـاردة هلاميـة، هـي جسد فيضة السائل الذي يغور ثم يعيد تجميع نفسه. كل شيء في ذلك الجسد كان طريّاً ومنسكباً، سوى المجمر المنجميّ في المعبد المقدس: ذاك ظلّ صلباً كالصوان، مقفلاً كاللغز، بعيداً كالمنجم.

بعد جهد متواصل عنيد ومخاطبات متقنة، تعيّن على مأمون ملحم أن يعترف أنه لن يستطيع ولوج المنجم إلا إذا نسفه على طريقة طاهر العطا ونذير النميري. غير أن هذا كان مستحيلاً. لقد صار هو ديناميتاً وفتيلاً صاعقاً، وقنبلة، وقذيفة صاروخية. لكن فيضة لم تكن هناك. ببساطة، لم تكن هناك. فكأن مأمون ملحم يتخبط ويتقلّب على سرير خاوٍ بانتظار مجيء الذي لا يأتي. وعندما زعم لإخوانه في المجلس العسكري أن العملية قد أنجزت، وقدّم بعض التفاصيل، كان خوفه من أن ينجح «الثاني» حيث أخفق هو أضأل بكثير من ثقته بأن أحداً لن ينجح في اختراق تلك البوّابة المنيعة.

لقد أعطاه ذلك المآل فرصة للالتفات إلى ظاهرة أخرى رأى أنها ربما سبّبت له إحراجات خطيرة. تلك الجثث عادت إلى الظهور على شطّ النهر. تمدّدت هناك بين الرصيف والماء غير عابئة بالبلاغات العسكرية ولا بأيّة من لياقات الحياة المدنية. كانت كتلاً ثخينة منفّرة، لها شكل المزبلة ورائحة النتن المميت وانتفاخات الأشباح. لقد خضع الأحياء كلّهم في بعليتا لما يبثّه التلفزيون والصحافة، فما بال هؤلاء الأموات يأبون الانجراف مع تيار النهر الكبير، والتلاشي بعدئذٍ في البحر! حتى الأسماك لم تجد فيهم لقمة سائغة، على ما يبدو. إنهم يحضرون إلى الشاطىء الجميل بكامل ملابسهم التي ماتوا داخلها، كأنهم قادمون إلى حفلة ساهرة سوى أنهم يتمدّدون هناك، تحت الشمس والقمر، غائبي الوعي تماماً عن الذاكرة المندثرة التي يبعثونها حيّة.

وهو لن يتسامح في هذا الشأن. لقد اضطرّ إلى العنف مرة ليوقف العنف. وهو لن يبالي باضطرار ثانٍ. يقول له «الشباب» أيضاً إن الأهالي بدأوا يقتربون من الكورنيش بفضول خطر. صحيح أن الروائح تردّهم، لكنها لن تفعل ذلك طويلاً. ومما لا شكّ فيه أن لكل عائلة جثّة يمكن أن تكون بين العائدين إلى بعليتا. إذا كان أعداؤه الخفيّون قد أفلسوا فراحو يستعينون بالجثث، ينتشلونها من قاع النهر كما ينتشلون حقدهم من قاع الذاكرة، ويمدّدونها هناك، دون أن يراعوا حرمة الموتى أو تخفق قلوبهم من خشية الله، فهو يعرف كيف يبطش بهم يمين يسار بضربة لا تبقي ولا تذر.

لم يعثر العسس والغطّاسون على ما يؤكّد شبهات اللواء مأمون. كانت الجثث تطفو من تلقاء ذاتها، كإنما بإرادة داخليّة، كأنّ الشاعر قد عنى الموتى وليس الأحياء عندما قال إذا الشعب يوماً أراد الحياة، ثم تقترب من الشطّ، ثم ترتمي هناك وتبقى. لم يكترث اللواء مأمون بهذه النتيجة الساذجة. أعداؤه يعيدون تجميع أنفسهم. وهم الذين يسعّرون ضده هذه الحرب الرجيمة. لقد مضى شهران الآن على آخر حملة جرّدها عليهم. وعلى ما يبدو

فإن أحداً منهم لا يريد الحلّ الوسط والبقاء على قيد الحياة. حتى الرياضيّون والكشافة باتوا متورّطين في هذه الحمأة.

دونما إبطاء، أعطى أوامره بأن تهاجم الأوكار والبيوت المشبوهة كلّ أسبوع، وفي أوقات مباغتة. ولم يخطر له بالطبع أن يجد مدفناً آخر سوى النهر للذين أسرع الرصاص بإرسالهم إلى بارئهم. وفيما راحت إشاعة اتخاذه فيضة خليلة له ولضباطه تتفشّى في المدينة مع ما تستولده من مشاعر الاشمئزاز، أخذ الناس يهرعون إلى الكورنيش وقد تغلّب فضولهم على اشمئزاز مماثل أحسّوه تجاه روائح النتن والزناخة، وألوان الازرقاق العتيم.

في البداية لم ير مأمون ملحم مشكلة كبرى في ذهاب الأحياء إلى لقاء الموتى على الخطّ الفاصل بين الماء واليابسة. لقد أصدر بلاغاً يمنع الناس من الوصول إلى الشاطىء تحت طائلة الموت رمياً بالرصاص، وانتهى الأمر. فيضة هي التي شكلّت التحدّي الأكبر. واحداً بعد الآخر، استسلم الرجال لعجزهم عن اقتحامها. وفي جلسة خافتة الأصوات، بدأت بحديث العجز إزاء الجثث، وجد الرجال أنفسهم يعلنون عن عجزهم مع فيضة أيضاً: الأموات يأبون أن يغيبوا، وهي تأبى الحضور. نثروا آراءهم وتفاسيرهم على طاولة الويسكي التي جمعتهم في النادي. وساعة انضمّ إليهم اللواء مأمون كانت تحليلاتهم العلميّة والمنطقيّة قد أوصلتهم إلى خاتمة برهانيّة قاطعة. «فيضة ليست امرأة أصلاً. لم تعرف النسوة إلا أيام فيضي السعيد». «بعد أن صار لها ولد، خلص، عادت إلى عقمها، وانتفاء الجنس منها». «هي شكلها شكل امرأة، لكنها في الحقيقة خنثى».

«هذه هي الحالة الوحيدة التي أكره فيها الحلّ الوسط»، قال اللواء مأمون. «إذا كانت فعلاً خنثى، سآمر بإعدامها».

وكان في كلامه ليس فقط رنين عقل مستسهل للموت بل وبارقة عزم مضمر، آثر على ما يبدو الاحتفاظ به لنفسه. إنه لا يحبّ الآراء الجارفة ولا الصمت الكهين. أو لم يكن لهذا السبب أن الأمريكيين سمّوه: الرجل السويّ؟

في المساء التالي تحمّم وتطيّب وتهندم، ومضى إلى فيضة. شاهدته فمدّت يدها إلى إزارها لتحلّه وتفكّ زرّيه. رفع اللواء كفّه بإشارة «لا». نظرت إليه بدهشة هادئة لإنسان عاقل. وبادلها هو دهشة بدهشة: لقد رأته أخيراً، وبدت عاقلة تماماً، مدركة، حصيفة، بل وحكيمة أيضاً. إن هذا سيسهّل مهمّته. جلس إلى جانبها على الكنبة (كان هو الذي أمر بجعل الألوان الخضراء أساساً في تزيين الشقة) وسألها عن ابنها. خفقت أجفانها بضع ثوان، ثم تكلمت. ثم نهضت. لم تكن قد تكلّمت له من قبل. ولكن ها هي ذي تحضر

الآن. انفتحت شفتاها وخرجت منها اللغة. وكذلك وجهها، ويداها، وجسمها.

انتصب هو ووقف أمامها. هذا الضعف السميح الذي تندّى به كيانها جعل يديه تمسكان بزنديها: «تريدينه هنا عندك؟ أنا آتيك به».

«لا يعطونه لأحد. لا يفرّطون فيه».

«من هم هؤلاء؟ قولي وأنا آتيك برقابهم».

«هو ليس ولدي. أنا وهبته لأوزيري. هو ليس ولدي. وعمريت».

أدرك الجنرال الجديد أن فيضة عادت إلى التياث عقلها. نظر إليها بابتسامة متواهنة حائرة. «إذا أردت أن تعمل معروفاً، ابعثني إليه. تعبت من هذا المسكن. ابعثني إليه». أحسّ أنها صارت الآن بعيدة عنه مئة ألف فرسخ. إنه لا يحب التطرّف. فكرة الانسحاب التي خطرت له كاستجابة سويّة للموقف بدت أكثر من ضربة قاصمة للفلسفة التوفيقيّة التي آمن بها: أن يترك فيضة وشأنها يعني تطرّفاً ما بعده تطرّف وتسامحاً تخاذلياً مستحيلاً مع ذكرى السنجاري وفيضي السعيد.

شدّها إلى صدره. «تكرم عينك. لكن اصبري عليّ قليلاً». وفجأة وجد كل منهما نفسه يضمّ الآخر ويعانقه. كانت لحظات حميمة نافرة، توائم غير منتظرة للحظات الشكّ والعنف والرفض التي أنجبها زمنهما المشترك. لقد أحسّ الآن أنه فعلاً يضمّ امرأة إنسانة، وليس عاهرة خارجة عن حدّ الوسط.

محمولاً بهذا الشعور انساحت يداه على ظهرها. في تلك اللحظة لامست يده حوضها الكبير، وأحسّ أنها لُفحت بالنشوة. انبلج في خاطره بارق خاطف أنها الآن انسجمت وستستسلم، ستنصاع. كامرأة حقيقية. وفي اللحظة التوأم أحسّ أولاً بذراعيها يصيران ماء، ثم بجسدها كله.

وسأل الجنرال نفسه ما الخطأ الذي حدث فجعل فيضة تبتعد عن الخطّ الوسط؟ أحسّ أن البارق انطفأ، وأن بارقاً آخر سطع مكانه كاشفاً عن حلّ مثالي لهذا التضارب بين زمن الجنرال الجديد وزمن المرأة النهرية. وسرعان ما تلوّى البارق الثاني في عين خياله وانعطف ليخطّ كلمتي: مصعب السبئي. وعندها تفكّك ذراعاه عنها، واستدار مبتعداً.

تذكر الجنرال أن لديه في التلال سجيناً اسمه مصعب السبئي، شاعراً حديثاً من نوع ما، كان مجرد فتى عندما منحته بطاقة الدخول إلى منجم النشوة والسعادة. مصعب السبئي هو الحلّ.

في قرى بعليتا، يعرف الفلاّحون جيّداً كيف يشكمون المهرة، كيف يجعلونها تتأيّن

فتلين فتنخّ أمام الحصان المناسب الذي يعرف كيف يستنفر مهبلها. مهما انتظروا، فلا بدّ أن تأتي أخيراً تلك اللحظة التي لا توأم لها، التي تجعل كيان المهرة بأجمعه يصرخ طالباً من الحصان الدخول.

فكيف إذا كان الحصان شاعراً، وكانت المهرة فيضة؟

خبر صغير جاءه به العقيد المنجي جعله يؤجّل الخطّة الشعريّة مع مصعب. أحد الأهالي تعرّف على جثّة ولده. كيف حدث ذلك، ليس مسألة صعبة. لقد تسلّل تحت وابل الليل إلى الجثث، وقبع هناك تحت وابل من الجنون. وفي الصباح تعرّف على جثة ولده عند الكورنيش، في البداية، لم يتعرّف إلى الجثّة. طبعاً، فهي فاقدة لملامحها. لكنه، لأمر ما، بإلهام ما، مدّ يده إلى جيب السترة، وهناك وجد الهويّة النقابية. إنه ولده.
«وماذا يعني؟ ماذا حدث؟»

حمل الرجل جثّة ابنه، وعبر بها حزام رجال الأمن. «اقتلوني، أو آخذ ولدي فأدفنه». ويبدو أنه خاطب في الحرس إنسانية متطرّفة لا تعرف الخطّ الوسط بعد، فتركوه يمضي. لكن دفن الجثة أقام الحارة والحيّ، ولم يقعدها. لقد هبّت الجماهير للتشييع، الرجال والنساء والأطفال. وهبّت المدينة. «وأنت تعرف. نحن لا نستطيع شيئاً ضد المقدّسات».
«من هم هؤلاء الحمير الذين غفلوا عن الرجل وتسلّله؟»
«سآتيك بأسمائهم. لكن التسلّل هذا، لن يتكرّر».

كان اللواء مأمون يحبّ الحياة. لذلك رمى في بحر نسيانه بحادثة هذا الرجل، والتفت إلى مصعب السبئي. «فيضة مشتاقة لك»، قال له دون أن ينظر إليه. «ونحن حريصون على أن تشعرها بسعادتها.. وأنوثتها أيضاً».

ثم أدخل الشاعر المبلبل إلى جناح المرأة الساهية. للتوّ أحسّ أن كلام اللواء صحيح. لم يعرف، أكانت تلك البشاشة والحنان والتفتّح له شخصياً أم لوجه رأته هي وأنست إليه دون أن تعرفه. لقد نادته باسمه، ولكنها نادته باسم طاهر أيضاً، وفادي، ومرعي، وفيضي، ودارم.

ولم يكن مصعب ليستاء من تبدّل أسمائه. كانت تلك هي المرة الأولى التي يلتقيان فيها منذ ذلك الصباح الحزين قبل نصف عام. وبلا زمن أحسّ أن جسد فيضة، معبدها وقدس أقداسها، يجهش بالبكاء لكل تلك الاسماء، وعليها، ومنها. وفي وسط ذلك الفسطاط الشاسع، المحوط بستائر من المرايا، شاهد فيضة ونفسه وهما يصدران إلى المرايا

الحائطية اثنين فقط وينعكسان عشرات وعشرات داخل ذاتيها وأعينها. كانت هي قصيدة وكان هو كلمات القصيدة. وتحت تلك الخيمة من أشعة قمر شاعر تعانقا، فيما الأصوات الوحشيّة في الخارج تتكسّر على ظهور المرايا وترتدّ إلى أصحابها.

وهل كان ممكناً، حتى في الزمن المستحيل، في الزمن الذي لا يوم فيه ولا ساعة، أن يخطر لسلالة القمر والشمس، وما بينها من عواصف وأماطير، أن مصعب السبئي سيُلتقط وهو داخل قدس الأقداس، ويسحب كمسار صدىء خارج القاعة والمرايا، ويُرمى عارياً بين أعين الحرس البليـدة البادرة، كي تحلّ محلّه كتلّة لحم منتبجة حملت رتبة جنرال، وسُمّيت مأمون ملحم؟

يومها انفجرت أعصابه كاللّغم.

في المرّة الثانية أخبروه أن عليه أن يكرّر ما فعله في المرّة الأولى إذا كان راغباً في إبقاء رأسه فوق كتفيه. وفي المرّة الثانية أخبرته فيضة أنهم لم يستفيدوا شيئاً من المرّة الأولى. لقد انقفلت. منذ ذلك الصباح الحزين وهي مقفلة. وستظلّ مقفلة. إن لجسدها إيقاعاته الخاصّة التي لا تأتمر بمحرّض خارجي.

كان مرتاعاً ـ خائفاً، مذعوراً، مروعاً، مرعوباً. وكان يريد أن يقول لا. أكان ضرورياً لمأمون ملحم ان يمتحن كرامة مصعب السبئي هذا الامتحان المدمّر؟ إنه لن يستطيع أن يقول لا، ولن يستطيع أن يقول نعم، ولن يحظى برضى مـأمون ملحم لوقوعه على هذا الخط الوسط.

وحقاً، فعندما أعلن فشله المؤكّد بعد ساعتين من التقلّب على الجمر، لم يصدّقه أحد. لقد نجح في المرة الماضية فكيف يفشل الآن. قال لهم إن فيضة قد كشفت اللعبة، وإنها ليست من نوع البشر الذي يتنازل كرمى لأيّة غاية أو رجاء. لم يصدّقوه. وفي المرة الثالثة، جاءوا به إلى غرفة خاصّة لم يرها من قبل. هناك شاهد حياة زوجته، ملفّعة بالأحمر الشفاف، نصف دائخة. لم تره. كانت تمشي من جدار إلى جدار بعصبيّة يائسة. رآها بملابس فيضة ووسط المرايا نفسها. وقالوا له إنه إذا لم يكسر أقفال فيضة، فسيجعلونه يرى تكسيرهم لأقفال زوجته. كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى حياة فيها منذ ذلك الصباح الحزين. وبعدها دخل إلى فيضة.

أجل. لقد انهار على صدرها، وبكى كوليد رضيع. إنها لن تعي شيئاً، فقد كانت على الدوام وراء معاييره البشرية وفوقها. لن تعي هذا الخيار الرهيب الذي وضعوه فيه. وهو لا يريدها أن تعي. إنه لم يميّز يوماً بينها وبين حياة. لقد كانت المرأتان بالنسبة له

امرأة واحداة، دائماً. وها هو ذا يقع في حمأة شطرهما إلى اثنتين وتحطيم إحداهما لإنقاذ الثانية. إن عليه أن يهرب، أن يظل يبكي حتى تَتجمّع حوله بحيرة تغرقه وتريح المرأتين منه.

لكن هذا لم يحدث. عندما أغمي عليه، التقطه رجال الجنرال كمسمار صدىء، وأخرجوه. في أحد الأبهاء دفقوا عليه مياهاً غزيرة. انتفض. نهض.

لم تدم يقظته طويلاً. بعد أن كمّموه وشدّوا وثاقه، أدخلوه غرفة حياة. وكان حسناً أن يمتلك المرء نعمة الإغماء قبل أن يرى اللواء مأمون ملحم وهو يغتصب زوجته.

حين بدأ الجنرال الجديد يعتبر استعصاء فيضة واحدة من خوارق الطبيعة، ويرى أنه لن ينال السنجاري من هذه البوّابة، انتبه إلى حقيقة سخيفة حقاً، وإلى جهل بها أسخف منها. لقد مات السنجاري! مات وشبع موتاً. في ذلك اليوم صار جثّة. والجثّة تفحّمت واحترقت. أليس تطرّفاً، بحقّ السماء، هذا الجهد المصرّ على تحطيم اسمه؟ تسعة أشهر حتى الآن، وهو وراء هدف غبيّ، لكأنه فعلاً ليس سوى واحد من اليساريين.

تسعة أشهر ـ لكن الجثث الأخرى ظلّت مصرّة على تعكير صفوه. إنه ليس بليد الحسّ، ولا شحيح المشاعر، لكي يجهل أو يغفل عن الجوّ الكئيب الذي فردته الجثث كملاءة عبر سماء المدينة. حقيقة الأمر أنها مشكلة صلبة. ويبدو أنه لا بدّ من استشارة الأمريكيين، وطلب معونتهم.

وقد استجاب أبناء العم سام، بأريحيّتهم العريقة وكرمهم الفطريّ، إلى طلب الجنرال. لكنّهم نصحوه بأن يفعل شيئاً يدخل البهجة إلى نفوس المواطنين، ريثما يتمكّنون من دراسة الظاهرة الجيولوجية الغريبة لخروج الجثث من الماء.

وهكذا أمر الجنرال بتسيير دوريات موسيقية في شوارع بعليتا. وخلال زمن قصير، راحت كآبة المدينة تضمحلّ أمام المارشات العسكرية المظفّرة التي تعزفها الفرق البعليتية الجوالة، وأغاني الزنوج الزرقاء التي تعزفها فرق أمريكية عريقة في مسارح بعليتا وحدائقها العامة.

لقد استمتع الجنرال نفسه بعذوبة الألحان والأنغام. وكان طبيعياً بالتالي أن يستمتع المواطنون الكرام بهذه الموسيقا السخيّة نفسها. العقيد المنجي قال له إن هذا قد حدث فعلاً. ثم جاءه بعد أيام بخوف معاكس. قال إنه لا يستطيع تفسير الأمر، غير أن الحقيقة هي أن الموسيقا قد دفعت المواطنين الكرام إلى البحث في جيوب الجثث. هو نفسه شاهد أحد هؤلاء المواطنين يندفع بهاجس عنيف مفاجيء، فيمدّ يده إلى جيب سترة إحدى

الجثث ويخرج حافظة صغيرة. تلك الحافظة احتوت على الهويّة المدنيّة للجثّة، ولم تكن قد تلفت بعد: هوية أخيه.

هذا الحادث تكرّر عدة مرات، قال العقيد المنجي. والغريب في الأمر، الغريب والفظيع والذي لا يصدّق، أن كلّ هذه الجثث تحمل هويّاتها. كأنها كانت تتوقّع يوماً كهذا، يتعرّف فيها الأحياء على الأموات، كما كان المصريّون القدماء يعتقدون، ويقيمون لهم المآتم اللائقة بتاريخ بشريّ عريق. ومن ذا الذي يستطيع منع إقامة المآتم؟

ليس فقط أن هذا اليمنيّ الأخرق، المتشبّع بعشق مرعب للجثث، حمل شقيقه في سيارة أجرة، وهو يمطره بالصراخ والعويل والعناق، وأنه أوصله إلى بيته فأقام الحارة والحيّ في مناحة فجائعية مدوّية، وإنما أيضاً أعطى إيعازاً لمزيد من الحمقى المتشبّعين بعاطفة نكراء مماثلة تجاه الجثث، للبحث في الجيوب، ولاكتشاف الهويّات، ولصنع المناحات.

إن أحداً لا يستطيع منع هؤلاء الأغبياء الأحياء من التسلّل إلى شاطىء النهر، وتعريض حياتهم لرصاص يحيلهم إلى جثث جديدة. كان مهماً جداً وضع حدّ لازدياد الجثث. إن أوكار المقاومين الشعبيين أكثر بكثير من أن تنتهي. وليس ثمة شيء من نوع «افتح يا سمسم» يمكن أن يدكّ أبوابها وحيطانها. لا شيء سوى القنابل.

فماذا يفعل اللواء مأمون ملحم ليروّض شعباً يقبل على الموت بهذه الشهيّة؟

لقد بدأ بأن جعل رجاله يجرّدون الجثث الجديدة من هويّاتها فور قتلها. وكان أحياناً يتأكّد بنفسه من أن القتلى الذين يرميهم الرجال عن الجسر لا يحملون أيّما وثيقة تدلّ عليهم. وبالطبع، أتلفت الهويّات والوثائق في محرقة صُنعت خصيصاً لها.

لكن البلاء الأعظم كان الجثث نفسها، الجثث التي ترفض المكوث في قاع النهر الكبير أو الانجراف الطبيعيّ مع مياهه. لم يكن اللواء مأمون متطيّراً ولا غيبيّاً. لقد تعلّم في الولايات المتحدة أن جميع ظواهر الطبيعة قابلة للتفسير العلميّ. وها هو ذا يجتمع إلى فريق عمل أمريكيّ، مجموعة من العلماء والباحثين في الجيولوجيا والإيكولوجيا والتيّارات المائية والغوص والأسماك والجغرافيا النيلوتيّة، ويطلب منهم توكيد سيطرة العقل الأمريكيّ والتكنولوجيا الأمريكية على الظواهر الطبيعية تلك.

كانت مهمّة هؤلاء يسيرة نسبياً. منذ بدأت البواخر الضخمة تعبر النهر الكبير، صار كل شيء عن خصائصه وتحركاته معروفاً. ومن الطبيعيّ أن لا تستعصي هذه الجثث على قوانين نيوتن وأرخميدس.

بدأ الغوّاصون بمواكبة الجثث الهاوية من عند الجسر. وكانوا من الإنسانيّة بحيث اكتفوا بعدد قليل من القتلى كل يوم (من خمسة إلى عشرة) ،يرافقونهم داخل الماء إلى ما يجب أن يكون المثوى الأخير، ثم يراقبون تحرّكاتهم بصبر ودأب. وقد رافقهم علماء التيارات المائية، الذين انتشروا داخل النهر على امتداده الطويل بجوار بعليتا. وفيما راح علماء البيئة والتربة والحيوانات النهريّة (لماذا لم تتعرّض الجثث للنهش والالتهام؟) يتابعون برنامج عملهم، تضاعف نشاط الفرق الموسيقيّة في الشوارع والمسارح والحدائق العامّة. حقيقة الأمر هي أن الموسيقا حوّلت بعليتا إلى مرسح كبير لعيد نيلوتي دائم. وكان احتفالها بالحياة يتواشج مع احتفال أهاليها بالموت واحتفال الجنرال بمصير الجثث. لقد جاء وقت، والعلماء الأمريكيّون مستغرقون في مهمّاتهم، أوشكت المدينة فيه أن تخلع رداءها الطبيعي وتلبس أردية الجنون واللاعقلانية والتخريف.

وإلا فكيف يستطيع عقل محايد أن يجاور في لوحة وعي واحدة أنغام الموسيقا وعويل النائحين، الجثث النتنة والعازفين المعطّرين، الجوقات الصائلة في الشوارع والجنازات الجائلة؟ لقد بلغ التداخل حدّاً جعل النقائض تلك تندرج في تركيب جديد لم يخطر على بال. فما إن تخرج الجنازة إلى الشارع العامّ حتى تلتقي بجوقة وتمشي وراءها. خلال دقائق، تنضمّ أعداد من المشيّعين، تتزايد وتتزايد حتى تملأ الفراغ بين الجنازة والجوقة التالية في الخلف. فكيف بعد هذا لا يؤمن اللواء مأمون بأن التوفيق والوسطيّة هما خير الأمور؟

غير أن اكتشافاً جديداً جعل الجنرال الجديد يفقد التوفيقيّة العصبيّة في بدنه، ويستشيط غضباً. العقيد المنجي هو الذي اكتشف السرّ. كان يمشي متخفّياً على امتداد الكورنيش. وخطر له أن يتابع متسلّلاً راح يفتّش بين الجثث. شاهده وهو يقلب الأبدان المرمية بين الماء واليابسة، ويشمّ رائحتها، ثم يرتدّ بعنف إلى الخلف، وما يلبث أن يتمالك نفسه ويعود إلى مدّ أنفه فوق الجثث. تابعه العقيد المنجي بفضول. انتبه إلى أنه لم يمدد يده إلى جيبه. ولكن، ها هو ذا يهوي على أحد الوجوه الخضراء، ويعلي صوته بالعويل والصياح، ثم ينهض حاملاً الجثّة بين ذراعيه، فعلى كتفيه، وهو ما يزال يعول ويصيح. كان مشهداً تمثيليّاً، بالتأكيد. لقد جاء ليلتقط جثّة، أيّة جثّة، وينتحل لها قربى الدم، ليقيم جنازة بعد ئذ ،ويبقي الموتى في ذاكرة المدينة. وهؤلاء الذين هرعوا إليه، يشاركونه حمله الثقيل - مؤكد أنهم متواطئون أوغاد.

قبع العقيد المنجي في مكمنه. تركهم يمضون بميّتهم. بعد دقائق حدث ما توقّعه. العمليّة نفسها تكرّرت، هذه المرّة دون شمّ روائح أو تفقّد موتى. بلا تلكّؤ، اختطف المواطن جثّة، حملها، وراح يعول ويندب: «أبي! أبي!».

كيف يبطش اللواء مأمون بهذا الانحراف البعليتي الجديد عن خطّ الوسط؟ التسلّي بالأموات لمقاومة الثورة! النواح المجانيّ على مجرمين! الانصراف الجنونيّ عن شؤون الحياة وبناء الوطن إلى شؤون الموت وتهديم الوطن!

كانت نتائج استكشافات فريق العمل الأمريكي محبطة للآمال: ليس ثمة محاولات بشرية لجرّ الجثث إلى الشاطىء، وليس ثمة تفسير برهانيّ للظاهرة. كلّ ما يسعهم هو أن يفترضوا تشكّل دوّامات مائيّة متنقّلة، تحمل الجثث داخلها وتتحرّك كخذورف طائش نحو الشاطىء.

في فورة حيرة ويأس وغضب، قرّر الجنرال الجديد زلزلة أوصال المدينة بعقوبة عظمى لعهرها الجديد. هذه المرة سيتّخذ قراراً يعيد لذاكرة هؤلاء الذين فاقوا الدراويش في جنوحهم النفسيّ أن في بعليتا ثورة، وأنه هو، اللواء مأمون ملحم، زعيم هذه الثورة. يجب أن تعاد تربية المواطنين الكرام. لقد راح كل انسان، حياً أو ميتاً، يمشي في الاتجاه الغلط، ويمشي بطريقة تتحدّى العقل والتاريخ ـ فيضة، والموتى، والمشيّعون، كلّهم، كلّهم باتوا يتحرّكون أمامه وكأنهم قادمون من عالم آخر، كأنهم رموز، أو أشباح، أو ألغاز، رموز لتخبيل عقله. وهو لن يسمح بتخبيل عقله. إنه ضدّ الأشباح وضدّ الألغاز وضدّ الرمزية.

في الصباح التالي كانت الإذاعة والصحيفتان اليوميّتان تخبران المواطنين الكرام بالإنذار الحاسم الذي وجهّته الحكومة لساكنات وعليتا. على هؤلاء أن يتبن إلى الله تعالى ثم يجدن لأنفسهن زيجة أو عملاً آخر، لأن وباء الحيّ، الذي يحتجّ عليه الأموات من قاع النهر الكبير، سيُزال بعد أسبوع، كي تطمئنّ أرواح الموتى إلى نظافة مدينتهم الروحية. إن بلاداً تمتلك ذرّة من الشرف لا يمكن أن تعطي ترخيصاً قانونياً للعهر والبغاء.

لقد اعتادت المدينة أن تخصّص لوعليتا فسحة صغيرة في وجدانها ذي النظام الأخلاقيّ المتسامح العريق. بشيء من التغاضي نظرت إلى ساكناتها ككائنات مجنّحة سقطت. ومنذ عهد الباشا الرئيس، بدا للأهلين أن شيئاً ما قد راح يستنبت لهنّ ريشاً جديداً يجعلهنّ في مقدمة مظاهرات سياسيّة واجتماعيّة عديدة. لكن الناس، وقبل أن يستوعبوا تماماً ما يجري، تراكضوا الآن عبر الأزقة والشوارع إلى ذلك الركن الأهدأ في المدينة كلها. أحقاً سيفعل الجنرال الجديد بالبيوت ما فعله بالبشر؟

هناك شاهدوا البلدوزرات وهي تغوص في الجدران الطينيّة السعيدة وتقضمها بأسنانها. حتى البناء القرميديّ، الذي شيّد وعشرات غيره كما لو أن وعليتا ستبقى إلى

الأبد، تداعى وصار أثراً بعد عين. وبعد أيام هجم على مخيلة الناس شكل جديد للمدينة، شكل غريب صادم، ينحفر ويتوغّل في الذاكرة مستدعياً أشتات صور ماضيات ليلصقها جزءاً بجزء فتكتمل أخيراً صورة ذلك الطفل ذي الفجوة الفاغرة في صدره التي كان الهوام والحشرات تدخل إليها وتخرج منها في ساحة الشهداء.

كان ما توقعه اللواء مأمون صحيحاً. لقد استطاعت المداهمات العنيفة المحكمة أن تقتنص ثلاثة ضبّاط صغار (ليسوا صغاراً تماماً: مقدّمان ورائد). وبامكانات العقيد المنجي في الاقناع الحتميّ، اعترف هؤلاء قبل أن يُعدموا بأنهم في المدينة لتنفيذ البند الأول من مؤامرة تستهدف الإطاحة بنظام الحكم.

هكذا وبكل بساطة: الإطاحة بنظام الحكم.

كان ذلك أواخر الشتاء. لقد جاء ذلك الفصل شحيحاً بمطره، مثقلاً بشعور الناس أنهم أُنهكوا واستوحشوا. صار اختفاء أيّ مواطن يعني ببساطة أنه مات. وصارت المدينة مهدّدة بوباء تلوّثي تنتحه جثث القتلى. وصار الموت سيرة يومية بدأت بالرعب والفجيعة ووصلت الآن إلى الذهول والقدر. أيّ مكان من هذه الأرض الطيّبة الطيّعة لم تنزل عليه دفقة دم؟

كانت طقوس التعذيب الذاتي، التي أبدها تجلّي الجثث، تزداد ضراوة وإيلاماً كلّ يوم. حتى الجنرال الجديد بات يحسّ بالرهبة المشمئزّة. إن عينه لم تغفل عمّا بوسع هذا العذاب أن ينقلب إليه من انتقاميّة كاسحة.

صمود فيضة، انغلاق حوضها الكبير أمام جحافل الشهوات الضارية، وانفتاح حوض النهر الكبير عن الجثث المتكلّمة، أمسيا حديث البلاد التي لم تتوان يوماً عن صنع أساطيرها. حتى باب إيل بعثت إلى اللواء مأمون احتجاجاً قوياً ضدّ «بعض ممارسات السلطة البعليتية التي أدّت إلى تلوّث البيئة النيلوتية».

لكن الحدث الذي وقع كهزّة أرضية وانتشر بحجم الأسطورة، كان منشوراً غطّى جدران الأزقّة والشوارع الفرعيّة. جماعة ما، وربما أحزاب أيضاً، سمّت نفسها «المجلس الثوري لتحرير بعليتا»، وألصقت منشوراً سرّياً لا يستر لحكم اللواء مأمون عورة.

دعا المنشور «جماهير بعليتا المناضلة» إلى سلسلة من الاضرابات داخل المدارس والمعامل ومؤسسات الدولة. وما كان اللواء مأمون ليأبه بهذه التحرّكات البهلوانية، فقد حصدت رشّاشاته زعماء المضربين، وعُلّقت جثثهم بكلاّبات معدنيّة قويّة في ساحتي الشهداء والنجمة. الذي أقلقه حقاً هو النصائح الودّية التي أزجتها له الصحافة البيضاء

باتباع شيء من المرونة إزاء جيرانه وخصومه السياسيّين «في هذا البلد الذي لا يشغل فحسب موقعاً قويّاً بل ويتزعّم النضال النيلوتي ضدّ الشيوعيّة العالمية» - كما قالت الواشنطن بوست. ليس أنه حفل بقطع الدول النيلوتيّة علاقاتها الدبلوماسيّة معه (ظلّت أقراص الذهب تأتي من عمريت)، أو بظهور المزيد من المواطنين الكرام الجانحين يساراً أو يميناً، بل تلك النبرة في صحافة العالم الحرّ التي تضمّنت بلباقة صفراء أنه خرج عن الوسط في فلسفته التوفيقيّة وتطبيقاتها.

ولقد أمضى الأسابيع التي اختتمت الشتاء وافتتحت الربيع وهو يفكّر في كيف يكون مرناً مع جيرانه الصلبين وخصومه الأشدّاء، دون أن يحيد عن صراطه التوفيقيّ. لم يصل إلى أيّ سبيل مفتوح. وعندما سمع أن الضباط الهاربين قد غادروا مواقعهم بين المخاة وعمريت قاصدين بعليتا، أدرك مرة أخرى أنه على حقّ أن القبضة الحديديّة هي وحدها التي تضمن الاستقرار والاستمرار لهذا البلد الأمين.

في ذلك الربيع قرّر إحراق الجثث على الشاطىء. كان قد سأل الشيخ السمنكي تفسيراً لهذه الظاهرة غير الطبيعية، فقرأ الرجل الشهادتين وآية الكرسي، وأخبر الجنرال أن الله على كلّ شيء قدير. لم يقبل الجنرال. طالب بتفسير أكثر تحديداً ووضوحاً، فهزّ الشيخ كتفيه وذكّر الجنرال بمعجزات الدراويش أيام سعد الله شمداوي. «أولئك كانوا أحياء»، قال الجنرال، «لكن الجثث ميتة». ومرة أخرى هزّ الشيخ كتفيه، قرأ الشهادتين سراً، وقال: «إن الله على كل شيء قدير».

وهكذا ظلّت النيران تندلع في عنان السماء شهراً كاملاً، على طول كورنيش بعليتا. ويا له عيداً ذلك الذي صنعه الجنرال الجديد فذكّرنا باحتفالات النيلوتيين الغجر بانبعاث أوزيري.

كانت نساء الضبّاط والزعماء الهاربين قد ألفن زيارة حياة الملاّح. بعد البلاغ العسكري الخاصّ بها وحدها، وبعد انهيارها العصبيّ ومصعب معها، أمسى منزل أمّ مصعب - حيث أقامت وأولادها - محجّة صغيرة، زاوية تهجّدية لقلوب زائراته المتعبة، تبتسم فيها امرأة تعهّر بها رجال اللواء مأمون فجعلوها في أعين الناس قدّيسة صغيرة. أكثر النساء ضنى كانت زوجة بدر الهلالي، الجميلة التي زادها الحزن جمالاً والشحوب شفافية. وكانت أيضاً أكثرهن تلقّياً للرعاية والحب. فالاحتمالات كلّها أشارت بصمت إلى أن هذا الضابط المجسّد لعصر الفروسية والروح النيلوتية قد قضى نحبه.

ظلّت مسآتهنّ جميلة وحميمة رغم الألم الخبيء. على نحو ما بات اغتصاب الجند لحياة

يجعلهن أكثر تقبّلاً إنسانياً لها. وقد تدرّجت أحاديثهن من الشكوى والطبخ والأولاد إلى سؤال هنا ورأي هناك حول السياسة والحكم والثورة. وإذ ظهر المنشور الأول، كان بوسع كلّ منهنّ أن تبتسم بصمت بارق لذلك الأمل الذي بثّته حياة في نفوسهن، والذي أكّده المنشور. ثم رحن يقرأنه في وجوه بعضهنّ بعضاً، وفي وجوه الناس، ووجوه النهر والسهول والمدائن. وقد وجد سعدون في اجتماعهنّ المسائي راحة ثمينة له من عناء زيارته المفردة لكل منهنّ: لقد أخذ على عاتقه منذ قيام الثورة التوفيقيّة أن يكفيهنّ عناء تأمين الحاجيات، ويأخذ أولادهنّ إلى الحدائق العامّة في نهاية الاسبوع.

ذات مساء جاءت النهاية الحاسمة لكل هذه اللقاءات والأحاديث والمشاوير. أقبل رجال الجنرال الجديد، والتقطوا النساء وسعدون معهن. رموا الجميع في شاحنة عسكريّة. «خذوهم إلى التلال»، صاح الضابط المكلّف بالمهمّة، وأسرع يمتطي سيارته. وكان ذراعا عاصف السبئي يشدّان أختيه بقوة ويمنعانها من البكاء بصوت مسموع.

منذ عام تقريباً علم اللواء مأمون علم اليقين أن ساعة الصفر قد حُدّدت. وكان الحدس أوّل ما أخبره. لقد جعله تناسل الجثث يؤمن بأن ثمة أرواحاً غير بشريّة تتقمّصها وتحملها من النهر إلى البرّ، وأن تجلّيها على هذا النحو نوع من الكشف عن أسرار وغيوب، ورموز كونيّة. وكان كلما تطرّق إليه الشكّ في بلباله وهاجسه، عزّزت فيضة حدسه ورؤياه. فهذه المرأة الصوّانية ليست أقل من مرفأ ترسو فيه ملايين الجنّ والعفاريت، يتكدّسون حول حوضها تكدّس الإسمنت داخل العوارض. إنها ليست بشراً، بل هي تجسّد، وتجلّ، وقوّة ظلماء، وشيفرات مطلسمة ـ رمز شرّير.

الآن وقد كفّت الجثث عن الظهور، ظهر الخونة والمارقون. ومذ ترك فيضة لتسبح كالشبح في ظلام شقّة مرتجّة الأبواب والشبابيك، راحوا هم يسبحون كالخفافيش في ليل المدينة وأحلامها. منذ عام، جرّد كل سلاح في الجيش من ذخيرته وغيّبه في المستودعات الاسمنتية المسبّعة الأقفال. إنه لن يسمح بتكرار تجربة الغوغاء وقطعات الأقاليم العسكرية مع بابكر عبود. «يأملون بالتسلّل إلى الوحدات واحتلالها. تعالوا إليّ إذن أيها الأغبياء».

وقد انكشفت المعادلة التوفيقيّة للناس تماماً: سلاح بلا ذخيرة ولا جيش، ذخيرة بلا جيش ولا سلاح، جيش بلا سلاح ولا ذخيرة. فبعدكم سنة يا ترى يستطيع هؤلاء الضبّاط أن يقوموا بانقلاب عسكري؟

خلال عام كامل استقطرت الذخيرة استقطاراً: من مخازن نعمت بشيء من الغفلة، وبواريد منسيّة، وحرس قبضوا ثمن القنبلة خمسين قرشاً، ومناورات عسكرية على حدود

المخاة. ثم جاء أخيراً ذلك الغلس الذي تسلّل فيه بدر ونذير ومخيبر ورفاقهم (بقي طاهر العطا يتابع التفجيرات في المناجم) وأخذوا بهدوء وترحيب قيادة القطعات المحيطة بالعاصمة.

في غلس العاشر من أغسطس / آب تحركت الفصائل المسلّحة إلى بعليتا. إحداها قبضت على رئيس الوزراء، وثانية احتلّت مبنى الإذاعة والتلفزيون، وثالثة قيادة الشرطة، ورابعة قيادة الجيش، وخامسة مبنى الهاتف الآلي، وسادسة المصرف المركزيّ. وتولّى بدر الهلالي قيادة قوّة مصفحة اخترقت شوارع المدينة بيسر إلى منزل اللواء مأمون ملحم. هناك صافح قائد مفرزة الحرس، ودخل الاثنان إلى غرفة نوم الجنرال فأيقظاه.

دار بؤبؤا مأمون ملحم في محجريهما أربع مرات قبل أن يتعرّفا على الضابطين اللذين انتصبا ووراءهما ثلّة من الجنود. «أنت المقدّم بدر الهلالي! أخيراً اعتقلوك؟»

«العقيد بدر الهلالي، سيدي. أستحقّ ترفيعي منذ مطلع العام».

قبل أن تنزل ساقا الجنرال عن سريره انجلى له الأمر. تابع نهوضه. وإذ واجه الضابطين وجنودهما كانت يده تتقدّمه بمسدس اثني عشريّ الطلقات. «ارفعوا أيديكم! ما الذي جاء بكم إلى هنا؟ نقيب بندر، تكلّم!».

كان يرتدي بيجامته الحريرية على اللحم. لكن الحرير لم يستطع أن يبرقع البدانة المترهّلة التي تكوّمت في عنقه وثدييه وكرشه. وتساءل بدر الهلالي بصمت: كيف يمكن لهذه الكتلة الرخويّة أن تحتوي على شيء صلب مثل عشقها لسفك الدماء؟ ثم هتف: «لا حاجة بك للصراخ يا سيدي. لأن مسدسك فارغ، ولأنك وحدك الآن. البلاد كلّها تستعدّ لاستقبال شمس الحرية. إذا قاومت، ستصير بإذن الله آخر جثّة ترمى في النهر الكبير. لا يجوز أن يتزنّخ بك تراب الوطن الطاهر. إننا نخيّرك: إلى أيّ بلد تحبّ أن تُرسل..».

انطلقت الرصاصة من مسدس الجنرال واستقرّت في بطن بدر الهلالي. ثم دوى انفجار الرصاص. شقّ الجنرال طريقه بين الجثث الجديدة التي تهاوت. تعثّرت قدمه بجثة النقيب بندر المتدحرجة، فشتمها ورفسها. لكن قدمه علقت، التوت، دارت، ودار هو معها دون أن يعي ما يحدث. سقط. وسقط فوقه النقيب بندر.

في حوالي الثامنة كان المجلس الثوري يجتمع في رئاسة الأركان. وكان نذير النميري يقول بنشاط ووضوح: «خلّونا نخلص من شغلة البلاغ رقم واحد هذه. خبر وحسب. في صدر نشرة الأخبار».

لكن حتى الخبر لم يعد غير شكليّة ضروريّة. كانت بعليتا قد خرجت كلّها إلى الشوارع لتقيم للمرة الثانية منذ سقوط المارشال عيداً نيلوتياً لم يعرفه أجدادنا من قبل.

أم لعلّهم عرفوه؟

يتبع: التّلال

رواية ثانية

٣ ـ علي بابا والأربعون سمساراً

٤ ـ الأصنام.

مؤلفات الدكتور هاني الراهب

المهزومون (طبعة جديدة)
ألف ليلة . . وليلتان (طبعة جديدة)
الوباء (طبعة جديدة)
التلال

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص. ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف:
نجاح طاهر